

أبو نواس  
في حياة اللهية



بشار

# الكاف

عبد الرحمن صرقي



اشتريته من معرض بغداد الدولي للكتاب  
مكتبة دار الحرم - مصر

عبد الرحمن صرقي

يوم الأحد ١٩ / ربيع الأول / ١٤٤٦ هـ  
١٥ / ٩ / ٢٠٢٤ م

م. سمر حاتم شكر السامرائي

# الحان الحان

المهندس سمر حاتم شكر السامرائي - Sarmed- Twitter: @sarmed74

قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: [https://t.me/Tihama\\_books](https://t.me/Tihama_books)

دار المعارف بمصر

١٩٥٧



هذه صورة شاعر من أكبر شعراء العربية في ساعات لهوه ، وما كانت لتعطينا  
لولا ما أوحى إليه من روائع فنه . فإذا نحن قصرنا القول هنا على مجالس شرابه ،  
ومن حوله غلماناه وقيانه ، فذلك أن الخمر كانت عروس شعره ، بل هي شيطانه .

### شخصية الشاعر

ولم يكن أبو نواس بدعاً في شربه للخمر ، ولا في تغنيه بها فقد شربها  
قبله وبعده الناس في كل أمة ، وتغنى بها قبله وبعده الناس في كل لغة . ولكنه  
مع عدم استثارة بشر بها ، وعدم اختصاصه بالتغنى بها ، ينزل في الأوهام عامة  
منزلة من ليس مثله شارب بين أصحاب الشراب المدمنين ، ومنزلة من لا يتقدم  
عليه شاعر ممن نعتوا الخمر في الأولين والآخرين .

فما عسى أن يكون السر ؟

أما نحن فلا نرى السر كله في إجادته لصناعة الشعر ؛ فما نرى له في ذلك  
الفضل الذي لا يطاول ولا يلقى نظيره ، على سائر من عداه من المجيدين الأقدمين  
والحديثين . والذي نراه أن هذا السر في شخصية أبي نواس نفسه . فالرجل  
لطيف الروح ، خفيف الظل ، ثم هو مشبوب الحيوية ، متيقظ الشعور بما  
يَرِد على حسه ، شديد الأنس بمن حوله ، في نفسه سخاء ، وفي طبعه مجاوبة ،  
مع التفات إلى مواضع الفكاهة وقصد إلى الدعابة . وهذا المزاج في الشاعر  
يطالعنا في شعره الغنائي الذي يجري فيه مع طبعه ويصدقنا فيه الخبر عن نفسه .



وليس شئ إلا عند صاحبنا أجرى مع طبعه وأصدق خبراً عن نفسه من حديث  
الخمر وما يتصل ببابها وينتظم في سلكها . وهذه الخمرات « ألحان الحان » دون  
سائر أبواب الديوان ، هي التي أحبها الناس من خلفاء وأمرأ ، وسادة وصعاليك ،  
وفقهاء وخلعاء . وقد كان الناس وما زالوا لا يروى أحدهم شيئاً من أشعاره ، إلا  
روى معها طرفاً من نوادره وأخباره . فالناس أجمعون يحبون في شعر أبي نواس  
— من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون — صورة أبي نواس نفسه . وهي  
صورة حية ما في ذلك ريب ، وإنها عندم لموضع موافقة وعطف من طلاب  
اللذة المساحين . كما أنها مستراد ترويح من وطأة الكبت عند التزميتين والمتحرجين .  
وهذه هي صورة الشاعر في غدوات لهوه وروحاته ، كما تتمثل لنا من مطالعة  
خمرياته

### عصبة المجان

كان أبو نواس يجتمع بمن لفت لفه من إخوانه الذين بسميهم مباحياً « عصابة  
سوء لا ترى الدهر مثلهم » مدفوعين بعضهم إلى بعض بتوافق أمرجهم ، وشاكلة  
طبائعهم ، واتحاد وجهة تفكيرهم ، ومطابقة نظرتهم جميعاً للحياة .  
وإنه ليحسن بالقارى في هذا المقام أن يذكر ما أستتبعه انفساح رقعة البلاد  
الإسلامية من اختلاط الأجناس ، وامتزاج الحضارات ، ومداخلة الثقافات من  
فارسية وهندية ، ويونانية رومانية ، تحت رواق الإسلام وفي ظله الممدود ، وما  
استبحر فيه المتكلمون المسلمون من البحث في العقائد الإيمانية بالأدلة المنطقية  
والبراهين العقلية ، واقتباسهم في المنطق والإلهيات من الفلسفة اليونانية في  
مقالاتهم ومناظراتهم الدينية . ثم ما أدى إليه هذا جميعه بين الباحثين المحققين  
من أرباب الاجتهاد وأصحاب المذاهب من اختلاف مطارح النظر ، وتشعب وجوه



الرأى ، حتى إذا كان العصر الذى عاش فيه شاعرنا لم يبق ثمة شىء من أمور الدنيا والدين لم يكن القوم فيه على آراء متضاربة وأهواء متعارضة ولقد كان لهذا الشقاق المستحكم واللجاج المستعمر فى الفرق الإسلامية والأحزاب السياسية ، وذهاب الخلف بينها كل مذهب ، وتفرق الطارق بها فى كل مفرق ، ما لا بد أن يكون من الأثر فى توليد نزعة الشك فى عقول الكثيرين من أهل ذلك الزمان . فما كان يصح عندهم نقل ، بغير سند من العقل . فإذا طلبوا السند للمقول ، حيرهم تكافؤ الأدلة المتعارضة فى المعقول . فنراهم يقفون من كل قضية موقف من لا ينفون ولا يثبتون . ونجد منهم من لا يقطعون فى شىء يتيقن إلا ما وقعت به التجربة المادية ، وشهدت له المشاهدة الحسية . ومن هؤلاء وهؤلاء من كان يدركهم اليأس أو الملل فينتهون إلى حال من خلو البال وقلة الاحتفال بالشواغل العامة كونية كانت أو محلية ، وشدة الإقبال وصدق الاشتغال بطلب اللذة الشخصية ، على حد قول بعضهم <sup>(١)</sup> :

قليلُ هُمومِ القلبِ إِلَّا لِلذَّةِ      يُنعمُ نفساً آذنتُ بالتنقلِ  
فإن تَطَلَّبهُ تَقْتَضِهُ بَحَانَةٌ      وَإِلَّا بِيَسْتَانٍ وَكَرِيمٍ مُظِلِّ  
ولستَ تراه سائلاً عن خليفةٍ      ولا قائلاً مَنْ يَعزَلُونَ وَمَنْ يَلِ  
ولا صائحاً كالغيرِ فى يومِ لذةٍ      يُناظرُ فى تفضيلِ عثمانٍ أو علي  
ولكنه فيما عناءٍ وسرٍّ ،      وعن غير ما يعنيه فهو بمعزلِ  
ومن هذا الفريق كان رفاق شاعرنا أبى نواس ، من كل ماجن ظريف ، وفاتك خليع ، مجاهر بالخلاعة والمجون ، سيئ المذهب متهم بالزندقة . وحسبنا فى نعمتهم أن نقول إنهم كانوا وشاعرنا على غرار أستاذه وصاحب الفضل فى إفساده والبة بن الحباب الأسدى ، وجماعته حماد مجرد ومطيع بن إياس وعبادة



وقاسم بن زنقة . ويلاحظ أن أبا نواس كان لا يذكر أساتذته هؤلاء إلا  
تمثلهم مترفعين عن الأشباه والأشكال ، كأنهم صور الكمال في عالم المثال .  
فلا يناظرهم مناظر ولا يتسوَّى بهم أحد إلا أنكر ذلك عليه :

يريدُ أن يتسوَّى بالعُصبة المُجَّانِ

بعَجَرِدٍ وَعُبادٍ والوَالِيَّ الهَجَّانِ

وقاسمٍ ومطيعٍ رَنجانة النَّدمانِ

والثابت من أخبار هؤلاء المجَّان أنهم كانوا أشد ما يكون الناس تعلقاً بعضهم  
ببعض ، يجتمعون على الشراب يتنادمون ، ولا يكادون يفترون . ولا يستأثر  
أحدهم على صاحبه بما احتوت يده من مال أو غيره ، وإنما كان كل ما عندهم  
شركة بينهم ، حتى الجوارى والغلمان ، في بعض الأحيان .

وكان عيشهم فوضى لا ضابط له من فرط الإباحة والاستهتار ، لا يهتمون  
لشئ ، ولا يباليون ما يقولون وما يصنعون ، هازلين بأوضاع الجماعة لا يرقبون  
الناس في أمر من الأمور ، همهم طلب اللذة ، لا يعرفون شأناً في الحياة لغيرها ،  
ويرون الحكمة في انتهاب الفرصة بمبادرتها .

ولقد التقى هوى أبي نواس وهوى إخوانه في طلبهم اللذة في الخمر . والخمر عنده  
اللذة العظمى التي ليس كمثلها لذة ؛ فهي في ذاتها أمتع الشهوات ، وبها تستفتح  
سائر اللذات :

إشربْ نديمي على العينين والراسِ كذاك ، واستفتح اللذاتِ بالكاسِ

بل إنه — في حبه لها — ليستغنى بها عن سائر اللذات التي يرغب فيها الناس  
وتشره إليها نفوسهم :

إعزمْ على سلوةٍ إلا عن الكاسِ ودعْ سواها من اللذات للناسِ

فالعيش في مجلس حُفَّت جوانبه بالنرجسِ الفُضِّ والنسرِين والآسِ

لا سيما إن أدارتها مُقرطقةً أو مُرهفٌ كقضيب البان مَيَّاسِ



## طروق الحانات

والقارىء لذيوان الشاعر يراه وإخوانه — وهم «فتية كنجوم الليل أوجههم» — وقد خرجوا جميعهم عصابة يطلبون بيوت الخمر ، فيؤثرون منها تلك الدساكر العامرة بانقصف واللهو والريبة ، وهى المبتوثة فى سواد بغداد وأرباضها بعيداً عن رقابة الشرطة . وإنهم ليرتادونها فى صدر النهار ، ويرتادونها فى غبش المساء ، ولكنهم فى الغالب الأعم بطرقونها وقد مضى من الليل أكثره ، حتى لينزعج صاحب الحانوت وتضطرب حواسه وينخلع قلبه من قرع الباب عليه فى مثل هذه الساعة التى لا يركب الليل فيها إلا الأشقياء من القتلة والصوص ونحيفى السبل . فإذا عرفوه من يكونون ، وأنهم يطلبون فى هذه الساعة خمراً ولا يجدون عنها صبراً ، سرى عنه وارفضت مخاوفه وزايله رعبه ، ولم يملك أن يستضحك من نفسه ومنهم ، حتى لتبدو نواجذه وتعلو قهقهته ، ثم يسرع إلى خدمتهم يستخفه الفرح وفى يده مسرجه :

وفتية كنجوم الليل أوجههم	من كل أغيد ، للغماء فرّاج
أنضاء كأس ، إذا ما الليل جنهم	ساقتهم نحوها سَوْقاً يازعاج <sup>(١)</sup>
طرقت صاحب حانوت بهم سحرأ	والليل مُنْسَدَلُ الظلّماء كالسّاج <sup>(٢)</sup>
لما قرعت عليه الباب أوجلّه	وقال بين مُسرّ الخوف والراجى <sup>(٣)</sup> :
« مَنْ ذا ؟ » فقلت « فتى نادته لذته »	فليس عنها إلى شىء بمنعاج <sup>(٤)</sup>
افتح ! » فقهقه من قولى ، وقال « لقد	هيّجت خوفي لأمر فيه إبهاجى »
ومرّ ذا فرّح ، بسعى بمسرجة	فاستلّ عذراء لم تبرز لأزواج <sup>(٥)</sup>

(١) النضو : المهزول ، وأنضاء كأس أى مدمنون للخمر قد فعل فيهم كثرة شربهم لها .  
 جنهم الليل : سترهم . (٢) الساج : جمع ساجة الطيلسان الواسع المدور .  
 (٣) أوجلّه : أخافه . مسر : مضمر . (٤) منعاج : منعطف .  
 (٥) عذراء : كناية عن الخمر المحبوبة فى الدنان .

مَصُونَةٌ حَجَّبُوهَا فِي مَخْدَرِهَا      عَنْ الْعِيُونِ لِكَسْرِي صَاحِبِ التَّاجِ  
يُدِيرُهَا خَنْثٌ فِي لَهْوِهِ ، دَمِثٌ      مِنْ نَسْلِ أَذِينَ ، ذَوْ قُرْطٍ وَدُؤَاجٍ <sup>(١)</sup>  
يُزْهِى عَلَيْنَا بَانَ اللَّيْلِ طُرَّتُهُ      وَالشَّمْسَ غُرَّتُهُ ، وَاللَّوْنَ لِلْعَاجِ  
وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِلَاقٍ شَعْبَ مُنْتَظِمٍ      إِلَّا رَمَاهُ بِتَفْرِيقٍ وَإِزْعَاجِ  
وَلَقَدْ تَكُونُ اللَّيْلَةُ مِنْ لِيَالِي الدَّجْنِ ، حَالِكَةٌ لَمْ يَطْلُعْ لَهَا نَجْمٌ ، قَارِسَةٌ شَدِيدَةٌ  
الْبَرْدِ ، تَرْتَعِدُ لَهَا الْفَرَائِصُ وَيَقْشَعِرُ مِنْهَا الْجِلْدُ ، يَلْتَحِفُ فِيهَا النَّائِمُ بِالصَّوْفِ وَيَلْزَمُ  
جَوْفَ الْفَرَاشِ ، وَلَكِنْ عَصَابَةُ أَبِي نَوَاسٍ لَا تَفْتَرِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنْ الْإِدْلَاجِ  
بِاللَّيْلِ ، يَحْجُسُونَ الدَّسَاكِرَ يَتَحَنَّنُونَهَا ، وَيَتَحَسَّسُونَ مَوْضِعَ الْحَانَةِ فَلَا يَتَحَقَّقُونَهَا  
فِي هَذِهِ الظُّلُمَةِ الْمُدْهَمَةِ ، وَأَخِيرًا بَعْدَ لَأْيٍ وَطُولِ التَّنَبُّاسِ يَقْعُونَ عَلَيْهَا . فَإِذَا طَرَقُوا  
إِلَى حِمَاهَا ، لَمْ تَهَرَّ عَلَيْهِمْ كَلَابُ الْحَانَ الْمُرْصَدَةِ وَلَمْ تَنْكُرْهُمْ ، بَلْ إِنَّمَا لَتَنْتَحِي  
عَنْ سَنَنِ الطَّرِيقِ لَهُمْ ، بَعْدَ أَنْ تَشَمَّتْ رِيحَهُمْ وَعَرَفَتْ ثِيَابَهُمْ . فَإِذَا طَرَقُوا عَلَى  
الْخِمَارِ بَابَهُ فَهَبَ مِنْ فَرَّاشِهِ مَتَزِمًا يَفْتَحُ لَهُمْ ، تَعَرَّفُوا الشَّيْخَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ الْحَالِكِ  
بِبَيَاضِ صَلْعَتِهِ وَشَيْبِ لَمْتِهِ :

يَارُبَّ صَاحِبِ حَانَةِ قَدْرُعْتُهُ      فَبِعَثَّتُهُ مِنْ نَوْمِهِ الْمَتَزَمِّلِ <sup>(٢)</sup>  
عَرَفَتْ ثِيَابَ الطَّارِقِينَ كَلَابُهُ      فَلَبِثْنِ عَنْ سَنَنِ الطَّرِيقِ بِمَعَزِلِ  
مَا زِلْتُ أُمْتَحَنُ الدَّسَاكِرَ دُونَهُ      حَتَّى نَزَلْتُ عَلَى خَفِيِّ الْمَنْزِلِ  
فَعَرَفْتُهُ وَاللَّيْلِ مُلْتَبِسٌ بِنَا      بِرَفِيفِ صَلْعَتِهِ وَشَيْبِ الْمِسْحَلِ <sup>(٣)</sup>

وهذه صورة أخرى لطروقهم الحانات، في أمثال هذه الليالي المدلهمة . والخمار فيها — مثله في سابقاتها — متوجس فزع قد أفرعه أن يُقرع عليه الباب بعد جمعة من الليل وفي المزيع الأخير منه ، فأوجس في نفسه خيفة أن يكون قد سُعي

(١) ابن أذين : خمار حانة قطربل . اللواج : ضرب من الثياب .

(٢) المتزمل : اختلف بثوبه . وصف النوم بالمتزمل يريد به صفة النائم .

(٣) الرفيف : اللعان . المسحل : جانب اللحية أو أسفل العذارين إلى مقدم اللحية .



به ورفع خبره إلى صاحب الشرطة . وإنه لأعرف بنفسه وبما يجري في حانوته من أن يطمئن باله ويهدأ ضميره من هذه الناحية . فهو — على تكرار القرع وشدة — متلبد تحت ملحفه ، متناوم في فرشه لا يبدي حراكاً ، يكاد يجمد دمه وتزهق روحه من الفزع ، وقلبه يتزو في صدره ولا يزال يقوم ويقعد حتى ليكاد ينخلع من نياطه وتنشق عنه أضالعه . ويظل صاحب الحانوت على هذه الحال من الفزع ، يسمع الدقات على بابه ، فتجاوبها الدقات الواجفة من فؤاده ، وتكاد تغلبها على سمعه ، ولقد يغلو به وهمه فيحسبها تجاوز الباب إلى أسماع الطارقين . . فإذا الطارقون دعوه باسمه دعوتهم المألوفة ، طار عنه ذعره وسكن روعه وهدأت ضلوعه ، وعرفهم حُرْفَاء من معامليه . فانقلبت مخاوفه أمناً ، واستبدل بها التهلل والابتهاج بالأجواد الزائرين ، والطرب والاستبشار بما تدره مثل هذه الزورات من الكسب العظيم .

وليلة دَجْنٍ قد سَرَيْتُ بفتيةٍ	تَنَازِعُهَا نَحْوُ المُدَامِ قلوبُ <sup>(١)</sup>
إلى بيت خمارٍ ، ودون محله	قصورٌ مُنِيفَاتُ الدُّرَى ودروب
فَفَرَّعَ من إدلاجنا بعد جمعةٍ	وليس سوى ذى الكبرياء رقيب <sup>(٢)</sup>
تناوم خوفاً أن تكون سعايةٌ	وعاوده بعد الرُّقَادِ وَجِيب <sup>(٣)</sup>
فلما دعونا باسمه طار ذعرُهُ	وأيقن أنَّ الرَّاحِلَ منه خصيب <sup>(٤)</sup>
وبادر نحو الباب سعيًا ، مُلَبِّيًا	له طَرَبٌ بالزائرين عجيب
فأطلق عن ناييه ، وانكسب ساجداً	لنا ، وَهُوَ فيما قد يظن مصيب <sup>(٥)</sup>
وقال : « ادخلوا حُيَّيْتُمْ من عصابةٍ	فمنزلكم سهلٌ لدى رحيب »

(١) الدجن : الغيم المطبق المظلم .

(٢) الإدلاج : السير في الليل . ذو الكبرياء : الله عز وجل . (٣) الوجيب : الخلفان .

(٤) طار ذعره : ذهب خوفه . أيقن أن الرَّاحِلَ منه خصيب ، أى أيقن بالكسب .

(٥) أطلق عن ناييه : ابتسم مكشراً عن أنيابه .

وجاء بمصباح له فأناره وكل الذي ينبغي لديه قريب  
 فقلنا: «أرحنا، هات إن كنت بائعاً فإن الدجى عن ملكه سيغيب»  
 فأبدى لنا صهباء تم شبابها لها مرح في كاسها ووثوب  
 ولقد كانت تغلب شهوة الشرب على صاحبنا في بعض الأحيان، فيعتسف  
 الليل وحده ليملاً الزق من الحان. وقد ترك لنا فيما ترك صورته، يمتار من الخمر  
 ميرته. ولم يبرأ أبو نواس في هذه الخمرية من إظهار نزعة العصبية والمفاخرة بالقبيلة،  
 وهي النزعة التي ما برحت الغالبة على القوم المستولية على أذهانهم المتمكنة من  
 نفوسهم، لافي زمان ومكان، بل في كل زمان ومكان، حتى في أوان طلب  
 اللذات في الحانات. وهذه العصبية القبلية التي كان للشعراء اليد الطولى في تأريث  
 ناراها وتهيجها بما يعرضون له في المديح والهجاء والفخر، بل في شعر الخمر كذلك،  
 هي التي قصت على الإمبراطورية العربية في المشرق والمغرب:

وخمارٍ طرقتُ بلا دليلٍ      سوى ربح العتيق الخُسرَوانى<sup>(١)</sup>  
 فقام إلى مذعوراً يلبي      وجونُ اللَّيلِ مثلُ الطَّيْلَسَانِ<sup>(٢)</sup>  
 فلما أب رأى زني أُمَامِي      تكلم غيرَ مذعورِ الجَنَانِ<sup>(٣)</sup>  
 وقال: «أمن تميم؟» قلتُ: «كلاً»      ولكني من الحىِّ اليماني<sup>(٤)</sup>  
 فقام بمبزلٍ فأجافَ دنأً      كمثلِ سماوةِ الجملِ الهِجَانِ<sup>(٥)</sup>  
 فسئلَ بالبزَالِ لها شهاباً      أضاءَ له الفُراتُ إلى عُمانَ

(١) العتيق الخسراني: الخمر المنسوبة إلى أكاسرة الفرس. (٢) الجون: الشديد  
 السواد. الطيلسان من لباس العجم يلبس على الكتف ويحيط بالبدن خال عن التفصيل والخياطة.  
 (٣) الزق: القربة من جلد يحجز ولا ينتف ويستعمل لحمل الشراب وغيره.  
 (٤) تميم، من القبائل النزارية، وأبو نواس من موالى الحكميين وهم من اليمنية: وكانت العصبية  
 لا تقتأ تهيج بينهما. ولأبي نواس هجاء للنزارية حبه الرشيد من أجله حيناً في المطبق.  
 (٥) بزل: ثقب. والمبزل كالمثقب آلة يثقب بها، ومثله البزال. أجافه: طعنه طعنة  
 بلغ بها جوفه. سماوة الجمل: ظهره وشامه. الهجان: الكريم من الإبل.



وإذا كان صاحبنا هنا يستدلّ في جوف الليل البهيم على حانوت الخمار بما يتضوع حولها من « ريح العتيق الخسرواني » ، فإنه ليهتدى عليها كذلك من « ضوء العقار » يشعّ من خلل تلك الدار :

وَحَمَارٍ حَطَطْتُ إِلَيْهِ لَيْلًا      قَلَائِصَ قَدَوْنَيْنَ مِنَ السَّفَارِ<sup>(١)</sup>  
فَجَمَجَمَ وَالْكَرَى فِي مُقْلَتَيْهِ      كَخُمُورٍ شَكَا أَلَمَ الْخُمَارِ<sup>(٢)</sup>  
« أَيْنَ لِي ، كَيْفَ صِرْتُ إِلَى حَرِيمِي      وَتَجَمُّ اللَّيْلِ مَكْتَحِلٌ بِقَارٍ ؟ »<sup>(٣)</sup>  
فَقُلْتُ لَهُ : « تَرَفَّقْ بِي ، فَإِنِّي      رَأَيْتُ الصُّبْحَ مِنْ خَالِ الدِّيارِ  
فَكَانَ جَوَابُهُ أَنْ قَالَ : « صَبْحٌ !      وَلَا صَبْحٌ سِوَى ضَوْءِ الْعُقَارِ »  
وَقَامَ إِلَى الْعُقَارِ فَسَدَّ فَاهَا      فَعَادَ اللَّيْلُ مُسَوِّدًا الْإِزَارَ

وهذا المعنى والذي قبله مجموعان في قوله :

نَمَتْ عَلَى نَدَمَانِهَا بِنَسِيمِهَا      وَضِيَائِهَا فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ

وظاهر من شعر النواصي أنه كان لا يحصل في يده قدر جليل من المال مما يصله به الممدحون ، إلا بادر إلى الخمار من ساعته ، ودفعه إليه بحملته ، ثمناً مقدماً للعقام والسكر شهراً بأأكله . وكأنما يخشى لو بقي المال في حوزته ، أن يتسرّب منه درهم على غير سكره ولذته . وظاهر أن سخاء شاعرنا ، وقلة حرصه على المال وهوانه عليه في جانب المتعة ، وتخرّقه في النفقة ، وخطل يديه بالنوال ، وسعة عطائه للخمارين ، كانت تشفع له في ترويعهم في جوف الليل وإزعاجهم من مضاجعهم بعد طول السهر . ففي كل مرة نرى الخمار المروع لا يكاد يشعل المسرحية ويتبين على ضوء النار صاحبنا حتى يستبدل بالروع ارتياحاً ، ويبدى نواجذه بشراً ومراحاً ،

( ١ ) القلائص : جمع قلوّص وهي الشابة من الإبل والباقية على السير ، ونين : تعين . السفار : السفر . ( ٢ ) جمجم الكلام : لم يبينه . الخمار : صداد الخمر . ( ٣ ) القار : الزفت .

وينكب له ساجداً ، يحتي مقدمه على السهل والرحب ، ويقوم بين يديه بالخدمة قيام الوامق المحب :

وأشْمَطَ رَبٌّ حَانُوتٍ تَرَاهُ      لِنَفْخِ الزَّقِّ مَسْوَدَّ السَّبَالِ <sup>(١)</sup>  
دَعَوْتُ وَقَدْ تَخَوَّنُهُ نَعَاسٌ      فَوَسَّدَهُ بِرَاحَتِهِ الشَّمَالِ  
فَقَامَ لِدَعْوَتِي فَزِعًا مَرُوعًا      وَأَسْرَعَ نَحْوَ إِشْعَالِ الذُّبَالِ <sup>(٢)</sup>  
فَلَمَّا بَيَّنَّنِي النَّارُ حَيٍّ      تَحِيَّةً وَامِقٍ لَطْفِ السُّوَالِ <sup>(٣)</sup>  
وَأَفْرَخَ رَوْعَهُ ، وَأَفَادَ بَشْرًا      وَهَرَهَرَ ضَاحِكًا ، جَذْلَانِ بَالِ <sup>(٤)</sup>  
عَدَدْتُ بِكِفِّهِ أَلْفًا لَشَهْرِ      بِلَا شَرْطِ الْمُقِيلِ وَلَا الْمُقَالَ <sup>(٥)</sup>  
فَظَلْتُ لَدَى دَسَاكِرِهِ عَرُوسًا      لِعَذْرَاوَيْنِ مِنْ خَمْرِ وَآلِ <sup>(٦)</sup>  
كَذَلِكَ لَا أَزَالُ وَلَمْ أَزَلْهُ      ذَرِيعَ الْفِعْلِ فِي دِينِي وَمَالِي <sup>(٧)</sup>

ويستوقفنا بعد ما طالعناه من قصائده في طروق الحانات ما يتكرر في كل قصيدة من وصف فزع الخمار واضطراب حواسه في كل مرة ، وكيف كان يدق قلبه وترتعد فرائضه لكل طريقة . ولا شك في أن بعض الخمارين كان خوفه من الشرطة ، ولكن الذي نرجحه مع ذلك أن معظم الخوف كان من قاطعي الطرق وأهل البطالة ممن يرتزقون بالتحرش بأصحاب الأموال والتعرض لهم بالأذى والنهب ، ويعرفون بالصعاليك والعتيارين . وكانوا كثيرين قد تألفت منهم في المدن ، ولا سيما بغداد ، عصابات . وكانوا لا يستخزون مما يأتون ، بل يجاهرون بحق الفقراء في الأخذ من الأغنياء عنوة وغصباً . وقد بلغ من اشتها

( ١ ) السبال : مفردة السبلة ، ما على الشارب من الشعر ومقدم اللحية . ( ٢ ) الذبال : مفردة ذبالة ، وهي فتيلة المرسجة . ( ٣ ) الوامق : المحب . ( ٤ ) أفرخ روعه : ذهب خوفه .  
هرهر ضحك في الباطل . ( ٥ ) المقيل والمقال : من أقال البيع فسخته .  
( ٦ ) الدساكر : بيوت يكون فيها الشراب والملاهي . عروس يقال للرجل والمرأة ، وهنا للرجل كالعريس عند المولدين . عذراوين مثني عذراء ، والمراد أنه بين خمر طال حجابها في الدن وفتاة في مقتبل العمر .  
( ٧ ) ذريع الفعل : فظيحه وسريعه .



أمرهم ووفرة رزقهم وصلاح حالهم حين قدم أبو نواس بغداد أن كان أمله المنشود واحدة من اثنتين : إما نديم خليفة أو مخيف سبيل ، كأنما كانا وقتئذ أحظى وأثرى رجلين :

سأبغى الغنى إماماً نديماً خليفة يقوم سواء ، أو مخيف سبيل<sup>(١)</sup>  
 بكل فتى لا يُستطارُ جَنَانُهُ إذا نَوَّه الزَّحْفَانِ باسم قتيل<sup>(٢)</sup>  
 لنخمس مال الله من كل فاجر أخى بطنه للطيبات أكل<sup>(٣)</sup>  
 ألم تر أن المال عونٌ على التقي وليس جوادٌ مُعَدِمٌ كبخيل

ولم يكن الخمارون سواء في الفرع من الطَّرَاق يطرقونهم مَوْهِنًا في الساعات الأخيرة من الليل . فقد كان من الخمارين المستضعفون الشيوخ ، كذلك الشيخ الأشيب اللحية الأصلع الرأس وزميله الأشمط المسود الشارب من نفخ زقاق الخمر المقيّرة في القصيدتين اللاميتين الآنف ذكرهما . كما كان منهم الشبان ، كذلك الفتى الغزير الجملة المسترسل الشعر في الهمزية الآتي ذكرها . فلا جرم يكون الشيوخ وقد أَسْنَوْا وعلتهم كِبَرَةٌ أُسْرِعَ إلى التوجس والانزعاج بحكم ضعفهم ووهن عظمهم وظهور عجزهم ، فضلاً عن المخاوف التي تورثها تجارب الحياة القاسية التي قد مرت لا محالة بهم ، ويكون الشبان أكثر جرأة وأربط جأشاً وأقوى على امتلاك إحساسهم وأقدر على ضبط حركات نفوسهم ، لما هم عليه من قوة البنية وصلابة العود وسلامة العصب ، فضلاً عما تقترن به قلة التجربة من عدم المبالاة بالعاقبة .

بيد أنه أيّاً كان ما بين الخمارين الشيوخ والخمارين الشباب من اختلاف في السمات والصفات ، فإنهم جميعاً سواء في شدة الحرص على تعجيل الكسب من

(١) مخيف سبيل : قاطع طريق . (٢) الزحفان : الجيشان زحف أحدهما إلى الآخر .

(٣) لنخمس : نأخذ خمس المال .

أى الوجوه ، والشره إلى الدراهم مهما يكلف جمعها من ابتذال الكرامة وسقوط المروءة وركوب الشين :

يَا رَبَّ مَنْزِلِ خَمَّارٍ أَطَفْتُ بِهِ      وَاللَّيْلُ حُلَّتْهُ كَالْقَارِ سَوْدَاهُ  
فَقَامَ ذُو وَفْرَةٍ مِنْ بَطْنٍ مَضْجَعُهُ      يَمِيلُ مِنْ سُكْرِهِ وَالْعَيْنُ وَسْنَاءُ<sup>(١)</sup>  
فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ» فِي رَفَقٍ فَقُلْتُ لَهُ:      «بَعْضُ الْكِرَامِ وَلِي فِي النَّعْتِ أَسْمَاءُ»  
وَقُلْتُ: «إِنِّي نَحَوْتُ الْخَمْرَ أَخْطِبُهَا»      قَالَ: «الدَّرَاهِمُ! هَلْ لِلْمَهْرِ إِبْطَاءُ!»<sup>(٢)</sup>  
لَمَّا تَبَيَّنَ أَنِّي غَيْرُ ذِي بَخَلٍ      وَلَيْسَ لِي شَغْلٌ عَنْهَا وَإِغْضَاءُ  
أَنِّي بِهَا قَهْوَةٌ كَالْمَسْكِ صَافِيَةٌ      كَدَمْعَةٍ مَنَحَتْهَا الْخَدَّ مَرْهَاءُ<sup>(٣)</sup>  
مَا زَالَ تَاجِرُهَا يَسْتَقِي وَأَشْرِبُهَا      وَعِنْدَنَا كَاعِبٌ بِيضَاهُ حَسَنَاءُ  
كَمْ قَدْ تَغَنَّتْ — وَلَا لَوْمٌ يَلْمُ بِنَا —      «دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ الْيَوْمَ إِغْرَاءُ»

### الخمّارون والخمارات

وكان أصحاب الخانات إمّا من الفرس المجوس، أو النصراني، أو اليهود. والشاعر في وصفه لهم يكشف — إلى جانب دقة التصوير وصدق الملاحظة — عن وجوه عطفه ومواطن ميله ومواقع هواه ناحية الفرس. فيقول في الدهقان الفارسي :

أَتَيْحَ لَهَا مَجُوسِيٌّ رَقِيقٌ      نَقِيُّ الْجَيْبِ مِنْ غَشٍّ وَذَامٍ<sup>(٤)</sup>  
فَأَبْرَزَهَا وَقَدْ بَطَرَتْ وَصَارَتْ      شَمُولًا ، مِنْ مُمَاطَلَةِ الْجَمَامِ<sup>(٥)</sup>

ثم الخمار النصراني :

طَرِبْتُ إِلَى خَمْرِ وَقَصَفِ الدَّسَاكِرِ      وَمَنْزِلِ دَهْقَانٍ بِهَا غَيْرِ دَائِرٍ<sup>(٦)</sup>

(١) الوفرة : ما سأل من الشعر على الأذنين . وسناء ، مؤنث وسنان : هو النعسان .  
(٢) نحوت : قصدت . (٣) القهوة : من أسماء الخمر . مرهأ ، يقال للمرأة غير المكحول  
العين وهذه تكون دمعها صافية . (٤) الجيب : القلب والصدر . الذام : العيب .  
(٥) بطرت : طفت وصارت . الشمول : الخمر لها عصفة كريج الشمال . ماطلة الجمام :  
طول الترك . (٦) الدهقان : التاجر . غير دائر : أى ظاهر المعالم .



فلما حللناها نزلنا بأشمت<sup>(١)</sup> كريم الحياء، ظاهر الشرك، كافر<sup>(٢)</sup>  
 له دين قسيس، وتدير كاتب وإطراق جبار، وألفاظ شاعر  
 فحياً وبياً، ثم قال لنا «اربعوا» تزلتم بنا رجلاً بأيمن طائر<sup>(٣)</sup>  
 وإذا كان هذا الخمار شيخاً أشمت طوى مراحل الشيبة، فسواه من الخمارين  
 النصارى فى ريمان العمر ورونق الحسن من كل ريان الشباب غض الإهاب  
 وضى الطلعة :

وَرُبَّ مُحَضَّبِ الْأَطْرَافِ رَخْصٍ مَلِيحِ الدَّلِّ ذِي وَجْهِ صَبِيحٍ<sup>(٤)</sup>  
 ظَفِرَتْ بِهِ وَنَجْمُ الصُّبْحِ بَادٍ عِبَادِي عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ  
 فَسُرَّ بَطْلَعَتِي لَمَّا رَأَتْنِي وَأَيَقَنَ أَنَّنِي غَيْرُ الشَّحِيحِ  
 وَقَامَ بِمَبْزِلٍ فَافْتَضَّ بَكَرًا عَجُوزًا قَدْ تَجَلَّ عَنْ الْمَدِيحِ<sup>(٥)</sup>  
 ومثله هذا الذمى ، حدث السن ، بديع الأوصاف ، بارع الحسن ، مقدود  
 الأعطاف ، الأحرور الحلو اللحظ ، الأغنى الجميل الصوت :

وأحور ذمى طرقت فناءه  
 فلما قرعنا بابه هب خائفاً  
 وقال: «من الطراق ليلاً فناءنا؟»  
 فأطلق عن أبوابه غير هائب  
 ومراً أمام القوم يسحب ذيله  
 فقلت له «ما الإسم حيت» قال لى  
 فكيدنا جميعاً من حلاوة لفظه  
 فقلت له «جشاك نبتاع قهوة»  
 بفتيان صدق ماترى منهم نكرا<sup>(٥)</sup>  
 وبادر نحو الباب ممتلئاً دُعراً  
 فقلت له: «افتح، فتية طلبوا خيراً»  
 وأطلع من أزراره قرأ بذرا  
 يجاذب منه الرذف في مشيه الخصر  
 «دعاني أبى سابا ولقبني شمر»  
 نجن ولم نستطع لمنطقه صبرا  
 ممتعة قد أنفدت قدماً دهر»  
 بفتيان صدق ماترى منهم نكرا<sup>(٥)</sup>

(١) الأشمت : من خالط بياض رأسه سواد . (٢) ربع : بالمكان أقام .

(٣) رخص : لين فاعم . (٤) افتض يكرأ كناية عن بزل الدن . (٥) الذمى : الذى

أعطى الذمة ، أى الأمان ، يعنى الذى أعطى الجزية فأمن بذلك على ماله وعرضه ودمه .

فقال « اربعوا ، عِنْدِي الَّتِي تَطْلُبُونَهَا  
 فقلت « فإِذَا مَهْرُهَا ؟ » قال « مَهْرُهَا  
 فقلت له : « خذها وهاتِ نَعَاطِهَا »  
 فشكَّ بِإِشْفَاءِ لَهُ بَطْنٌ مُسْنَدٍ  
 وجاءَ بِهَا وَاللَّيْلُ مُلْقٍ سُدُولَهُ  
 رَيْبَةً خِذِرٍ رَاضِهَا الْخِذِرُ أَعْصُرًا  
 إِذَا أَخَذَتْهَا السَّكَّاسُ كَادَتْ بِرَيْبِهَا  
 وَمَا زَالَ يَسْتَقِينَا وَيَشْرَبُ دَائِبًا  
 « فَمَا ظِلِيَّةٌ تَرَعَى مَسَاقِطَ رَوْضَةٍ  
 بِأَحْسَنَ مِنْهُ مَنَظَرًا زَانَ مَخْبَرًا  
 فَيَا حُسْنَهُ لِحْنًا بَدَا مِنْ لِسَانِهِ  
 وَنَامَ وَمَا يَدْرِي أَرْضٌ وَسَادُهُ

وبين من نعرف من هؤلاء الخمارين النصارى « يارى » وكان نازلاً في ناحية  
 نهر طابق ببغداد ، وكان أبو نواس كثيراً ما يغشى حانوته . ويروى أنه جاء بخاره  
 هذا مرة فوجده مخوراً ، ومن هنا إشارته في مطلع قصيدته : « داوِ « يارى »  
 من خاره » .

وأخيراً نعتُ الشاعر لصاحب الحانة اليهودى المصبي ، وقد أتوا حانته ظهراً ،  
 واستدلوا من زُنَّارِهِ المشدود إلى وسطه أنه غير مسلم ، ولكنهم غلطوا في حقيقة  
 أمر الذمي وسبق إلى وهمهم أنه نصراني ، فثارت عصبية صاحبنا اليهودى ونظر

( ١ ) إشفاء ممدود إثنى وهو المثقب .

( ٢ ) الواكف : من وكف المطر سال .

إليهم شزراً وأعرض مزوراً، ثم عاد بعد أن سكنت نعرته الدينية يتلطف في لباقة  
التاجر، مع يقظة المحاذر :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم  
فلما حكى الزنار أن ليس مسلماً  
فقلنا : « على دين المسيح بن مريم ؟ »  
ولكن يهودى يُحبك ظاهراً  
فقلت له « ما الاسم ؟ » قال « سموال »  
وما شرفتنى كنية عربية  
ولكنها خفت ، وقلت حروفها  
فقلنا له عجباً بظرف لسانه  
فأدبر كالمزور ، يفسم طرفه  
وقال : « لعمري لو نزلتم بغيرنا  
فجاء بها زيتية ذهبية  
خرجنا على أن المقام ثلاثة  
إلى بيت خمّار نزلنا به ظهراً  
ظننا به خيراً ، فظن بنا شراً<sup>(١)</sup>  
فأعرض مزوراً ، وقال لنا هجراً<sup>(٢)</sup>  
ويُضمر في المكنون منه لك الغدرا  
ولكننى أكنى بعمرو ، ولا عمراً<sup>(٣)</sup>  
ولا أ كسبتنى لا ثناء ولا فخراً  
ولست كأخرى إنما جعلت وقراً<sup>(٤)</sup>  
« أجدت أبا عمرو ، فجود لنا الخمر »  
لأرجلنا شطراً ، وأوجها شطراً  
للمناكم ، لكن سنوسمكم عذراً  
فلم نستطع دون السجود لها صبراً  
فطابت لنا حتى أقننا بها شهراً

(١) الزنار : ما يشد على الوسط وهو أخص سمات غير المسلمين من أهل الذمة في الإسلام .

(٢) المزور : من ازور انحرف . الهجر : القبيح من الكلام . (٣) أكنى بعمرو :

أى يقال لى أبو عمرو ، وكان الجاحظ - واسمه عمرو بن بحر - يزعم أن عمرو أرقش الأسماء  
وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجاً . وكان يسميه « الاسم المظلوم » لإلزامهم به الواو التى ليست  
منه ولا فيه دليل عليها ولا إشارة إليها . ويستشهد على ذلك بقول أبى نواس يهجو أشجع السلى :

أيها المدعى ولاء سليم لست منها ولا قلامة ظفر

أنت فيها مستلحق مثل واو ألحقت فى الكتاب ظلماً بعمرو

ويزعم أن هذا الاسم لم يقع فى الجاهلية إلا على فارس مذكور أو ملك مشهور أو رئيس مطاع  
أو سيد متبوع ، وكان يعد جماعة من ذلك . ثم هو يستدل بقول أبى نواس فى هذه القصيدة  
( وما شرفتنى كنية عربية ) على أنها كنية الأشراف والملوك والأكابر . ولا عمرو : أى لا ولد لى  
بهذا الاسم إشارة إلى أنه لما يزل صبياً . (٤) الوقر : الحمل الثقيل .



ذلك عن الخمارين من جهة أديانهم . أما من جهة ألوانهم وأجناسهم فلم تخل  
أشعار أبي نواس من إشارة هنا وهناك إليها . فمن الفرس أولاد كسرى ، إلى  
البيزنطيين الروم بنى الأصفر أولاد قيصر ، ومن أخلاط الأنباط ، إلى الأكراد  
الجلبيين الشداد الأجسام ، إلى السود من أولاد حام .

ذخائر كسرى لأولاده وغرس كرام بنى الأصفر

عَقَّتْهَا الْأَنْبَاطُ عَشْرًا فَعَشْرًا ثُمَّ عَشْرًا فِي مُدْمَجٍ مَخْتُومٍ

فِي ظِلَالٍ مَحْفُوفَةٍ بِظِلَالٍ مِنْ كُرومٍ وَمِنْ عَرِيشِ كُرومٍ

عَقَّتْهَا الْكَرْدِيُّ فِي مَجْلِسٍ بَيْنَ بَسَاتِينٍ وَأَجْبَالٍ

ثُمَّ أَنَا نَاكِسًا رَأْسَهُ مُنْحَدِرًا مِنْ مَرْقَبٍ عَالٍ

إِلَى بَيْتِ خَمَارٍ أَفَادَ زِحَامُهُ لَهُ ثَرْوَةٌ ، وَالْوَجْهُ مِنْهُ بِهِمْ

ولم يكن أصحاب بيوت الخمر كأيهم رجالاً ، بل كان فيهم النساء من غير  
المسلمات ، كما هو الشأن فيما نشهد عندنا اليوم من الحانات المريبات أو شبه  
المريبات ، تديرها وتقوم على تديرها بعض النسوة الأجنبية .

وقهوة لا القذى يُخَالِطُهَا تَأْتِيكَ مِنْ مَعْدِنٍ وَمِنْ عَطَنٍ

مِنْ بَيْتِ خَمَارٍ تَرُوحُ بِهَا إِلَيْكَ مِثْلَ الْعُرُوسِ مِنْ وَطَنٍ

ومنهن هذه المعترزة بالوالى المحسوبة عليه . وما نظنها تحظى عنده بهذه الرعاية ،  
إلا أن يكون له فيها أو في جواربها حاجة وأى حاجة

فِي بَيْتِ كَافِرَةٍ ، بِالْخَمْرِ تَاجِرَةٌ شَمَطَاءُ شَاطِرَةٌ ، تَعْتَرِزُ بِالْوَالِي (١)

فَبَيْتِهَا حَرَمٌ ، وَقَوْلُهَا نَعَمْ وَكَيْلُهَا حَكَمٌ فِي كُلِّ مُسْكَنَالٍ

والظاهر أن هذه الكافرة لم تكن بدعاً في احترافها هذه المهنة . بل الغالب في

(١) الشاطرة : المتصفة بالدهاء والخبائة .

الظن أن « ربات الحوانيت » كن كثيرات . فلقد كثر في شعر أبي نواس ذكرهن . وما من شك في أن بعضهن كن ذميات من أهل الكتاب . فتارة خمارته يهودية ، بيضاء حوراء ، جميلة الصورة ؛ سيئة الطباع :

لا سيما عند يهودية حوراء مثل القمر السارى  
تسقيك من كف لها رطبة كأنها فلقة جمار<sup>(١)</sup>  
حتى إذا السكر تمشى بها صارت لها صولة جبار  
وقد تكون دمة مهذبة :

الخمارة دين ابن عمران دينها مهذبة تسكني بأمر حصين

وتارة نصرانية كالمفهوم من قصيدته الثائية الكبرى . ولا مراء في أن صاحبة الحانوت فيها كانت من المعجزات القانتات إن لم تكن من الراهبات . ولعل شيخوختها ، والكبرة التي علمتها ، فأخلقت جدتها وذهبت بجهاها وطرائقها ، فضلاً على تزهدها وتزمتها ، كانت جميعها داعية إلى ما نراه من جفوة الخطاب معها ، مع التنكر والتندر عليها في تهديمها وشيئها ، حين يحدثها الشاعر فيعلنها أنه وإخوانه الفتيان الأبحاد يجتازون بحانوتها معجولين ، ويدعوها مشجعاً ، وبئس التشجيع : أن أحيي بريمهم الساعة « حتى إذا ارتحلوا عن داركم موتى » . على أن ربة الحانوت كانت لا محالة قد ألفت مثل هذا وشرأ من هذا مما يتفوه به أحلاس الحانات من الخلاء والسكرارى :

وفتية كمصاييح الدجى غرر شمم الأنوف من الصيد المصالي<sup>(٢)</sup>  
صالوا على الدهر باللهو الذى وصلوا فليس حبلهم منه بمبتوت<sup>(٣)</sup>

(١) الجمار : شحم النخلة .

(٢) مصاييح الدجى : كناية عن النجوم . غرر : أى بيض . الصيد : جمع أصيد وهو الراقع

رأسه كبراً . المصالي : الشجعان . (٣) ليس بمبتوت : أى ليس بمقطوع .

نَادَمْتَهُمْ قَرَقَفَ الْإِسْفَنْطِ صَافِيَةً  
 مِنَ اللّوَاتِي خَطَبْنَاهَا عَلَى كَجَلٍ  
 فِي فَيْلَقٍ لِلدُّجَى كَالَيْمٍ مُّلتَطِمٍ  
 إِذَا بِكَافِرَةٍ شَمَطَاءٍ قَدْ بَرَزَتْ  
 قَالَتْ «مَنْ الْقَوْمُ؟» قُلْنَا «مَنْ عَرَفْتَهُمْ»  
 حَلَّوْا بِدَارِكٍ مُّجْتَازِينَ فَاغْتَنِي  
 فَقَدْ ظَفِرْتَ بِصَفْوِ الْعِيشِ غَاثَةٍ  
 فَاخْبِي بِرِيحِهِمْ فِي ظِلِّ مَكْرُمَةٍ،  
 قَالَتْ «فَعَنْدِي الَّذِي تَبْعُونَ فَاَنْتَظَرُوا»  
 هِيَ الصَّبَاحُ تُحِيلُ اللَّيْلَ صَفْقَتُهَا  
 رَمَى الْمَلَائِكَةُ الرُّصَادَ إِذْ رَجَعَتْ  
 فَأَقْبَلَتْ كَضِيَاءَ الشَّمْسِ بَارِغَةً  
 قُلْنَا لَهَا «كَمْ لَهَا فِي الدَّنِّ مَذْ حُجِبَتْ؟»  
 كَانَتْ مَخْبَأَةً فِي الدَّنِّ قَدْ عَنَسَتْ

ومضى الشاعر في تأنيته هذه وأطال — وهي من عيون شعره — حتى ختمها  
 داعياً مستغفراً:

أَدْعُوكَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ فَاعْفُ كَمَا عَفَوْتَ - يَاذَا الْعَلَا - عَنْ صَاحِبِ الْحَوْتِ  
 وَكَانَ بَعْضُ أَوْلَئِكَ النِّسْوَةِ يَشْتَغِلْنَ بِالْأَجْرِ عَامِلَاتٍ عِنْدَ الْخَطَّارِينَ ، يَجْلِسْنَ

(١) القرقف : من أسماء الخمر . الإسفنت : المتعة الطيبة الرائحة من عصير العنب .  
 تكرت : بلد في غربي الدجلة بين بغداد والموصل . (٢) الفيلق : الجيش العظيم . اليم :  
 البحر . (٣) الزميت : المتوقر . (٤) الرصاد : جمع راصد وهو الرقيب . المراد : جمع  
 مارد وهو الماني . (٥) المنكوت : الملقى على رأسه . (٦) عنست الجارية : طال مكثها  
 في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تزوج .



إلى دكة الحانوت وبين أيديهن الميزان ، ليقمن على الوزن ويستوفين الثمن نقداً معجلاً خوف المماكسة في السؤوم أو المطاولة في الدفع . وفي القصيدة التالية دهقانة من هؤلاء العاملات لم يتمالك الشاعر الماجن أن يقبل رأسها ، يترضاها بذلك لتستجيد له الخمر فيما يزعم لنا . وهو إلى جانب وصفه لها وسوقه لحديثها يصف لنا وصفاً مفصلاً حانوت الخمار العظيم الثراء الواسع التجارة الذي تعمل عنده ، وما يحويه الحانوت من آنية الخمر وآلاته ، مع الإشارة إلى موقع الحانة في ناحية من شاطئ النهر ، وإصعادهم إليها في الزوارق ، ثم عودتهم محملة زوارقهم بالزقاق الشاصيات<sup>(١)</sup> مملوءة بالجلد المعتق من خمرها :

فشمّرتُ أثوابي وهرولتُ مسرعاً	وقلبي من شوق يكاد يهيمُ
وقلتُ للملاحى : «ألاهي زورقي»	وبِتُّ يغنييني أخٌ ونديم <sup>(٢)</sup>
إلى بيت خمارٍ أفاد زحامه	له ثروة ، والوجهُ منه بهيم
وفي بيته زقٌّ ودَنٌّ ودورقٌ	وباطيةٌ تروى الفتى وتُتيم <sup>(٣)</sup>
فأزقاقه سودٌ ، وحمرٌ دنانُه ،	ففي البيت حُبشانٌ لديه ورُوم <sup>(٤)</sup>
ودَهقانةٌ ميزانُها نُصبَ عيناها	وميزانها المشترين غشوم
فأعطيتها صُفراً وقبّلتُ رأسها	على أننى فيما أتيتُ مُليم <sup>(٥)</sup>
وقلتُ لها «هذى الدنانُ قديمةٌ؟»	فقلتُ : «نعم» ، إني بذلك زعيم <sup>(٦)</sup>
ألستَ تراها قد نَعَفَتْ رُسومُها	كما قد نَعَفَتْ للديارِ رُسوم <sup>(٧)</sup>
تحومُ عليها العنكبوتُ بنسجِها	وليسَ على أمثالِ تلك تحوم

(١) شاصيات : جمع شاصية يقال شصت القربة : ملئت ماء فارتفعت جوانبها .

(٢) هى : أى هي . (٣) الزق : سقاء من جلد للخمر . الدن وعاء عظيم مستوى

الصنعة أسفل مذهب لا يقعد إلا أن يحفر له . الباطية : إناء واسع الأعلى ضيق الأسفل .

(٤) يشبه الزقاق السود بالحشان ، والدنان الحمر بالروم . (٥) صفر : دنانير . مُليم :

من ألام الرجل ، إذا فعل ما يلام عليه . (٦) زعيم : كفيل . (٧) نَعَفَ : احمى

واضمحل . الرسم : ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الدار .

ذَخِيرَةُ دَهْقَانٍ حَوَاهَا لِنَفْسِهِ      إِذَا مَلِكٌ أَوْفَى عَلَيْهِ وَسِيمٌ  
وَمَا بَاعَهَا إِلَّا لِعَظْمِ خَرَاكِه      لِأَنَّ الَّذِي يَجْبِي الْخَرَاجَ ظَلُومٌ<sup>(١)</sup>  
فَقُلْتُ «بِكَمْ رُطْلٌ» فَقَالَتْ «بِأَصْفَرٍ»      فَحَزْتُ زِقَاقًا وَزَرُّهُنَّ عَظِيمٌ  
فَرُخْتُ بِهَا فِي زَوْرَقٍ قَدْ كَتَمْتُهَا      وَمِنْ أَيْنَ الْمِسْكُ الذِّكْيُ كُتُومٌ  
إِلَى فِتْيَةٍ نَادَمْتُهُمْ فَحَمِدْتُهُمْ      وَمَا فِي النَّدَامَى مَا عِلْتُ لَيْثِي

على أن الكيل والميزان لم يكن مقصوراً على العاملات ، بل كانت تتولاه أيضاً ربّات الحوانيت أنفسهن ، كهذه التي أدلج إلى خانوتها النواسى وإخوانه ، وهى فيما يظهر امرأة قد تقدمت بها السن ، ولما تزل بها مسحة من جمال وبقية من لهُو . والناظر فيما نظمه الشاعر فى حكاية ما جرى لهم معها وما وقع من حوار بينهم وبينها ، يتوسم من بين سطوره ومعاريض لفظه أن هذه المرأة النصف التى تجاوزت سن الشباب ، وصارت على رأس المنحدر إلى الكبر ، قد راق لها اجتماع هؤلاء الشباب عندها ، وتصبّأها وجودها بينهم ، وتطربت — كأشد ما تطربت منذ سنين — إلى دواعى الحب . ولقد كان أطف الجماعة موقعاً فى نفسها وأخفهم على قلبها غير منازع صاحبنا النواسى . فلما أن أصابوا من خمرها ما أصابوا ، وحان مُنصرَفُهُمْ مع انبلاج الصبح ، أقبلت المرأة تستأديهم الثمن ، ونفسها لا تخلو من الحسرة على سرعة انقضاء الليلة ، إذا بصاحبنا النواسى الماجن ينبرى لها مبتسماً ، فيصارحها القول معترفاً بأنهم جاءوا وفى المال قلة ، ويقترح فى فكاهته العذبة لو قبلت بعضهم رهناً ! . فلا تنور المرأة فى وجه هؤلاء الفتيان الملاعين ولا تتسخط كما هو المتوقع ، ولكنها تقف بينهم باسمه كالحاملة ، وتعلن — وهى تغمز بعينها — نزولها على اقتراحهم ، على أن يكون أبو نواس الرهينة ، وأن يبقى عندها رهينة العمر :

(١) الخراج : المال المضروب على الأرض .

إليها ثلاثاً نحو حاتها سِرنا  
فما إن نرى إنساً لديه ولا جنّاً  
مُعلّقةً فيها ، إلى حيث وجهنا<sup>(١)</sup>  
فقلت : « من الطُّراق » قلنا لها « إنا  
نروحُ بما رُحنا إليك فأدّجنا  
وإن تجمعينا بالودادِ تواصلنا »  
بفتيانِ صدقٍ ما أرى بينهم أفنا<sup>(٢)</sup>  
دواريقِ خمرٍ ما نقصنَ وما زدنا  
شعاعَ الثريا في زُجاجِ لها حُسنًا  
لنا سِعْرَها كَمَا نزوركِ ما عشنا ؟  
ثلاثٌ يتسّم ، هكذا غيركم بعنا  
إلينا بميزانٍ لتنقُدنا الوزنا  
فهل لك في أن تقبلي بعضنا رهنا ؟  
متى لم يَفُوا بالمالِ خلدتك السّجنا »

وختارةً للهوِ فيها بقيّةً  
ولّيلٍ جلبابٌ علينا وحولنا ،  
يسائرنا ، إلاّ سماءَ نجومها  
إلى أن طرّقنا بابها بعدَ هجعة  
شبابٍ تعارفنا ببابك ، لم نكن  
فإن لم تجيبنا تبدّدَ شملنا  
فقلت لنا « أهلاً وسهلاً ومرحباً  
فقلتُ لها : « كَيْناً حساباً مقوّمًا  
لجاءتُ بها كالشمسِ يحكي شعاعها  
فقلتُ لها « ما الاسمُ ، والسّعرُ بِنِي  
فقلت لنا « حَنُونُ إسمي ، وسِعْرُها  
ولما تولى الليلُ أو كادَ ، أقبلتُ  
فقلتُ لها « جئتُ وفي المالِ قلةٌ  
فقلت لنا « أنتَ الرّهينةُ في يدي

ولا أظن بنا حاجة إلى التنويه بما في هذا القصص الشعري جميعه — بغض  
النظر عن مجونه — من البراعة في الوصف وصدق التصوير ، وإبراز السمات في  
رسمه للشخصيات ، والافتدّار على إدارة الحوار والتصرف فيه ، مع روح الفكاهة  
وحلاوة الدُّعابة . فتلك من مزايا شاعرنا وخصائصه . والقارىءُ لديوان شعره يلقاها  
في كل قصيدة أو مقطّعة بين دفتيه . ولقد ألمّ بها قارىء هذه الصفحات ولا شك في  
سائر ما تقدّم به . ولو اتسع المجال لأوردنا منها فوق ما تقدم عشرات الأمثال .  
وإننا لنحب إلى هذا أن ننبه إلى ما جرى عليه الشاعر من تقطيعه حديث

(١) يسائرنا : أى لا نرى في الليل إنساً ولا جنّاً يسائرنا إلا نجوم السماء فهي التي تسائرنا  
إلى حيث وجهنا . (٢) الأفن : ضغف الرأى . والتسكين لضرورة الشعر .



الشخص الواحد وتوزيعه له بين أواخر البيت وأوائل البيت التالى فى غير واحدة من قصائده على نحو يزيد أحياناً فى ظَرْفِ الحوار ودُعابته . ونسوق للقارى على سبيل المثال هذا الحوار بين شاعرنا وبين خَمَّارٍ فى قُطْرَبُل، وقد أتاه مع صديق له فى يوم جمعة يمتاران من خمره ، فجعل صاحبها يبالغ فى صفتها ، ولكن صاحبنا النواصى يتردد — لطول مراسه بالخَمَّارينِ وأَساليهم فى التزجية والزَّغَل — فى أن يسمع لمقالته ويأخذ بشهادته ، ويأبى أن يشتري الخمر إلا من بعد خير :

لا تنسَ لي يَوْمَ العَرُوبَةِ وَقْعَةً	تُودى بصاحبها بغير فساد <sup>(١)</sup>
يوماً شربتُ وَأَنْتَ ، فى قُطْرَبُلٍ	خَمراً تفوقُ إرادةَ المُرْتَادِ
لَمَّا وَرَدْنَاهَا نُنَلِّمُ بِشَيْخِهَا ،	عِلَجٌ يُحَدِّثُ عن مصانعِ عاد <sup>(٢)</sup>
قلنا « السلام عليك » . قال « عليكم	منى سلامٌ تحييةٌ ووِداد
مارئتمُ؟ » قلنا « المدام » . فقال « قد	وُفِّقْتُمُو — يا إخوتى — لِرِشَادِ
عِنْدِي مُدَامٌ قد تَقَادَمَ عَهْدُهَا ،	عُصِرَتْ ولم يشعر بها أجدادى
فَأَكِيلُ؟ » . قلنا : « بَعْدَ خُبْرٍ ، إِنَّا	لا نَشْتَرِي سَمَكاً بَبْطُنِ الوادى
جِئْنَا بِهَا! » فَأَتَى بِكَاسٍ أَشْرَقَتْ	منها اللُّجى وَأَضَاءُ كُلِّ سَوَادِ
فَأَدَارَهَا عَدَدًا ثَلَاثًا ، فَانْشَدَتْ	مَنَا النُّفُوسُ وَلَيْسَ مِنْهَا صَادِى <sup>(٣)</sup>

ونحب أن ننبه كذلك إلى نكتة فى نظم شاعرنا وهى إirاده للجمله الواحدة بعضُها فى بيت والتكملة فى أول البيت الذى بعده مثل قوله :

مَنْ كَانَ يَهْدِي بِحُبٍّ جَارِيَةٍ	أَوْ بِغُلَامٍ ، فَإِنَّنى أَمِقُ <sup>(٤)</sup>
شَاطِرَةٌ فى الإِنَاءِ صَافِيَةٌ	تَقَشَّى لَهَا من شُعَاعِهَا الحَدَقِ

(١) يوم العروبة : يوم الجمعة ، والعروبة فى الأصل الضحاكة من النساء . ولعل العرب أطلقوا ذلك على يوم الجمعة لأنه يوم الزهرة وهى ربة الجمال والعشق . (٢) الملعج : الضخم القوى من المعجم . المصانع : القصور . (٣) الصادى الظمان . (٤) أمق : أحب .

وقوله :

أُسْعِدْ يَوْمَ لَهَا حَظِيَّتُ بِهِ      مقالها لي وَلَسْتُ بِالنَّاسِ  
لذلك اليومِ ما حَيَّتْ وما تَرَى      جَمَ قَوْلِي سَوَادُ أَنْفَاسِ<sup>(١)</sup>  
تَقُولُ لِي وَالْمَدَامُ مُرْسَلَةٌ      تَفِيضُ حَوْلِي نَفُوسَ جُلَاسِ  
« هَلْ لَكَ أَنْ تَطْرُدَ النَّعَاسَ فَقَدْ      طَابَ انْضَوَاهُ الْمَدَامُ وَالْأَسَ ؟ »

وقوله :

أَنَا أَبْصَرْتُ - صَاحَ - الشَّمْ      سَ تَمْشِي لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ  
فَاجِ النَّاسُ فِي النَّاسِ      وَظَنُّوا أَنَّهَا الرَّجْمَةُ  
إِلَى اللَّهِ ، وَقَالُوا « الشُّ      لَمَّا عَايَنُوا بَدْعَهُ  
قُلْتُ : « الشَّمْسُ لَا تَطْلُ      عَ لَيْلًا مَطْلَعُ الْهَقَّةِ<sup>(٢)</sup>  
وَلَكِنْ الْفَتَى أَحْمَ      دَ يَجْلُو اللَّيْلَ بِالطَّلْعَةِ »

ولعل في هذه الأمثلة وما إليها ما يقطع بأن النواصي كان لا يدين بوحدة البيت ، وأن مذهبه وحدة القصيدة . وهو يذهب في ذلك إلى الحد البعيد الذي يجعلنا نذهب إلى أن تكرر هذا التصرف في النظم عند النواصي أكثر من مرة ، هو ظاهرة من آثار الثورة والتجديد<sup>(٣)</sup> .

وفي القصيدة السابقة الدالية والقصيدة اللاحقة الجيمية نجد الشواهد متواترة

( ١ ) الأنفاس : جمع نفس : المداد ( ٢ ) الهقمة : ثلاثة كواكب نيرة فوق منكبى الجوزاء قريب بعضها من بعض . ( ٣ ) مما يسترعى النظر أن المدرسة الابداعية في الأدب الفرنسى L'Ecole Romantique قد جعلت « تخطى القافية » Enjambement sur la rime في جملة ما نادى به ودعت إلى إيثارة في ثورتها على المدرسة التقليدية L'Ecole Classique ومثال ذلك قول بودلير :

Vite soufflons la lampe, afin

De nous cacher dans les ténèbres

يا خليل هلمَا      نطفِ المصباح كيما

نتوارى - من أئام -      في غياهبات الظلام

متناصرة على أن أبا نواس كان ذواقاً يدرك من طعم الخمر نوعها ومبلغ جودتها ومقدار عتقها . فلم يطرُق حانة قطُّ مع جماعة إلا كان الموكل عنهم في سؤم الشراب . وهو لا يسوم بائع شرابٍ شرابه إلا أن يذوقه ، واثقاً من حكمه ، مدلاً بعلمه . ولا بدع فقد أفاد هذا العلم اليقين والحكم الموفق من تقادم عهده بمعاورة الخمر وطول عشرته للخمارين والخميرين . فالمذاق من الدنان شرطه قبل الكيل على أصحاب الحان . ولولا أنه كان عندهم الإمام الثقة ، لما ارتضى شيوخ دهاقينهم حكومته :

وخمارٍ أنختُ عليه رَحلى	إناخَةً قاطنٍ ، والليلُ دايجٌ <sup>(١)</sup>
فقلتُ له : « اسقني صهباءَ صِرْفاً »	إذا مُزجتُ تَوَقَّدُ كالسَّراجِ .
فقال : « فإنَّ عِنْدِي بِنْتَ عَشْرِ »	فقلتُ له مقالةً من يُناجى :
« أَذِقْنِيهَا لِأَعْلَمَ ذاكَ منها »	فأبرَزَ قهوةَ ذاتِ أُرْتِجاجِ
كَانَ بَنانٌ مُنْسِكِها أَشْبَتُ	خِضاباً حينَ تَلَمَعُ في الرُّجاجِ
فقلتُ : « صدقتَ ياخمارُ ، هذا »	شَرابٌ قد يطولُ إليه حاجي <sup>(٢)</sup>
فقال إلى حينِ رَأى سُرورى	بها ، والليلُ مُرْتَكِبُ الرُّنَاجِ
فما هَجَمَ الصِّباحُ على حتى	رأيتُ الأرضَ دائرةَ الفِجَاجِ

### بعض الحانات المشهورة

وقد حفظ التاريخ أسماء بعض الخمارين والخمارات في عداد ما خلَّد من الأسماء . وهذا الذي قد أفادوه من خلود الذكر ، مرجعه إلى ما قاله الشعراء أمثال النواسى فيهم من الشعر ، جزاء ما جودوه لهم من خمر . وقد ردَّده واضعو التصانيف في وصف الأقاليم والأمصار ، حين استطردوا إلى ذكر ما كان في بعض هذه المواضع

(١) أناخ رحله : حطه وألقاه أى أقام . (٢) حاج : جمع حاجة .



من حاناتٍ اقترنت بأسماء هؤلاء الخمارين والخمارات واشتهرت بهم . وليست جميعها بطبيعة الحال في زمن أبي نواس ، فمنها السابقة لزمته واللاحقة له . ونذكر من حانات العراق في أيامه حانة « ابن آذين » في قُطر بُل وحانة « سرجس » في طيزنا باز ، وحانات الحيرة وهي كثيرة منها أيام الأقيشر الشاعر حانة « شهلاء » وهي خمارة يهودية ، وحانة « دومة » ولعلها نصرانية ، ثم لعمده منها حانة « عون » وحانة « جابر » ونروى عن هذه الأخيرة حكاية لابن الصلصال قال :

[ كان أبو نواس يأتي الكوفة يزورني ، وكان يأتي بيت خمار بالحيرة يقال له جابر ، لطيف الخلقة ، نظيف الثياب ، نظيف الآلة ، يعتق الشراب سنين . فقدم علينا مرة ، وقد نهاه الخليفة محمد الأمين عن الشراب . فسأل عني ، فقيل له : « هو بالحيرة » . فوافاني ، وفي يدي شئ من شراب جابر ، عجيب الحسن والرائحة ، فقال لي : « يا أبا جعفر ! لا يجتمع هذا والهَمُّ في صدر واحد » . وكان شديد العُجب بضرب الطنبور . وكان إذا جاءني جمعتُ له ضُرَّاب الطنابير ، وكانت الكوفة معدنهم . وكان يسكر في الليلة الواحدة سَكَرات . فوجهتُ فجمعتُ له منهم جماعة ، وأحضرتُه شيئاً من ذلك الشراب . فقال لي : « ألم تعلم ما حدث عليّ ؟ » . قلت : « وما هو ؟ » . قال : « نهاني أمير المؤمنين عن الشراب وتوعَّدني عليه ! »

ثم أنشدني قصيدته التي فيها :

أيها الرّائخانِ باللّومِ ، لوماً لا أذوقُ المدامَ إلّا شميماً !

إلى أن انتهى إلى قوله :

فكأني وما أزيّنُ منها قعدِي يُزيّنُ التحكيمياً<sup>(١)</sup>

(١) القعدى : واحد القعد بالتحريك ، وهم طائفة من الخوارج ترى رأيهم وتقول بقولهم ولا تذهب إلى القتال معهم .

لم يُطبقَ حَمَلَهُ السَّلَاحَ إِلَى الحَرْبِ ، فَأَوْصَى المَطِيقَ أَلَّا يُقْبِيا  
فقلتُ له . « أَقِيمْ معنا كما حَكَيتَ من فِعلِ القَعْدِيَّةِ » . قال . « أَفْعُلْ » .  
وصرنا إلى حانة جابر . فقلتُ شعراً ذَكَرتُ فيه ما قاله لى وأنشدته إِياد ، وهو قولى .

عَتَبْتُ عَلَيْكَ مُحاسِنُ الحَرْبِ      أَمْ غَيَّرْتَكَ نَوائِبُ الدَّهْرِ ؟  
فَصَرَفْتَ وَجْهَكَ عَنْ مُعْتَقَةٍ      تَفَتَّرُ عَنْ دُرٍّ وَعَنْ شَذَرٍ <sup>(١)</sup>  
بِسْمِ بَهاذِو غَنَّةٍ غَنَجٍ      مُتَكَحِّلُ اللَّحْظَاتِ بِالسَّحَرِ  
وَنَسِيتَ قَوْلَكَ - حِينَ تَمَزَّجُهَا      فَتْرِيكَ مِثْلَ كَوَاكِبِ النُّسَرِ :  
« لَا تَحْسَبَنَّ عُقَارَ خَايِبَةٍ      وَالْهَمَّ يَجْتَمِعَانِ فِي صَدْرٍ ! » <sup>(٢)</sup>

فقال : « هاتِها فى كذا وكذا من أُمِّ الأَمِينِ ! » . ومدَّ يده فأخذ القَدَحَ  
وشربَ معنا . ثم شَخَّصَ إلى الأَمِينِ . فقال له . « أين كنت ؟ » . قال :  
« عندَ صديقِ الكُوفِيِّ » وحدَّته الحديث . قال : « فما صَنَعْتَ حينَ أنشدكَ  
الشعر ؟ » . قال : « شربتُ والله ! يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ » . قال « أَحسنتَ وأَجَلتَ .  
فاشْخَصْ حَتَّى تَحْمِلَ إلى صَدِيقِكَ هَذَا » . فقدمَ إلى لَحْمَلْنى إليه . فلم أزلُ معه  
حتى قُتِلَ [ .

ونكتنى من حانات الشام بذكر اثنتين : حانة « هُشِيمَة » بدمشق ، وكانت  
صاحبتها هُشِيمَة تخدم الوليد بن يزيد الأموى فى شِرابه وتتولى انخاذه له . وفيها يقول .  
قد شربنا ، وَحَنَّتِ الزُّمَارُ      فاسقنى - يا بُدَّيْحُ - بالقرْفَارِ <sup>(٣)</sup>  
من شرابٍ كأنه دم خِشْفٍ      عَتَّقْتَهُ « هُشِيمَة » الخُمَارِ <sup>(٤)</sup>  
إِسقِنى ! إسقِنى ! فإنَّ ذُنُوبى      قد أحاطت ، فما لها كَفَّارُ  
وقد عُثِّرَتْ هُشِيمَة حَتَّى أدركت الرشيد وماتت فى أيامه .

( ١ ) الشذر : قطع الذهب . ( ٢ ) الخابية : الجرة الضخمة . ( ٣ ) القرقارة :  
كوب من زجاج طويل المنق . ( ٤ ) الخشف : ولد الظبى أول ما يولد .

والحانة الثانية المنسوبة إلى الشام حانة تل عَزَّاز . ويحكى إسحق الموصلى أنه كان مع الرشيد حين خرج إلى الرِّقَّة . فدخل الخليفة يوماً يشرب مع النساء . فخرج إسحق فنزل هذه الحانة عند خمارتها ، وكان لها زوج قَسٍّ ، ولها منه بنت . ويقول إسحق : « فلم أر مثل هذه الخمارة قطُ جمالاً ، ولا مثل بنتها . وقد أخرجت إلى شرباً لم أر مثل حسنه وطيب ريحه وطعمه . فأجلستني في بيت مرشوش ، فيه ريحان غض . وأخرجت بنتها تخدمني كأنها خوطُ بان أو جدل عنان ، لم أر أحسن منها قدّاً ولا أسهل خدّاً ، ولا أشرق وجهاً ، ولا أبدع ظَرْفاً ، ولا أحسن كلاماً ، ولا أتم تماماً . فأقامت عندها ثلاثاً ، والرشيد يطلبني ، فلا يقدر على . ثم انصرفت . فذهبتُ بى رسله إليه فدخلت عليه وهو غضبان فلما رأيته ، خطرتُ في مشيتي ورقصت — وكانت في رأسي فضلةٌ قوية من السكر — وغنيتُ في شعر قلته في بيت الخمارة صنعتُ فيه ، وهو :

إنَّ قلبي بالتَّلُّ ، تلُّ عَزَّازِ      عند ظبي من الظُّباء الجوازي <sup>(١)</sup>  
شادنٌ يسكن الشَّامَ ، وفيه      مع شكّل العراق ، ظَرْفُ الحُجازِ <sup>(٢)</sup>  
يا لقومي لبنتِ قَسٍّ أصابت      منك صفو الهوى وليست تجازي  
حلفت بالمسيح أن تنجز الوء      دَ ، وليست تهتمُّ بالإنجاز  
فسكن عندها غضب الخليفة ، ثم قال لى . « ويحك ! أين كنت ؟ » .  
فأخبرته ، فضحك وقال : « عُدْرُ والله ! وإنّ مثل هذا الطيّب إذا اتفق .  
أعد غناءك ! » . فأعدته . فأعجب به . وأمرنى أن أغنيه ليلتي كلّها ، أعيده  
أبدًا ، ولا أغنى أنا ولا غيرى سواه ، وأمر المغنين وفي جملتهم ابن جامع بأخذه ،  
فمازلت أغنيه والرشيد يشرب عليه إلى الغداة . ثم انصرفنا . فصليتُ ونمت ،  
فما استقررت جنباً حتى وافانى رسول الرشيد ، يأمرنى بالحضور . فركبت ومضيت

(١) الجوازي من الظباء : التى تجترى بالرطب من العشب عن الماء .

(٢) الشكل : دلال المرأة وفنجهها .



فلما دخلت ، إذا أنا بآبن جامع يتمرغ على دكانٍ في الدار لغلبة النيذ والسكر عليه . فقال لى : « أتدرى لِمَ دُعينا ؟ » . قلت : « لا » . قال : « نصرانيتك الزانية ، عليك وعليها لعنة الله ! » . فضحكت . فلما خرج إلينا الرشيد ، أخبرته بالقصة ، فضحك وقال : « صدق . أعيّدوا الفناء جميعاً ، ولا تُغنّوا غيره ؛ فإنى اشتقت إلى ما كنا فيه لَمّا فارقتمونى » . فغنّيناه جميعاً يومنا كلّهُ ، حتى نام فى موضعه سُكرًا . ثم انصرفنا [ .

### الحانات الخاصة

وكان بعض الحانات مخصصة لنزّه الخاصة والسّرة من الناس . وكانت هذه الحانات حسنة البناء مؤزّرة مسقّفة بمحشّب السّاج العريض الصّلب ، وإلى جانبها بستان نزّه بهيج . وهى غاية فى الأناقة والنظافة وتُحارّوها من أطرف الحارين وأكيسهم خدمةً وأحذقهم صنعة ، نظاف الثياب ، يتخذون فيها آلة الشرب كاملة ، ولا يبيعون إلا شراباً مختاراً سرّياً ، ولا يبيعونه أحداً من العامة والوضّعاء . وبعض هذه الحانات كانت لا يعرض لها جُباةُ الضرائب والخراج فى بعض الأحيان لا عزازها بحرقائها من أصحاب الجاء والسلطان .

وقد بلغ من حب الخليفة الواثق لمجالس الحان وما قيل فيها وما غنّى به فى ذكرها أن عقد حاتنين ، إحداها فى دار الحُرّم ، والأخرى على الشطّ ، وأمر أن يُختار له خمار نظيف جميل المنظر ، حاذق بأمر الشرب ، ولا يكون إلا نصرانياً من قُطر بل فأتى بنصرانىّ ، له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة . فجعلهم الواثق فى الحاتنين وضمّ إليهم خدماً وغلماً وجواري روميّة . وأخدم النساء حانة الحُرّم ، والرجال حانة الشطّ . ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرّشهما من فرش

الخلافة وعلّق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأواني المذهبة والدنان المدهونة .  
فكانتا أحسن منظر وأبهاء .

فلما فرغ منهما ، كان يأمر بإحضار المغنين والمُلهّين ، ولا يدع أحداً يصلح من  
ضُرَّاب الطناير إلا أحضره . ويدعو الخليفة من يدعو ممن يحب . نادمتهم . ويخرج  
الخمار هو وأولاده معه ، عليهم الأقبية المسهّمة ، وفي أوساطهم الزنانير المحلّاة ،  
ومعهم غلمان يحملون المكايل والكيزان والمبازل في الصّواني وتُخرج تلك الدنان  
المذهبة وقد طُيئت رءوسها تطييناً نظيفاً يعقب منه الطيب ، فتقام بإزاء المجلس  
الذي يكون فيه الخليفة جالساً فتُبزَل كما يُفعل في الحانات . ويؤتى بالأمودجات ،  
فيذوقها ويُعرَض ذلك على الجلساء ، فيختار كل منهم ما يشتهي . فيأخذ كل  
واحدٍ دُناً ، ويجيء إلى الخمار ويكتال مما اختار بمكيالٍ في إنائه كما يُفعل في  
المواخير ، ويعود إلى موضعه فيجلس . ويوضع على رأس الحضور أكليل الآس  
وما أشبه من الرياحين .

وقد حكى حمّد بن حمدون في يوم حضره بحانة الشط أنه كان أحسن يوم رآه  
وقد شرب الواصل فيه شرباً كثيراً ، وأمر للخمار بألف دينار ، ولزوجته بألف ،  
ولكل واحدٍ من أولاده بخمسمائة . ولم يبرح أحد من الجلساء إلا بجائزة سنّية .  
وحكى الحسين بن الضحّاك الشاعر في حكاية له أن الواصل قال له : « هل لك  
في حانة الشط ؟ » فقال الشاعر : « إي والله ! يا أمير المؤمنين » . فقام إليها ،  
فشرب هناك وطرب والشاعر معه . وما ترك الخليفة أحداً من الجلساء والمغنين  
والحشم إلا أمر له بصلة . فلما كان من الغد ، غدا الحسين بن الضحّاك على الخليفة  
فقال : « أنشدني يا حسين شيئاً إن كنت قلت في يومنا هذا الماضي » . فأنشده :

يا حانة الشطّ قد أكرمت مشوانا      عودي بيوم سرورٍ كالذي كانا  
لا تُفقدنا دُعابات الإمام ولا      طيبَ البطالة إسراراً وإعلانا

ولا تَخَالُفُنَا فِي غَيْرِ فَاحِشَةٍ إِذَا نَظَرْنَا الطَّنْبُورُ أَحْيَانَا  
وَسَأَلَ الرَّطْلَ «عَمْرُو» ثُمَّ عَمَّ بَنَاهُ سُبُحًا فَالْحَقَّ أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا  
سَقِيًّا لِعَيْشِكَ مِنْ عَيْشٍ خُصِّصَتْ بِهِ دُونَ الدَّسَاكِرِ مِنْ لَذَاتِ دُنْيَانَا  
فَأَمَرَهُ الْوَاقِقُ بِصَلَةِ سُنِّيَّةٍ مُجَدَّدَةٍ ، وَاسْتَحْسَنَ الشَّعْرَ وَأَمَرَ أَنْ يَغْنَى بِهِ .

### صورة مجملّة للحانة

ولنستوقف القارى هنا لحظة قبل أن يتبادى بنا الكلام ونبعد عن المكان ،  
مستذكرين ما تقدّم منذ قريب بنا من أشعار وأخبار فى موضوع الخمر وأصحابها ،  
مستجمعين شتات ما تردّد فيها من صفات الحانات لذلك العهد ، فإننا لا نلبث أن  
نتمثلها — فى تَطَرُّحِهَا وقيامها بعيدة من المدن على طريق المسافر ، وفى مقام رؤاها فيها  
جماعات أياماً — على صورة مخالفة لحانات اليوم وعلى غير هيئتها ، وإنما هى قرية  
شَبَّهَ بِالنُّزُلِ « Inn » عند الغريين قبل تسيير قطر البخار ، أيام كانت مدن الإقليم  
الواحد على مسيرة أيام بعضها من بعض ، وكان السفر مراحلاً على ظهور الجياد ،  
وفى المركبات تجرّها الخيل الصافنات للخاصة ، وفى مركبات البريد لعامة المسافرين .  
ومن ثمة لا أَرَانَا نَخْطِئُ القول إذا قلنا إن هذه الحانات كانت فى الأغلب  
متسعة البناء ، متعددة الغرفات والعَرَصات والرافق للطعام والمدايم والنمام لروادها  
الكثيرين ، قد أُتُخِذَتْ فيها للمقيمين النمامات والفُرُشُ ، وسُوِّرتْ لدوابهم الحظائر  
وأعدّت المراعى والأعلاف . وكان ثمة كذلك ما لا بدّ منه من السقائف والسراديب  
تُجَمَّلُ فى ظلّها الزقاق والدّنان . وثمة كذلك ما لا غنى عنه من الخزائن لحفظ آلة  
الشراب وصون طرائفها من أباريق الفضة والجامات المنقوشة والأقداح اللطاف  
من الزجاج الفرعوني البلورى . ويتمهّد الخمارون حول حاتهم الأشجار الوارفة  
الظلال ، وأشجار الفاكهة المهدلة الثمار ، والكروم المعروشة وتحتها معاصر الخمر  
 وآلة العصر . ولم تكن مجالس الشراب كلها بين جدران الحان بل كانت تهبأ



لمن شاء يجالس في نواحي البستان وأخرى على سطح الحان . وإلى هذا جميعه  
كان معظم الهمة وأحسن العناية إلى اختيار ما تستلزمه الخدمة من جوار وغلان ،  
وما يتصل بأسباب المتعة من ملهين وقيلان .

### بين جدران الحان

ولقد كانت الحانات ، في تطوحيها في سواد بغداد وظواهر غيرها من البلاد  
بعيداً عن رقابة الشرطة ، مباءة لأهل البطالة والخلاعة ، يقيمون بها أياماً يُطلقون  
فيها العنان وراء الجدران للتصف واللهو والمجون ، لا يباليون ما يصنعون . وقد  
غلق المخارون الباب بالمزاليج والأرتاج ، واتخذوا فيه كوة يتعرفون بها الطراق ،  
فما يفتحون إلا لمن يأمنون . ثم إنهم قلّ ما كانوا يعدمون الوسيلة لترضى  
الشرطة إن هم تعرضوا لهم ، وذلك بالرشوة إذا كانوا من أهلها ، وبالشراب إذا  
كانوا أصحاب شراب . وإلى القارىء واقعة في بعض حانات الخيرة تدلنا على  
ما كانت تصير إليه أحياناً الرقابة عند بعض هؤلاء الشرطة :

حكى أن الأقيشر الشاعر كان يألف خماره يهودية وهي المعروفة بشهلاء من  
أهل الخيرة ، وكان يشرب في حاتها . فجاءه شرطى فدق الباب وقل : « اسقني  
وأنت آمن » . فقال الأقيشر : « والله ! ما آمنك . وهذا النقب في الباب فأنا  
أسقيك منه » . فوضع له أنبوب قصير في النقب ، فصب فيه النبيذ من داخل ،  
والشرطى يشرب من خارج . وفي ذلك يقول الأقيشر :

سأل الشرطى أن نسقيه فسيناه بأنبوب القصب

إنما لفتحنا خاية فإذا ما مزجت كان المعجب<sup>(١)</sup>

(١) الفتحة : الناقة الخلوب الغزيرة اللبن .

لَبَنٌ أَصْفَرُ صَافٍ طَعْمُهُ ، يَنْزِعُ الْبَاسُورَ مِنْ عَجَبِ الذَّنْبِ <sup>(١)</sup>  
 إِنَّمَا نَشْرَبُ مِنْ أَمْوَالِنَا . فَاسْأَلُوا الشَّرْطِيَّ : « مَا هَذَا الْفَضْبُ ؟ »

وكان أصحاب هذه الدساكر لا يدعون سبباً من أسباب الفتنة يجتذب إليهم  
 القوم ويفريهم بإطالة المقام والتخرق في النفقة إلاّ توسلوا به . فهم يتخذون في  
 حاناتهم السقاة المردان ، والساقيات الشاطرات الحسان . ويزيد بعضهم  
 فيحضرونهم المسمعات العازفات من الجوارى القيان ، والملمهين من ضراب  
 الطنابير والعيدان ، ليستخف القوم الطرب ، ويحلولهم مجلس الشرب ، فيكثر  
 من الشراب ويحيفوا على أنفسهم فيه ، يفرغونه في أجوافهم أرتالاً شرباً  
 دراكاً لا يفترون عنه ، ولا يزالون كالملوهمين يقربون بين الأقداح يستحثونها  
 من أبدى الملاح ، على ترجيع الغناء ونقر الدفوف ونغم الأوتار الفصاح ، حتى  
 تغلبهم على عقولهم العقار ، فيخلعوا ما بقي من حشمةٍ وفضلٍ عذار .

وكان معظم هذه الدساكر بيوت خمر وبيوت ريبة معاً ، لما ثبت بالتمرّس  
 والحُنْكَة في علم هؤلاء الخمارين والخمارات ، من فعل الخمر « أمّ الخبائث »  
 في تحريك ساكن الفرائز وتهيج كامن الشهوات ، والإسفاف بها إلى أخط  
 الدركات .

وخمارةٍ نَبَّهَتْهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ وَقَدْ غَابَتِ الْجُوزَاهُ وَانْحَدَرَ النَّسْرُ <sup>(٢)</sup>  
 قَالَتْ : « مِنْ الطَّرَاقِ ؟ » قُلْنَا « عَصَابَةٌ » خَفَافُ الْأَدَاوَى يُبْتَنَى لَهُمْ خَرٌّ <sup>(٣)</sup>  
 وَلَا بَدْءَ أَنْ يَزْنُوا . قَالَتْ : « أَوْ الْفَدَا » بِأَبْلَجٍ كَالدِّينَارِ ، فِي طَرَفِهِ فَتْرٌ  
 قُلْنَا لَهَا : « هَاتِيهِ . مَا إِنْ لَمْ لَنَا — فِدِينَاكَ بِالْآبَاءِ — عَنْ مِثْلِهِ صَبْرٌ »

(١) عجب الذنب : أصله عند رأس العصم . (٢) الجوزاء : برج ويقابل  
 كذلك من النجوم عند المحدثين الجبار والتوأمين . النسر : نجم تمتاز به ليالى الصيف وهو ألمع  
 نجم في السماء الشمالية . (٣) الأدوى : جمع إدارة وعاء صغير من جلد .

فجاءت به كالغصن يهتز ردفه تخال به سحراً وليس به سحر  
له شبهٌ بالبدر ليلةَ تيمه مهفهم أعلى الكشح، في ثغره أشر<sup>(١)</sup>  
والظاهر أن صاحبة هذه الحانة لها نظائر كثيرات جرّين على سنتها، فاحتطن  
مثل حيطتها وتجهّزن بمثل عدتها. وظاهرٌ كذلك أن أبا نواس كان لا يُعرض  
عليه ما يُسمّيه «الفدا» إلا تلقّاه في كل مرة بالرضا :

للمارة دينُ ابنِ عمرانَ دينها مهذبةٌ تكنى بأُمِّ حُصينِ  
فقلت لها : « إن لم تجودي بنائلٍ فلا بدّ من تقبيلي الشفتين  
فقلت : « فهل ترضى بغيرها هوّى بأمرد كالديّار ؟ » قلتُ : « من أين »  
فجاءت به كالبدْر يشرق وجهه أغنُ ، غضيضُ ، راجح الكفلين  
فروحتُ عنها مُعصراً غيرَ مُوسرٍ أقرطسُ في الإفلاس من مثنين<sup>(٢)</sup>  
فقال لي الخمار عند وداعه وقد ألبستني الخمر خُفَ حنين  
« ألا عيشُ بزَيْنِ أين سرتَ مسلماً ! » وقد رحتُ منه - حين رُحتُ - بشين

### مطارج الحوانيت

وإذا كان أصحاب بيوت الخمر يتخيرون لحوانيتهم المواضع المتطرحة البعيدة  
عن الناس فإنهم قد تحرّوا لها هناك البقاع النَّزهة الحسنة ، وتوخّوا أن يكون  
الوصول إليها متأتياً لطلاب النزهة والشراب ، كأن تكون على طريق القوافل ،  
فيركبون إليها المطايا من نجائب الإبل المهارى أو الخيل الجياد ، وقد نرام يقطعون  
من أجلها شاسع المسافات ويطوون لها القلوات ، متجشمين وعشاء السفر ،  
متمرضين للخطر من ذؤبان العرب وقطّاع الطرق .

(١) الأثر : تريق الأسنان . الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر .

(٢) قرطس القرطاس : أى أصاب الفرض .



وفتيانٍ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهم إلى بيت خمارٍ نزلنا به ظهرا

وخمارٍ حططتُ عليه ليلاً قلائصَ قد وَنِينَ من السفار

وَدَوِيَّةٍ للرَّيح بين فروجها فنون لغاتٍ : مُشْجَلٌ ومُبِينٌ<sup>(١)</sup>

رَمَيْتُ بها العَيْدِيَّ حتى تحجَلتْ نواظرُ منها وانطَوَيْنَ بَطُونٌ<sup>(٢)</sup>

أقول لناقتي إذْ بَلَّغْتَنِي : « لقد أصبحتِ عِنْدِي بِالْمَيْنِ

فلم أَجْعَلْكِ لِقُرْبَانٍ نَحْرًا ولا قَلْتَ أَشْرَقِي بَدَمَ الْوَتِينِ

حَرُمْتَ عَلَى الْأَزْمَةِ وَالْوَلَايَا وَأَعْلَاقِ الرَّحَالَةِ وَالْوَضِينِ »<sup>(٣)</sup>

نَجَوْتُ من اللصِّ المَغِيرِ بَسِيفِهِ إِذَا مَا رَمَاهُ بِالتَّجَارِ سَبِيلُ

وَسَلَطْتُ خَمَّارًا عَلَى بَكَاسِهِ فَرَّاحَ بِأَسْلَابِي وَرَحْتُ أَمِيلُ

وَكَأَنَّ تَكُونُ الْحَانَاتِ عَلَى شُطْطَانِ الرَّافِدِينَ الدَّجَلَةَ وَالْفَرَاتِ ، فَيُصْعَدُونَ

إِلَيْهَا فِي الزَّوَارِقِ وَالسَّمِيرِيَّاتِ<sup>(٤)</sup> ، حَتَّى إِذَا صَارُوا إِلَى مَحَاذِهَا ، شَدَّوْا مِرَاكِبَهُمْ

إِلَى جَانِبِهَا ، وَنَزَلُوا يَشْرَبُونَ فِيهَا أَوْ يَمْتَارُونَ مِنْهَا . وَقَدْ مَرَّ بِنَا مِنْ قَصِيدَةِ

لَأَبِي نَوَاسٍ قَوْلُهُ :

وَقَلْتُ لِمَلَّاحِي : « أَلَا هَيَّ زُورِقِي » وَبِتُّ يَغْنِينِي أَخٌ وَنَدِيمُ

إِلَى بَيْتِ خَمَّارٍ أَفَادَ زِحَامُهُ لَهُ ثَرَوَةٌ ، وَالْوَجْهُ مِنْهُ بِهِمْ

فَقُلْتُ : « بَكْمِ رَطْلٍ » . فَقَالَ : « بِأَصْفَرٍ » فَخَزْتُ زِقَاقًا وَزَرُّهُنَّ عَظِيمُ

فَرَحْتُ بِهَا فِي زُورِقِي قَدْ كَتَمْتُهَا وَمَنْ أَيْنَ لِلْمَسْكِ الذِّكْيُ كُتُومُ

(١) الدوية : البرية والفلاة . (٢) العيدى : الواحد من الإبل النجائب نسبة

إلى فعل مشهور فيقال النجائب العيدية . تحجَلت : غارت .

(٣) الأزمة : جمع زمام ما يزم به . الولايا : جمع الولية البرذعة أو ما تحتها . الوضين :

بطان عريض منسوج من سيور أو شعر . (٤) السميرية (والسمارية) : سفينة كانت

تستعمل في العراق للزحمة مثل الذهبية في وادي النيل .

وقد كان من شأن ما طبع عليه الشاعر من الافتتان بمناظر الطبيعة ومحاسنها الحسية ، ما نراه من ولعه بالخانات تجمع إلى جودة الخمر نزهة مكانها وحسن موقعها وطيب مجالسه فيها ، بين الرياض المونقة الناضرة ، فوق بسط صندسية مفروشة ، وتحت كروم مهدلة معروشة ، وعند الغدران المترققة والجدول السريعة المتعرجة ، وعلى شطآن الفراتين مشهد من العباب الجاري ، الماء ، وبسمع من الموج الزاخر القوار

إلى جَنَاتِ كَرَمٍ من كُرومٍ مُعَرَّشَةٍ مُعَرَّجَةٍ النواحي  
فمن اليمينِ جداولٌ منسوقةٌ وعن الشمالِ حداثٌ وكرومٌ  
واقصدْ إلى شطِّ الفرات ، وعاطني قبل الصباح وعاصِ كل مفندٍ  
فلم يكن ما هو آخذٌ فيه من اللهو والقصف ليلهميه عن جلاء العين بما يضاحكها  
من ألوان الأزهار وجنى الثمار ، وطربِ الأذن بما يناغيها من خرير الأنهار  
وتفريد الأطيار :

ثم ملنا إلى بقاع رياضٍ زينتْها الأنواء بالأنوار<sup>(١)</sup>  
جامعاتٍ لكل نورٍ غريبٍ من بياضٍ في حسن خدِّ العذار  
وورودٍ تزهو كحمة خدي جرحته نواظرُ النظار  
بينها صُفرةٌ كصفرة صَبٍّ ساهر الليل من هوى غدار  
في سوادٍ مثل الشَّباب ترى الحلو رَ يُجاوِزُهُ بحسن اخورار  
طاب فيها ارتضاعنا الكأس حق صرَعْتنا عن ضعفها باقتدار  
فُزْنَا بها في حديقاتٍ مُلَفَّفةٍ بالرَّند والطلح والرُّمان والتُّوت

(١) الأنوار : جمع نور : الزهر الأبيض .

تُلهيك أطيارُها عن كل مُلهيةٍ إذا ترنم في ترجيعِ تَضْوِيت<sup>(١)</sup>  
 لم يَنْنِى اللَّهُمُّ عن غَشِيانِ مَوْرِدِها ولم أَكُنْ عن دَواعِيا بِصَمِيت<sup>(٢)</sup>

وهنا وسط هذه المناظر الباهرة والأنعام الساحرة ، بعيداً عن هموم الحياة  
 وفي غفلة عن حركة الزمن ، كان يلذّ للشاعر الشرب ، وكأنه فاز بالرحيق  
 في جنة الخلد :

فنحن وإن لم نسكن الخُلْدَ عاجلاً فما خلدنا في الدَّهرِ إلّا رَحِيقُها  
 وهكذا كان أبو نواس في تفتّح حسّه لأنواع اللذة حريصاً أشدّ الحرص على  
 استيفاء المتعة . ومن ثمة إشارته إلى جانب الحانات في كرخ بغداد ، وحانات  
 قُطْرَبُلٍ وطَيِّزَ ناباذ<sup>(٣)</sup> ، فما زالت هذه وتلك متنزّهاً للبطالين ومحلة للخمارين :

وملّ إلى مجلسٍ على شرفٍ بالكُرخ بين الحديق مُعتمدٍ<sup>(٤)</sup>  
 ممهدٍ صَفَّتْ نمارقُه في ظلِّ كرمٍ معرّشٍ خِضدٍ<sup>(٥)</sup>  
 قد لحفتك الفصونَ أُرْدِيَةً فيومك الغضُّ بالنعمِ ندى

يا حَبذا مجلسٌ قد كان يجمعُنا بطَيِّزَ ناباذٍ في بُستانِ عَمَّارٍ

ومجلسٍ خمارٍ إلى جنبِ حانَةٍ بقُطْرَبُلٍ بين الجنانِ الحدائقِ  
 تجاهِ ميادينٍ على جنباتها رياضٌ غدت محفوفةً بالشقائقِ

ومن الحكايات التي يحدّثنا بها أبو نواس عن نفسه خبرٌ نسوقه إلى القراء على  
 بساطة فحواه ، لما يستدل من سياقه على ما كان للمواضع النزهة من فتنة للشاعر واستيلاء

(١) ملهية : مغنية عازفة . ترنم : تغنى . (٢) الصميت : الكثير الصمت .

(٣) طيز ناباذ ، ضبطها الطبرى وابن خرداذبة بفتح الطاء ، وضبطها ياقوت بكسرهما .

(٤) شرف : المكان العالى . (٥) النمارق : الوسائد الصغيرة يتكأ عليها .

الخضد : المهمل العاجز عن النهوض وحده .



على هواه . [ أهدى للأمين أربعائة دينار مُضمّنة في الدينار ديناران فوهبها  
لى . فقلتُ : « يأذن لى أمير المؤمنين فى المصير إلى قطر بل ؟ » . فقال لى :  
« ويحك ! أتريد وجهها أحسن منى ، أو أمثلَ قدراً وأعظمَ خطراً ، أو مكاناً  
أطيب من مكانى ، أو آلة أحسن من آلتى ، أو مجموعاً أحسن مما نحن فيه ؟ » .  
قلت : « لا ، يا أمير المؤمنين . ولكنى أريد أن أتشم ذلك الهواء ،  
وأنظر ذلك الثرى . وليس لى بها مقام أكثر من ليلة واحدة ثم آتيك فى  
صبيحتها » . ]

ولم يكن أبو نواس يبالى بعد النقلة فى ارتياد هذه الخانات الزهية . حكى  
أبو الشبل البرزجمي : [ اجتمعت بأبى نواس فى النوبختية . فسألتُ عليه وسألته  
عن خبره ، وتحدثنا طويلاً . ثم قال مقترحاً : « أنساعدنى حتى نمضى إلى موضع  
طيب ؟ » . فقلت : « أين هو ؟ » . قال : « بقطر بل » فقلت « ضاقت الدنيا  
حتى نساقر ! » فقال لى : « إن هناك خماراً ظريفاً لبقاً ، مساعداً ، عنده شرابٌ  
عتيق وغلمانٌ صباح . فامض بنا » فمضيت معه حتى أتى حانة خمار . فقال لى :  
« أتعرفه ؟ » . قلت : « لا » . قال : « هذا ابنُ أذين الذى أقول فيه :

إسقى يا ابنَ أذينٍ من شرابِ الزَّرَجونِ<sup>(١)</sup>  
إسقى حتى ترى بى جِنَّةً غيرَ جنون  
قهوةً عُمِّي عنها فاطراً رَيْبَ المنون  
عُتِّتْ فى الدَّنِّ حتى هى فى رِقَّةٍ دِبنى  
ثم شُجَّتْ فادارت فوقها مثلَ العيون  
حدَقاً ترنُّو إلينا لم تُحجِّرْ بحفون<sup>(٢)</sup>

(١) الزرجون كلمة فارسية مكونة من (زر) الذهب (كون) اللون إشارة إلى لون  
الشراب اللبى . (٢) حجر : صارت حوله دائرة .

ذَهَبًا يُشْمَرُ دُرًّا كُلَّ إِبَانٍ وَحِينَ  
 بِيَدَيَّ سَاقٍ عَلَيْهِ حُلَّةٌ مِنْ يَاسْمِينِ  
 وَكَلَى الْأُذُنَيْنِ مِنْهُ وَرَدَتَا آذَرَ يُونِ<sup>(١)</sup>  
 غَايَةً فِي الشَّكْلِ وَالظَّرِّ فِ ، وَفَرَدُّ فِي الْجُونِ  
 غَنَّى يَا ابْنَ أُذَيْنِ « وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ »<sup>(٢)</sup>

فاقفنا عنده ثلاثة أيام في أنزه موضع ، ومع أ كيس خادم ، ثم انصرفنا [   
 وكان أبو نواس — كما رأينا — يطيل مقامه أياماً في الحانة من هذه الحانات   
 المألوفة له الأثيرة عنده ، عاكفاً على الخمر مدمناً لها ، ولقد يأتي على ماله كله ولم   
 يستوف شرابه ، فلا يبالي أن يرهن للخمار ثيابه :

إِلَى بَيْتِ حَانٍ لَا تَهَرُّ كَلَابَهُ عَلَى ، وَلَا يَنْكُرُنْ طَوْلَ ثَوَائِي  
 فَمَا رِمْتُهُ حَتَّى أَتَى دُونَ مَا حَوَتْ يَمِينِي ، حَتَّى رَیْطَنِي وَحْدَانِي<sup>(٣)</sup>  
 وكذلك كان الشاعر كثير الأسفار إلى طيزنا باز بين الكوفة والقادسية .   
 وكانت من أنزه المواضع ، كثيرة الكروم ، تخرقها من كل ناحية الأنهار الآخذة   
 من الفرات . وخرها موصوفة بالجودة كالشراب القطربلى . ومن أقوال   
 النواسى فيها .

بِطِيزْنَابَازِ كَرَمٌ مَا مَرَرْتُ بِهِ إِلَّا تَعَجَّبْتُ مِمَّنْ يَشْرَبُ الْمَاءَ

(١) الآذريون : زهر أصفر . (٢) الماطرون : موضع بالشام قرب دمشق :   
 والشاعر يطلب إلى ابن أذين هنا أن يغنيه أبياتاً ليزيد بن معاوية مطلعها .   
 آبَ هَذَا أَهْمٌ فَارْتَمَا وَأَمْرُ النَّوْمِ فَاغْتَمَا   
 وَمِنْهَا : وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا أَكَلَ النَّمْلُ النَّيَّ جَمْعًا   
 (٣) رام المكان يريه : فارقه . الریطة : الثوب يلتحف به .

وقوله :

فَتَكُنْ طِيزَنَابَا ذُ ، وَقَدْ كُنْتُ تَقِيَا  
 قَدْ تَرَكْتُ الْمَاءَ فِيهَا وَشَرِبْتُ الْخُسْرَوِيَا  
 أَرْضُ كَرَمٍ تَجْلِبُ الدَّهْرَ شَرَابًا سَابِرِيَا

والشرابُ الذي يجاء به من طِيزَنَابَاذَ منتهى كلِّ عيشٍ

ولقد اشتهرت مجالس النواصي في طِيزَنَابَاذَ حتى إنها بعد أن خربت ولم يبق بها إلا أثر قبائها ، شاعت تسميتها باسم « قِباب أبي نواس »

وكانت أطيّب حانات طِيزَنَابَاذَ وأحظاها لديه وآثرها عنده ، حانات ديرها المعروف بدير سرجيس ، وهو أحد البقاع المعمورة ونزّه الدنيا المقصودة . فقد كانت أرضه مخفوفةً بالنخل والكروم والشجر ، وفي ظلالها الحانات والمعاصر . وقد بلغ من كثرة اختلاف الشاعر إلى هذا الدير ، ولهجه بنجره ، أن كان يسميه الناس « معصرة أبي نواس » . ومن ذكره في شعرهم الحسين بن الضحاك إذ يقول :

هل تعذران بدير سرجيس صاحباً بالضحو ، أو تريان ذاك جناحا  
 وطِيزَنَابَاذَ على طريق الحاج من بغداد إلى مكة . ومن أجل ذلك اقترن ذكرها بذكر الحج في أشعار أبي نواس وأخباره أكثر من مرة

في الطريق إلى الحج

حكى سليمان بن نو بخت : [ خرجت للحج واستصحبني أبا نواس بعد امتناع منه ونفار . وشرط عليّ أن أتقدم معه الحاج إلى القادسية ، فنقيم نشرب بطِيزَنَابَاذَ .



فنزل على خمار كان يآلفه — اسمه سرجس — فشرب يومه وليلته . ثم اتبه  
يقول أبياتاً له مظهرها :

وخمارٍ أُنخْتُ عليه ليلاً قلائصَ قد وَنِنَ من السَّفارِ

ثم جلس يشرب . فلم يزل كذلك حتى ورد علينا أوائل الحجاج ، وحجوا  
ثم عادوا . فرحلنا معهم إلى بغداد على أننا كنا حجاجاً معهم [

وصاحبنا فيما قدَّمناه من حكاية حجه المزعوم ، إنما جرى على سنَّة أُنْداده  
وأصحاب الفضل في إفساده ، أمثال يحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس . فقد روى  
الشابشتي — في الديارات — أنهما خرجا حاجين من بغداد ، فلما صارا بين  
الكوفة وحَمَّامِ عَيْنٍ ، ولاح لهما على يمين طريق الحاج دير زُرارة — وكان نزهاً  
كثير الحانات — قال أحدهما لصاحبه : « هل لك أن نقدم أثقالنا ، ونمضي إلى  
زُرارة ، ونشرب في ديرها ليلتنا ، وننزود من خمرها ونستوفي من مُردها ما يكفيننا  
إلى العودة ، ثم نلحق بأثقالنا ؟ » . ففعلوا . وسار الناس ، وأقاما . ولم يزل ذلك  
دأبهما إلى أن عاد الحاج . فخلقا رءوسهما ، وركبا بعيرَيْن ، ودخلا مع الحاج على  
أنهما قد حجَّبا . وقال مطيع في ذلك :

ألم ترني ويمحي إذ حججنا وكان الحج من خير التجارة

خرجنا طالبين خيرٍ ودينٍ فقال بنا الطريقُ إلى زُراره

فآب الناس قد غنموا وحجوا وأبنا موقرين من الخساره

وهكذا كانت حوانيت الخمارين في مواضعها النزهة في ضواحي بغداد وفي  
طيزناباذ تفتن القوم عن دينهم ، وتعترض انصياعهم لأوامره وتشغلهم عن إقامة  
شعائره . ولعل أبلغ الشهادة على ذلك هاتان المقطوعتان لأبي نواس :

وقائل « هل تريد الحج ؟ » قلت له  
أما وقطربلّ منها بحيث أرى  
فالصالحية ، فالكرخ التي جمعت  
فكيف بالحجّ لي ما دمت مُنغمساً  
وهبك من قصف بغداد تخلصني  
« نعم ، إذا فנית لذات بغداد  
فَقُبَّةَ الْفِرْكَ من أكناف كلواذى  
شَذَا بغداد مام لي بشَذَا  
في بيت قوادة أو بيت نبّاذ<sup>(١)</sup>  
كيف التخلص لي من طيزنا باذ ؟ ! »

قالوا « تَنَسَّك بعد الحج » قلت لهم  
أخشى قُضَيْبَ كَرَمٍ أن يُنازعني  
ما بعد النسك من قلبٍ تقسمه  
فإن سلت — وما قلبي على ثقة  
ما شئت من بلدٍ دانٍ منازحه  
قومٌ تواصوا بترك البرّ بينهم  
ليسوا كقوم إذا حاذيت مجلسهم  
هناك لا تتخطى الأذن لأئمة  
« أرجو الإله وأخشى طيزنا باذا  
فَضْلُ الْخِطَام وإن أسرعُ إغذاذا  
قطربلّ ، فقرى بُنَى ، فكلواذى  
من السّلامة — لم أسلم بيغذاذا  
لكنّ فيه قبيلاتٍ وأفخاذا  
تقولُ ذا شرهم ، بل ذاك ، بل هذا  
أنفذت بالترك والإزكان إنفاذا<sup>(٢)</sup>  
ولا ترى قائلاً من ذا ولا ماذا »

### محالّ الشرب في الأديرة

ولقد كثرت أوصاف أبي نواس وأمثاله لمحالّس اجتمعوا فيها للشرب واللهو  
والقصف في الديارات النصرانية في أنحاء العراق والجزيرة والشام ومصر. ولا يكاد  
يخلو مصنّف في أوصاف البلدان يتعرض لذكر الأديرة في مواضعها من إيراد جملة  
صالحة من أخبار هذه المحالّس وما قيل من الأشعار فيها .

والدير مقام الرهبان يتأبدون فيه اعتزالاً للناس وانقطاعاً لله بالعبادة والتأمل ،  
متنسكين زاهدين في عَرَض الدنيا وطيبات الحياة ، متنزهين عن النساء وعن

(١) النباذ : بائع النجيل . (٢) أركن الشيء : ظن فيه ظناً فأصاب .

أكل ذوات الأرواح وما يخرج منها إلا العسل والسّمك . ويكون الدير كبيراً كثير المرافق والمحارب ، فإذا كان صغيراً فقد يقال له الصومعة . ويقال للراهب الساكن الدير دَيَّار ودَيَّرَانِي ، وللراغبة دَيْرِيَّة ودَيْرَانِيَّة . والرهبان والرواهب يلزمون لبس المسوح وخدمة الدير . ولكل دير رئيسه القيم عليه . أما الكنيسة فهي مجتمع عامة النصارى للصلاة ، وليس في ارتفاع بنائها طبقات . والبيعة أصغر منها . ورجال الكنيسة من شمامسة وقساوسة وأساقفة ليسوا كالرهبان في التوحد والنسك ، وهم موكلون بخدمة الناس في أمور العبادات من إقامة الصلوات ومناولة القربان وما شاكل ذلك .

والأديرة على خلاف الكنائس والبيع لا تكاد تكون في الأمصار ، بل أكثر ما تكون بعيدة عن العمار ، في ظواهر المدن وفي رؤوس الجبال . وسواء كانت في بساط من الأرض أو على يفاع ، فإنها كانت تقام في أجمل المواقع وأزهر البقاع . وهي تختلف في بنائها وغلّاتها وطريق الوصول إليها بحسب مواضعها ومقتضى طبيعة الإقليم .

فهذا دير في السهل تحف به الرياض الغناء الكثيرة المياه ، ومن حوله قلال رهبانه يتعهد كل راهب منهم رقعة بستانه ، وقد ازدهرت فيه طرائف الرياحين وزكت أشجار الفاكهة وترعرعت أنواع البقول .

وهذا دير ثان على سفح ربوة من الربوات ، يركب الدجلة أو أعالي القرات ، ترى عنده أرحية الطواحين يديرها الماء ، وحوله من الكروم ومن شجر الزيتون والرمان ومن الآس والنرجس والزعفران شيء كثير .

وهذا ثالث مشرف الذرى على قُنَّة جبل شامخ ، يبين للناظرين من عدة فراسخ ، بدرَج في الصخر ، وقلاليه مبنية بعضها فوق بعض في صعود الجبل ،



والماء ينحدر إليه من ينبوع ينصبّ من أعلاه ، وله صهر يجتمع فيه ماء المطر ويجرى إليه ماء الينبوع في أنابيب من صُنْفَر ، وفيه جنات من شجر البندق والفسق واللوذ الفرك<sup>(١)</sup> ، وله مُشْتَرَف على سطح هيكله يطلّ على الجبل وعلى دجلة ، وبازائه الجزائر تتفرق خلجانها وغدرانها ، وهو غاية في روعة المنظر ورقة الهواء .

ثم هذا عُمُرٌ كبير على حدود البادية كالحصن العظيم ، عليه سور محكم البنيان ، وبابه من حديد مُصَمّت مفرط في الكبر ، وهو في بقعة طيبة ذات مروج وغدران صافية وعين جارية ، وله سطح يُصعد إليه ، به مجلس أروع يشرف على سعة فضاء ، ومخاضر فيحاء .

وإذا نحن ذكرنا أن الخمر طُلِق عند النصارى مرخص فيها مما حدا شاعرنا الخُمُور أن يقول قوله المشهور :

خُذْهَا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ ، إِذَا نَهَى عَنْ شَرْبِهَا دِينُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

وأن الخمر فوق ذلك تدخل عند النصارى في أسرار القربان المقدس ومراسمه ، لم نعجب لهذا الذي نراه من عناية الأديرة بتوفير الكروم فيها ، واتخاذ المعاصر لها ، والخبرة بصناعة الخمر وإحكام تعتيقها ، حتى كان أمراء النصارى أنفسهم — مع ما في قصورهم من الشراب الجيد — لا يضيعون فرصة للشرب من خمر الأديرة كلما أمكنت . وهي شهرة قديمة مثل قدم الأديرة . ومن ذلك ما يروى عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة . فقد كان في كل أحدٍ وكل عيدٍ يركب إلى « دير اللج » ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر ومن ينادمه من أهل دينه ، وعليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم

(١) اللوز الفرك : المتفرك قشره وهو المتكسر .

الزنانير المحلاة بالذهب المفصصة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب، فإذا قضوا صلاتهم، انصرف إلى مستشرفه على النجف فيشرب فيه بقية يومه إلى أن يمسي .

### طراق الأديرة المسلمون

ولما كانت الأديرة — كما أسلفنا القول — تقع في ظواهر البلاد وأرباضها وفي الخلوات والجبال والقفار، فهي ثمة في طريق المسافرين والخارجين للتصيد من ملوك وأمراء، والمتطرحين في طلب النزهة من أهل البطالة أو الجد. فكأنوا يعدلون إليها أحياناً، إذا المسافر أدركه الليل وخاف ركوبه والإدلاج فيه، وإذا أصحاب الطرد والقنص أخذهم مطرٌ أو أجهدهم تعبٌ أو نال منهم عطش، كما كان يعدل سوام غير هذا وذاك من دواعي التفرّج والتنزه في مشرفاتها وبساتينها. فكان من ثمَّ أن تعود المسلمون الخلطة بالرهبان ولا سيما في الديرة التي لم تخصّص بها بيوت للضيافة. وقد جرى الرهبان على إكرام هؤلاء الأضياف على حسب أقدارهم بالطعام الكثير والشراب العتيق. حكى إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: [خرجنا مع الرشيد نريد الرقة. فلما صرنا بالموضع الذي يقال له القأم، نزلنا وخرج يتصيد وخرجنا معه، فأعد في طلب الصيد. ولاح لي ديرٌ فقصدته وقد تعبتُ، فأشرفتُ على صاحبه فقال: «هل لك في النزول بنا اليوم؟» فقلت: «إي والله! وإني إلى ذلك لمحتاج». فنزل ففتح لي الباب، وجلس يحدثني. وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بني أمية. فجعل يحدثني عن نزل به من القوم ومواليهم وجيوشهم. وعرض على الطعام فأجبت. فقدم إلى طعاماً من طعام الديارات نظيفاً طيباً، فأكلت منه، وأتاني بشراب وريحان طري، فشربت منه. ووكل بي جارية تخدمني راهبة لم أر أحسن وجهاً

منها ولا أشكل . فشربتُ حتى سكرت . ونمتُ وانتبهتُ عشاءً .  
فقلت في ذلك :

بَدِيرِ الْقَائِمِ الْأَقْصَى      غَزَالُ شَادِنٍ أَخْوَى  
بَرَى حُبِّي لَهُ جِسْمِي      وَلَا يَعْلَمُ مَا أَلْقَى  
وَأَكْتُمُ حَبَّةَ جَهْدِي      وَلَا وَاللَّهِ مَا يَخْفَى

وركبتُ ، فلحققت بالمعسكر . والرشيد قد جلس للشرب وطلبني فلم أوجد .  
وأخبرت بذلك ، فغَنَيْتُ بِالْأَبْيَاتِ ودخلت عليه . فقال لي : «أين كنت؟ ويحك»  
فأخبرته بالخبر ، وغَنَيْتُهُ الصَّوْتُ ، فطرب وشرب عليه حتى سكر . وأُخِرَ الرَّحِيلُ  
في غَد . ومضينا إلى الدَّيْرِ ، ونزله ، فرأى الشيخ واستنطقه ، ورأى الجارية التي  
كانت تخدمني بالأمس . فدعا بطعام خفيف فأصاب منه ، ودعا بالشراب ،  
وأمر الجارية التي كانت بالأمس تخدمني أن تتولى خدمته وسقيته . ففعلت .  
وشرب حتى طابت نفسه . ثم أمر للدير بألف دينار ، وأمر باحتمال خراجِه له  
سبع سنين . ورحلنا ] .

### الخمر النصرانية

وكانت للأديرة تجارة ومعاملة مع الناس تبيعهم من غلات مزارعها ، وخاصةً  
من خمرها ، للارتفاق بما يحصل من ثمنها في مصالح الدير ، وتأدية ما قد يكون  
عليه من جبايات الخراج . وهذه التجارة لم يكن للدَّيْرَةِ عنها مندوحة لأن  
الكثير منها لم تكن له وقوفٌ للنفقة على مصالحه .

وهكذا كثر شُرَابُ الخمر من المسلمين الذين كانوا يقصدون إلى الديارات  
النصرانية لجودة الشراب ونظافة الأنية وطيب المكان . ومن الحكايات التي



كانت متداولة متواترة على ألسن أهل الحيرة ونقلها عنهم الرواة هذه الحكاية عن خمارٍ في دير حنة الكبير يقال له مرعبداً . حكى مرعبداً قال : [ ما شعرت يوماً وقد فتحتُ حانوتي وجلستُ إلى جانب الهيكل ، إلا بثلاثة فوارس قد أقبلوا في طريق السماء في البرّ ، حتى وقفوا علىّ ، وهم متلثمون بعمائم الخبز وعليهم حلّ القصب . فسلموا علىّ ، وأسفر أحدهم وقال : « أنت مرعبدا ، وهذا دير حنة ؟ » . قلت « نعم » . قال : « قد وُصفت لنا بجودة الشراب والنظافة ، فاستقني رطلاً » . فبادرت فغسلتُ يدي ، ثم نقرتُ الدنان ونظرتُ أصفها فبزلته . فشرب ، ومسحَ يده وفمه بالمنديل . ثم قال : « استقني آخر » . فغسلتُ يدي ، وتركتُ ذلك الدنّ وذلك القدحَ والمنديلَ ، ونقرتُ دناً آخر . فلما رضيت صفاءه ، بزاتُ منه رطلاً في قدح ، وأخذتُ منديلاً جديداً . فناولته إياه فشرب كالأول . ثم قال : « استقني رطلاً آخر » . فسقيته في غير ذلك القدح وغير ذلك المنديل . فشرب ومسحَ فمه ويده . وقال لي : « بارك الله فيك ! فما أطيب شرابك وأنظفك وأحسن أدبك ! وما كان دأبي أن أشرب أكثر من ثلاثة أرطال . فلما رأيت نظافتك ، دعيتني نفسي إلى شرب رابعٍ ، فهاته ! » فناولته إياه على تلك السبيل . فشرب ، وقال : « لولا أسبابٌ تمنع من بيتك ، لكان حبيباً إلىّ جلوسى يومى هذا فيه » . وولّى منصرفاً في الطريق الذي بدا منه . ورمى إلىّ أحد الراكبين اللذين كانا معه بكيس . فقلت : « وحقّ النصرانية ! لا قبِلْتُهُ حتى أعرف الرجل » . فقال : « هذا الوليد بن يزيد ابن عبد الملك . وُصِفَ له ، فأقبلَ من دمشق حتى شرب من شرابك ، ورأى درك والحيرة » . ثم انصرف . فخللت الكيس ، فإذا هو أربع مائة دينار .

## بين النظر والسماع

وكان هؤلاء الزوار كثيراً ما يروهم ويملك عليهم إعجابهم ما تكون عليه الأديرة القديمة — من العهود الرومانية البيزنطية — من حسن البناء ونفاسة العمارة ، ولطافة القباب وبهجة ألوانها ، وما في سقوفها من الذهب وبدائع التصوير ، وما في حيطانها من الفسافس وآزاج أبواب فيها صور الأنبياء محفورة منقوشة ، والهيكل المفروش بالمرمر لا تستقر عليه القدم ، وقناديل الفضة ، وصلبان الذهب ، وأخيراً — وليس آخرأ — صورة مريم العذراء بالأصباغ الزاهية وفصوص الفسيفساء في غاية من إتقان الصنعة والبهاء ، تستوقف النظر منهم وتشغل الفكر ، حتى قال شعراؤهم فيها شعراً ، كالذي قاله أبو النصر البصري في صورة بيعة مارسرجس في نواحي بغداد :

فَتَنَّتْنا صُورَةً في بَيْعَةٍ	فَتَنَ اللهُ الذِي صَوَّرَها
زادها النَّاقِشُ في تَحْسِينِها	فَضَلَ حَسَنٌ . إِنَّه نَصَّرَها
وَجْهَها لاشكَّ عِنْدِي فَتَنَةٌ	وكذا هي عِنْدَ مَنْ أَبْصَرَها
أنا لِلْقَسِّ عَلَيْها حاسِدٌ	لَيْتَ غَيْرِي عُبْثاً كَثَّرَها

وكقول محمد بن عاصم في صورة بدير القصير في مصر :

صُورَةٌ مِنْ مَصوِّرٍ فِيهِ ظَلَّتْ	فَتَنَةٌ لِلْقُلُوبِ وَالْأَبْصارِ
يَفْتُرُ الجِسمُ حينَ تَرْمِيهِ - حُسْنًا -	بِفَنونٍ مِنْ طَرْفِها السَّحارِ
وإِشارَتِها إِلى مَنْ رآها	بِخُضوعٍ وَذِلَّةٍ وانْكَسارِ
لا ، وَحَسَنِ العَيْنينِ وَالشفَةِ اللَّـهِ	سِياها مِنْها ، وَخَدَّها الجُلنَّارِ
لا تَخْلَفْتُ عَنْ مَزارِي لِديْرِ	هي فِيهِ ، وَلَوْ تَناءَى مَزارِي

وقد بلغ من افتتان زوّار الأديرة المسلمين بأمثال هذه التصاوير الحسان أنهم كانوا يشربون على وجوهها :

كَمْ شَرِبْنَا عَلَى التَّصَاوِيرِ فِيهِ بِصِغَارٍ مَحْثُوثَةٍ وَكِبَارٍ  
وكانوا إذا انصرفوا لم تبرح هذه الصور في جملها الحلو الرقيق ماثلةً في أذهانهم،  
حتى صارت في عداد التشايب المتداولة المشتركة كلما أراد الواصفون أن يبلغوا  
الغاية في وصف جمال مَنْ ينسبون به . ومن ذلك قول النوايس :

شَمَّرُ شَبَابِكَ فِي قَتْلِي وَتَعْذِيبِي فَقَدْ تَسَرَّبَتْ ثُوبُ الْحُسْنِ وَالطَّيِّبِ  
عَيْنَايَ تَشْهَدُ أَنِّي عَاشِقٌ لَكُمْ يَا دُمِيَّةَ صَوْرُوهَا فِي الْحَارِيبِ  
ولم تكن مفاتن النظر مع الشراب كلَّ ما يشوق القوم ويحبب إلى نفوسهم  
القصف في الأديرة، بل كان يهتاجهم ويمرّق أشواقهم ويزيدهم طرباً إلى الغبوق  
فيها والصُّبُوح ما كان يقرع آذانهم في هدأة المساء وفي هدأة الصباح من ضرب  
النوايس وتراويل الرهبان أو الراهبات في صلواتهم في كنيسة الدير .

وللشعراء في ذلك قول كثير نلخصه فيما يلي :

إِشْرَبْ عَلَى قَرْعِ النَّوَائِسِ أَوْ صَوْتِ قَسَّانٍ وَتَشْمِسِ  
وَهَكَذَا فَاشْرَبْ وَإِلَّا فَكُنْ مُجَاوِرًا بَعْضَ النَّوَائِسِ

كَمْ تَنْهَيْتُ مِنْ لَذَاذَةِ نَوْمِي بِنَعِيرِ الرُّهْبَانِ فِي الْأَسْحَارِ  
وَالنَّوَائِسِ صَاحِحَاتُ تَنَادَى : « حَيَّ - يَا نَائِمًا - عَلَى الْإِبْتِكَارِ »

الْأَهْلُ إِلَى دَيْرِ الْعِزَّازِيِّ وَنَظَرَةٍ إِلَى الْحَيْرِ - مِنْ قَبْلِ الْمَاتِ - سَبِيلُ  
وَهَلْ لِي بِسُوقِ الْقَادِسِيَّةِ سَكْرَةٌ تُعَلِّلُ نَفْسِي ، وَالنَّسِيمُ عَلِيلُ



وهل لي بحاناتِ المطيرةِ وقفةٌ أراعى خروجَ الرُّقِّ وهوَ حميلٌ  
إلى فتيةٍ ما شئتَ العذلُ شملهم شعارُهمُ عندَ الصُّباحِ شمولٌ  
وقد نطقَ الناقوسُ بعدَ سكونه وشمعلٌ قيسٌ، ولاحَ فتيلٌ<sup>(١)</sup>  
وقد ذكر أبو نواس قرع النواقيس في خرياته أكثر من مرة، وأشار في بعض  
أبياته إلى مواقيت قرعها عند الشروق .

وبالنَّاقوس في البيعِ اللواتي تُقامُ بها الصَّلَاةُ لدى الشُّروقِ  
واستوفى ذلك في قوله :

يُكرِّرون نواقيساً مُرجَّةً على الزُّبورِ يامساء وإصباح

ولم يتورع الشاعر المسلم ، في دولة الإسلام وصولته ، من المجاهرة في هذه القصيدة  
بإيثاره ترجيع هذه النواقيس يامساء وإصباح ، على صوت المؤذِّن في مناداته :  
« حىَّ على الصلاة ، حىَّ على الفلاح » . فأتبع الشقُّ البيت السابق بقوله :  
تنأى بسمعك عن صوتِ تكررِّهه فلتستسمعُ فيه صوتَ فلاحٍ  
وبديهي أنه إنما يتكره صوتَ المؤذِّن لما فيه من تنبيه الغافلين مثله إلى  
تقصيرهم في جانب الدين :

يا سُلَيْمانُ غَنِّني ومن الرِّيحِ فاستغني  
فاذا دارتِ الزُّجَا جةٌ خُذْها وأعطني  
ما ترى الصُّبْحَ قد بدا في إزارِ مُبَيِّن  
عاطني كأسَ سَلْوَةٍ عن أذانِ المؤذِّن

( ١ ) شمل بمعنى سقى مجداً .

وفي مثل هذا المعنى قوله :

إذا ما دنا وقتُ الصلاةِ رأيتهم يحثونها حتى تفوتهم سُكرا  
ولقد كانت عادة القوم الكناية عن انقضاء الليل بصياح الديكة ، فإن كانوا  
إلى جوار الديرة زادوا على ذلك ضرب النواقيس ، مثل قول جرير في دمشق  
لَمَّا تَذَكَّرْتُ بِالْدَّيْرَيْنِ ، أَرَقَنِي صَوْتُ الدَّجَاجِ وَضَرْبُ النَّوَاقِيسِ  
وقد يستغنون بالنواقيس عن كل ماعداها ، ولا يصفون إلى صوت سواها ؛  
كما نرى في قول النواسي :

يا ليلةً طَلَعَتْ بالسَّعْدِ أَجْمَهَا فَبَاتَ يَفْتِكُ بالسَّكَرَانِ سَكْرَانُ  
بَنَّا نَدِينُ لِإِبْلِيسِ بِطَاعَتِهِ حَتَّى نَعَى اللَّيْلَ بِالنَّاقُوسِ رُهْبَانُ  
وليس شيء ، أكثر من افتتان ذكر النواقيس بالشراب . فقد كان قرعها ينبه  
أصحاب الشراب إلى حلول موعد الغبوق ، فلا تكاد تهدأ النواقيس حتى يبادروا  
الليل المقبل بما هيئوا من مجلس أنيق وشراب عتيق ، يدور عليهم بقده المشرق  
كالبدر ساق كالبدر ، كما يحكى أبو نواس :

حتى إذا اشتمَلَ الظلامُ بِيُرْدِهِ وَهَذَا حَنِينُ نَوَاقِيسِ الرُّهْبَانِ  
أَفْنَيْتَهُ بَدْرًا يَلُوحُ بِكُفِّهِ بَدْرُ جَمْعَتُهُمَا لِعَيْنِ الرَّائِي  
ولما كان الذي جرى عليه أبو نواس ومن على شاكلته إذا اجتمعوا للشراب أن  
يفنوا الليلة كلها في المعاقرة ، فقد كان مجلس شرابهم يمتد بهم كما رأينا من وقت  
أن تقرع النواقيس في الأصيل إلى أن تقرع النواقيس ثانية في السحر ، وعندئذ  
يعد شاعرنا إلى صرعى السكر حوله ينبهم ليبادروا الصبح معه :

تَرَى الْكَأْسَ تَسْمَى بَيْنَنَا فَكُنَّا تَرَدَّدُ فِيمَا بَيْنَنَا فِي الْأَصَائِلِ

فما برحتُ حتى الصُّباح يديرُها  
فبينَ صريعٍ قدَ تجدَلُ طاحِفاً  
فلما رأيتُ الصُّبحَ أَسْفَرَ وَجْههُ  
طَفِقْتُ أَفْذِيهِ وَأَدْعُوهُ بِاسْمِهِ  
فقلتُ له: «تفديكَ نفسي وأُسرقي  
أَلستَ تَرى ضوءَ الصُّباحِ ونورَه  
فقمُ فاضطَبِّحْها وانفِ عَنكَ خُمَارَها  
فما زالَ حتى ذاقَها متكرِّها  
وحَتَّى تَغْنَى لاهِياً مُتَطَرِّباً  
( خَليلٌ عُوْجاً من صدورِ الرِّواحِلِ

ويجْرى بنا في كلِّ حقٍّ وباطِلِ  
إلى ذى وَسَادٍ مائلِ الرَّأسِ زائلِ  
وحنَّتُ نواقيسُ الدُّجى في الهَيَاكلِ  
فقال مُجِيباً « ما تَشاء ؟ » بِتَنَاقُلِ  
ويَفديكَ طُراً كُلُّ حَافٍ وَنَاعِلِ  
وتسمعُ تفريدَ الحمامِ الثَّوَاكِلِ ؟  
فليسَ لها مِثْلُ الصَّبُوحِ المُعَاجِلِ  
فردَّتْ إِيَّاهُ رُوحَهُ في المَفَاصِلِ  
غِناءَ عَميدِ القلبِ نشوانَ نَاحِلِ  
بِوعْساءِ حُزْوَى فابْكِيَا في المَنَازِلِ )

### فتنة الفتن

فالديارات النصرانية بما فيها وما حولها من المنازه ومن أسباب الفرجة والمتعة ، كانت تجتذب طائفة كبيرة من الزوار المسلمين ، حتى كان يتخذها بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين مُستراداً للاستجمام والاهو بعيداً عن متاعب الحكم ، فيخرجون إليها ويقيمون فيها أياماً مع من يأنسون إليه من خواص الحاشية والندامى . كما كان أهل البطالة من الخلعاء والشعراء لا يصبرون على ارتيادها . وغنى عن البيان أن شراب الأديرة كان فتنتها الكبرى ، وإن كان يزيد في هذه الفتنة ما كانت عليه الأديرة من الزهة وما كان من طيب مجلس الشراب فيها . وكان عامة الناس يقصدون إلى الأديرة يمتارون من خمرها هذه التي اشتهرت بالجودة حتى زعموا أنها لا تورث الخمار . وكانت القوافل تحط كل يوم عند



بعضها لتأخذ خمرًا تحمله في الزقاق إلى مُريديها الكثيرين في المدن . ولقد بلغ الإقبال على خمر النصارى في الأقطار الإسلامية أن خصهم الخليفة الأموي الورع عمر بن عبد العزيز بالذِّكر ، وعرض لأمرهم من جهتين ، في كتابه إلى أيوب ابن شرحبيل : ( . . . وما يشرب أولئك شرابهم الذي يستحلون ، إلا من أيدي النصارى الذين يهون عليهم زَيْغ المسلمين في دينهم ودخولهم فيما لا يحل لهم ، مع الذي يجمع نفاقَ سِلْعهم وبسارةَ المؤونة عليهم ) .

وفي هذه المعتقد من خمر الأديرة يقول أبو نواس يصف وقدة لونها وسطمة ريمها وحرقة مذاقها وشدة غولها من إحكام الصلابة وجودة التعتيق :

وَقَهْوَةٌ عُمَّتْ فِي بَيْتِ شَّمْسٍ	تَفْتَرُّ فِي كَأْسِهَا عَنْ ضَوْءِ مِقْبَاسٍ
لَوْ لَا مُدَارَاةُ حَاسِيهَا إِذَا اقْتَرَبَتْ	مِنْ فِيهِ لَا تَهْبَتُ مِنْ مُقْلَةٍ الْحَاسِي
لَهَا أَلِفَانِ مِنْ لَوْنٍ وَرَاحَةٍ	مَثْوَى مَقَرَّهَا فِي الْعَيْنِ وَالرَّاسِ
مِزَاجُهَا دَمْعُ حَاسِيهَا ، فَأَيَّ فِتْنَى	لَمْ يَبْكِ إِذْ ذَاقَهَا مِنْ حُرْقَةِ الْكَاسِ
سَلَّمَ ، وَلَكِنَّا حَرْبٌ لِدَانِقِهَا	يَا حَبِذَا بِأَمْسِهَا مَا كَانَ مِنْ بَاسِ
نَازَعَتْهَا فِتْنَةٌ غُرًّا غَطَارِفَةٌ	لِيسُوا إِذَا امْتَحَنُوا يَوْمًا بِفُكَّاسِ

### صورة مجمّلة للدير

يشتمل الدير على عدة من الأبنية ، وعليه في غالب الأحوال كالحصن سور منيع يطيف به .

وفي المقدمة من الدير دار الضيافة ، وبها يُلمّ المسافرون المجتازون ، وفيها يبيت الأضياف النازلون يوماً أو بضعة أيام . ولكل من طرق الدير من الناس

ضيافة قائمة على أقدار المضاف لا يُحَلَّ بها . وإلى جانب دار الضيافة بيت القِيم على الدير، والكنيسة .

ومن وراء ذلك جميعه يأتي مسكن الرهبان . وهنا تنقسم الأديرة نوعين على حسب ما يجرى عليه الرهبان في معيشتهم . فإن كانوا على نظام المعيشة المشتركة — وهي الشائعة إلى زماننا في الأقطار المسيحية — فمسكن الرهبان مبنى واحد في مؤخر الدير مشترك بينهم لا ينفرد واحد منهم بشيء . فلهم جميعاً بيت للطعام، وبيت للنام، وخزانة كتب للتفقه في الدين وفيها يشتغل بعضهم بنسخ الأسفار الدينية القديمة، وجملة حجرات تعرف بالقلالى للعمل اليومي يزاولون فيها إلى جانب أعمال الزراعة ما يحتاج إليه من الصناعات اليدوية الصغيرة . ولهذا المسكن العام فناء يدور حوله طوار لمشى الرهبان ساعة أو بعض ساعة من النهار . وإذا كان الدير للرهبان والرواهب، كان فيه مسكنان، أحدهما للنساء والآخر للرجال . ومن وراء المساكن مرافق الدير المختلفة من مخازن غلاته ومعاصر كرومه وغيرها .

والأديرة التي كان يجرى نظامها على المعيشة المشتركة في الشرق في ذلك الحين تتمثل لنا في دير متى شرقى الموصل . فقد ذكر ياقوت فيما ذكره عن هذا الدير أن فيه نحو مائة راهب لا يأكلون الطعام إلا جميعاً، في بيت الشتاء أو بيت الصيف، وهما منقوران في الصخر، وكل بيت منهما يسع جميع الرهبان، وفي كل بيت منهما عشرون مائدة منقورة من الصخر، وفي ظهر كل مائدة منهن قبالة برفوف وباب يفتح عليها، وفي كل قبالة آلة المائدة التي تقابلها من غضارة وطوفرية وسُكُرْجَة، لا تختلط آلة هذه بآلة هذه . ولرأس ديرم مائدة لطيفة على دكان لطيف في صدر البيت يجلس عليها وحده . وجميع الموائد حجر ملصق بالأرض .

وأما الأديرة التي كانت تجرى على غير نظام المشاركة المطلقة ، فكانت كثيرة في الشرق على ما يظهر . فإننا نجد في معظم ما أورده الشاشتي وياقوت وابن فضل الله العمري في أوصاف الأديرة أنه كان حولها للرهبان قلالي كثيرة ، وهي قلالي منفصلة عن الدير قد انفرد كل راهب بواحدة منها . والقلية (ويقال القلاية) بناء مرتفع دقيق الأسفل كالمئذنة تكون لراهب ينفرد بها ، وقد لا يكون لها باب ظاهر . والصومعة دونها . ويتبع كل قلية بستان فيه البقول والرياحين والأشجار ذات الثمار ، يقوم الراهب على تعهد زراعتها والارتفاع ببيع غلتها . وقد ذكر الشاشتي أن الرهبان كانوا يتبايعون هذه القلالي بينهم بأثمان بلغت في بعض الأحيان ألف دينار ، وهذا الثمن للقلية منظور فيه إلى ارتفاع ثمن الغلة وقتئذ حتى يبلغ مائه دينار .

وقد جاء في معجم البلدان لياقوت أن الرهبان الذين لا قلالي لهم كانوا يسكنون بيوتاً صفاراً يقال لها الا كيراح ، والواحد كرح .

فالأديرة من هذا النوع تختلف عن سابقتها في العمارة وهندسة البناء للاختلاف بينها في نظام المعيشة . فهناك حيث المشاركة نجد في مؤخر الدير مبنى عظيماً هو مسكن الرهبان المشترك يعيشون جميعاً تحت سقفه ، وهنا نجد حول الدير مجموعة من القلالي كباراً وصغاراً ، لكل راهب قليته الخاصة ، والسور يحيط بها جميعاً .

### في دور الضيافة

وكان من الرسوم المصطلح عليها مع المسلمين أن يضيف النصارى من يمر بهم من المسلمين إذا لزم الحال أياماً . ولا شك عندنا في أن معظم ما يروى لنا من نواذر ماجنة وحكايات شائنة على أنها وقعت في الأديرة ، إنما حقيقة مسرحها

دارُ الضيافة . فما نصدّق أن أهل التطرب والتطرح من الأمراء والشعراء كانوا يحملون القيان ويقيمون الأيام في السكر وسماع الأغاني المبتذلة والعريضة على الجوارى والغلمان وهم وسط الرهبان . وإذا قيل إن أبا عليّ بن الرشيد كان مشتهراً بملازمة دير مريان والشرب فيه وإنه كان له قيان يحملهنّ إليه ويقيم به الأيام لا يفتر عزفاً وقصفاً ، وإنه كان شديد التهتك ، وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقونه منه . . . فإننا لندرج أن مثل هذا ما كان يمكن أن يقع إلا في دار الضيافة بجانب من الدير .

ففي دار الضيافة إذن كان معظم القصف والعزف، وفيها كان السكر والعريضة ووقائع المجون والجنون .

### مشارب القلايات

وكان بعض الرهبان أصحاب القلايات في الأديرة يتخذون من قلاياتهم مشارباً للخاصة من أهل الفن الأصدقاء أو السادة الوجهاء . ومن أولئك « قلاية القس » ، والقس الذي تنسب إليه من ملاح النصارى ، وكان ناسكاً ثم صار فاتكاً . وغنى عن البيان أنهم ليسوا كلهم كذلك . والخمر التي يقدمها صاحب القلية هي بطبيعة الحال من كروم بستانه ، وقد تولى تعتيقها في زقاقه ودنانه ، ثم هو متجهّز لقصاد الشراب عنده بالآنية اللطيفة النظيفة . وكانت أكثر مجالس أصحابنا عنده على سطح القلية يجلسون الناظر والناظر بما يُشرفون عليه من مناظر ، ويشربون على قراءة الرهايين في الكنيسة وقرع النواقيس .

حكى الخباز البلدى : [ اجتزت بدير بارقاننا - وهو في موضع نزه ، راكباً لدجلة ، وقلاياه كثيرة الشجر والزهر - فرأيت من حسنه ونضارة شجره ، مادعاني



إلى اللقّام به والقصف فيه . وسألت رهبانه عن الشرب . فدلّوني على راهب منهم ،  
فرايته ظريفاً ، وقلايته مليحةً ، وشرابه صافياً جداً . فابتعت منه ، وأقمت عنده  
نهارى وليلتى ] .

وحكى حمزة بن أبي سلامة : [ كان الثرواني جارى بالكوفة ، وكان كثير  
الإلام بالديرة . فباكرنى فى يوم شعانين ، وقال لى : « اعزم بنا اليوم على الشرب  
فى دير الحريق ، لأنه يوم سيقصده فيه خلق . ولى به صديق من رهبانه ظريف ،  
مليح القلاية ، جيد الشراب . فهلم ، نرتّه أعيننا فيما نراه من الجوارى والعلمان ،  
ثم نعدل إلى قلاية صديقنا فنشرب على سطحها المشرف على الرياض . فخرجنا  
فراينا من النساء والوصائف والولدان فى الحلى والحلل ما لم أر مثله قطّ . فلم يزل  
يعبث ويتعرض ويُقبّل ويمانق - وكان معروفاً بذلك فما أحدٌ ينكر عليه فعله -  
إلى ما بعد الظهر . ثم أتينا قلاية صديقه الراهب ؛ فلقيه بالإكرام والترحيب .  
فدخلنا قلايته ، فما رأينا أنظف من آله ولا أنضر من بستانها . ثم قدّم لنا  
شيثاً من طعامه ، فأصبنا منه . ثم صعدنا سطحها ، وجلسنا ننظر إلى منظرٍ يهر  
حسناً وجمالاً ، من رياضٍ وغدرانٍ وطيرٍ يصفر ، ونحن نشرب حتى ثملنا ،  
ونمنا هناك ] .

### حانات الأديرة

ولقد كان من شأن هذا الإقبال على خمر الأديرة أن اتخذت الأديرة حاناتٍ  
لها تُباع فيها خمرها ، لتُحفظ على بيوت العبادة عزلتها وتُصان لها حرمتها .  
ولما كان الدير تحفه البساتين المزدهرة بالرياحين ويجمع عنده الشجر والنخيل  
وعرائش الكروم وفى ظلها المعاصر ، فقد اتخذوا بين هذه المتنزهات فى ناحية

المعاصر حانةً لاحقةً بالدير تابعةً له . وعلى ذلك جرت معظم الديارات ، وإن لم يَحُلْ الأمر مع هذا من ديارات غير متسعة الرقعة ولا كثيرة الطرّاق كانت تباع الخمر فيها لمن شاء الميرة منها .

وكانت هذه الحانات في معظم الأحيان تعقد إدارتها للقساوسة أو الرهبان :

يا حَبْذا حانةً بالكَرْخِ تجمَعُنا      نُطِيعُ فيها بِشْرَبِ الخمرِ إبليساً  
راحاً مُشْعِمةً حمراء صافيةً      بالكَرْخِ عَتَقَها الدَّهْقَانُ فادوساً  
مُخَالَفُ الدِّينِ ، قد شابَتْ ذَوائِبُهُ      يدعونه النَّاسُ رَبَّاناً وقسيساً

نَدَبْتُ لها الخَمَّارَ فانصاعَ مسرعاً      إلى عِدَّةٍ من حَنَمٍ ودِنانٍ<sup>(١)</sup>  
دراسته الإنجيلُ حَوْلَ دَنانِهِ      بصيرٌ يَنْزِلُ الدنَّ والكيلان  
فودَّجها من جانبَيْها كليهما      فإِلَهُ ماذا أْبْرَزَ الوَدَّجانِ!<sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما كان يُعين الراهب الخَمَّارَ على الخدمة وتقديم الشراب لبعضُ الفتيان من الرهبان ، وهم في مسوح الرهبانية وعليها سود المدارع من صوفٍ خشن . وقد جاء وصفهم على لسان أبي نواس في زيارته لدير حنة بظاهر الكوفة :

يا طيِّبَهُ ، وَعَتِيقُ الرِّاحِ تُخَفِّمُهُمْ      بكلِّ نَوْعٍ من الكاساتِ رَحْراحٍ<sup>(٣)</sup>  
بَسْقِيكها مُدْمَجُ الخَضِرَيْنِ ذُو هَيْفٍ      أخو مَدَارِعِ صَوْفٍ فوقَ أَمْساحٍ<sup>(٤)</sup>

ولما كان القساوسة في الشرق يتزوجون ، فقد كان القس إذا تولى الحانة من هذه الحانات استعان ببعض أهل بيته ، فتارةً أمُّه ، وتارةً زوجته ، وتارات ابنته

(١) الحنم : الجرة الخضراء . (٢) الودج : عرق في العنق ، وودجه : قطعه .

(٣) الرحراح : الواسع المنبسط القريب القمر . (٤) مدارع : جمع مدرعة وهي

جبة مشقوقة المقدم ، وأمساح : جمع مسح وهو الكساء من شعر .

الجارية الجميلة ، وفي غالب الأحوال ابنه الأرمـد الشَّمس ، يتخذ منهم الخازن والوزان والصَّيرَفِيّ والساقى . ولا بدع ، فهم موضع ثقته والمؤمنون على ماله ، وأولى الناس بالغيرة على صلاح حاله . ثم إنهم — وهم عياله وشركاؤه — لا يتكلف لهم من الأجر ما يكلفه أجراؤه .

ومن أقوال الشعراء :

شَّمَّاسُهُ هُوَ وَزَّانٌ وَمُنْتَقِدٌ وَقَسُّهُ هُوَ خَمَّارٌ وَكَرَّامٌ<sup>(١)</sup>

سَقَانِي ابْنُ قَيْسِهَا كَأَسْهَى عَلَى زَوْرَةٍ مِنْ حَبِيبِ أَلَمٍ

تُعَلِّئِي بِالرَّاحِ هَيْفَاهُ غَادَةٌ يُخَالُ عَلَيْهَا لِلْقُلُوبِ كَفِيلُ  
أَيَا ابْنَةَ قَسِّ الدَّيْرِ ! قَلْبِي مُدْلَهُ عَلَيْكَ ، وَجَسْمِي مُدْبَعْدَتِ عَلِيلُ

وقال أبو نواس :

يَا حَبْدًا تَجْلِسُ قَدْ كَانَ يَجْمَعُنَا بَطِيزًا نَابِذًا فِي بُسْتَانِ عَمَّارِ  
وَحَبْدًا أُمَّ عَمَّارٍ وَرُوَيْتَهَا ، خَمَّارَةٌ أَصْبَحَتْ أُمًّا لَخَمَّارِ

وَمُزْنَرٍ قَدْ صَبَّ فِي قَارُورَةٍ رِيْقَ السَّحَابِ عَلَى النَّجِيعِ الْقَانِي  
شَمْسُ الْمِدَامِ بِكَفِّهِ ، وَبَوَاجِهِ شَمْسُ الْجَمَالِ ، فَبَيْنَمَا شَمْسَانِ  
وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ مِنْ جِدَارِ زُجَاجِهَا وَتَغِيبُ حِينَ تَغِيبُ فِي الْأَبْدَانِ  
فِي تَجْلِسٍ جَعَلَ السَّرُورُ جَنَاحَهُ سِتْرًا لَهُ مِنْ نَاطِرِ الْحِدَنَانِ  
لَا تَطْرُقُ الْأَسْمَاعَ فِي أَرْجَائِهِ إِلَّا تَرْتُمُ السُّنَّ الْعِيدَانِ

أو صوتُ تصفيقِ الجليسِ تطرباً ، وبُكاءِ خابيةٍ ، وضحكِ قَنانٍ<sup>(١)</sup>  
 حتى إذا اشتمل الظلامُ ببرِّده وهذا حنينُ نواقيسِ الرُّهبانِ  
 ألفتِه بَدراً ، يلوحُ بكفِّه بذرٌّ ، جمعتُهما لعينِ الرائي

ومن حانات الأديرة التي يتولاها القساوسة والشماسة ، حانة عُمر « نصر »  
 بامرأاً . وكان الحسين بن الضحَّاك الخليع الشاعر يختلف إليها ويألفها ، وكان  
 خمارها يقال له يوشع ، ويتولى الخدمة فيها ابن له أمرد حسن الوجه شماس .  
 فكان الحسين يتألف الشيخ الخمار من أجل ابنه حباً له . ومن قوله في الفتى  
 الشماس الخمار يذكر حفاوته بزوار حانته ، ويصف حسن مشيته وهو يسمى  
 في خدمته ، مشيراً إلى قدِّه المقدود تحت المسوح الدارسة السود :

خمارُ حانَتِها ، إن زُرْتَ حانَتَه أذكى تجامِرَها بالعود والغارِ  
 يَهْتَزُّ كالفضنِّ في سُلْبٍ مسوِّدةٍ كأنَّ دارِسَها جِسْمٌ من القارِ<sup>(٢)</sup>

ومثلها حانة دير « مارت مريم » بالحيرة ، خمارها من قساوسة الدير يقال له  
 يحيى ، يعاونه ابن له اسمه يوشع تألفه الفتیان ، وتستحب منادته حين يشتغل  
 الشيخ عنهم ليلاً بالتهجد والتعبّد . وفي ذلك قول بكر بن خارجة :

بَنَنا بِمارَتِ مَرِيَمَ سَقِيًا لِمَارَتِ مَرِيَمِ!  
 وَلَقَّسَها « يَحْيَى » الْمُهيْئَةُ نِمَ بَعْدَ نَوْمِ النُّوْمِ<sup>(٣)</sup>  
 وَلِيُوشَعَ وَالْخَمْرِ حَمراءُ مِثْلَ الْعَنْدَمِ<sup>(٤)</sup>  
 وَلِفَتِيَةٍ حَفَوا بِهِ يَعْصُونَ لَوَمَ الْأَوَمِ

(١) القناني : جمع قنينة (الزجاجة) إزاء من زجاج يحمل فيه الشراب .  
 (٢) السلاب : الثوب الأسود والجمع سلب (بضمّتين) وقد يسكن . الدارس : البالي .  
 (٣) المهيم من الهيمنة وهي الصوت الخفى . (٤) العندم : صبغ أحمر .



يَسْقِيهِمْ ظَنِّيْ أَغْنَى لَطِيفُ غَلَقِ الْمَعْصَمِ  
يَزِمِيْ بَعِيْنِيْهِ الْقُلُوْ بَ كَثَلِ رَمَى الْأَمْهَمِ

ولم تختص بهذه الحانات أديرة الرهبان دون أديرة الراهبات . فثمة من أديرة النساء ما يعرف « بدير العذارى » وهو علم على أكثر من دير . وفي هذه الأديرة نساء عذارى قد ترهبن وأمن بهن للعبادة . ونخص منها بالذكر «دير العذارى» بين سامرا وبغداد ، وهو في موضع حسن على دجلة ، كانت حوله حانات للخمارين وبساتين ومتنزعات ، لا يعدم من دخله أن يرى من رواهيه جوارى حسان الوجوه والقود والألحاظ والألفاظ . وقد ذكر الخالدي أنه اجتاز به ، وكان ذلك اليوم عيداً له ، فرأى في الحانات التي حوله خلقاً يشربون على الملامى ، ورأى في جُنَيْنَاتٍ لرواهيه جماعةً منهن يلقطن زهر العصفرو ولا يماثل حمرة خدودهن . وقد ورد في شعر النواصي ذكر « دير العذارى » في مطلع قصيدة من قصائده المأجنة :

دَعِ الْأَمْطَارَ تَغْتَوِرِ الدِّيَارَا وَدُرُّ عَنْهَا إِلَى دَيْرِ الْعَذَارَى

وفيه يقول جحظة البرمكي :

قالوا : « قَيْصُكَ مَغْمُورٌ بِأَنْارِ مِنْ الْمَدَامَةِ ، وَالرَّيْحَانِ ، وَالْقَارِ »  
فقلت : « مَنْ كَانَ مَأْوَاهُ وَمَسْكَنُهُ دَيْرِ الْعَذَارَى ، لَدَى حَانَاتِ خَمَارِ »  
وَسَادَهُ يَدُهُ ، وَالْأَرْضُ مَفْرَشُهُ لَا يَسْتَطِيعُ لِسْكَرٍ حَلَّ أَزْرَارِ  
لَمْ يُنْكَرِ النَّاسُ مِنْهُ أَنَّ حُلَّتَهُ خَضْرَاءَ كَالرَّوْضِ ، أَوْ حُمْرَاءَ كَالنَّارِ

ويحسن التنبيه هنا إلى أن بعض الأديرة كان يضم بين جدرانها الجنسين لكل ناحية مفردة له مختصة به . وهذا يفسر ذكر الشعراء للرهبان والرواهب في وصفهم

للدير الواحد في القصيدة الواحدة . ومن ذلك قول جحظة البرمكي في دير قريش من دير العذارى يعرف بـ « دير العَلَث » وهو أيضاً على دجلة والوصول إليه بالسميريات ، وقد بلغ من شوق الشاعر إليه أنه يستبطن القارب الذي ركبته إليه ، وفيه بدل النوتى نوتيان ، فيطلب إليهما مع التعذيف نشر الشراع وإصلاح السُكَّان :

أيها الجاذفان ، بالله جِداً      واصلحوا لي الشراع والسُكَّانا  
واحططاً لي الشراع بالدير بالعد      ث ، لعلّي أعاشر الرهبانا  
وظباء يتلون سفرًا من الإنج      يل باكرن سُخرة قُربانا  
لابسات من المسوح ثياباً      جعل الله تحتها أغصانا  
خفّرات ، حتّى إذا دارت الكا      من كشفن النحور والصلبانا

نم إن رئاسة هذه الأديرة كانت للرهبان . يشهد بذلك ما تقدم من أن صاحب « دير القائم الأقصى » بالركة وَّكَل بالنازلين على الدير راهبة تخدمهم . فالدير كان للرجال والنساء ، وهو رئيسه وصاحب أمره . والذي نرجحه أن معظم أديرة النساء في ذلك الحين كانت في ناحية من أديرة الرجال داخلة في أسوارها ، وعلى الخصوص في المواضع المتطرفة تأميناً لنسائها من العدوان والسطو .

ولقد كانت حانات الأديرة لا تُغادى بالنهار وحده ، بل يطرَقها السكارى أحياناً في حلك الليل وسدفة السحر ، وإن تكن الحانة — كما يدل مفهوم هذه لأبيات — ملحقة بدير الراهبات ، وكانت إدارتها إلى عبوز من المتعشقات ، في مسوحها الخشنة الباليات :

يَارُبَّ خَمَارٍ بِالْعَمْرِ حَانَتْهَا      عَادِيَّةٍ ذَاتِ أَطْمَارٍ مَهَارَيْتِ<sup>(١)</sup>  
 فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْعَمْرِ مَشْرِقَةٍ      تَنُوحُ فِيهَا مَثَاكِيلُ الْفَوَاخِيَتِ<sup>(٢)</sup>  
 نَبَتْهَا سَحَرًا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ      وَالذَّبَّكَ يَمْزِجُ تَهْفِيقًا بِتَصْوِيَتِ  
 فَأَوْجَسْتُ خِيفَةً مَنِي ، وَمَا شَعَرْتُ      أَنِّي طَرُوقٌ لِرَبَّاتِ الْحَوَانِيَتِ  
 فَقُلْتُ : « لَا تَجْزَعِي » قَالَتْ : « حَسْبُكُمْ      طَرَّاقَ لَيْلٍ أَرَادُونِي لَتَبِيَّتِ »  
 وَقُلْتُ : « عِنْدَكَ خَمْرٌ تُمَتِّعِينَ بِهَا ،      بِكُرٍّ ، وَحِظُّكَ عِنْدِي كُلِّ مَا شِئْتُ ؟ »  
 قَالَتْ : « أَتَيْتُ الْمُنَى مِنْ عَانِسٍ عُصْرَتِ      فِي الدَّنِّ مُذْ صَاحِبِ الْيَقْطِينِ وَالْحَوْتِ »  
 فَقُلْتُ : « مَا إِنْ لَهَا غَيْرِي ، فَكَيْفَ بِهَا ؟      قَالَتْ « فَأَتَى بِهَا ؟ » قُلْتُ لَهَا : « إِيَّتِي »  
 فَوَدَّجَتْ خَصَرَ دَنٍّ فِي زَجَاجَتِهَا      فَأَبْرَزَتْ خَمْرَةً فِي لَوْنٍ يَاقُوتِ  
 فَقُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ طَالِعَةً      تَجْلُو الظَّلَامَ : « أَلَا يَا خَمْرَ حَيِّيتِ ! »  
 وَلَمْ نَزَلْ نَتَحَسَّاهَا مُشْفَعَةً      مَعَ كُلِّ مُدَرِّعٍ بِالْحَلْمِ سَكَّيْتُ<sup>(٣)</sup>  
 تَرَى وَجُوهَهُمْ مِنْهَا إِذَا خَضَعُوا      لِلسَّكْرِ تَلْعُ كَالْبَيْضِ الْمَصَالِيَتِ<sup>(٤)</sup>  
 كَأَنَّهَا حِينَ حُلِّ الْمَاءِ مِزْرَهَا      شَبِيتَ بِمَسْكٍ ذَكِيٍّ الْعَرَفِ مَرْفُوتِ<sup>(٥)</sup>

### في الآحاد والأعياد

وكانت حانات الأديرة أعمر ما تكون في الآحاد وفي الأعياد خاصة . وقد كان لكل دير عيد في وقت من السنة ، عدا الأعياد المسيحية العامة .

( ١ ) عادية : قديمة نسبة إلى عاد ، الأطمار : جمع طمر وهو الثوب البالي ، مهاريت : جمع مهرت ، يقال مهرت الفم أى واسع الشدين ، والمراد أنها واسعة الخروق .  
 ( ٢ ) مَثَاكِيلُ : جمع مثكال وهى من فقدت ولدها ، والفواخيت : جمع فاختة نوع من الحمام البرى . ( ٣ ) السكيت : كثير السكوت .  
 ( ٤ ) البيض المصاليات : السيوف الصقال المواضى . ( ٥ ) المرفوت : المكسور المدقوق .



وفي هذه الأعياد يخرج أصحاب البيعة في موكب ديني ، وعلى حُلَاهم شارات الصليب ، وبين أيديهم الأعلام فوقها الصلبان ، وبأيديهم الجامر ، والقسوس والشمامسة يرتلون أناشيدهم الكَنَسِيَّة على نغم واحدٍ متفق في الألحان ، إلى أن يقضوا شعائهم ، ثم يعودوا على هيئتهم .

وكان يخرج إلى هذه الأعياد جموع النصارى نساءً وصبية ورجالا في أحسن زى في الحلل والحلى ، وكانت مواكبهم قبل العيد بيوم تُرى متزاحمة متدافعة تسيل بها الطرق ، يطلبون الدير خارج المدينة ليعيدوا فيه ، وفي هذه المواكب كانت تتوالى على الناظر المتفرج وجوهٌ صِباح حِسان من نصرانيات عليهن أبهى الثياب وفاخر الجواهر ، مضمخات بالروائح قد طُيِّب الهواء منها ، وقد فُرش لهن على العَجَل وهو يُجرُّ بهن ، وأخريات مثلهن على المهارى الخراسانية والبغلات المصرية والأحمر الفرّ ، ومشاة . . . وفي خلال ذلك صبيان لم ير أحسن منهم وجوهاً وقدوداً وثياباً . وعلى الجملة كان منظر هذه المواكب لا يُرى أبهىج ولا أجمل منه . فكان من المسلمين خلق يخرجون للنظر والنزهة ، وهذا طبيعي مألوف . ولكن السابقين منهم إلى هذه الأعياد المتفرغين لها المشاركون فيها كانوا أهل الرّفث اللجان ، يتعرضون للجوارى والفتيان بالكلام والمزاحمة في الطريق والنظر الفاسق والعبث الخليع . وإلى القارىء مثالا على ذلك في بعض أعياد الشعانين أو السمانين وهو المعروف بِـ « أحد السَّعف » على لسان شاعر من هؤلاء الماجنين :

خرجنا في شعانين النَّصارى وشيعنا صليبَ الجائليق<sup>(١)</sup>

فلم أر منظرأ أحلى بعينى من المتقينات على الطريق<sup>(٢)</sup>

(١) الجائليق: متقدم الأساقفة . (٢) المتقينات : المتزينات .



سَحَلْنَ الْخُوصَ وَالزَّيْتُونَ حَتَّى بَلَغْنَ بِهِ إِلَى دِيرِ الْحَرِيقِ  
أَكَلْنَاهُنَّ بِاللَّحْظَاتِ عِشْقًا وَأَضْمَرْنَا لَهُنَّ عَلَى الْفَسُوقِ

ثم هم بعد ذلك يقضون أيام العيد كله في حانات الدير ، وقد زينت مجالس  
الشراب بأنواع الرياحين من جنيناته ، وبيعت من زهره وثمره التحايا للشاربين  
يتهادون بها ويحيمون بها من يحبون . وقد يوافيهم هناك من على شا كلتهم من  
الخلعاء ، ومعهم معشوقات لهم حسان الوجوه والغناء . وعلى هذه الحال يقيم أصحابنا  
ها هنا يشربون ويقصفون وسط المردان والجوارى الحسان إلى آخر العيد . وكانوا  
لا يعدمون أن يجدوا على المكان جماعة من القيان ، وما كانت أمثال هذه  
الفرص اتفتون ، فتذبح الذبائح وتشرب الخمر على نعم الناي ونقر الطنابير  
والعيدان وأنواع الملامى والأغاني مختلطة بقرع النواقيس وقراءة الرهايين .

ومن الأعياد النصرانية التي ورد في أشعارهم وأخبارهم ذكرها ، عيد الشعانين  
— وقد تقدم — وهو قبل الفصح بأسبوع ، وهو الأحد الأخير من الصوم  
الكبير ، واليوم الأول من أسبوع الآلام ، وفيه يبارك القس أغصان الشجر من  
الزيتون أو سعف النخل . وفيه يطوف النصارى كما رأينا طوافهم الرمزي تذكراً  
لدخول المسيح إلى أورشليم ، وإشارة إلى ما كان من استقبال أتباعه له وفرشهم  
أردبتهم ألامه وقطعهم لأغصان الشجر يطرحونها في طريقه احتفاءً به وهم يهتفون  
بالعبرية « هو شعنا » أى خلصنا .

وعيد الفصح وهو عند النصارى تذكاري قيامة السيد المسيح من الموت  
— وعيد الباعوث وهو صلاة ثاني عيد الفصح — وعيد الصليب وهو تذكاري  
لما وقعت له الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين أول الأباطرة الرومان النصارى من  
العثور في قولهم على صليب المسيح في مغارة بأورشليم .

وأما الأعياد الخاصة بكل دير من الأديرة ، فأشهرها عيد « دير أشمونى » .  
وأشمونى اسم المرأة القديسة التى بنى الدير باسمها ودفنت فيه . وعيد أشمونى فى  
اليوم الثالث من تشرين الأول وهو معروف ببغداد بأنه من أحسن الأعياد  
مقصوداً للنزهة ، معمور بالقصف .

حكى جحظة فى عيده : خرجت فى عيد أشمونى ، فلما وصلت الشطّ ، مددت  
عينى لأنظر موضعاً خالياً أصعد إليه أو رجلاً أنزل عليه . فرأيت قينتين من  
أحسن من رأيت . فقدّمتُ سُميريتى نحوهما ، وقلت : « تأذنون لى فى الصعود  
إليكما ؟ » . فقالتا : « بالرحب والسعة » . فصعدت ، وقلت : « يا غلام !  
طنبورى ونبىدى » . فقالتا : « أما الطنبور فنعم ، وأما النبىذ فلا » . فجلست  
مع أحسن الناس خلقاً وأخلاقاً وعشرة ، فأخذتُ الطنبور وغنيتُ بشعر لى .  
فشربنا بالأرطال من نبىذ لهما . وطاب لنا الوقت إلى آخر النهار .

وحكى محمد بن المؤمل : كنت مع أبى العتاهية فى سُميريته ، ونحن سائرون  
إلى أشمونى . فسمع غناء من بعض تلك النواحي ، فاستحسنه وطرب له ، وقال  
لى : « أنحسن أن ترقص ؟ » . فقلت : « نعم » . فقال : « فقم بنا ترقص » .  
فقلت : « فى سُميرية ! أخاف أن نفرق » . فقال : « إن غرقنا ، أليس نكون  
شهداء الطرب » .

ولعلّ أبلغ تصوير لهذا الطرب الذى يغالى به المتطربون إلى هذا الحد ما قاله  
جحظة فى دير الزندورّد شعراً :

مقيّاً ورعيّاً لدير الزندورّد وما يحوى ويجمعُ من راحٍ ورِيحانٍ  
ديرٌ تدور به الأقداحُ مُترعةٌ من كفّ ساق مريض الطّرفِ وِسنانٍ

والعود يتبعه ناي يوافقه والشدو يحكمه غصن من البان  
والقوم فوضى ترى هذا يقبل ذا وذاك إنسان سوء فوق إنسان  
هذا ، ودجلة للرائين معرضة والطير يدعو هديلاً بين أفنان  
برئ وبحر ، فصيد البر مقترب والبحر يسبح شطاه بحيتان

### من منافع الغزل !

والذي انحدر إلينا على لسان هؤلاء المُجَّان من غزل بالنصارى كثير .

وقد اشتهر منهم مدرك بن علي الشيباني بما كان من هيامه بعمر بن يوحنا .  
واشتهر كذلك بكر بن خازجة بما قاله في عثير بن البراء الصراف من نصارى  
الحيرة . وقبلهما اشتهر النواصي بما تناقله الناس عنه في غلمان النصارى من أشعار  
تميز عن غيرها من غزله الفاتر بما يغلب عليها خاصة من حرارة وجدده وسرف  
مجنونه حتى خرج في بعضها عن عقله ودينه ، فاستوجب غضب أمير المؤمنين عليه  
وإيداعه المطبق مدة غير يسيرة . وذلك إذ يقول :

تمر فاستحيك أن أتكلما ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلماً  
ويهنئ في ثوبك كل عشيـة قضيب من الریحان شب منماً  
بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى وأن جفوني فيك قد ذرفت دماً  
أليس عظيماً عند كل موحد غزال مسيحي يمدب مسلماً  
فلولا دخول النار بعد بصيرة عبت مكان الله عيسى بن مرثما

ثم قوله ، وهو شر من سابقه :

وملحة بالمدل ذات نصيحة ترجو إنابة ذي مجون مارق

بَكَرَتْ تَبَصَّرُنِي الرَّشَادَ ، وَشِيعَتِي      غَيْرُ الرَّشَادِ وَمَذْهَبِي وَخِلَافَتِي  
لَمَّا أَلَحَّتْ فِي الْعِتَابِ زَجَرَتَهَا      فَتَأَخَّرْتُ عَنِّي بِقَلْبٍ خَافِقٍ  
كَمْ رُضْتُ قَلْبِي - فَاعْلَمِي - وَزَجَرْتُهُ      فَرَأَيْتُ اتِّبَاعَ الرُّشْدِ غَيْرَ مُوَافِقٍ  
وَمَدَامَةٍ مِثْلَ الْخُلُقِ عَتِيقَةٍ      حُجِبَتْ زَمَانًا فِي كُنَائِسٍ دَابِقٍ  
بَاكَرَتَهَا مِنْ كَفٍّ أُغِيدَ شَادِنٍ      حَسَنِ التَّنْعَمِ ، فَوْقَ سُؤْلِ الْعَاشِقِ  
مُتَعَقِّبِ الصُّدُغَيْنِ ، فِي لِحْظَاتِهِ      فِتْنٌ لَنَا مَقْرُونَةٌ بِبِوَاتِقِ  
مُتَخَرِّسِينَ ، دِينَ النُّصَارَى دِينَهُ      ذِي قُرْطُقٍ لَمْ يَتَّصِلْ بَيْنَاتِقِ  
لَبِقٍ ، بِدِيْعِ الْحَسَنِ ، لَوْ كَلَّمْتَهُ      لَنَبَذْتَ دِينَكَ كُلَّهُ مِنْ حَالِقِ  
وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتِي مُتَخَوِّفٌ      أَنْ أُبْتَلَى بِإِمَامٍ جَوْرِ فَاسِقِ  
لَتَبِعْتُهُ فِي دِينِهِ وَدَخَلْتَهُ      بِبَصِيرَةٍ فِيهِ دُخُولَ الْوَاقِقِ  
إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّ رَبِّي لَمْ يَكُنْ      لِيَخْصَهُ إِلَّا بِدِينٍ صَادِقِ  
وَلَمْ تَقِفْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ عِنْدَ التَّغْزَلِ بِعَوَامِ النُّصَارَى ، بَلْ كَانَ غَزْلُهُمْ شَامِلًا  
جَامِعًا يَدْخُلُ فِي بَابِهِ وَيَنْسَلِكُ فِي نَظْمِهِ الرُّوَاهِبُ الْحَسَانُ وَالشَّمَامَةُ الشَّبَانُ (١) .  
عَلَى أَنَّ الْأَحْبَى بِقِرَاءِ الشُّعْرِ أَنْ يَحْمِلُوا أَكْثَرَ مَا وَرَدَ فِي قَوْلِ الشُّعْرَاءِ فِي هَذَا  
الشَّأْنِ عَلَى أَنَّهُ أَمْنِيَّةُ الْمُتَمَنَّى وَاخْتِرَاعُ الْخِيَالِ الْمَرِيضِ . وَنَحْنُ نَسُوقُ مِنْ بَيْنِ  
الْحِكَايَاتِ الْمَرْوِيَةِ هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَلَى أَنَّهَا أَقْرَبُهَا إِلَى الصِّدْقِ وَاللِّيَاقَةِ ، وَأَدْلَاهَا عَلَى  
نَوْعِ تِلْكَ الْعِلَاقَةِ .

حِكْيَا جِحْظَةُ : أَحَبَّ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَدْبَرِ أَنْ يَرَى دِيرَ حَنَّةَ بِالْأَكِيرَاحِ ، فَتَقْدُمُ  
إِلَى غُلَامَانِهِ بِإِعْدَادِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَخَرَجْنَا حَتَّى وَافَيْنَا الدَّيْرَ ، فَضَرَبْتُ لَنَا خِيَامًا

(١) ذَكَرَ رِيْمُونْدُ جَانِينُ أَنَّ الرَّسْمَ عِنْدَهُمْ لَا تَقْلُ سَنَ الشَّمَاسِ عَنِ الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ فِي الشَّمَامَةِ عِدَدٌ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ دُونَ سَنَ الْحَلَمِ .



عنده ، فأكلنا وجاسنا نشرب . وغنيته بشعر أبي نواس في الدير فبينما نحن كذلك ، إذ اجتاز بنا غلام عارضه كأنه بدرٌ على غصن ، ومعه مصحفٌ من مصاحف النصارى ، كامل العقل ، ساحر اللحظ واللفظ ، فشرب ابن المدبر على وجهه رطلاً ، وسقاه قدحاً . واستأذنه الغلام في النهوض ، وقال : « معي مصحف لا تم للرببان صلاة إلا بحضوره . وهذا وقت صلاتهم ، وقد ضربوا الناقوس منذ ساعة » . فأخذ ابن المدبر عليه العهد في الرجوع إليه ، وأمر له بمائة دينار .

وعمل جحظة في ذلك شعراً صنع فيه لحناً :

فَدَيْتُ مِنْ مَرٍّ بِنَا مُسْرِعاً      يَسْعَى إِلَى الدَّيْرِ بِأَسْفَارِهِ  
خَدِمْتُ رَبَّ الدَّيْرِ مِنْ أَجْلِهِ      حَتَّى كَأَنِّي بَعْضُ أَجْبَارِهِ  
حَيَّرَنِي تَفْتِيرُ أَجْفَانِهِ      وَحَلَّ عَقْدِي عَقْدَ زُنَّارِهِ  
حَذَرَنِي النَّارَ ، وَلَمْ يَدْرِ مَا      فِي الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ مِنْ نَارِهِ

والذى يعنينا هنا في شأن هذا الغزل أن القارىء له يدرك مقدار ما أفاده أصحابنا — لطول ترددهم على الأديرة وشهودهم للمهرجانات النصرانية — من وقوف على شعائر القوم ومناسكهم ، وإلمام بأساطيرهم ومعتقداتهم ، وإحاطة بأسماء قديسيهم ومعابدهم ومواسم أعيادهم ، واستظهار لمصطلحاتهم ورموز كلامهم وصيغ أقسامهم ، وغير ذلك مما لا يخلو بعضه من فائدة عند الذين يعنون بدراسة الكنيسة الشرقية في الشام والجزيرة والعراق ومصر ، على الرغم من موضوع هذه الأشعار وانصرافها إلى المجون .

ومن الغزل النصراني قول أبي نواس :

يَا دِيرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْكَيرَاحِ      مِنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي

رَأَيْتُ فِيكَ ظِبَاءَ لَا قُرُونَ لَهَا يَلْعَبْنَ مِنْهُ بِالْبَابِ وَأَرْوَاحَ  
 وَمُعَقَّرَبِ الْأَصْدَاغِ يَهْتِكُ لَحْظُهُ عَنْ كُلِّ مَكْنُونٍ مِنَ الْأَسْرَارِ  
 أَحْوَى، أَغْنَى، مُزَنَّرٍ، ذِي رَوْنَقٍ حَسَنِ التَّشْكِيلِ مِنْ بَنِي عَمَّارٍ  
 إِنِّي هَوَيْتُ حَبِيبًا لَسْتُ أَذْكُرُهُ إِلَّا تَبَادَرَ مَا فِي الْعَيْنِ يَنْسَكِبُ  
 مُزَنَّرٌ يَتَمَشَّى نَحْوَ بَيْعَتِهِ إِلَهُهُ الْإِبْنُ - فِيمَا قَالَ - وَالصُّلْبُ  
 يَا لَيْتَنِي الْقَسُّ ، أَوْ مَطْرَانُ بَيْعَتِهِ أَوْ لَيْتَنِي عِنْدَهُ الْإِنْجِيلُ وَالْكِتَابُ  
 أَوْ لَيْتَنِي كُنْتُ قُرْبَانًا يُقَرَّبُهُ أَوْ كَأْسُ خَمْرِهِ ، أَوْ لَيْتَنِي الْحَبَبُ  
 كَيْمَا أَفُوزَ بِقُرْبٍ مِنْهُ يَنْفَعُنِي وَيُنْجِلِي سَقَمِي وَالْبَثُّ وَالْكَرْبُ  
 وَكَانَ لِلنَّوَاسِي وَأُمَثَالِهِ وَلَعَّ شَدِيدَ بِالْزَّنَارِ الْمَفْرُوضِ عَلَى النَّصَارَى شَدُّهُ إِلَى  
 أَوْسَاطِهِمْ ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنْهُ تَرَدُّدًا فِي شَعْرِهِمْ ، لِأَنَّهُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ يَرَوْقُهُمْ  
 وَيَعْجَبُهُمْ مَنَظَرُهُ فِي الْمَزَنَّرِ مِثْلَ مَا يَبْدُو مِنْ دَقَّةِ خَصْرِهِ ، وَقَطْعِ الزَّنَارِ بَيْنَ  
 خَصْرِهِ وَرَدْفِهِ .

بَكْفٍ مُزَنَّرٍ أَعْلَاهُ غُصْنٌ وَأَسْفَلُ خَصْرِهِ رِدْفٌ ثَقِيلٌ

عَلَى أَنْ أَخْصَ خَصَائِصَ غَزَلِ شَاعِرِنَا الْمَاجِنِ بِالنَّصَارَى ذَلِكَ الْاسْتَعْطَافُ الَّذِي  
 يَصْطَنَعُهُ لِمَنْ تَبِعَهُ قَلْبُهُ وَشَفَّهَ حُبَّهُ مِنْهُمْ مَنَاشِدًا لَهُ مُسْتَحْلِفًا إِيَّاهُ بِكُلِّ مَا هُوَ مَعْبُودٌ  
 عِنْدَهُمْ مُقَدَّسٌ فِي دِينِهِمْ :

بِحَقِّ دِينِ النَّصَارَى عَلَيْكَ فِي الْأَدْيَانِ  
 وَبِالْمَسِيحِ وَلَوْ قَا وَيُوحَنَّا الْمِعْمَدَانِ  
 أَمَّا رَحِمَتْ ااشْتِكَايَ لَطَرْفَكَ الْفَتَّانِ

بعيسى لم يُرق يوماً دماء ولا عن غادة كُشف الإزارا  
 بمعمودية الدين العتيق بمطرُ بليطها ، بالجائليق<sup>(١)</sup>  
 بشمعون ، بيوحنا ، بمتي ، بماري سرّ جسّ القسّ الشفيق  
 بمارت مريم ، ويوم فصيح ، وباعوث لتأدية الحقوق<sup>(٢)</sup>  
 وأيام السّمانين المبدى وشعلة النّصارى في الطريق<sup>(٣)</sup>  
 بهيكل أسقف ، وبمايليه ، ونشر البند والعلم الخفوق  
 وبالصلبان ترفعها رماحُ تلالا ، حين تومضُ بالبروق  
 وبالناقوس في البيع اللّواتي تقامُ بها الصّلاة لدى الشروق  
 بداود وما يتلون منه بترجيع يردّد في الحلوق  
 بقلابات دومة ، بالمقاسي ومدّبح دبرها الحسن الأنيق  
 ورُهان الصّوامع في ذراها مقامهم على جهدٍ وضيق  
 بكُنس الرّوم والشّامات طرّاً بقُسطنطينة البلد السحيق  
 لقد أصبحت زينة كلّ عيدٍ ودين ، مع جفائك والعقوق

### صورة جديدة لحياة الرهبانية

على أن هذه الزيارات غير المباركات للأديرة لم تخلُ في بعض الأوقات أن

(١) المطر بليط Metropolitae مأخوذ عن اليونانية : المطران وهو دون الجائليق Catholicos وفيما يلي بيان المراتب الكنسية : فأدناها الشماس وهو القارئ للإنجيل المساعد في القداس ثم القيس ولا يزال قيساً ما دام عنده زوجة وإن بلغ في العلم ما بلغ ، ثم الأسقف ، فالمطران فالجائليق وهو رئيس للنصارى وكان بمدينة السلام (بغداد) كرسى للجائليق ، ثم البطريرك وهو كبيرهم وينتخب البطريرك من طائفة الرهبان . (٢) الفصح : العيد الأكبر وهو ختام الصوم الكبير . الباعوث عيد للنصارى كالاتقواء للمسلمين . (٣) السمانين أو الثمانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

توقع في نفس هذا الماكن من الارتسامات والانطباعات ما يستوقف القارى لحظة يتأمل ما في الحياة البشرية وما في النفس الإنسانية من عجائب وفوارق ومناقضات . ولقد مرّ بالقارى كيف صارت الأديرة النصرانية حيناً من الدهر في الشرق الإسلامى متعبدات وحانات . ونحن نسوق إلى القارى هنا مشهداً آخر من هذه المفارقات لا يقلّ غرابة وعجباً ، وهو مشهد أبى نواس — أشدّ طلاب اللذة استهتاراً بها واستغراقاً فيها — يصف في لهجة جدية كلها تقدير وتوقير، غير ماكن ولا ساخر ، حياة الرهبانية في دير حنة بالأكراد :

دع البساتين من آسٍ وتَفَّاحٍ      واعدلْ - هُديتْ - إلى ذات الأكراد  
اعدلْ إلى نَفَرٍ دَقَّتْ شخوصُهُمُ      من العبادة إلّا نِضو أشباح  
يكرّرون نواقيساً مرجّةً      على الزّبور بامساء وإصبح  
تَبْعُدُ بسمعك عن صوتِ تَكَرُّهٍ      فلست تسمع فيه صوتَ قَلَّاحٍ  
إلّا الدراسةَ للإنجيلِ من كُتُبٍ      ذَكَرَ المسيحَ بِإبلاجٍ وإفصاح

دع الدّشاغل بالذّاتِ يا صاح      من العُكوف على الرّيحانِ والراح  
واعدلْ إلى فِتيّةٍ ذابت نفوسهمُ      من العبادة نُحِفِ الجسمِ أطلّاح  
لم يَبْقَ منهم لرائهم إذا حصلوا      - حِذارَ ما خَوْفوه - غيرُ أشباح  
تلقى بهم كلّ مُحَفِّوٍ مَفارِقُهُ      من الدّهانِ ، عليه سَحَقُ أُمّساح<sup>(١)</sup>  
لا يَدْلِقون إلى ماءٍ بآنيّةٍ      إلّا اغترافاً من الغُدُران بالراح<sup>(٢)</sup>

وإننا لنتمثل في هذه الأبيات مبلغ ما وقع في نفس النواسى من منظر هذه

(١) حفا شاربه : بالغ في أخذه . السحق الثوب البالى .

(٢) دلف : مشى مشى المقيد ، وفوق الديب .



الجماعات وقد آثروا التأبد والتوحد في الأديرة بعيداً عن زحمة الحياة ومجالي العمران للنجاة بأنفسهم من غوايات الدنيا وأحاييلها ، ثم الاستظهار — وقد خلصوا من غواية المجتمع حولهم — على ما لم يزل بهم من نزعات الجسد ، مستعينين على قهره بأنواع الرياضات من تقشفٍ وصيامٍ ، وتهجدٍ بالليل وقيامٍ بالسَّحَرِ يصلُّون ، ويقرءون التوراة والأنجيل ويترنمون بالزبور إلى آخر ما هنالك من العبادات .

على أنه لا محل للعجب وهذا ديوان الشاعر بين أيدينا طافحٌ بالخرجات ، ولم يخل مع هذا كله من باب في الزهديات . والمرء شديد الانتفات إلى ما ينقصه كثير الاحتفال بما يعز عليه دركه . وأبونواس طالب لذة لا صبر له عنها ، ولا همَّ له إلا مبادرتها ، ولا نُجْحَ يعرفه إلا في إصابتها . وهنا تلك الجماعة من الرهايين وهم بشرٌ مثله من لحم ودم ، وبطباعهم من الغرائز النزوعية مثل ما به ، وفيهم شبانٌ في ريعان الصبا وعنفوان القوة . وهو يراهم — مع ذلك — على هذه الهيئة التي أتى على وصفها من التقشف ونبد أسباب التمتع والراحة ، والزهد في طيبات العيش ، ورفض دنيا اللذة التي يحرص عليها ويهم بها ولا يجد للحياة معنى بغيرها . فكيف لا يكون لصاحبنا هذه المواقف التي وقفها بإزائهم ، يتأمل في أفعالهم ويتعجب من حالهم ! ومن أولى منه بالتأمل والتعجب ، وهذا مقدار الخُلف بينه وبينهم في النظرة إلى الحياة ، وهذه سعة الشقة بينه وبينهم في منجى السلوك والسيرة !

### الكنائس الشرقية

ومعلوم أن الكنائس الشرقية كانت منذ القرن الخامس الميلادي تتبع ثلاث شيع : شيعة الكنيسة الرومية ، ويُنتعون في مصر والشام وغيرها من أعمال

الإمبراطورية البيزنطية بالملكانية لتشيّعهم للإمبراطور وكنيسة الدولة الرسمية . ويخالفهم شيعة القائلين بأن في السيد المسيح طبيعتين منفصلتين إلهية وبشرية ، وهم النسطورية <sup>(١)</sup> الغالبة على نصارى العراق والموصل وفارس وخراسان وما وراءها . ويخالف هؤلاء وهؤلاء شيعة القائلين بالطبيعة الواحدة من طبيعتين متحدتين ، وهم أتباع الكنيسة الأرمنية ، واليعقوبية <sup>(٢)</sup> الغالبة على نصارى مصر ( وتتبعها الحبشة ) ونصارى الشام ، أو بعبارة أخرى القبط والسريان الأرثوذكس . وبديهي أن يكون النصارى المقربون إلى خلفاء بغداد والداخلون في خدمتهم — أطباء ونقل أدياء — من تلك الطوائف الخارجين على الكنيسة البيزنطية ، لبعدهم عن مظنة التجسس للعدو وممالأته فيما كان بين المسلمين والروم من حروب ومناوشات لا تفتأ دائرة متواترة عند العواصم والثغور .

ويتبين مما تقدم عن طوائف النصرانية أن الأديرة التي جاء ذكرها على لسان أبي نواس شاعر العراق معظمها من أديرة النساطرة .

وغنى عن القول أن هذا التقسيم على صحته ليس يفيد بحال أن هنالك حدوداً إقليمية قاطعة مانعة لكل شيعة من هذه الشيع . فالملكانية واليعقوبية لا تخلو أرض العراق والجزيرة منهما . ولقد كان على أربعة فرائخ من الموصل في الجانب الغربى من أعمال الحديثة « دير القيّارة » لليعقوبية ، كذلك جاء عن « دير

( ١ ) سموا بالنسطورية أو النساطرة نسبة إلى نسطوريوس أسقف القسطنطينية في القرن الخامس وهو صاحب القول بالطبيعتين وقد عارضه كيرلس أسقف الإسكندرية ولكن أسقف أنطاكية انتصر له وكان من ذلك ما كان وقتئذ من انشقاق الكنيسة .

( ٢ ) سموا باليعقوبية أو اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرذغانى أسقف كرسى أذايا وهي الرها عند العرب وأورفا عند الترك ، ومن أعماله الشام والجزيرة وآسيا الصغرى ، وقد أقامته الإمبراطورة تيودورا في القرن السادس الميلادى إجابة لرغبة الحارث بن جبلة الفسافى الذى ألح في إقامة أسقف من القائلين بالطبيعة الواحدة . ويذهب اليعاقبة المحدثون إلى أن نسبة الاسم إلى مار يعقوب الرسول .

مَرْيُحَنَّا» إلى جانب تكريت على دجلة وهو للنسطورية أنه كان على باب صومعة لرجل من الملكانية يقال له عبدون الراهب . وتكريت فيما يذكر ابن حوقل كانت تجمع سائر فرق النصارى . وجاء في الكلام عن البيعة الكبيرة المعروفة بـ « دير الروم » ببغداد في الجانب الشرقى منها أنها للنسطورية خاصة وأنها كانت تجاورها بيعة لليعقوبية مفردة لهم . وقد روى الشاشتى أن كل دير لليعقوبية والملكانية عنده قائم ، وأن ديارات النسطورية لا قائم لها . والقائم منارة عالية كالمرقب . ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أنه الأصل في المنارات التي دخلت بعد ذلك في عمارة الكنائس عند النصارى عموماً . ولقد كان أول ظهور هذه المنارات في العراق عند البابليين ، فكان إلى جانب معبد البابلي برج قائم وعندهم أخذهم الآشوريون كما كشف عن ذلك المنقبون في أرض آشور حديثاً .

### الأديرة المشهورة في أرض الحيرة

وأكثر ما كانت الأديرة في العراق بأرض الحيرة . ولا غرابة ، فقد كان من ملوكها قبل الإسلام من تركوا الوثنية إلى المسيحية . وقد بنوا وبنى ولدهم البيوع والصوامع ، وانتشرت في أيامهم النصرانية بين أهل الحيرة ، حتى فتحها المسلمون بإمرة خالد بن الوليد .

ومن أقدم دياراتها « دير هند الكبرى » زوجة المنذر الثالث ( ٥١٤ — ٥٦٣ م ) الم معروف بابن ماء السماء وهي أمه . وهند المذكورة بنت الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المرار الكندي ، وكانت مسيحية . وقد بثت الأم تعاليم الدين المسيحى في ابنها عمرو المعروف بابن هند ، فنشأ نصرانياً . وفي مُلك ابنها بَنَتْ هذا الدير ، وكان منقوشاً في صدره هذه الكتابة :

« بَنَتْ هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجْر ،

« الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ،

« أمة المسيح ، وأم عبده ، وبنت عبيده ،

« في ملك ملك الأملاك خسرو أنوشروان ، في زمن مار أفريم الأسقف .

« فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ،

« ويترحم عليها وعلى ولدها ، الدهرَ الدهر »

وكرثت الديارات في عهد النعمان الثالث ( الأصغر ) ابن المنذر الملقب  
بأبي قابوس ( ٥٨٥ — ٦١٣ م ) وكان النعمان على الوثنية يذبح للأصنام فما زال  
عدى بن زيد الشاعر النصراني العبادي يرغبه في النصرانية حتى تنصّر . وكان  
تعميده على يد الجاثليق صبريشوع . وبنى النعمان فيا بني من الديارات في الحيرة  
في أيام مملكته « دير النج » في ظاهرها ، ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن بناء  
منه ولا أنزه موضعاً لما يطيف به من البساتين . وكان النعمان يأتيه يتعبّد فيه ،  
ويستشفى به في مرضه .

ويأتى بعد دير اللج « دير هند الصغرى » وهي الحرقّة هند بنت النعمان .  
وكانت هند من أجمل نساء أهلها وزمانها ، رآها عدى بن زيد فافتتن بها  
وتزوجها . وعدى كما نعلم كان حضرياً من أهل الحيرة ، تعلم في حدائمه الكتابة  
والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس بها ، وقال الشعر وكان من أفصح  
الناس بالعربية ، وتعلم الرمي بالنشاب فخرج من الأساورة الرّماة ، وتعلم لعب  
العجم على الخيل بالصوالة ، وكان إلى هذا جميعه جميل الوجه فائق الحسن . فلحق  
بديوان كسرى أنوشروان بالمداثن . فكان أول كاتب فيه بالعربية ، وعلم منزلته  
حتى كان يؤذن له عليه في الخاصة وحتى صار صاحب سفارته إلى العرب والروم .



والقارىء لحياة هند يتمثل صورة حية للكنائس والبيع . فقد بدأت هند سعادتها في ظل هذا الحرم المقدس ، وفي ظل هذا الحرم المقدس ختمت حياتها ولا مندوحة لذلك من عرض قصتها .

كان عدى بن زيد بعد وفاة كسرى أنوشروان وولاية ابنه هرمز قد قدم الحيرة يحمل هدية من عاهل الفرس إلى ملك الحيرة الذي وليها وقتئذ (نحو ٥٨٢ ميلادية) وهو المنذر بن المنذر والد النعمان وجد هند . وكانت هند بنت النعمان — ولها حينئذ إحدى عشرة سنة — قد خرجت ومعها جواريتها في خميس الفصح لتقرب في البيعة . فاتفق حين دخولها البيعة أن دخلها عدى ليتقرب ، وكانت مديدة القامة علة الجسم ، فرآها عدى وهي غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها ووقعت هند في نفس عدى وأخذت بقلبه . ولبت عدى حولاً لا يخبر بذلك أحداً . ثم غلبه الوجد ، فجعل وسيلته إحدى جواريتها ، فحببت إليها أن تزور بيعة توماً وبادرت الجارية إلى عدى ، فأخبرته الخبر وموعد الزيارة . فمضى إلى البيعة ومعه جماعة من فتيان الحيرة وقد تأنق في مظهره وارتنى أفخر ثيابه يلقاً مذهباً لم ير مثله حسناً . وكان عدى وضىء الطلعة ، مديد القامة ، حلو العينين ، لطيف الملبس ، نقي الثغر . فلما رآته هند من قريب وهو يمازح الفتيان الذين معه ، وقد برع عليهم بجماله وحسن كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، ذهلت لما رآته وعَلقت نفسها به وهويته وأتى عدى أباه النعمان<sup>(١)</sup> وخطبها إليه ، فأجابته لعله شغف كل منهما بصاحبه وزوجه منها وضمها إليه .

---

(١) ورد في الأغاني جزء ثالث في ترجمة عدى بن زيد أنه لما ملك المنذر جمل ابنه النعمان ابن المنذر في حجر عدى بن زيد . وهذا القول يجعل عدى شيخاً في ذلك الحين . ولعل تحرير عبارة الأغاني (في حجر آل عدى بن زيد) يثريه قول الأغاني في بقية الحديث «فهم الذين أَرْضَعُوهُ وَرَبُّوهُ» .

وتُوفِّي المنذر سنة ٥٨٥ ميلادية أو نحو ذلك . فشاور عاهل الفرس صفيهُ العربيَّ عديَّ بن زيد فيمن يولّيه على الحيرة ، واستنصحه في بني المنذر ، فأشار عليه بالنعمان والدهند وكان أحمرَ أبرش قصيراً على خلاف إخوته الحسان الأشاهب ، فولّاه كسرى خلفاً لأبيه على الحيرة . فكان في أيام مملكته كثير العمارَة للبيع والأديرة . وقد بنى دير اللج الذي سلف ذكره ، ودير الحريق بناه على ولدٍ كان له عديّ عليه في موضعه وأُحرق فيه . وكذلك بنى لهند الدير المعروف بدير هند الصغرى لتتعبّد فيه ، وكان النعمان يصلى به ويتقرّب فيه . وبلغ من احتفاله به وعنايته بأمره أنه علّق في هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضة ، وكانت أدهانها في أعياد الدير من زنبقٍ وبانٍ وما شا كلهما من الأدهان ، ويوقد فيه من العود الهندي والعنبر شيء يجلّ عن الوصف .

وظلّ عديّ بن زيد في خدمة عاهل الفرس في المدائن ، يستأذنه كلما أراد المقام بين أهله في الحيرة بعضَ الوقت . وكان يقيم في الحيرة كل عام الشهرَ والشهرين أو أكثر أو أقل . ولم يلبث خصوم عديّ في الحيرة أن سعوا به عند حميه النعمان حتى أحقدوه وأوغروا صدره عليه . فبعث إلى عديّ بالمدائن يستزيّره ، فلما قدم حبسه وقتله ( نحو ٥٩٠ ميلادية ) .

وهكذا لم ينقض على زواج هند ثمانية أعوام حتى فجعت في زوجها المحبوب على يد أبيها . فكان مصابها مضاعفاً ، وتماظمها الأمر وشقّ عليها حتى أسلمت نفسها للحزن واليأس . واشتد الإلحاح على الأرملة الجميلة في طلب زواجها ، فلبست المسوح تعففاً عن الأزواج وترهّبت وحبست نفسها في الدير المنسوب إليها .

ولم يلبث النعمان أبوها أن دارت عليه الدائرة بوقعة ولدٍ من أولاد عديّ

أحفظت عليه أهل الفرس كسرى أبرويز ، فحبسه ومات في حبسه  
(نحو ٦١٣ م).

وكان من شأن هذا جميعه أن يزيد هنداً في ديرها عزوفاً عن الدنيا وشعوراً  
ببطلان نعيمها وغرورها .

ولما كانت السنة الثانية عشرة من الهجرة ودخل الحيرة خالد بن الوليد فاتحاً ،  
عرض عليها الإسلام قائلاً لها : « اسلمى حتى أزوجه رجلاً شريفاً من المسلمين » .  
فقلت : « أما الدين فلا رغبة بي عن ديني ، ولا أبتغي به بدلاً . وأما التزويج ،  
فلو كانت في بقية لما رغبت فيه ، فكيف وأنا عجوز هامة اليوم أو غد » .  
فقال خالد : « إذا ، سليني حاجتك » . فقلت : « هؤلاء النصارى الذين  
في أيديكم ، تحفظونهم » . فقال : « هذا فرض علينا وقد وصانا به نبينا » .  
قلت : « مالي حاجة غير هذه . أنا ساكنة في دير بنيت ملاصق هذه الأعظم  
البالية من أهلي حتى ألحق بهم » . فأمر خالد لها بمعونة ومال وكسوة . فقلت :  
« مالي إلى شيء من هذا حاجة . لي عبدان يزرعان مزرعة لي ، أتقوت بها  
ما يمسك رمقي » . وأقامت في الدير مترهبة حتى ماتت ودفنت فيه .

ولآل المنذر غير ما تقدم « دير حنة القديم » وإلى جانبه قائم ، و « دير مارت  
مريم » بين الخورنق والسدير . وبين قصر أبي الخصيب مشرفاً على النجف .

وقد سار أهل الحيرة على سنة ملوكهم . فثمة « دير عبد المسيح » في بقعة  
يقال لها الجرعة ، وصاحبه أحد أعيان نصارى الحيرة من العباد ، وكان أبوه  
عمرو بن بقليلة وزيراً للنعمان ، ومثله « دير علقمة اللخمي » وهو عم إلياس بن  
قيصة الذي ملك الحيرة بعد النعمان من غير اللخمين ، وقبة « السنيق » ويازائها  
قباب « السكورة » ، و « ديارات الأساقفة » بظاهر الكوفة ، و « دير زرارة »



بين الكوفة وحمام أعين ؛ و « دَيْرَ سَرَجِس » بطيزنا باز بين الكوفة والقادسية .  
ونختم الكلام عن هذه الأديرة القديمة بأرض الحيرة بذكر دَيْرَيْنِ آخرين :  
« دير الأسكون » وهو راكب للنجف وبعد أنزه ديارات الحيرة . وفيه قلالي<sup>(١)</sup>  
وهياكل ، ورهبانه يقيمون الضيافة لمن ورد عليهم ، وهو حصن منيع ، له سور<sup>(٢)</sup>  
عالٍ ، وباب من حديد . ومنه يُهبط إلى غدير الحيرة . وأرضه رَضْرَاضٌ<sup>(٣)</sup>  
ورملٌ أبيض . وله مشرعة<sup>(٤)</sup> تقابل الحيرة ، لها درج ، إذا انقطع النهر كان  
منها شربُ أهل الحيرة .

و « دير حنة » بالأكرح وهو حسن البناء ، والرياض محدقة به ، ونهر  
الحيرة الذي يقال له الغدير بقرب منه . ويُقصد في أيام الربيع ، والرياض مُعْتَمَةٌ  
بالزهر ، والغدران مسجورة تترقق جنبه ، والبادية في حده . ولا يعدم ضيوفه  
أعرايياً فصيحاً يطير إليهم وهم فيه ، فيهدى إليهم بيض نعامٍ ويجنى لهم الكُمَاة<sup>(٥)</sup>  
وكثيراً ما كان الأمراء يقصدون إليه للتفرّج والشرب ، فتضرب لهم الخيام عنده ،  
ويخرج إليهم رهبانه يحملون إليهم ما عندهم من اللطف والتحف والشراب  
الجيد المعتقد .

ومن هذه الصور التي أثبتناها يتمثل القارى نماذج الأديرة بأرض الحيرة على  
حافة بادية الشام .

وقبل أن نترك أرض الحيرة نذكر في جنوبها في سواد العراق « عُمر كَسْكَر »  
بين الكوفة والبصرة أسفل من واسط ، وفي هذا العمر كرسى المطران ، وهو عُمر<sup>(٦)</sup>  
حسنٌ جيد البناء مشهور عند النصارى ، تحيط به بساتين نخيلٍ بينه وبين دجلة ،  
فلا يراه القاصد حتى يلتصق بمحاطته .

(١) الرضراض : صغار الحصى . (٢) المشرعة : مورد الشاربة .

(٣) الكُمَاة : نبات يوجد في الربيع تحت الأرض لا ساق له ولا عرق .



كما نذكر شمالَ أرض الحيرة « عمريونان » بالأبنار بالقرب من حدود الجزيرة من ناحية الحيرة . وهو دير كبير على الفرات ، كثير القلايات ، عليه سور محكمُ البنيان كالحصن العظيم . وله ظاهرٌ حسن ولا سيما في أيام الربيع ، لأن صحاريه وسائر أرضه تكون كألحلل لكثرة نواره وطرائف أزهاره . نزله كلُّ من اجتاز به من الخلفاء . ولأبي نواس أبيات من عيون شعره في وصف عمريونان بصورٍ لنا منظر الربيع به في شهر نيسان كما يشير إلى نساء الدير ورهبانه واشتياقه إلى الشرب من معتقة دنانه :

وغيرَ دَ الرَّاهِبُ في العُمُرِ	أَذْنَكَ النَّاقُوسُ بالفجرِ
وجاءَكَ الفَيْثُ على قَدَرِ	وحنَّ مَحْمُورٌ إلى الخَمْرِ
تضحكُ عن خضِرٍ وعن صُفَرِ	واطَّرَدتْ عَيْنَاكَ في رَوْضَةٍ
مِزاجُها من مُعْرِقِ القطرِ <sup>(١)</sup>	فَعَاطِرِ نَدْمَانِكَ من خَمَرَةٍ
ومُشْكَلٍ من حُلَلِ الزَّهَرِ	على خُرَامَاها وَحَوَذايَها
شَوادِنٌ من بَقَرِ زُهرِ	في مَسْرَحٍ تَرْتَعُ أَكْنافَهُ
وحَبَّذا نَيْسانُ من شَهرِ <sup>(٢)</sup>	يا حَبَّذا الصُّبْحَةُ في العُمُرِ
بِحُرْمَةِ الحانَةِ والفَهرِ <sup>(٣)</sup>	يا عاقِدَ الزُّنارِ في الخُصْرِ
إِلَّا التي أُضْمِرْتُ في صَدْرِي	لا تَسْئَلْنِي - إن كُنْتَ بِي عالِماً -
واكْنِي بما شئتُ عن الخَمْرِ	هاتِ التي تُعرفُ وَجَدِي بها

في سواد بغداد

وندع أرض الحيرة في الجانب الغربي من العراق حيث أطلال بابل القديمة

(١) أعرق الخمر : مزجها بقليل من الماء . (٢) الصبحة : شربة الصبح .

(٣) الفهر : عيد تليهود أو معبدهم .

ناحية الفرات ، وتحوّل إلى الجانب الشرقى حيث أطلال المدائن الكسروية  
ناحية دجلة .

وهنا نجد في أرض بغداد « دير الروم » وهو بيعة كبيرة حسنة البناء محكمة  
الصنعة للنسطورية خاصة ، وإلى جانبها قلاية للجائليق ، وبينها وبين البيعة بابٌ  
يخرج منه إليها في أوقات صلاتهم وقرانهم . و « دير الزندورد » في بقعة أرضها  
كلها فواكه وأترجٌ وأعنانٌ ، وهى من أجود الأعنان التى تعصر ببغداد ،  
وفىها يقول أبو نواس :

فَسَقَنِي مِنْ كُرُومِ الزَّندَ وَرَدٍ ضُحَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ فِي ظِلِّ الْعَنَاقِيدِ  
و « دير دوما الس » فى باب الشماسية وهو نزه كثير الأشجار والبساتين بقربه  
أجمة قصب ، والدير كبير أهلٌ ، وعيده أحسن عيد ، يجتمع نصارى بغداد  
فيه . و « دير سمالو » على باب الشماسية وهو على نهر الهدى ، وعنده أرحية  
للماء . وحوله بساتين وأشجار ونخيلٌ ، وبين يديه أجمة قصب يُرمى فيها الطير .  
وفى عيد الفصح لا يبقى أحدٌ من النصارى ببغداد حتى يأتية . وهذه الديارات  
جميعها فى الجانب الشرقى من بغداد .

وفى الجانب الغربى من بغداد « دير الثعالب » فى كورة نهر عيسى ، وهو  
بمكان متنزه لا يخلو من قاصد وطارق ، ولا يتخلف أحدٌ من النصارى عن عيده  
و « دير أشمونى » بقطر بل من ضواحي بغداد . و « دير مديان » على نهر كرخايا  
ببغداد وهو ديرٌ حسنٌ عامرٌ حوله البساتين ويقصد للتنزه . ثم « دير قنى »  
و « دير العاقول » ناحية المدائن وفيهما يقول الشاعر :

بين دير العاقول مُرتَبِعٌ أَشْرَ فَ مُحْتَلُّهُ عَلَى دِيرِ قُنَى  
حيثُ باتَ الزَّيتونُ من فوقه النَّخْلُ عليه وَرَقُ الحمامِ تَغْنَى

ثم «دير سابر» في الجانب الغربي من دجلة بين قريتي المزرقفة والصالحية في بقعة كثيرة البساتين والكروم والثمار والحانات والثمارين . و«دير مَرُ جرجس» بالمزرقفة على شاطئ دجلة ، ويخرج إليه من يتنزه من أهل بغداد بالسميريات لقربه وطيبه ، والبساتين محدقة به والحانات مجاورة له ، وبه كل ما يحتاج إليه . و«دير قوطا» بالبردان على شاطئ دجلة ، وبينه وبين بغداد بساتين متصلة ومتنزهات منتظمة . وكل ذلك شجر وكروم كثيرة الطراق . و«دير الأخوات» أي الأخوات ، بَعَكَبَرَا وهو دير كبير عامر ؛ وأكثر سكانه نساء مترهبات ، وعيده الأحد الأول من الصوم . و«دير العَلْثُ أو العذارى» بين بغداد وسامرا ، وهو راكب دجلة من الجانب الشرقي ويمد من أنزه الديارات وأحسنها . و«دير باشهزا» على شاطئ دجلة ، نزه كثير البساتين وهو منزلة المصعد والمنحدر على طريق سامرا ، و«دير عبدون» إلى جانب المطيرة في أرض سامرا . و«دير السوسي» في الجانب الغربي من سامرا . و«دير مَرُ ماري» بسامرا عند قنطرة وصيف وحوله كروم وشجر . و«دير الجائلق» وهو قديم البناء في غربي دجلة على الحد بين آخر السواد وأول أرض تكريت .

ومن الديرة التي تقوم على الحدود الشرقية بين العراق العربي والعراق العجمي «دير الغادر» وهو في أرض حلوان على الطريق إلى خراسان ، وقد نزل أبو نواس وله مع راهبه واقعة حال فيما يزعمون . وفي سواد العراق العربي كذلك كورة يقال لها «ماه بهراذان» تاحيه راذان ، وأكبر الظن أنها موضع «دير بهراذان» الذي يقول فيه أبو نواس :

بدِيرِ بهْرَازَانَ لِي مَجْلَسُ	وَمَلْعَبُ	وَسَطِ بَسَاتِينِهِ
رَحْتُ إِلَيْهِ ، وَمَعِيَ فِتْيَةٌ	نَزَرُهُ	يَوْمَ سَعَانِينِهِ
بِكُلِّ طَلَّابِ الْهَوَى فَاتِكِ	قَدْ آثَرَ	الدُّنْيَا عَلَى دِينِهِ
حَتَّى تَوَافَيْنَا إِلَى مَجْلَسِ	تَضَحْكُ	أَلْوَانُ رِيَاحِينِهِ

والتَّرجِسُ النُّفْسُ لَدَى وَرْدِهِ      وَالْوَرْدُ قَدْ حُفَّ بِنَسْرِيهِ  
وَجِءَ بِالْدَّنِّ عَلَى مَرْفَعٍ      وَخَاتَمُ الْعِلْجِ عَلَى طِينِهِ<sup>(١)</sup>  
وافتُصِدَ الْأَكْحَلُ مِنْ دَنَّا      فَانْصَاعَ فِي مُحَرَّةٍ تَلْوِينِهِ<sup>(٢)</sup>  
وَطَافَ بِالكَاسِ لَنَا شَادِنٌ      يُدْمِيهِ مَسُّ الْكَفِّ مِنْ لِينِهِ  
يَكَادُ مِنْ إِشْرَاقِ خَدَّيْهِ أَنْ      تُخْتَطِفَ الْأَبْصَارُ مِنْ دُونِهِ  
فَلَمْ نَزَلْ نُسْقَى وَنَلْهُو بِهِ      وَنَأْخُذَ الْقَصْفَ بِأَيْنِهِ<sup>(٣)</sup>  
حَتَّى غَدَا السُّكْرَانُ مِنْ سَكْرِهِ      كَالْمَيْتِ فِي بَعْضِ أَحْيَانِهِ

وفي هذا الذي قدمناه الكفاية وفوق الكفاية ، ليمثل القارىء طبيعة أرض العراق ، بما يتكرر في وصف مواضع الأديرة النزهة من كثرة المياه مما كان يساق بين الرافدين من الجداول والرواض والقنوات ، ثم كثرة النخيل وهي تمتد في نواح من العراق كالغابات مسافات بعيدة ، ثم الكروم ، ثم الأشجار ذات الثمار وأخصها الزيتون . ويُلاحظ خلوة هذه الصفحات الوصفية من ذكر الربى والمرتفعات ، ومن ذكر الصخور والحجارة ومعادن الفلز لأن الأرض هنا سهول من رواسب الغرين مما جرته سيول الرافدين من كراثم الرمل والطين ، وهذه السهول كانت أخصب بلاد العالم يزرع فيها القمح والشعير من قديم ، وهي كذلك ذات خنايل ورياض وبساتين ، وفي بطائعها التي يستنقع فيها ماء الفيضان غياض وأجمات قصب .

(١) المرفع : ما يرفع به ، العليج : الرجل الضخم القوي من العجم .

(٢) الأكحل : عرق في الذراع يفصد . (٣) الآيين : القانون .



## في الجزيرة

فإذا بلغنا في رحلتنا مُصعدين إلى الحدّ بين العراق والجزيرة ، تبدلت المناظر . وهذا التبدل لا يكاد يبين من ناحية الفرات في سهوله المنبسطة المتاخمة لبادية الشام كما نرى في وصف أديرة هذه النواحي ، ونذكر منها بنواحي الرقة — وهي المدينة التي كان الرشيد يستطيب الاستجمام بها — « دير القائم الأقصى » في الطريق إلى الرقة من بغداد على شاطئ الفرات من جانبه الغربي ، ويقال « القائم » لأن عنده قائماً عالياً كالمرقب . و « دير زَكِّي » وهو قريب من الفرات وعلى جنبه نهر البليخ بالرقة ، وقيل بالرُّها التي كانت من أكبر الحواضر المسيحية في الشرق ومن أكثرها بيعاً وأديرة وصوامع . ثم « دير الباعوث » وله مزارع ومباقل وجنينات ، وفي هيكله صورة دقيقة الصنعة عجيبه الحسن يقال إن لها مئتين سنين لم تتغير أصباغها ولا حالت ألوانها ، وهو على شاطئ الفرات من جانبه الغربي كذلك ، والوصول إليه بالسميريات ، وكانت العمارة قليلة حوله ، وله من أجل ذلك خفاء من الأعراب .

أما من ناحية دجلة فالمناظر مختلفة أشد الاختلاف . فالنهر العظيم في انحداره من جبال أرمينية لا يفقد سرعة جريه كما يفقدها الفرات عند دخوله أرض الجزيرة الوطاء<sup>(١)</sup> السهلة ، وذلك أن دجلة مجاورٌ على طول مجراه أو معظمه لهضبة إيران ومن مرتفعاتها تنصب الروافد فيه ، فضلاً عن أن هذا الفيض موفور لا يتعرض لما يتعرض له الفرات من نزف مائه بالتبخر من أثر الحرارة والجفاف في البادية الشامية . فنحن ها هنا في أرض فيها حدبات وفي جوارها جبال ومرتفعات ، والنهر الذي نحن بسبيله زاهر اللجة سريع الجري من امتلائه وتدافع

(١) الوطاء : ما انخفض وسهل من الأرض .

عُبابه . وعلى ضوء هذا البيان نعرض أوصاف الأديرة في ناحية الموصل ، ناحية نينوى القديمة حاضرة الآشوريين مساعير الحرب الفاتحين .

فمن الأديرة القائمة على الحدود من جهة الموصل « دير مَرْيَحْنَا » إلى جانب تكريت على غربي الدجلة وهو للسطورية عامر بالقلايات والرهبان ، مطروق مقصود ، منزل لكل مسافر ، وبه ضيافة قائمة على أقدار الناس ، وله مزارع متسمة وغللات كثيرة . وتكريت مطلة على جبل عظيم شاهق وبها الكثير من البيع والأديرة القديمة التي تقارب عهد عيسى والحواريين لم تتغير أبنيتها وثاقه وجلداً ، وأبنيتهم بالحص والآجر والحجر .

و « دير باطا » قرب مدينة السن الواقعة على مصب الزاب الأسفل في دجلة . وبين هذا الدير ودجلة بُعدٌ ، وله باب حجرٌ ، وبه بئر تنفع من البهق <sup>(١)</sup> ، وفيه كرسى الأسقف .

و « عمر إتراعيل » عند قرية قريبة من إربل من أعمال الموصل ، وهو مشرف على ما حوله ، والشجر والكروم من شرفيه ، وله نهر يجري على بابه ، ورحى عامرة يديرها الماء تطحن فوق الكرم ، والصاعد إليه أيام الربيع يرى حوله من ألوان ازهر وأنواع الأقاحى والشقائق وصنوف النور ما يسر الناظرين ويقصر عنه وصف الواصفين ، وفي قلالي رهبانه جتينات حسان فيها آس مصر ، وشجر مريم وغير ذلك . وفي كل عيد من أعياد النصراني يقام به سوق وتخرج إليه جماعة من إربل ويزوره خلق من النواحي يكونون فيه مدة يومين أو أكثر وينصرفون عنه .

و « دير بارقانا » فوق الحديثة على جانب دجلة الشرقي ، راكب للماء ،

(١) البهق : بياض في الجلد لا من برص .

في موضع نزه حسن ، و بناؤه محكم ، وقلاليه كثيرة الشجر والزهر ، وله بساتين ومباقل ، ويقال إنه ليس في سمك دجلة أسمى من سمك يصاد من شاطئه . و «دير باعربا» بين الحديثة والموصل على جانب دجلة الغربي بإزاء جزائر كثيرة الشجر قلما خلت من سُبُع ، وهو جليل عند النصارى وفيه قبور يعظمونها ، و بناؤه عجيب وارتفاع حائط هيكله نحو المائة ذراع وما حوله بناء يسنده ، وله مزارع ، وفيه بيت ضيافة ينزله من يجتاز عليه . و «دير الخنافس» وهو دير صغير بالموصل بالجانب الشرقى على قلة جبل شامخ يشرف على أطلال نينوى وأنهارها و «دير باريشا» وهو بنينوى بأرض الموصل على نهر الخازر ، وبه بيت ضيافة . و «دير القيّارة» فوق دير باعربا على جانب دجلة الغربى وسمى بالقيّارة نسبة إلى عين فيه ومعدن يستخرج منه القار وتحتة حَمَّة<sup>(١)</sup> عظيمة يقصده من به علة أعمت الأطباء فيقيم به خمسة أيام مستنقعا في مائها من علته ، وماؤها يشفى من النقرس ويبدط التشنج ويزيل الأورام الجاسية ويلحم الجراحات . وسبيل من قصدها أن يظل نهاره في مائها ، ويأوى ليله في هيكل ديرها فيدنه رهبانها بالطيبوث<sup>(٢)</sup> فيشفى . وفي الدير عيون يخرج منها النفط والقيير ، فُتَقَبِّلَ من السلطان بألوف دراهم في كل سنة . ومرافق هذا الدير عظيمة .

و «الدير الأعلى» بالموصل في أعلى جبل ، يطل على دجلة ، يضرب المثل به في رقة الهواء وحسن المُستشرف تحتة . والجزائر تتفرق خلجانها وغدرانها بإزائه . وكانت الولاة تخرج إليه للطف الهواء والنظر إلى الماء . ويقال إنه ليس للنصارى دير مثله لما فيه من أناجيلهم ومتعبداتهم . وظهر عنده عدة معادن كبريتية

(١) الحمة : العين الحارة الماء يشقى بها الأعلاء .

(٢) الطيبوث عند نصارى اليعاقبة مادة تؤخذ من زيت قد صُلِّي عليه مطرانهم وباركه ، وقد أضيف إليه شيء من الماء وقليل من تراب رفات أحد الأولياء القديسين .



ومرقشيثا وقلقطار يزعم أهل الموصل أنها تبرئ من الجرب والحكة والبثور وتنفع المقعدين والزمنى ، ثم صانعت النصارى حتى أبطلت خوفاً من تنقيل السلطان .

و « دير متى » بالموصل من الجانب الشرقي على جبل شامخ يعرف بجبل متى يشرف على رستاق<sup>(١)</sup> نينوى وعلى المرج . وهو حسن البناء ، جيد الحصانة . وأكثر بيوته منقورة في الصخر ، في نهاية الحسن والنظافة . ورهبانه لا يأكلون طعاماً إلا جميعاً في بيت للشتاء وبيت للصيف . ومتى جلس أحد في صحن هذا الدير نظر إلى الموصل وبينهما سبعة فراسخ . وله عدة أبواب مفرطة في الكبر ، وكلها من حديد مُصمت . وبه صهريج عظيم يجتمع فيه ماء المطر ، عمقه اثنا عشر ذراعاً ، لكل شهر ذراع من الماء . ويفتح هذا الصهريج من موضعين في أعلاه وفي أسفله ، فيخرج ماؤه من أسدين من صُفْر . وجملة أمره أنه عجيب عظيم في أمثاله . وحول هذا الدير من الأشجار ومن سائر الثمار . وفي خارجه مغار في الجبل فيه صناديق من صخرٍ بأطباقٍ لموتاهم ، فتى امتلأت خرج رأس الدير مع رهبانه يقرءون أناجيلهم ويجمعون العظام البالية منها ثم تطرح في فجٍ داخل هذا المغار .

و « دير ميخائيل » بأعلى الموصل على ميل منها ، يركب دجلة في بقعة حسنة ، ذو كروم وشجر ، وهو برى بحرى ، سهلى جبلى . وفيه يقول الشاعر :

بمارٍ ميخائيل إن حاولتما طلبى      فأنتما تجدانى فمَّ مطروحا  
يا صاحباى هو العمر الذى جُعمت      فيه المنى ، فاغدوا للدير أوروحا  
برٌّ وبجرٌّ به يهدى نسيمهما      للروح مسكاً بماء الورد منضوحاً

(١) الرستاق : القرى وما يحيط بها من الأراضى .



يَجْرَ صَيَادُهُ الشَّبُوطَ مضطرباً حَيّاً ، وقانصُهُ اليعفورَ مذبوحاً

وبه قلالي كثيرة في غاية الظرف مخفوفة بأنواع الشجر وأصناف الزهر ، وله عيد يكون قبل الشعانين بأسبوع . وحكى أنه أريد به حفر بئر في بعض قلاله فأفضى الحفر إلى صندوق من حجر ، فكشف ، فإذا فيه ميت لم يتغير من جسمه شيء ، وإذا ثيابه صحيحة . وعند رأسه صحيفة من صُفر فيها كتابة قديمة لم يقفوا على قراءتها ، ولكنهم فهموا أن فيها ذكره . فردّوه إلى مكانه وعفوا أثره ، والذي يُظن أنه كان ممن على دين المسيح وأنه هرب بدينه من الاضطهاد فمات في هذا الموضع ودفن فيه . وبين هذا الدير والموصل وادٍ يعرف بوادي زمار ، عليه رابية ، تُعرف برابية المقاب تشرف على دجلة والبساتين والجزائر والنهر ، وهي غاية في الربيع . وكان هذا الدير حبيباً إلى نفس الخالدي أثيراً عنده ، فقال يعارض أبيات جحظة في دير العلت وأبيات أبي نواس في دير الأكيراح من عروضها وقافيتها :

بدائع لا لدير العلت هنّ ، ولا لدير حنّة من ذات الأكيراح  
أبا تخايل لا تعدّم ضحى ودجى سيجال كلّ ملثّ الودق مسح<sup>(١)</sup>  
و « دير أبي يوسف » وهو فوق الموصل ودون بلد ( وتسمى بلط واسمها بالفارسية شهراباذ ) وموضعه حسن معمور بشجر الزيتون والسرو وبالآس والرياحين ، مغروس الرّبي بالترجس . وهيكله حسن البناء ، وفيه عجائب من بدائع التصوير ، ورهبانه ذوو جدّة . وهو على شاطئ دجلة ، في ممرّ القوافل ولا يموزه كل يوم قافلة تحط عنده لتأخذ خمراً .

و « دير مَرّرجس » فوق بلد بثلاثة فراسخ ، على قلة جبل عالٍ ، والدير

(١) لث المطر : دام ألياً . الودق : المطر .

يبين للناظر من عدة فراسخ ، وعلى بابه شجرة من الشجر الدائم الخضرة لا يسقط ورقها عند سقوط ورق الشجر ولها ثمرة تشبه اللوز ، وفي جبله من الزراير شيء عظيم ، لا تفارقه صيفاً ولا شتاء ، لا يُقدَّر على صيد شيء منها ، وفي شعاب جبله أفاعٍ كثيرة تمنع من صيد طيره ليلاً ، وفي أوديته حصى على شكل اللوز .

و « دير أبون » في نواحي الموصل ، بين جزيرة ابن عمر — وهي على غربي دجلة والنهر محيطٌ بها إلا من ناحية واحدة شبه الهلال — وبين قرية ثمانين الواقعة عند جبل الجودي ، وهو دير جليل عند النصارى وإلى جانبه ضيعة غناء كثيرة البساتين وبه صهر يج للماء زعموا أن له أنابيبَ صُفْرٍ يجري فيها الماء من جبل الجودي إلى الصهر يج .

و « دير الكلب » وسمى كذلك لأن له فيما يقال خاصية في بُرء الكلب الكلب . وهو عند معلثايا وهي بُليدٌ قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل ، في سفح جبل . والماء ينحدر إليه . وقلاليه مبنية بعضها فوق بعض في صعود الجبل ، فنظرها أحسن منظر ، وينبوعه ينصب عليه من أعلاه . وفيه من الكروم ومن شجرة الزيتون والرمان ومن الآس والزعفران والزرجس شيء كثير . ولرهبانه مزارع في السهل . وغلاته كثيرة .

ثم « دير الزعفران » بالقرب من معلثايا على الجبل المحاذي لنصيبين ، وهو كثير الرهبان والقلالي . وماؤه سائح من ينبوع في جبله يجتمع في صهاريج ، والصهاريج منقورة في صخور . والثاج به ممكن . ورهبانه ذوو يسارٍ وغنى بما لهم من البساتين والمزارع والنعم ، وفيه جنات لهم حسنة نظرة مملوءة بشجر البندق والفسق واللوز الفرك والزيتون والبطم<sup>(١)</sup> . وقلاليه بعضها فوق بعض كبناء

(١) البطم : شجر كالفسق جرباً له حب مفرطح .

دير الكلب بأحسن وصفٍ وأملح تكوين . فرشُ أرضه من زهر الزعفران ،  
ومنه ومن العسل أ كثرُ يسار رهبانه . ولهذا الدير بيوت للضيافة في علوِّ الهيكل  
وله سور عجيب التسيير يحيط به ، وعليه أبواب من حديدٍ مُصمت . وشرابه  
مفضل في اللون والرائحة والعتق .

وفي نصيبين يقول أبو نواس :

طابَتْ نصيبين لي يوماً ، وطبتُ لها يا ليتَ حظِّي من الدنيا نصيبين<sup>(١)</sup>  
والقارىُّ لأوصاف الأديرة في هذه الناحية من الجزيرة على شاطئ دجلة  
يتبين مواقعها الجبلية السهلية ، البرية البحرية ، كما يلحظ اختفاء النخيل من  
حد الموصل ، وظهور صنوفٍ أخرى من الشجر على سفوح الجبال شاهدة على أن  
الحياة النباتية هنا غيرها في العراق . كذلك تظهر الحجارة والرخام في العمارة على  
حين لا يملك العراقيون غير الآجر مادة للبناء . ولما كانت الأرض هنا ذات جبال  
تزايد ارتفاعاً ، فقد كان يتهياً من هذا التفاوت في الارتفاعات سطوح مدرجة ،  
وكان سكان الجبل من الرهبان يجعلون قلايهم بعضها فوق بعض في صعود الجبل  
وعلى هذه السطوح يزرع كل منهم جنينته ومبقلته . وكانت الجبال الشاخحة في  
الأصقاع يكسوها الجليد . فائتلع من أجل ذلك لم يكن بعيداً عن المتناول . ومن  
ذوَب الجليد تسيل الجداول في الشعاب ، ومن الماء السائخ من الجبل رىُّ الزرع  
وشرب الرهبان ، وهم ينقرون في الصخور لهذا الماء صهاريج يجتمع فيها . وفي بطن  
هذه الأرض الصلبة اتخذ النصارى السرايب الطويلة لتكون فيها مدافن موتاهم  
catacombes وهذه الدياميس<sup>(٢)</sup> كانت تُعقد فيها مجتمعاتهم إبان الاضطهاد

(١) استشهد به ابن بطوطة في رحلته .

(٢) الدياميس : الأمكنة العميقة التي لا ينفذ إليها الضوء .



وكما أصدنا صوب الهضاب الإيرانية ظهرت الثروة المعدنية وخاصة الصُّفَرُ  
(النحاس) وانبعست العيون المعدنية الحارة — الحَمَّات — التي يُستشفى بها

### الأديرة القبطية

ولقد خرج أبو نواس من العراق في أوائل عام ١٩١ أو نحو ذلك قاصداً إلى  
مصر بدعوة من أمير الخراج عليها وقتئذ وهو أبو النصر الخصيب بن عبد الحميد  
العجمي وكان خروجه في قافلة رحلت بركبها في البكور أول انبلاج النور ، من  
« عقر قوف » وهي قرية في نواحي دجيل تبعد عن بغداد ستة فراسخ ، فما وافى  
الأصيل وانحدرت الشمس للمغيب حتى كان الركب منحدرًا في الوادي المعروف  
بـ « عَيْن أَبَاغ » وراء الأنبار على طريق الفرات ، وفي ذلك قوله مخاطبًا الأمير المدوح

إِلَيْكَ رَمَتْ بِالْقَوْمِ هُوجٌ كَأَنَّمَا جَمَّاهَا تَحْتَ الرِّحَالِ قُبُورٌ<sup>(١)</sup>

رَحَلْنَا بِنَا مِنْ «عَقْرَقُوفٍ» وَقَدْ بَدَا مِنْ الصُّبْحِ مَفْتُوقُ الْأَدِيمِ شَهِيرٌ

فَمَا نَجَدَتْ بِالْمَاءِ ، حَتَّى رَأَيْتَهَا مَعَ الشَّمْسِ فِي «عَيْنِ أَبَاغٍ» تَعُورٌ<sup>(٢)</sup>

وبعد إناخة قصيرة في صدر الليل عرَّجت القافلة غربًا وتابعت المسير في  
الهزيع الأخير فبلغت إلى غدران «النقيب» في فجر اليوم التالي . ولم يتقدم بالركب  
النهار حتى كانوا قد استشفروا آثار « تدمر » القديمة ، وأطلال معابدها العظيمة  
وغمَّرن من ماء « النَّقِيب » بشربةٍ وقد حان من ديك الصَّبَّاح زَمِيرٌ<sup>(٣)</sup>

(١) الهوج : جمع هوجاء ، وهي الناقة المسرعة حتى كأن بها هوجاً .

(٢) نجدت بالماء سال عرقها من الإعياء . وقوله « عَيْن أَبَاغ » لضرورة الشعر ، ويحكي  
في ذلك عن أبي نواس أنه قال [جهدت على أن تقع في الشعر « عَيْن أَبَاغ » فامتنعت على ، فقلت  
« عَيْن أَبَاغ » ليستوى الشعر ] .

(٣) النقيب هنا غير النقيب بين تبوك ومكان لأنه لا يستقيم مع سير الرحلة ولعله تصحيف  
من الناسخ .



ووافينَ إشرافاً كُنَّائسَ « تَدْمُرُ » وهنَّ إلى رَعْنِ « المدخن » صُورٌ<sup>(١)</sup>

ودخلت القافلة الشام ، ولعلها عرجت على حمص فهي التي تلى تدمر من قريب وإن كانت لم يرد لها ذكر في قصيدة الشاعر . والذي يحملنا على هذا الظن ما رواه النضر بن أمية الحمصي الشاعر ، قال [ لما خرج أبو نواس إلى مصر ، كتب الناس إلينا بذلك ، فلم نزل نرقبه حتى قيل لنا : قد قدم . فجئت الخان لأسأل عن خبره ، فإذا إنسان قاعد على درجة ، مَنشَحُ بِمُخْلَوَقِيَّةٍ يَسْتَاكُ ، فدنوت منه ، فقلت : « يافتي ، إنسانٌ قدم من العراق يقال له أبو نواس » وكان معي ابنٌ لي حسن الوجه جداً ، فقال : « ماتجعل لمن يدلك عليه ؟ » . قلت : « حُكْمه » قال : « قُبلةٌ من هذا الغزال الذي معك » . قلت : « ويحك ! هذا ابني » قال : « آدم خيرٌ منك والناس يقبلون بنيهم ويلاعبونهم » . فقلت له : « أنت أبو نواس ؟ » قال : « أنا هو . فمن أين عرفتنى ؟ » قلت : « بنور الإيمان » ، قال : « لا والله ، ولكن بظلمة الكفر ، فمرحبا بك » فما زلت أناديه ، وما فارقته حتى ارتحل عن حمص وشيعته . ]

ومع أنه غير مستغرب ولا مستبعد إلمام الركب بحمص والإناخة قليلاً فيها للإراحة الإبل واستجمام المسافرين يوماً أو بعض يوم في خانها ، فإننا نعدّ على الخبر بعد أن سجلناه دون أن نقطع ببطلانه أو بصحته ، وإن كنا أميل إلى إثباته لما هو ثابت من اجتياز الشاعر بحمص في طريق عودته . ونعود فنستأنف ما كنا فيه من متابعة خطة رحلته كما دونها في قصيدته . فنذكر بعد الذي أتينا عليه من المراحل والمنازل أن القافلة وافت أرض دمشق ، وهنا اجتاز الركب أرض جولان الصخرية التي أصابت أخفاف المطايا بالوجى والجراح ، ثم كان مسراهم غير المحمود

(١) الرعن : أنف الجبل . صور : روائى .

إلى بَيْسَانَ وهي بلدة حارة وبئة بالأردن بالغور الشامي بين حوران وفلسطين ،  
ثم توغلوا في فلسطين فجازوا بالرملة ثم بنهر أبي فطرُس قريباً منها ، ومضوا  
مهيّطين فلم يعوجوا على بيت المقدس للتبرك والزيارة كما كان حقاً عليهم لولا أنهم  
كانوا إلى بلوع مصر مُعْجَلِينَ .

يَوْمَئِذٍ أَهْلَ « الْغَوْطَيْنِ » كَأَنَّمَا لَهَا عِنْدَ أَهْلِ « الْغَوْطَيْنِ » تُثَوِّرُ  
وَأَصْبَحْنَ « يَاجُولَانَ » يَرْضَخْنَ صَخْرَهَا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاحِنَّ شَطُورٌ <sup>(١)</sup>  
وَقَاسَيْنِ لَيْلاً دُونَ « بَيْسَانَ » لَمْ يَكْدَ سَنَا صُبْحَهُ لِلنَّاطِرِينَ يُنِيرُ  
وَأَصْبَحْنَ قَدْ قَوَّزْنَ مِنْ نَهْرِ « فُطْرُسٍ » . وَهِنَّ « عَنِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ » زُورٌ <sup>(٢)</sup>  
وَأخيراً بلغوا غَزَّةَ على الحدود بين فلسطين ومصر . وكان دخولهم الأرض  
المصرية من ناحية القَرَمَا حتى أتوا الفسْطاط .

طَوَالِبَ بِالرَّكْبَانِ « غَزَّةَ » هَاشِمٌ وَفِي « الْقَرَمَا » مِنْ حَاجِبِنَّ شَقُورٌ <sup>(٣)</sup>  
وَلَا أَنْتِ « فُسْطَاطٌ » مَصْرَ أَجَارَهَا عَلَى رَكْبِهَا — أَنْ لَا تَزَالَ — مَجِيرٌ  
عَلَى أَنْتَا لَمْ تَقَعِ لِأَدِيرَةِ مَصْرَ عَلَى ذِكْرِ فِي أَشْعَارِ أَبِي نَوَاسٍ ، مَعَ أَنْ دِيَارَاتِهَا  
كَانَتْ مَقْصُودَةً وَمَتَنَزَّهَاتِهَا مَطْرُوقَةٌ ، وَهِيَ كَثِيرَةُ الْقَلَالِي عَامِرَةٌ بِالرَّهْبَانِ ، عَظِيمَةُ  
الثَّرَاءِ بِذَهَبِ صُلْبَانِهَا وَفَضَّةِ قَنَادِيلِهَا ، وَلَهَا أَعْيَادٌ مَرْصُودَةُ الْأَوْقَاتِ ، مُنْتَظَرَةٌ  
الْمِيقَاتِ ، يَنْسَخُ وَقُودُهَا آيَةَ الظُّلُمَاتِ

والمرجح مع ذلك أن يكون أبو نواس قد شرب في بعضها بدليل قوله :

هَاتِ مِنَ الرَّاحِ فَاشْقِي الرَّاخَا أَمَا تَرَى الدَّيْكَ كَيْفَ قَدْ صَاحَا

(١) يَرْضَخْنَ : يَكْسِرْنَ . الشَطُورُ جمع شَطْر وهو من الناقة حلمة ضرعها . والمعنى ان  
النياق لكثرة ما أصاب صدورها من جروح لم يبق لضرعها شَطُورٌ . (٢) زُور : جمع  
قُودَاءَ ، وَازُورَ مَالٌ وَصَدَفٌ . (٣) شَقُور : جمع شَقْر وهي الأمور الملتصقة بالقلب .

وَأَدْبَرَ اللَّيْلُ فِي مُعْسَكَرِهِ مُنْصَرَفًا ، وَالصَّبَاحُ قَدْ لَاحَا  
 فَاسْتَعْجَلَ الْكَأْسَ وَاسْتَقْنَى بَكْرًا إِنِّي إِلَيْهَا أَصْبَحْتُ مُرْتَاخَا  
 كَلَسًا دِهَاقًا صِرْفًا كَأَنَّ بَهَا إِلَى فَمِ الشَّارِبِينَ مَصْبَاخَا  
 تُتَوَّى بَهَا كَالْخُلُوقِ فِي قَدَحٍ خَالَطَ رِيحُ الْخَلْقِ تُفَاقَا  
 مِنْ كَفِّ قِبْطِيَّةٍ مُزَنَّرَةٍ نَجَعَلَهَا لِلصُّبُوحِ مِفْتَاحَا  
 تَقُولُ لِلْقَوْمِ مِنْ مَجَانَّتِهَا : « بِاللَّهِ لَا تَحْبِسُنَّ الْأَقْدَاخَا »

ومما وقع إلينا في صفة مجالس شربه ومنادماته في صعيد مصر :

بَدِيعُ الْخَلْقِ مَوْفُورُ الْخُطُوطِ لَطِيفُ الْخَصْرِ كَالْفَرْسِ الرَّيِّطِ  
 أَبُوهُ مِنْ أَكْبَرِ قِبْطِ مِصْرٍ تَسَامَى عَنْ مُنَاسَبَةِ النَّبِيطِ  
 سَقَانِي صَفْوَاءَ مَاءِ النَّيْلِ وَهَنًا بِرَاحٍ مِنْ كُرُومِ قُرَى «سُيُوطِ»  
 لَهَا حَالَانِ مِنْ طَعْمٍ وَرِيحٍ ، وَلَوْ أَنَّ فِي الزُّجَاجَةِ كَالسَّلِيطِ<sup>(١)</sup>  
 خَلُوتُ بِهِ أَنْزَعُهُ شَمُولًا وَأُنْشِدُهُ مِنَ الْبَحْرِ الْبَسِيطِ

ومما لا شك فيه أن لأبي نواس بمصر قصائد لم يأتنا خبرٌ عنها . وقد قال أحمد  
 ابن أبي طاهر إن المصريين يروون له أشعاراً لم تقع إلى أهل العراق . ورؤي عن  
 ديك الجن الحمصي أنه قال : « دخلت مصر بعد أبي نواس ، فوجدت له بها أشعاراً  
 ليست عند أهل العراق » . وفي رسالة تنسب إلى أبي العباس في شعر أبي نواس أنه  
 سقط من الشعر الذي قاله بالشام ومصر شيء كثير .

على أن الثابت المحقق أن أبا نواس كان وهو في مصر شديد الشوق دائم الحنين

(١) السليط : الزيت الجيد ، أو كل دهن عصر من حب .

إلى المعاد إلى بغداد ولم يكن يحتبسه تلك المدة اليسيرة فيها إلا طمعه في  
عطاء الخصيب :

إذا ذُكرتْ بَغْدَادُ لِي فَكَأَنَّمَا      تحرك في قلبي شَبَابُ سِنَانِ  
وأوبةُ مُشْتَاكِ بَغِيرِ دَرَاهِمٍ      إلى أهله من أعظم الحداثِ

ولعل الذي جعله يبرم بها ويحتويها ويستقل ظلها ويستكره المقام فيها عدم  
استجاداته لشرابها وجهله بمعاهد لهُوها ومخالفته لأهلها في إشارهم الكتمان  
والتستر، مع عدم كمال اللذة عنده إلا بالتهتك والمجاهرة . فنراه في مصر لا يفتأ  
يذكر من بغداد وأرباضها تلك الحياة الالهية الصاخبة التي لا مشبه لها في مظاهر  
اللذة والحبور إلا ما اشتهر في متأخر العصور عن باريس مدينة النور :

ذَكَرَ الْبَكْرَخُ نَازِحُ الْأَوْطَانِ      فصباً صَبَوَةً وَلَاتَ أَوَانِ  
ليس لي مُسْعِدٌ بِمَصْرَ عَلَى الشَّوْ      قِ إِلَى أَوْجِهِ هُنَاكَ حِسانِ  
نازلاتٍ من السَّراةِ فَكَّرَخَا      يَا ، إِلَى الشَّطْ ذِي الْقُصُورِ الدَّوَانِ  
إِذْ لِبَابِ الْأَمِيرِ صَدْرُ نَهَارِ      وَرَوَاحِي إِلَى بِيوتِ الْقِيَانِ  
وَاعْتَقَالِي الْمَوْلَى لِأَخْتَلِسَ الْعَمْرَةَ      مِمَّنْ أَحْبَبُهُ بِالْبَنَانِ  
وَاعْتَمَلِي الْكَوُوسَ فِي الشَّرْبِ تَسْمَى      مُتَرَعَاتٍ كَحَالِصِ الزَّعْفَرَانِ

### الإمام بأديرة الشام

والذي نرجحه أن أبا نواس لم يتسع له الوقت للزهوة في أديرة الشام في مسيره  
إلى مصر لأنه ما فارق العراق إلا لركة الحال وخفة الوفاض ، كما أنه كان مُعْجَلاً  
يحدوه إلى مصر مبسوط الرجاء ، فيما سيفدقه عليه أمير خراجها من سعة العطاء .  
وأما الأديرة الشامية التي يقع لنا هنا وهناك ما يفيد زيارته إياها ، فلا ريب عندنا



أنه زارها في طريق عودته بعد أن أفاد الجزيل من هبات الخصب . ويكفي تنويعاً بمقدار هذه الجوائز أن نذكر أن الأمير قد جزاه على قصيدته التي أنشدها في مدحه في اليوم الأول ألف دينار ، وعلى قصيدته في اليوم الثاني ألف دينار أخرى . وليس يصح في العرف النواصي ولا هو يتفق مع التقاليد النواصية ، أن يبلغ الشاعر موطنه في العراق ، وفي هيمانه<sup>(١)</sup> درهم لم ينفقه في الطريق على الشراب في الأديرة والخانات . فكيف به وهو — فوق ذلك — قد حُرِمَ متعة الشراب الجيد في مصر ، وكان الجيد من الخمر لا يمكن بها إلا ما كان يُحمل من الشام إلى الخصب ويُخصَّ به . وكان الخصب يدّخره لنفسه ، ويضن به على من سواه ولو كان ضيفه ، حتى قال أبو نواس محتجاً : « ما ترى استئثار الخصب علينا بشرابه ! » ثم قال كالمحدث نفسه :

يُخَصُّ « خصب » بالشراب وترتجى لديه نوالاً إنَّ ذا لعجيبُ  
وليس « خصب » بالخصب لضيفه ولكنه وعَرُ الحَلَّ جديب  
وكلنا يعرف شهرة الشام بالخمر ، ويذكر ما ورد فيها في شعر الجاهليين ، وأشهره هذا المطلع من معاقة عمرو بن كلثوم .

ألا هُبِّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمر الأندرينا<sup>(٢)</sup>

ولقد وردت في خمر الأديرة الشامية أخبار كثيرة ، نكتفي منها بما روى عن الوليد بن يزيد فقد كان الخليفة الأموي كثير الغشيان لأديرة الشام للنزهة والشراب فيها ، فكان يخرج إلى « دير سمعان » بنواحي دمشق بالقرب من القوطة على قطعة من الجبل يطل عليها ، فيقيم اليوم كله فيه بصطبح وابتق ، ومعه ندماءؤه

(١) الهيمان : كيس تجعل فيه النققة ويشد على الوسط .

(٢) أندرين : قرية في جنوبي حلب على مسيرة يوم للراكب في طرف البرية .

ومغفوه . وقد روى أنه زار « دير بونا » وليس بكبير ولا رهبانه بالكثير، ولكنه في رياض مشرقة وأنهار متدفقة، فأقام فيه أياماً في تخرق ومجون . ورؤى كذلك أنه كان يغشى « دير مرّان » على تل في سفح قاسيون وأشجاره متراكبة وماؤه يتدفق وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعانى ، وأكثرفرشه بالبلاط الملون . ومما يحكى عنه في هذا الدير أنه لما دبّ فيه السكر ذات مرة وثب إلى جرنّ هناك فملأه وشربه ، وملأه وسقى أخاه « الغمر » فما زالا يتعاطيان حتى سكرا ، وملأه للديرانى دراهم .

وأما الدير الذى كان الوليد يؤثّره على الديارات جميعاً فذاك « دير صليبا » المطل على غوطة دمشق من ناحية باب القرايس ، فقد كان كثير المقام فيه ، يخرج إليه ومعه حرّمه استحساناً له ، ويجلس أيام مقامه فيه فى صحنه كل يوم ساعة من النهار ، ثم يأكل ويشرب فى مواضع منه طيبة حسنة . وقد حكى عنه أنه دعا يوماً بطعامه وحضر ندماؤه وكان فيهم حنين ، فبيناهم على المائدة إذ قال : « يا حنين ، غيتنى البارحة فى آخر المجلس — وقد أخذ الشراب منى — بشعر صاحبكم عدّى بن زيد ، فلم أستكمل الطرب لأجل سكرى . فأعده على الساعة » فأخذ حنين رفاقه وأوقع عليها وغنى :

يا لَبْنِيْ أوقدى النارا      إنَّ مَنْ تهوَيْنَ قد جارا  
رُبَّ نارٍ بتُّ أَرْمُقُها      تُقَضِّمُ الهِنْدِيَّ والغارا  
عندها ظيُّ يُوْجِبُها      عاقِدٌ فى الخضر زُنَّارا

فطرب الوليد طرباً عظيماً ، وأخذ رفاقه ، وقام وترك الغداء ، وجعل ينقر عليها مع حنين . وأخذ كل من على المائدة رفاقه ، وجعلوا ينقرون عليها مثله . ومضى الوليد يطلب باب الدهليز ، وحنين والندماء حوله ، والحاجب قد جاء

ينتظر جلوسه ، وقد حضر وجوه العرب . فلما رآه الحاجب على تلك الحال ، صاح بالناس : « الْحَرَمَ الْحَرَمَ ! انصرفوا ، انصرفوا ! » فخرجوا . فقال له : « يا أمير المؤمنين ! وفود العرب تنتظر جلوسك ، وأنت تخرج إليهم على تلك الحال ؟ » فقال : « ثكلتك أمك ! أدخل . » ودعاه برطلٍ . فحلف أنه ما ذاقه قط ، فقال : « والله لتشربن معي حتى أسكر » . ولم يزل يسقيه ، حتى مات سكرًا وانصرف عمولا .

وما من شك في أن أبانواس كان يحفظ من أشعار الوليد ومن أخباره في أديرة الشام فوق ما نعرف . فلا عجب إذا رأيناه في عودته إلى العراق يتردد في طول الطريق على الأديرة ، يروى بها لاعج غلته إلى الحجر ، ويقول فيها ما يسمع به الخاطر من الشعر . وهذه الأديرة معظمها رومي قديم البناء ، وفي بعضها صور يونانية هي غاية في محاسن التصوير وتناسب المقادير . ومن الأديرة التي زارها لما خرج من مصر « دير فيق » بفلسطين ، في أرض الأردن قرب طبرية ، بين البحيرة وعقبة عالية مطلة عليها ، وهو من العقبة في الحف<sup>(١)</sup> جبل متصل بها ومنقور له في الحجر . وهذا الدير عامر بمن فيه من الرهبان ومن يطرقة من الشَّيَار . والنصارى يقصدونه ويعظمونه ، وهم يزعمون أن المسيح كان يأوى إلى ذلك الموضع الذي عُمل به الدير ويجلس إلى ذلك الحجر . ومن أجل ذلك كان كل من دخل من النصارى ذلك الموضع كسر من ذلك الحجر تبركًا به . ولشاعرنا قصيدة يذكر فيها هذا الدير ويخاطب فيها غلامًا نصرانيًا كان يهواه مناشدًا له مستحلفًا إياه ، وقد تقدم بنا ذكرها ، وهي التي يقول في مطلعها :

بعمودية الدين المتيق      بمطرُ بُلَيْطِها ، بالجائليقِ

ومنها

بَحَجَّكَ قاصداً ما سَرَّجسانا فدير الثوبهارِ فديرَ فيق  
ولا شك في أن النواصي اجتاز كذلك بدير الماطرون قرب دمشق ، فإنه  
ليستطيع ذكره والتغنى بما قيل فيه . يشهد بذلك قوله :

غَنَى يا ابنَ أذين « ولها بالماطرون »

وهي أبيات للخليفة يزيد بن معاوية يقول فيها :

ولها بالماطرون — إذا أكل النملُ الذي جمعا -  
خَرَفَةٌ ، حتى إذا ارتبعت سكنتُ من جِلَّتِي بِيَعًا <sup>(١)</sup>  
في قِبابٍ حول دسكرةٍ بينها الزيتونُ قد يَنعَا

وقد روى الرواة عن أبي نواس أنه لما انصرف عن مصر واجتاز بحمص رأى  
كثرة خماريها وجودة الشراب فيها ومجاهرة الشاربين لها بشربها ، فأعجبه ذلك ،  
ولا جرم يعجبه ويرد عليه منه ما يبهجه وتهش له نفسه بعد الذي كره من شراب  
مصر وتكتم الشاربين من أهلها ، فأقام بحمص مدةً مغتبطاً ومصطبحاً . وكان  
بها الخمار اليهودي (لاوى) ، ويروى أنه قال لأبي نواس ذات يوم وهو يشرب  
عنده : « كيف رأيت مدينتنا هذه وحالتها فيها ؟ » . فقال أبو نواس يترضاه  
ويتقرب إليه : « حدثنا جماعة من رواتنا أن هذه هي الأرض المقدسة التي كتبها  
الله تعالى لبني إسرائيل » . فقال الخمار : أيعا أفضل عندك : هذه الأرض أم  
قطر بل ؟ » فقال أبو نواس في تلفظه ولباقة : « لولا صفاء شراب قطر بل  
وركوبها كاهل دجلة ، ما كانت إلا بمنزلة حانة من حاناتها » . ولقد دعا فتى

(١) خرفة اسم المرة من خرف قال عمر : « إذا رأيت قوماً خرفوا في حائطهم » أى أقاموا  
فيه وقت اختراق الثمار وهو الخريف . وارتبع بالمكان أقام فيه زمن الربيع .



من أدباء حمص شاعرنا النواسى إلى « دير مياس » ودعا معه أشجع السلى الشاعر ، فجلسوا يشربون فى الدير من يد ساقٍ ظريف ، وأبو نواس ينشدهم له ولغيره ، وقد طربوا لما كان ينشده من بدائع الشعر حتى أغناهم ذلك عن المطرب . وفى هذا يقول أشجع :

صَبَّحْتُ وَجْهَ الصَّبَاحِ بِالكَاسِ وَلَمْ تَعْقِنِ مَقَالَةَ النَّاسِ  
وَنَحْنُ عِنْدَ المُدَامِ أَرْبَعَةٌ أَكْرَمُ صَحْبٍ وَخَيْرُ جَلَّاسِ  
نُدِيرُ رَحْصِيَّةً مَعْتَقَةً عَلَى نَسِيمِ النَّسْرِينَ وَالْأَسْرِ  
وَلَمْ نُرِذْ مُطْرِبًا وَمُنْشِدُنَا أَبُو نَوَاسٍ فِي « دِيرِ مِيَّاسِ »

وكذلك اجتاز بدير الرصافة ، وهى رصافة هشام بينها وبين الرقة مرحلة للعالمين أى أربعة فراسخ . ويقوم هذا الدير فى وسط البلد ، وهو بناء رومى قديم ومن عجائب الدنيا حسناً وعمارة ، وبه صهاريج عادية محكمة البناء يشرب منها رهبانه وسكانه ، ومن الصهاريج شرب أهل البلد جميعاً . وقد بات فيه أبو نواس وقضى فيه سحابة اليوم التالى ، فلما رحل عنه قال :

لَيْسَ كَالدِيرِ بِالرَّصَافَةِ دِيرٌ فِيهِ مَا تَشْتَهَى النَّفُوسُ وَتَهْوَى  
بَتَّةً لَيْلَةً فَقَضَيْتُ أَوْطَا رَأً ، وَيَوْمًا مَلَأْتُ قُطْرِيَهُ لَهْوَاً<sup>(١)</sup>

ثم مر أبو نواس بعانة ، من أعمال الجزيرة بين الرقة وهيت ، وهى مشرفة على الفرات ، فسمع اصطخاب الماء فى الجداول فقال : « أذكرنى هذا قول الأخطل من خمر عانة ينصاع الفؤاد لها بجدول صخب الآذنى موارٍ » وأقام فيها ثلاثاً يشرب من شرابها ، ثم قال : « لولا قربها من قطربل ، ومجازبة

(١) القطر : الشق والناحية ، والمراد بقطرى اليوم الصباح والمساء .

الدواعى إليها ، لأقت بها أكثر من ذلك » . ومضى فلما دخل الأنبار تسرع ، إلى بغداد ، ولكنه لم يتالك حين بلغ ضاحية بغداد أن عدل إلى قطربل وهو يقول : « ما قضيت حق قطربل إن أنا لم أبطو بها » . فأقام ثلاثاً حتى أنلف فضلةً كانت معه من نفقته ، وباع رداءً مُعلماً من أردية مصر لعله مما أهده له الخصيب من طرائف . وقال عند انصرافه من قطربل :

طربتُ إلى قطربل فأتيتها	بألفٍ من البيضِ الصَّحاحِ وعينِ
ثمانين ديناراً جياداً أعدّها	فأتلفتها حتى شربتُ بدينِ
رهنتُ قميصي للمُجونِ وجُبَّتِي	وبعتُ إزاراً مُعلَمَ الطَّرفينِ
وقد كنتُ في قطربلٍ إذ أتيتها	أرى أنتى من أيسر التَّقلينِ
فروحتُ منها مُعسراً غير مُوسرٍ	أقرطسُ في الإفلاسِ من مئينِ
يقول لى الخمارُ عند وداعه	وقد ألبستنى الرَّاحُ خُفَّ حُنينِ
«الأروح بزَيْنٍ» يومَ رحتُ مُودَّعاً	وقد رُحْتُ منه يومَ رحتُ بِشَيْنِ

واجتمع الخمارون عند منصرفه للسلام عليه ، فكان موقفهم معه وتعظيمهم له أشبه ما يكون بخاصة الرشيد عند تسليمهم على الخليفة في يوم حفل له .

### الأقانيم الثلاثة

وقد عاد شاعرنا إلى العراق بعد هذه الرحلات يحمل للجزيرة وللشام في نفسه إطيب الذكريات ، حتى لقد كانت تغلب عليه عند ذكرها اللوعة لفراقهما :

رجعتُ إلى العراق برغم أنفى	وفارقتُ الجزيرةَ والشَّامَ
على شاطئ البليخ وساكنيه	سلامُ مسلمٍ لِقَى الحِمامِ

وبديهي أن الذي عنانا في هذه الأسفار إنما هو تسقط ما هو مبثوث فيها من الأخبار التي تتصل بصاحب الخمریات ، وما تجلوه لنا من أوصاف مفصلة حيناً ومجمله أحياناً لما كان يختلف عليه هنا وهناك من الدساكر وحوانیت الخمر ، وما كان يغشاه من الديارات وحاناتها . وهذه الأوصاف والأخبار جميعها متفقة على أن صاحبنا النواصي كان في حله وترحاله لا يجري وراء شيء غير لذته ، ثم هي متفقة جميعها على أن صاحبنا النواصي كان يتجرى ثلاثة أمور لا تتم بغيرها اللذة عنده : الشراب الجيد الرائق ، والنديم الظريف الموافق ، ومنظر الطبيعة الجميل الفائق . فالجمال والحب والسكر كانت عنده بمنزلة الأقانيم الثلاثة في تميز الصفات واتحاد الذات . ومن البديهي أن السكر كان عنده أولها ومصدر سرها جميعاً كما نادى بذلك في الخمریات :

اشربْ نديمي على العينين والراسِ      كذلك، واستفتح اللذات بالكاسِ

### الربيع والخمر

وقد أكثر الشاعر في خمرياته هذه من التغنى بالربيع ، حتى ليكاد يتبادر إلى الفكر ، أن الربيع بما يُشيعه في الطبيعة من الحياة ، وما يبعثه في كل حي من دواعي الشوق ، وما تحدثه في الحسنِ سطةُ نوره وصحو أديمه ورقة نسيمه هو الذي يحرك شاعرنا إلى الشرب ، ويجعله يتطرب إلى السكر . ومن الشعراء ولا ريب من كان مثل شاعرنا أبي نواس متيقظ الشعور لما يختلف على الدنيا حوله من المناظر باختلاف الفصول ، ومن كانت تهتز نفسه بعد الشتاء المتجهم لمقدم الربيع المتبسم ، فيجرى لسانه بالأشعار إثر الأشعار ، في تحية الربيع وقد ردّ على الزمان الشباب وجدد منه الإهاب ، وخلع على الدنيا الحسن والنضارة وأرسل على وجهها أنفاسه الحارة ، فأذاب الثلوج على هام الجبال العالية ففاضت

العيون وسالت الأودية ، وأبرز الأرض غيب سحاب الشتاء الماطرة جنة أنفاسها  
عاطرة ، تزوف رياضها في أجمل وشى ، متبرجة في أبهى الحلل وأنفس الحلى .  
ولكننا لا نعلم بين الشعراء من اقترن الربيع والخمر في شعره هذا الاقتران حتى  
لا تخلو من ذلك مقطوعة واحدة :

طابَ الزمانُ ، وأورقَ الأشجارُ ومضى الشتاء ، وقد أتى آذارُ <sup>(١)</sup>  
وكسا الربيعُ الأرضَ من أنواره وشياً تحارُ لحسنه الأبصار  
فأنفِ الوقارَ عن المجونِ بقهوة حمراء خالطَ لونها أقمار <sup>(٢)</sup>  
واستنصفِ الأيامَ من أحداها فلطالما لعبت بك الأقدار

واغدُ على اللهو غيرَ متئدٍ عنه ، فهذا أوانُ مُقتبلةٍ  
أما ترى جدّة الزمان وما أبدعَ فيه الربيعُ من عمله  
قد أدركته السحابُ تُرضعه دِرّةً وبلٍ يحيا على بَلله  
وافى وجوهَ الرّياضِ عاريةً عند اقتراب الشتاء من أجله  
فاحتلّ أرجاءها وألبسها من زهو نوّاره ومن حُلّه  
فاشربْ على جدّة الزّمان فقد وافى بطيب الهواء مُعتدله

أما رأيتَ وجوه الأرض قد نضرت وألبستها الزّرابى نثرةُ الأسدِ <sup>(٣)</sup>  
حالكَ الربيعُ بها وشياً ، وجلّ لها بيانع الزّهر من مثنى ومن وحَد  
واستوفت الخمرُ أحوالاً مجرّمةً واقترت عيشك عن لذاتك الجُدُد <sup>(٤)</sup>

(١) آذار : الشهر الثالث من السنة الشمسية ويوافق مارس من شهور الروم وفي الثاني عشر من آذار تحل الشمس برج الحمل في قولم وذلك أول فصل الربيع . (٢) أقمار كناية عن الحب . (٣) الزرابى من الذهب ما اصفر أو احمر وفيه خضرة . نثرة الأسد ثلاثة كواكب متقاربة . يقال إذا طلعت النثرة قتلت البقرة أى اشتدت حرّتها . (٤) أحوالا بهيمة أى أحوالاً كاملة .



فاشرب ، وجذ بالذى تحوى يدالك لها لا تذخر اليوم شيئاً خوف فقر غدٍ

أما ترى الشمس حلت الحملًا وقام وزن الزمان واعتدلا (١)  
وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كملًا (٢)  
واكتست الأرض من زخارفها وشى نبات تخاله حُللا  
فاشرب على جدّة الزمان فقد أصبح وجه الزمان مُقْتَبِلًا

ولقد وردت في كتب الأدب قطعة منسوبة إلى أبي نواس من النثر المسجوع ،  
وهي قطعة مطولة قدّم لها بمقدمة في وصف الربيع . ولا بأس بإثبات هذا الوصف  
هنا لمناسبته ، وإن كنا نشك أعظم الشك في أن الديباجة ديباجته ، قال :

[ حججت مع الفضل بن الربيع حتى إذا كنا بأرض بنى فزارة في أوان أيام  
الربيع ، نزلنا منزلاً بإزاء باديتهم ، ذاروض أريض ، ونبت غريض ، وترب كترب  
الكافور ، حتى اكتست الأرض بجميع (٣) نبتها الزاهر ، واثرت بمحض عُشبها  
الناضر ، والتحفت بأنواع زخرفها الباهر ، بما يقصر عنه النمارق (٤) المصفوفة ولا يدانى  
زهرتها الزرابى (٥) المبهوثة ، فراقت بنصرتها الأبصار وارتاحت لزبرجها (٦) القلوب

(١) كان الأصمى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيدة . حلول الشمس برج  
الحمل إشارة إلى بدء الربيع كما تقدم . وفي الشطر الثانى إشارة إلى استواء الليل والنهار واعتدال الزمان  
بين الحر والبرد . (٢) قيل فى معنى قوله « استوفت الخمر حولها كملًا » أن الهاء تعود على  
الشمس . والمراد أن الشمس دارت عليها دورة كاملة وقطعت الفلك المحيط بأبراجه الاثنى عشر من أوله  
إلى آخره . ويقال فى هذا الصدد إن الكرم أول ما يعتقد ويخرج من العدم إلى الوجود إنما هو فى شمس  
الحمل (مارس) . ثم إن الخمر إنما يكل طيبها وتضجها وتمصر فى أول السنبلة (أغسطس) ، ثم إنها  
تبقى فى اللذان والأوعية إلى أن تشرب ، فإذا شربت فى أول حلول الشمس برج الحمل فقد استوفت سنة  
هذا الاعتبار . وقيل إنما المراد « بحولها » حول الخمر ، أى قوتها من الحول وهو القوة .

م (٣) الجحيم : الكثير يغطى الأرض . (٤) النمارق : الوسائد .

(٥) الزرابى : البسط العراض . (٦) الزبرج : الزينة .

واشتاقت إلى نسيمها الصدور وابتهجت بهائها النفوس ، فما لبثنا أن أقبلت السماء  
فأشفت بربابها<sup>(١)</sup> وتداني من الأرض رُكام<sup>(٢)</sup> ، حتى إذا كان كما قال عبيد  
ابن الأبرص :

دان مُسِفٌ فُوقَ الأرض هيدبُهُ      يكادُ يدفعُهُ من قام بالراح<sup>(٣)</sup>  
هَمَّت السماء برذاذٍ ثم بطشٍ ثم برشٍ ثم بوابلٍ ثم هَتَّتْ<sup>(٤)</sup> ، حتى إذا  
تركت الرُّبى كالوهاد<sup>(٥)</sup> رِيًّا تَقَشَّعَتْ فَأَقْلَعَتْ ، وقد عادت الغدران مُترعة تَدْفِقُ ،  
والقيعان<sup>(٦)</sup> ناضرة تَأَلَّقُ ، تحديق بحدائق مونة ورياض رائقة ، وغياض<sup>(٧)</sup> من  
عَرَفْها فائحة ، تَتَحَاكُّ بأنواع النُّور الغضّ الذي إذا هَمَمْتَ بتشيده بشيء حسن  
اضطرك حسنه إلى رده إليه ، فإذا تَقَّتْ إلى تَضَوُّع طيبٍ لم تجد مُعوَلاً في  
الذِّكاء إلا عليه . فسَرَّحت طَرْفِي رامقاً في أحسن منظر ، واستنشقت من رِيّاها  
أطيبَ من المسك الأذفر . [

## الكروم والنخيل

ولعل أطيب البقاع عند أبي نواس وأزهرها ، وأقربها جميعاً لعينه ، وأحبها إلى  
قلبه ، وأبهجها موقعا في حسه ، وأشدها تحريكاً لنفسه ، هي البقاع التي تكثر  
فيها الكروم متكاثفة متتابعة ، وقد نُصِبَتْ لتعريشها القوائم وعُرِضَتْ العوارض

(١) الرباب : السحاب الأبيض . أشق : اقترَب .

(٢) الركام : السحاب المتراكم .

(٣) المسف : الداني من الأرض . الهيدب : السحاب المتدلى عند انصباب المطر يرى كأنه خيوط .

(٤) همت السماء : سالت . الرذاذ : المطر الضعيف الصفار القطر . الطش المطر الضعيف

فوق الرذاذ . الرش : المطر القليل . الوابل : المطر الشديد . الهتن : المطر المتتابع الصبيب .

(٥) الربى : ما ارتفع من الأرض . والوهاد : ما انخفض منها .

(٦) القيعان : جمع قاع ، الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها أنجبال والآكام .

(٧) الغياض : جمع غيضة ، الأجمة أو مجتمع الشجر في مجرى الماء .

فَجَرَّتْ عَلَى عِرَاشِهَا قُضْبَانُ الْكُرْمِ الْخَشْبِيَّةِ الْأَلْيَافِ وَهِيَ طَوَالُ دَقَاقٍ لَدَانٍ مُلْتَفَّةٌ  
كَالْأَفَاعَى ، وَتَعَلَّقَتْ حَبَلَاتُ<sup>(١)</sup> أُخْرَى بِمَحَالِقِهَا الْمُلْتَوِيَةِ إِلَى قَوَائِمِ الْعَرِيشِ تَرُقُ  
فِيهَا حَتَّى تَسْتَقِلَّ إِلَى أَعَالِيهِ فَتَعْتَرِشُ . وَقَدْ تَحَرَّكَتِ الْكُرُومُ لِلْإِبْرَاقِ فَانْكَسَتْ  
رِطَابُ سُرُوعِهَا<sup>(٢)</sup> وَنُحْمَرُ زَرْجُونِهَا<sup>(٣)</sup> بِالْوَرَقِ مُخْشَوْشَنَ الصَّفَحَاتِ مُشْرِفَ  
الْأَطْرَافِ وَأَذْنَتْ بِالْإِنْمَارِ فَأَخْرَجَتْ نَوَامِيهَا<sup>(٤)</sup> الْعِنَاقِيدَ مَبْشُرَةً بِأَطْيَبِ الْقَطَافِ .  
وَإِنْ مَنَظَرُ هَذِهِ الْكُرُومِ تَغْطِي بِلَاداً شَاسِعَاتٍ ، وَتَنْبَسِطُ رَقْعَتَاهَا مَسَافَاتٍ ،  
وَيَتَصَلُّ سَوَادُهَا وَيَمْتَدُّ امْتِدَادُ الْبَصَرِ ، لِيَمْلَأَ مِنْ شَاعِرِنَا نَظْرَهُ ، وَيَزِدَّهِ خَاطِرَهُ :  
مَسَارْحُهَا الْغَرْبِيُّ مِنْ نَهْرِ صَرَصَرٍ فَقَطْرَبَلٍ ، فَالْصَالِحِيَّةُ ، فَالْعَقْرُ  
وَالْكُرْمَةُ إِذَا هَمَّتْ بِالْإِنْمَارِ مَرَّتْ بِهَا عِدَّةُ أَدْوَارٍ ، فَتَرَى أَغْصَانَهَا فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا  
وَقَدْ صَارَ فِي أُبْنِهَا<sup>(٥)</sup> — الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهَا الْعِنَاقِيدُ — مِثْلَ الزَّغَبِ ، ثُمَّ تَبْدُو رَدَّوْسَ  
حَبِّ الْعَنْبِ مِثْلَ الذَّرِّ ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ حَبُّهَا وَيَصِيرُ كَحَبِّ السَّمْسَمِ وَيَأْخُذُ بَعْضُهُ  
بِبَعْضٍ ، ثُمَّ يَكْبُرُ حَبُّ الْعَنْقُودِ وَيَتَفَرَّقُ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ إِلَى أَنْ يَعْقِدَ الْحَبُّ حَصْرَمًا ،  
ثُمَّ يَكْبُرُ الْحَصْرَمُ وَيُورَى الْمَاءُ فِي الْحَبِّ وَتَلِينُ هَبْرَتُهُ وَيَأْخُذُ فِي التَّلَوْنِ حَتَّى يَبْلُغَ  
غَايَةَ النُّضْجِ فَيَحِينُ الْقَطَافُ .

وَلَقَدْ كَانَ شَاعِرُنَا لَا تَكَادُ تَأْخُذُ عَيْنُهُ فِي الْكُرْمِ أَوَّلَى هَذِهِ الْأَدْوَارِ فِي طَرِيقِ  
الْإِنْمَارِ ، حَتَّى يَشَبَّ خَيَالُهُ وَيَثْبُتَ بِهِ خَاطِرُهُ ، فَيَجْتَازُهَا جَمِيعًا فِي طَفْرَةٍ ، فَإِذَا بِهِ  
فِي آخِرِ الْمَطَافِ ، وَقَدْ جَاوَزَ الْقَطَافَ إِلَى مَا بَعْدَ الْقَطَافِ . وَهَذَا هُوَ رِى الْحَصْرَمِ  
عَلَى الْقُضْبَانِ ، فَيَتَمَثَّلُهُ لَوْقَتَهُ وَسَاعَتَهُ دَمًا فِي جَوْفِ الدَّنَانِ :

مَرَرْتُ عَلَى عُقُودِ كُرْمٍ مُعَرَّشٍ بِقَطْرِ بَلٍّ يَوْمًا وَقَدْ صَارَ حَصْرَمًا

(١) الحبلات : جمع حبله وهى ساق شجرة العنب . (٢) السروع : جمع سرع  
وهو قضيب الكرم الغض . (٣) الزرجون : قضبان الكرم والواحدة زرجونة .  
(٤) النوامي : جمع نامية وهو القضيب الذى تكون عليه العناقيد .  
(٥) الأبن : جمع أبنه وهى المقدة .



فقلتُ أرانى اللهُ وجهكَ أسوداً وسُقِّيتُ يا عُنفودُ من جوفك الدِّمَا

كذلك لم يكن روض من الرياض ليخلو من النخل . وكيف يخلو منها وهي التي يتسم الشرق العربي بها قبل غيرها من أنواع الشجر . وظاهر في شعر النواصي إعجابه بالنخيل . وهي ولا ريب قيمة بالإعجاب عند النظر إلى منظرها الزخرفي يجذوعها الطوال السامة ، وما يدور حول جذوعها من كرائيف<sup>(١)</sup> بعضها فوق بعض ، وما يعلوها في الذروة من تلك الجمة الخضراء المنفوشة من السعف وكأنه في اتساقه وتفرجه مروحة من ريش النعام عظيمة الأحجام . كما أن النخيل أظهر الأمثلة على عجائب التلقيح . ولقد وصف الشاعر لنا في مستهل قصيدته كيف يفتض الآبرُ كوافير الأنثى من النخل ومعه طلع الفُحَّال فينفض غبارَ شماريخه في كوافير النخلة فتلقح<sup>(٢)</sup> . ثم يستأنف الشاعر وصفها لنا بعد اللقاح كيف أرخت عقائصها وقد عظم خالها<sup>(٣)</sup> حتى إذا أخذ البسر الأخضر في الطول وجعل يتلون إلى الحمرة أو الصفرة افتتن الشاعر بهذه الكبائس<sup>(٤)</sup> من الزهو<sup>(٥)</sup> المنضد في عراجينه<sup>(٦)</sup> كأنه عقود اليواقيت :

لأنعتُ الرّوضَ إلّا ما رأيتُ به قصراً مُنيماً عليه النّخلُ مُشْتَمِلُ  
يَفْتَضُّهَا فِطْنٌ عِلْجٌ ، بها خَبِرُ فُضٌّ العَذَارَى حُلَاهَا الرِّيطُ والحُلُلُ  
فافتَضَّ أولها منها وآخرها فأصبحتُ وبها من فحلها حبلُ

(١) الكرائيف : أصول سعف النخل تبقى في الجذع بعد قطع السعف من النخلة .

(٢) الآبر : من أبر الزرع أصلحه وألقحه ، والكوافير طلع النخل المفرد كافور ،

والفحال ذكر النخل ، والشماريخ : جمع شمروخ وهو العذق عليه بسر . والعذق من النخل

كالعنفود من العنب . (٣) العقائص : صفائر الشعر ، والخلال البلح . (٤) الكبائس

جمع كباسة وهي العذق . (٥) الزهو : البسر الملون . (٦) العراجين : جمع

عرجون وهو أصل العذق الذي يبقى على النخل بعد أن تقطع عنه الشماريخ .



حتى إذا لقحت أرخت عقائصها      فقال مُنتَرّاً عُرجونها الرَّجُلُ (١)  
 فينما هي والأرواحُ تنفَحُها      شهرين بارحةً وهنّا وتنتحل  
 أرخت عقوداً من الياقوت مُدَجَّةً      صُفْراً وُحْراً بها كالجمر يشتعل  
 فلم تزلُ بمدوِدِ اللَّيْلِ تُرْضِعُه      حتى تمكّن من أوصالها العسل  
 يا طيبَ تلكَ عروساً في مجاسدها      لو كان يصلح منها الشَّمُ والتَّجَبُّلُ (٢)  
 خلّالها شجرٌ ، في فَيْثِه نَقْدٌ      لا يرهبُ الذَّبَّ فيها الكَبْشُ والحملُ (٣)  
 إن جثت زائرها ، غنّاكَ طائرُها      برجع الحنة في صَوْتِها هَدَلُ  
 من بلبلٍ غرِدٍ ، ناداك من غُصْنٍ      يبكي لبلبلَةٍ أودى بها ختلُ (٤)

### حرب الأزهار

ثم إن شاعرنا كثيراً ما يذكر في خرياته الأزهار ، فيسميها بأسمائها وينعتها بسماتها ، وهي ، عامة ، في موضع عشق منه ، إلا أن بعضها كان مع ذلك أحب إليه وأحظى بأنسه ، مما يدل على دقة حسه ويشهد له بالخصوصية في ذوقه . وهنا أيضاً نرى أبا نواس في حبه للزهر ، يشرب عليه الخمر . فنراه يشرب على الورد والرجس والنسرین والآس والخيرى وغيرها من أنواع الريحان ، مع التفات إلى المؤتلف والمختلف بينها وبين الخمر في الأصباغ والألوان ، وأخص هذه الأزهار بالذكر عنده الورد والرجس :

اشربْ على الورد في نيسان مُصْطَبِحاً      من خمر قطر بلّ حراء كالكَاذِى (٥)

(١) الرجل من الشعر ما بين الجمودة والاسترسال .

(٢) المجاسد : جمع مجسد ، القميص الذى يلبس البدن .

(٣) النقْد : جنس من النعم . (٤) الختل : الخداع ، والحركة لضرورة الشعر .

(٥) الكاذى : شجر كالنخلة له ورد .

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هندٍ واشرب على الورد من حمراء كالورد

لا تحفلن بقول الزاجر الأحي واشرب على الورد من مسمولة الراح

فـسـقـيناهُ على الورد شراباً ذهبياً

ألا فاستقي مسكينة العرف مزةً على نرجسٍ تعطيك أنفامه الخمرُ  
عيونٌ إذا عاينتها فكأنما دموع الندى من فوق أجفانها دُرٌّ  
مناصبها بيضٌ ، وأجفانها خضرٌ وأحداقها صفرٌ ، وأنفاسها عطرٌ <sup>(١)</sup>

وذى حلفٍ في الراح ، قلتُ له « اتد » فليس على أمثال تلك يمينٌ <sup>(٢)</sup>  
تراثُ أناسٍ عن أناسٍ تخرموا توارثها بعد البنين بنون <sup>(٣)</sup>  
فأدرك منها الشاربون حشاشةً لها نزوانٌ مرةً ، وسكون  
على نرجسٍ غصُّ القطافِ كأنه — إذا ما مَنَحْنَاهُ العيونَ — عيون  
مُخَالَفَةٍ ألوانهنَّ ، فصفرةٌ مكان سوادٍ ، والبياضُ جفون

فالشاعر — كما شهدنا — موزع القلب في مجلس شرابه بين النرجس والورد .  
وفيها يتمثل له اللونان الحبيبان إليه : الصفرة والحمرة . فإذا قامت يوماً بينهما  
المنافسة ، وتحتم التقديم ووجبت المفاضلة ، فلا معدى يومئذ من أن يحرز النصر  
ما كان منهما أشبه لوناً بالآخر . ولقد تمثل أبو نواس هذه المعركة الطريفة ، فجاءنا  
في مقطوعة له بصورة عجيبة الخيال ، لميدان القتال ، في رياض « باطرُنجي »  
بالقرب من بغداد ، وقد دعاه النرجس أن يشرب عنده معتقة العقار ، وعارضه

(١) المناصب مفرداً منصب ما تنصب عليه القدر ، والمراد بياض العين الذي تنصب عليه الحدقة .

(٢) ذى حلف في الراح : هو الذي أقسم ألا يشربها . (٣) تخرموا : ماتوا .

في الدعوة الورد وأصرّ على أن يكون هو المختص بهذا الإيثار . فاستنجد النرجس  
بالبهار ، وانتصر للورد الجلنار . ولم يقف الأمر عند استجاشة الأزهار ، بل تعدى  
إلى الاستعانة بالأنمار ، فانضم الأترج إلى « الصُّفَر » ، وانحاز التفاح إلى جانب  
« الحمر » ولقحت الحرب إذ ذاك ، وَحَمِيَّ وطيسها بين العسكرين فكانت  
الغلبة في آخر الأمر لعسكر الحمر وفي طليعته الورد :

« باطُرُنْجِي » بها ثويتُ ، ولى فيه      بها إذا دارت السكّوسُ اعتبارُ  
من حديثي أني مررتُ بها يو      ما ، وقلبي من الهوى مُستطار  
فإذا نرجسٌ ينادى غلامى :      « قف ! فقد أدركتُ لدينا العقار »  
فانثنينا إلى رياضِ عيونٍ      ناظراتٍ ما إن بهنّ أخورار  
ومكان الجفون منها ابْيَضاضُ      ومكان الأحداق منها اصفرار  
بينما نحن عندها ، صرخ الورد      دُ إلينا « يا أيّها الشُّطَار ! <sup>(١)</sup>  
عندنا قهوةٌ تغافل عنها      دهرها ، فالوُجودُ منها ضار <sup>(٢)</sup>  
فانثنينا للورد من غير أن تَدُ      أى عن النرجس المضاعفِ دار  
فرأى النرجسُ الذى صنع الورد      دُ ، فنادى مُستصرخاً « يا بهار <sup>(٣)</sup>  
ورأى الوردُ عسكرين من الصُّف      رِ ، فنادى فجاءه الجُلنار <sup>(٤)</sup>  
واستجاشاً تُفّاحَ كُبنانَ لَمّا      حَمِيَّت من وطيسها الأوتار <sup>(٥)</sup>  
واستجاش البهار جيشاً من الأث      رُجّ فيه صفارُهُ والكُبار <sup>(٦)</sup>

( ١ ) الشُّطَار : جمع شاطر وهو المتصف بالدهاء والخبائة . ( ٢ ) الضار : خلاف العيان

( ٣ ) مستصرخاً : مستغيثاً . البهار : نبت له زهر أصفر طيب الرائحة .

( ٤ ) الجلنار : زهر الرمان وهو أحمر .

( ٥ ) استجاش الجيش جمعه : واستجاش القوم : حرضهم على الإعانة . الأوتار : جمع وتر وهو الثار .

( ٦ ) الأترج : الترنج وهو من جنس الليمون .

فَرَأَيْتُ الرَّيَّعَ فِي عَسْكَرِ الْحَرْبِ ، وَقَلْبِي يَشْفُهُ الْأَحْمَرُ (١)  
لَيْسَ إِلَّا لِلْحُمْرَةِ فِي خُدُودِهِ مِنْ أَنْاسٍ بَقَوْا عَلَيْنَا وَجَارُوا

### أمطار ربيعة

وكذلك كان شاعرنا يشرب في الربيع ، على القطر من مطر رقيق ، تستهل  
شأيبه من غمام سارٍ رقيق ، فيحيي الموات ، وَيَسِمُ الْأَرْضَ بِالنبات ، فتخضر  
الزروع ، ويرف الشجر نعمة ورياً ، وقد سار الماء في عيدانه ، فأوردت أغصانه  
ونورت أفنانه . كما كانت تحلوه المعاقرة عند مجتمع المياه وقد سالت بالأمطار  
الربعية الأودية والقيعان وطفحت الغدران واتصلت السواقي والجداول :

فِي رِيَاضٍ رُبْعِيَّةٍ بَكَرَ النَّوَّ ١ ٢ عَلَيْهَا بِمُسْتَهْلٍ الْغَامِ (٢)  
فَتَوَشَّتْ بِكُلِّ نَوَّرٍ أَنْيَقٍ ٣ مِنْ فُرَادَى نَبَاتِهِ وَتَوَامٍ (٣)  
فَتَرَى الشَّرْبَ كَالْأَهْلَةِ فِيهَا ٤ يَتَحَسَّوْنَ خَسْرَوَى الْمُدَامِ (٤)  
وَلَهُمْ مِنْ جَنَاهُ آذَرِيُونَ ٥ وَضَعُوهُ مَوَاضِعَ الْأَقْلَامِ (٥)

وَجَدَاوِلُ مَوْصُولَةٌ بِجَدَاوِلٍ ٦ مِنْ صَوْبِ غَادِيَةٍ وَلَمَعَ بُرُوقِ (٦)  
تَكْسُو مَدَامُهُ الرِّيَاضَ عَرَائِسًا ٧ مِنْ نَرْجَسٍ مَتَكَافٍ وَشَقِيقِ (٧)  
بَاكَرَتُهَا قَبْلَ الصَّبَاحِ بِسُحْرَةٍ ٨ قَبْلَ ابْتِكَارِ مَجَرَّةِ الْعَيُوقِ (٨)

(١) يشفه بمعنى يشوقه ويؤثر فيه . (٢) الأصل في انبوه طلوع نجم على أثر سقوط  
نجم غارب ، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أنه لا بد من أن يكون عند ذلك مطر أو رياح .  
(٣) يقال جاءوا فرادى أى واحداً واحداً . وتوأم جمع توأم أى اثنين اثنين .  
(٤) الشرب جماعة الشاربين . يتحسسون يشربه شيئاً بعد شيء - خسروى مثل  
كسروى نسبة إلى ملوك فارس . (٥) آذريون زهر أصفر . وضعوه مواضع الأقلام : أى  
على آذانهم . (٦) الغادية السحابة ، الصوب المطر . (٧) الشقيق : نبات أحمر  
الزهر سبق بنفط سود . (٨) السحرة ما قبل انصداع الفجر ، العيوق : نجم يتلو الثريا .  
(٧)



من كفٍّ أحورَ ذى عِذارٍ أخضرٍ    يسى القلوبَ بقده المشوق  
فكأنَّ ما فى الكأس من إبريقه    نارٌ تسلَّلُ من فم الإبريق<sup>(١)</sup>

وكان يوم الدجن والمطر من الأيام التى يستحب فيها شاعرنا وسائر أصحاب  
الخمر شرب الخمر . حكى غسان بن محمد الغدافرى ابن عم الحسين الخليلع ، قال  
[ خرجت إلى بغداد ، فنزلت على الحسين ، وقلت : « أحب أن تجمع بينى وبين  
أبى نواس » . قال : « انهض ! » . وسار بى إلى شارع العلاء الوصيف ،  
وأبو نواس ينزل فيه بحيال دار العلاء الوصيف فطرقنا بابه ، وقلنا لعلنا : « قل له  
الحسين الخليلع » فخرج إلينا بنفسه ، فأدخلنا مجلسه . فما جلسنا حتى هطلت  
السما ، فحلف علينا ألا نبرح . وأتانا بما حضر من طعام ، فطعمنا . وصرنا إلى  
مُسْتَمَطَّر له بجذاء منزل العلاء الوصيف ، وفيه مناظر إلى الشارع ، ففتحنا الشارع  
وجلسنا نشرب ] .

وروى أحمد بن العباس بن الحكم ( وروى مثله سليمان بن أبى سهل ) أن  
أبا نواس جاءه فى غداة يوم من أيام الربيع وقد طُشَّت<sup>(٢)</sup> السماء ساعة . فلما دخل  
عليه أنشأ يقول :

ما مثلُ هذا اليوم فى طيبة    عَطَّلَ من هوى ولا ضيِّعا  
فما ترى فيه ؟ وماذا الذى    تحبُّ فى ذا اليوم أن تصنعا ؟  
هل لك أن تغدو على قهوةٍ    تُسرِع فى المرء إذا أسرعا ؟  
ما وجدَ النَّاسُ ولا جَرَّبُوا    اللهمَّ شيئا مثلها مدْفعا !

( ١ ) تسلل أى تسلل . وهذه الأبيات أوردها البيهقى فى كتابه الخائن والمساوى فى الصفحة

٨١ من الجزء الثانى . ( ٢ ) الطشيش : المنظر الضعيف .

فأجابه إلى ما اقترح قائلا : ما كان يسعدنى فى هذا اليوم غيرك . أقيم فهاهنا ما يصلحك » . فأقام عنده الشاعر يومه ذلك كله .

### موسيقى طبيعية

كذلك كان أبو نواس فى وسط الرياض يشرب على تلك الموسيقى الطبيعية الجنتحة التى يطلق الربيع ألحانها وينبّه أصداءها ، فترتفع بها عقائر الطير ، من شدو البلابل فى القمرء وزقزقة العصافير ملء الفضاء ، وهديل الحمام فى سدفة الصبح أو غبش المساء ، بين تطريب بهيج وحنين شجى :

دعتِ الهمومَ إلى شغاف فؤادى      وحثتْ جوانبَ مقلتيْ رقادى  
وُرقٌ بتفجعةٍ تنوح أليفها      غلس الدُّجَّة فى ذرى الأعواد<sup>(١)</sup>  
ولقد أزيحُ الهمَّ حينَ ينوبنى      والشَّوق يقدح فى الحشا برِّناد  
بدماءٍ ورث الزَّمان لُبابها      عن ذى الأوائلِ من أكابر عاد  
إن جئتَ زائرَها ، غناك طائرُها      برجع الحِنَّة فى صوتها هدَل<sup>(٢)</sup>  
من بلبلٍ غرِدٍ ناداك من غصنٍ      يبكي لبلبلٍ أودى بها ختل  
أما يسرُّك أن الأرض زهراء      وانخر ممكنة شمطاء عذراء  
بادِرْ فإنَّ جنانَ الكرخ مُوقنةٌ      لم تلتقَ فيها يدٌ للحرب عسراء<sup>(٣)</sup>  
فيها من الطَّير أصنافٌ مشتتةٌ      ما يبنهنَّ وبين النطق شحناه

(١) ورق : مفردهما ورقاء وهى الحمامة . الدجئة : الليلة المظلمة . ذرى الأعواد : أعالي الأغصان

(٢) الهدل : الاسترخاء .

(٣) العسراء : يقال للذى يعمل بشماله أعسر ، ويقال يوم أعسر أى شديد أو شوم .

إذا تَفَنَّنَ لا يُبْقِينَ جانحةً إلاَّ بها طَرَبٌ يُشْفَى به الداء  
 في مجلسٍ مُشْرِفٍ على شَجَرٍ يَضْحَكُ تَفَّاحُهُ إلى الخَيْرِ (١)  
 وطائرٌ واقعٌ على فَنٍّ تُعْده ضِجَّةُ العَصَافِيرِ  
 فلم نزل يومنا وَلِيلتنا نَقْرًا على السَّطْحِ بالطَّنَائِيرِ  
 حتَّى رأينا السَّوَادَ منحسراً ودارت الشمسُ في المقاصيرِ

### من مظاهر النزعة إلى الحرية

وما من شك في أن القارئ قد وقع في نفسه من هذه الأوصاف لمجالس الشرب في الرياض والمتنزهات ، وما سبق ذلك عند الكلام عن الأديرة والخانات من أوصاف مجالس الشرب فيما حولها من البساتين وما بسطوحها من المستشرفات — نقول إنه ما من شك في أنه قد وقع في نفس القارئ من هذه الأوصاف جميعاً مبلغُ ارتياح شاعرنا إلى الحياة في الفضاء الطلق خارج حبة السقوف والجدران ، وفي منأى عن زحمة المدن والعرمان . وما نحسب هذه العبادة للحرية إلا ذات أثر فيما نرى من موقف أبي نواس من التكاليف الدينية والتقاليد الاجتماعية . على أننا نقف هنا عند ظاهر الأمر ، ونضيف إلى ما تقدم من الأوصاف أبياتاً من شعره ليس معناها بالتأوّل ولا المستور ، يشهد منطوقها في نص صريح على شغفه بالحياة الطليقة خارج الدور ، وإن تكن الأبيات عند صاحب الوساطة الجرجاني من الأمثلة على « سخف اللفظ وسوء النظم وسقوط المعنى » :

قد غَنِينَا عن الشَّتَاءِ وعن اللَّبْسِ لِلْفِرَاءِ  
 وعن الحُشْوِ والِمَا مِةِ الْكُنِّ وَالصَّلَاةِ (٢)

(١) الخيري : المنشور الأصفر .

(٢) الكن : السر . الصلاة : الدفء .

وعن الفرش والغطاء      في بُيوتٍ بلا كِواء<sup>(١)</sup>  
 قديم الصيف بالولا      ية قُدَّامهُ اللّواء  
 بالمناديل والفلا      لة والنعل والرِّداء<sup>(٢)</sup>  
 بالطناير والطِّبْو      لٍ وبالرقص والغناء

فمن أجل هذه الحياة الطلقة كان كل هذا الحب الزاخر الفياض من  
 شاعرنا للربيع . ولا بأس في كناية الشاعر عنه : « الصيف » فهو الربيع  
 عند العرب<sup>(٣)</sup>

### على مدار الفصول والأيام

على أن هذا اللهج بالشرب في الربيع لم يكن من شأنه أن يصرف صاحب  
 خمر كأبي نواس عن الشرب في غير الربيع ، فهو معاقر للمدام في كل فصل من  
 فصول العام ، لا بعدم لذلك سبباً إن كان لا بد من سبب . فإذا أدركه الصيف  
 فهو يشربها ترويحاً للنفس من لفح الستموم وحرّ الهموم :

لقد رَحَلَ الشتاء وحلَّ صيفٌ      وضاحك نورُ أشجارٍ كروماً  
 فخذها قهوة حمراء بكرأ      بأسيافِ السرور فَرَّتْ هموماً<sup>(٤)</sup>

وللقوم في تبريد الشراب في الصيف وسائلهم البدائية ، وقد يتخذون الثلج  
 لتبريده كلما أمكن ذلك . وكان الرؤساء يرسلون في طلب الثلج من القمم العالية

(١) الكِواء : جمع كوة . (٢) الغلالة : الشعار ، وهو القميص .

(٣) نهاية الأرب الجزء الأول ص ١٦٢ : ( فأما فصل الربيع وهو عند العرب الصيف فطبعه

حار رطب ، ودخوله عند دخول الشمس برج الحمل ، ويوافق مارس من شهور الروم ) .

(٤) فرى : قطع ومزق .



ويحتزنونه مدفوناً أطول ما يستطيع . ولم يكن أحب إلى القوم منه في أقذاح  
الشراب . وهذا شاعرنا يورده في معارض الغزل :

وَمَجَّ فَوْهَا فِي فَمِي سَجَّةً      كَلَرَّاحٍ إِذْ يُمَزَّجُ بِالتَّلْجِ

و يعود إليه في حوارهِ مع الصَّهْبَاءِ يراودها ويستنزها من دنها بما يزيئها لها ويُحَسِّنُه :  
قالت : « فَمَنْ خَاطَبِي هَذَا ؟ » فقلت « أنا »      قالت : « فبعلَى ؟ » قلت : « الماء إن عذُبا »  
قالت : « لِقَاحِي ؟ » قلت : « التَّلْجُ أبرد »      قالت : « فبِيتِي ؟ فَمَا أُسْتَحْسِنُ الخَشْبَا »  
قلت : « القناني والأقذاح وَلَدَهَا      فرعون » قالت : « لَقَدْ هَيَّجَتْ لِي طَرَبَا »  
وإذا مضى الصيف بوقدات قيظه ولفحات حروره ، وأقبل الخريف ،  
شاقه الشرب كذلك على ثماره اليانعة الجنية ، وأوراقه المصفرة الذهبية ، ونسماته  
الخصرة الندية :

مضى أَيْلُولُ وارتفعَ الحُرُورُ      وَأَخْبَتُ نَارَهَا الشَّعْرَى العَبُورُ<sup>(١)</sup>  
فَقُمُومًا فَالْقَحَا خَمْرًا بِمَاءٍ      فَإِنَّ تَسَاجَ بَيْنَهُمَا السَّرُورُ  
وإذا كان الشتاء ، فقد حق له الاستظهار على برده ، وليس شيء عنده كالخمر  
يغنى عن الصلاة ويمنع القر .

ويوم من أَيَّامِ المعجوز كأنما      وجوه الموالى فيه بالتَّلْجِ تُطْلَعُ<sup>(٢)</sup>  
جعلنا صِلَانَا الرَّاحَ ، فَالْتِهَيْتُ بِنَا      وَأَوْقَدْتُ الْأَجُوفَ فَالْجَلْدُ يَرْشَحُ<sup>(٣)</sup>

وكما كان يلذَّ للنواصي الخمر أيا كان الألوان من فصول السنة ، كذلك كان  
يلذَّ له النهل منها والعلَّ أيا كانت الساعة من النهار أو الليل . فإذا مدَّ الليل رواقه

(١) أَيْلُولُ يرافقه من شهر الروم سبتمبر وهو آخر الصيف وبده الخريف . الحُرُورُ حر الشمس  
والرياح الحارة . أَخْبَتُ أَطْفَأْتُ . الشَّعْرَى كوكب يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر .  
(٢) تَطْلُعُ : تضرب . يكنى بذلك عن تساقط البرد وحصبه وجوهمهم .  
(٣) الصلا النار .

على الكون ، وهذأت الحركة وانقطعت الجلبة وساد السكون ، وأذكت السماء  
مصاييحها من زُهر النجوم ، حلاله الشرب على لمح النجوم تغمز له بعيونها ،  
وعلى ضوء الشموع والسرّج يرقص له لها ، حتى لتحسبه يستكره المنادمة في  
غير الغلس على حدّ قوله :

اسقنيها يا نديمي بغلسٍ لا بضوء الصُّبح ، بل ضوء القَبَسِ  
والكنك لا تقلب من خمرياته صفحات ، إلا ألفتته صبّاً بالمعاقرة في سائر  
الأوقات ، أيا كان موقع هذه الأوقات في الليل أو في النهار ، أوفيا بينهما من  
ساعات السدفة التي يختلط فيها النور بالظلمة :

بادِرِ الكأسَ نهاراً واشرب الرّاح العقارا  
وفتيان صدقٍ قد صرفتُ مطيهم إلى بيت خمارٍ نزلنا به ظهراً  
أخي قد مضى من ليلنا الثُّلثان ونحنُ لنجم الصُّبح مُتَظَرِّانِ  
فصوب من الإبريق في الكأس شربةً يُملأ بها قلبانِ مُخْتَلِفانِ  
عاطيته وضياء الصُّبح مُتَّصِلِ بظلمة الليل ، أو قد كاد يُضوئها (١)  
هذا قِناعُ اللَّيْلِ محسورُ فاشربُ فقد لاح التَّبَاشِيرُ  
وقهوةٍ باكرتها سُحرةٌ والصُّبحُ قد أسفر في لَوَحِهِ  
أزالَ اللَّيْلَ سلطانُ الصُّباحِ فساطِ أخاك سَكْسالاً براح  
يا إخوتي ! ذا الصُّباحُ فاضطَبِّحوا فقد تَغَنَّتْ أَطيارُهُ الفُصْحُ  
هُبُّوا خذوها فقد شكانا إلى الـ إبريق من طول نَوْمنا القَدَحِ

(١) يضربها : يصفها وينقصها .

ويتبين من هذا كله أن أبا نواس مع إثاره في المعاقرة أو أناً على أوان وتقديمه مجلس شراب على مجلس شراب ، قد كان يشرب الخمر للخمر ، ويهون عليه في جنبها كل أمر ، ويتسم صبره اكل مفقود ، إلا الصبر عن ابنة العنقود .

## شهر الصيام

ومن ثمَّ شكوى شاعرنا المتعملة المتكررة من شهر الصوم . وإنه ليرقب مقدمه من بين فصول السنة ، وكلما دنا وأزف ، انقبض لدنوه قلب الشاعر ووجف . فإذا لم يبق دونه غير ليالٍ زاد إقباله على الخمر يشربها ويفرط في شربها كالعاشق المفتون يزعمه خاطر الفراق ، فهو يتودع منها ، مستهتراً متهاكاً عليها ، لا يبيت إلا ممتلئاً بها طامحاً ، ولا يُفنيق من السكر إلا ليعاود الشرب . ولم يكن النواصي في ذلك وحده ، بل كان ذلك دأبه ودأب الكثيرين غيره . فهذا معاصره أبو الهندي الشاعر يقدم من الكوفة آخر ليلة من شعبان إلى حانة عون في الحيرة ، فلا يزال يشرب ليلته كلها حتى مطلع الفجر على أن اليوم يصبح يوم شك . فلما قيل له إنه من رمضان ، مضى في شربها مصطبحاً وقال :

شربتُ الخمرَ في رمضانَ حتى رأيتُ البدرَ للشُّعْرى شريكاً  
فقال أخى : « الدُّيوكُ مُنادِيَاتُ » فقلتُ له : « وما يُدري الدُّيوكا ؟ »

وكتب النيمري إلى ابن المعتز في آخر شعبان :

يا أبا العباسِ قد شمرَّ شعبانُ إزاره  
ومضى يسعى فما يلحقُ إنسانُ غُبَارَه  
فاغدُ نشرب صفوة الدَّنِّ ونسلْبُه وقارَه

وكان أبو نواس إذا حلَّ رمضان جعل يتبرّم به ، ويزعمه أطول من سائر الشهور . وذلك أن احتباس الخمر وتكلف الناس مجانبة السكر كرامة لهذا الشهر المبارك مما يثقل على نفسه ويجعل اليوم في حسه شهراً ، ويجعل الدنيا من ضيقه بها حبساً ومن وحشته فيها قبراً :

منع الصَّومُ العُقارا وزَوَى اللَّهُمَّ فغارا<sup>(١)</sup>  
وَبَقِينا في سجون ال صَّومَ اللَّهُمَّ أُسارى

وليت أبا نواس حين يشكو كان يشكو حرمانه اليوم كله ، فإنه إنما كان يضيق من الحرمان ساعات معدودات من الإسحار إلى الإفطار ، أي سحابة النهار . ثم يعود إلى شربها في الليل ، بدليل ما جاء في مستأنف القول :

غيرَ أَنَا سُنْدارى فيه مَنْ ليس يُدارى<sup>(٢)</sup>  
نَشْرَبُ اللَّيْلَ إلى الصَّ بَحِ صِفاراً وكباراً

وحتى في النهار ، ما كان للصيام أن يمسكه عن المدام ، لو أسمعده شريك ينادمه عليها . وقد روى أنه كان عند « محمد بن زهير » في يوم من أيام شهر رمضان يتحدث — وكان محمد شديد المحبة له — فتذاكرا الشرب ، فقال محمد « يا أبا عليّ ، كيف صبرك عنه في النهار ؟ » فقال : « صبرٌ ضعيف رثّ القوى ، وإن كنتُ ليلاً استوفى ما يفوتني نهاراً ، ولو أجدُ مسعداً ما فقدته في ليلٍ ولا في نهار » . ثم أنشأ يقول :

لو كان لي مسعدٌ في الرَّاحِ يُسعدني لما انتظرتُ بشرب الرَّاحِ إفطاراً  
الرَّاحُ شىءٌ عجيبٌ أنتَ شاربُهُ فأشرب ولو حملتكَ الرَّاحُ أوزاراً

(١) زواه : منعه وأبعده . (٢) من ليس يدارى هو الله سبحانه وتعالى .



يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى حَمَاءٍ صَافِيَةٍ صِرٌّ فِي الْجِنَانِ ، وَدَغْنَى أَسْكَنَ النَّارِ  
وَأَيًّا كَانَتْ الْحَالَةُ ، فَصَاحِبُنَا لَمْ يَمْدَمْ الْحِيلَةَ فِي مَعَالِجَةِ طَوْلِ هَذَا الشَّهْرِ الْمَدِيدِ  
عِنْدَهُ وَتَقْصِيرِ مَدَّتِهِ . فَهُوَ زَعِيمٌ — كَمَا رَأَيْنَا — بِتَقْصِيرِ لَيْلِهِ فِي مَعَاقَرَةِ الْعَقَارِ ، فَإِذَا  
كَانَ النَّهَارُ لَمْ يَشْعُرْ بِطَوْلِهِ مِنْ غَشِيَةِ الْخَمَارِ :

إِذَا طَالَ شَهْرُ الصَّوْمِ قَصَّرَتْ طَوْلَهُ بِحَمَاءٍ يَحْكِي الْجُلْنَارَ احْمَرَّارُهَا  
يُقَصِّرُ عَمَرَ اللَّيْلِ إِنْ طَالَ شُرْبُهَا وَيَعْمَلُ فِي عُمَرِ النَّهَارِ خُمَارَهَا<sup>(١)</sup>

وَنَحْنُ حِينَ نَتَصَوَّرُ مَقْدَارَ هَذَا الَّذِي يَكَابِدُهُ أَبُو نَوَاسٍ مِنْ جِهَةِ الْحَرَمَانِ كُلِّهِ  
أَوْ بَعْضِهِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، نَدْرِكُ مَقْدَارَ شِمَاتِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى قُرْآنِ الصَّوْمِ فِي أَخْرِيَاتِ  
لَيَالِيهِ ، وَقَدْ تَنَاقَصَ هَلَالُهُ وَاسْتَمَرَّ هَزَالُهُ وَدَقَّ خِيَالُهُ :

لَقَدْ سَرَّنِي أَنَّ الْمَلَالََ غَدِيَّةً بَدَا وَهُوَ تَمَشُّوقُ الْخِيَالِ دَقِيقُ<sup>(٢)</sup>  
أُضْرَتْ بِهِ الْأَيَّامُ حَتَّى كَانَهُ عِنَانٌ لَوَاهُ بِالْيَدَيْنِ رَفِيقُ  
وَقَفْتُ أُعْزِيهِ وَقَدْ دَقَّ عَظْمُهُ وَقَدْ حَانَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ شُرُوقُ :  
« لَيْهِنِ وَلَاةَ اللَّهِ أَنْتَ هَالِكٌ فَأَنْتَ بِمَا يَجْرِي عَلَيْكَ حَقِيقُ »  
وَإِنِّي بِشَهْرِ الصَّوْمِ إِذْ بَانَ شَامَتْ<sup>٣</sup> وَإِنَّكَ يَا شَوَّالُ لِي أَصْدِيقُ  
فَقَدْ عَاوَدَتْ نَفْسِي الصَّبَابَةَ وَالْهُوَى وَحَانَ صَبُوحٌ بَاكِرٌ وَغَبُوقُ

وَالسَّكِيرُونَ كُلَّمَا ضَاقَ مِنْ شَهْرِ الصِّيَامِ صَدْرُهُمْ وَذَهَبَ صَبْرُهُمْ ، جَعَلُوا يُحْصُونَ  
مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِهِ ، وَيَرْصُدُونَ بَعْدَ النِّصْفِ قَمَرَهُ يَشْمَتُونَ فِي نَقْصَانِهِ . وَكُلُّهُمْ مِنْ  
شِدَّةِ النِّقْمَةِ مَيِّتٌ النِّيَّةِ عَلَى مِضَاعَفَةِ السَّكْرِ بَعْدَ الْفِطْرِ مَدَّةَ شَوَّالٍ كُلِّهِ ، عَلَى حَدِّ  
قَوْلِ بَشَّارٍ :

( ١ ) يَعْمَلُ فِيهِ : يَنْوُزُ فِيهِ وَيَنْقُصُ

( ٢ ) الْغَدِيَّةُ تَصْغِيرُ الْغَدَاةِ وَهِيَ الْبَكْرَةُ أَوْ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ .

قُلْ لَشَهْرِ الصَّيَّامِ «أَنَحَلْتَ جِسْمِي إِنَّ مِيقَاتَنَا طُلُوعُ الْهَلَالِ  
إِجْهَدِ الْآنَ كُلَّ جَهْدِكَ فِينَا سَتَرِي مَا يَكُونُ فِي شَوَّالٍ !»

ولقد صور لنا أبو نواس حاله في المسجد ينتظر نافذ الصبر تأذين الإمام  
في مغرب آخر يوم من أيام رمضان ، وما كان من طوافه وقد عاودته خفة مراحه  
متنقلاً في صحن الجامع من سارية إلى سارية وسط الزحام يعانق ويقبل من شاء  
في غير احتشام :

أَبَا الْعَبَّاسِ ، كُفَّ عَنِ الْمَلَامِ وَدَعَّ عَنْكَ التَّعَمُّقَ فِي الْكَلَامِ  
فَقَدْ — وَحْيَاةٍ مِنْ أَهْوَى وَتَهْوَى — أَقَامَ قِيَامَتِي شَهْرُ الصَّيَّامِ  
أَمَاتَ مَجَانَّتِي ، وَأَبَادَ لَهْوِي ، وَعَطَّلَ رَاحَتِي مِنْ الْمُدَامِ  
وَلَوْ أَبْصَرْتَنِي عِنْدَ السَّوَارِي أَطُوفُ عِنْدَ تَأْذِينِ الْإِمَامِ  
عَلِمْتَ بِأَنِّي عَزَذْتُ نَفْسًا لَهَا عَادٌ وَرَسْمٌ فِي الْحَرَامِ  
فَكَمَ لِي ، ثُمَّ ، مِنْ تَقْبِيلِ خَدٍّ وَمِنْ عَضِّ وَرَشْفٍ وَالتَّثَامِ

وقد رنى أبو نواس — فيمن رنى في شوال — وهو محتفل بالشراب  
متوفر على شربه . يصل الليل بالنهار طول مدته ، مضاعفاً من الخمر العقار  
حصته ، يستبدل بالسكرة سكرتين ، ليجعل الشهر من ذلك عدل شهرين .  
فلا ينقضى شوال حتى يكون أبو نواس قد تعوض ماضع في رمضان من عمر وفات  
من لذة ، بما أصلح من حساب الأيام ، واستوفى من المدام :

إِسْتَعِذْ مِنْ رَمَضَانَ بِسُلَافَاتِ الدَّانِ  
وَاطْلُوبِ شَوَّالَ الْعِزِّ وَتَغْرِيدِ الْقِيَانِ  
وَلَتَكُنْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَكَ فِيهِ سَكْرَتَانِ

تَأْتِبُ يَوْمَ فِطْرِكَ لِمَعَاصِي وَخَذَ شَوَالَ - وَيَحْكُ - بِالْقِصَاصِ  
وَصَلَ أَيَّامَهُ بِاللَّيْلِ حَتَّى تَرَى السَّيِّئِينَ لَيْسَ بَذَى انْتِقَاصِ

وتلك أبيات تدخل في باب المجون ، وهي به أخرى وأليق ، وليست عندنا شيئاً ، فلا نحب أن نقف عندها . فليستمع القارى معنا إلى غيرها في نفس الغرض ، ولكن يشفع لها على الأقل أنها أنطق بالعاطفة الجادة الصادقة ، يعلن شاعرنا فيها فرحته وقد انقضى الصوم وولى رمضان ، وعادت حياة اللهو سيرتها محلولة العقل مرسله العنان . وإن القارى ليحس في كل بيت من أبياته وكلمة من كلماته بنشوة الفرح وهزة الطرب ، ويتمثل هذا المسكين العطشان إلى الخمر ، المشوق إلى اللهو ، قد غلبه الابتهاج ، فهو يمد بعطفه ويصفق بيديه ، وعقله مستطار ، وقلبه في جوانحه يظفر ويرقص :

وَلَى الصِّيَامُ ، وَجَاءَ الْفِطْرُ بِالْفَرَحِ وَأَبْدَتِ الْكَأْسُ أُلُوَانًا مِنَ الْمَلْحِ  
وَزَارَكَ اللَّهُوُ فِي إِيَانِ دَوْلَتِهِ مُجَدَّدَ اللَّهُوِ بَيْنَ الْعُودِ وَالْقَدَحِ  
فَلَيْسَ يُسْمَعُ إِلَّا صَوْتُ غَانِيَةٍ مَجْهُودَةٍ جَدَّدَتْ صَوْتًا لِمُقْتَرَحِ  
وَالْخَمْرُ قَدْ بَرَزَتْ فِي ثَوْبِ زَيْتِنَتِهَا فَالْنَّاسُ مَا بَيْنَ نَحْمُورٍ وَمُصْطَبِحِ

### دوافع إلى الشراب

ولم يكن شأن الشراب عند أبي نواس أنه كان يستطيعه كما يستطيعه الكثيرون ، بل كان به للشراب سُعاراً لا يشبع وغُلَّةٌ لا تنقع . وهي حال تدعو إلى الوقوف عندها ، ومراجعة ملابسات حياته لعلمنا من غير قصد إلى الاعتذار له نقبين الدوافع — أو ما يشبه أن يكون الدوافع — إلى إدمانه هذا الإدمان كله للشراب ومغالاته بالخمر ، وجه إياها إلى حد العبادة :

لو عبد الخمرَ قبلنا أحدٌ مِمَّنْ مضى قبلنا عبدناها

فالمأثور عن أبي نواس ، النحافة وبياض اللون وشحوبه ونعومة الجسم وقلة ضلالة البنية. ولا جَرَمَ يستتبع شعوره هذا بالوعكة والضعف ارتياحه إلى ما تورثه الخمر من الشعور بالعافية والقوة . فهي بمقتضى ما تشيعه من الحرارة كأنما ترمّ الجسم وتجبر العظم وتشد الظهر وتقوى الركن ، وهي بمقتضى ما تورثه من تخدير كأنما تذهب بالإعياء وتجدد النشاط في العضل المجهود والعصب المشدود . وإنها ليظهر جميل أثرها عينه في استبدالها بالصفار حمرة مشرقة في لونه، كما أنه يجد نفسه بعد شربها أكثر ارتياحاً وأسرع إلى اللذات انبساطاً. فشاعرنا دائم الاحتجاج لها في شعره بأنها العلاج للسقم والضمان للصحة :

لا تذهلنَّ عن ابنة الكَرَمِ      فيها تمسُّكُ قوَّةَ الجسمِ  
لا تُخدعنَّ عن التي جُعِلَتْ      سُقْمَ الصَّحِيحِ، وصحَّةَ السَّقْمِ  
قهوةٌ تتركُ الصحيحَ سقيماً      وتُعيدُ السَّقِيمَ ثوبَ الصحيحِ  
فتمشَّتْ في مفاصِلِهِمْ      كتمشَّى البرءُ في السَّقْمِ

ولقد نهاه الخليفة عن معاورة الخمر وتوعده بالقتل إن هو عصاه فيها ، فقال في ذلك شعراً تسمع منه في بعض الأحيان أنين السقيم ذادوا عنه دواءه ، وحرموه ما يمسك ذمائه :

أعاذِلُ لأُموتُ بكفٍّ ساقٍ      ولا آبَى على مَلِكِ العِراقِ  
هَجَرْتُ له التي عنها نهاني      وكانت لي كمُمسِكَةِ الرِّمَاقِ  
ولنذكر فوق هذا ما كان عليه النواصي منذ حداثة العمر من سوء الحال، وحرمانه حنان الأم بقية حياته وحياتها ، وما ابتلي به في نفسه وعرضه من



صنوف الهوان ، ثم ما تعرّض له منذ بلغ مبالغ الرجال في مواضع عشقه — وأخصها « جنان جارية آل عبد الوهاب الثقفي » — من خيبة الأمل واستحكام اليأس<sup>(١)</sup> ، فضلاً على ما كانت تجرّه حرفة الأدب من تغاير وخصومات بين أهل الصناعة ، وما يلزمها من إساءة الفهم وغط الحق من ذوى الرياسة . كل هذه الصدمات النفسية كانت ولا شك يضيق بها الشاعر ويضعف عنها احتمالها ، ولو استدسلم للتفكير فيها ، لبات عُمره نَجْيًا وَسْوَاس ، حليفَ فكر ؛ فهو يلجأ إلى الخمر متخذاً من السكر سبيلاً هينة ميسورة للفرار بنفسه من الحياة الواقعة ، والتشاغل عن مواجهة مشكلاتها ، والغيبة عن ذكرياتها :

أَدِرْهَا عَلَى النَّدَامَانِ نُوحِيَّةَ الْعَهْدِ      وَهَاتِ لَعَلِّي أَنْ أُسَكِّنَ مِنْ وَجْدِي  
قَطْرَبْلٌ مَرْبَعِيٌّ ؛ وَلِي بَقْرَى الْكَرِّ      نَحْ مَصِيفٌ ، وَأُمِّي الْعَنْبُ  
تَرْضَعْنِي دَرَّهَا ، وَتُلْحَفْنِي بِظَلْمَا      وَالْهَجِيرِ يَلْتَهَبُ  
وَانْظُرْ إِذَا هِيَ قَابَلَتْكَ تَهَيَّؤاً      نَظَرَ الْيَتِيمِ إِلَى يَدِ الْأُمِّ  
فَانْفِ الْوَقَارَ عَنِ الْمَجُونِ بِقَهْوَةٍ      حَمْرَاءَ خَالِطَ لَوْنَهَا أَقْمَارُ  
وَاسْتَنْصِفِ الْأَيَّامَ مِنْ أَحْدَاثِهَا      فَلَطَلْنَا لَعِبْتُ بِكَ الْأَقْدَارُ  
شَرَابٌ يَفْغَمُ الشَّرْبَ      إِذَا مَا رِيحُهُ فَاحَا  
وَيَشْفِي مِنْ أَذَى التَّهِّيمِ      يَأْمِ أَبْدَانًا وَأَرْوَاحَا

وإذا كانت الخمر قد تهيج الذكريات في بعض الأحيان ، فأكثر ما يكون ذلك والجروح قريبة الاندمال ينكؤها أيسر انفعال ، أو يكون الشارب منفرداً

(١) يراجع فصل الحب الأول والأخير من كتاب « أبو نواس : قصة حياته وشعره »

للمؤلف في كتاب الهلال الشهري .

خالياً بنفسه ، لا مزاوم له يشغله عن حديث النفس ومناجاة الماضى البعيد أو القريب :

راحَ إلى الرّاح ليلهو بها      ليلاً فهاجت ذِكرهُ الخمرُ  
حتى إذا الليلُ قضى نَجَبَهُ      وغابت الجوزاء والنّسر  
وخرّق الصّبحُ قميص الدُّجى      فلاحَ من جلبابه الفجر  
وانتشرت للصّبح في عَسْكَرٍ      ألويةٌ ألوانُها سُقر  
بكى إلى الصّبح بِسَفَاحَةٍ      للدّمع لم يَبْقَ لها شَفَرُ<sup>(١)</sup>

ومثل هذه الواقعة لا موضع للممارسة في وقوعها ، غير أنها إنما تقع لبعض الناس وفي بعض الأحيان وفي ظروف مخصوصة ، ويمنع من كثرة تكرارها اشتغال مجلس الشراب على كل ما من شأنه الفرجة والتلهى وتزيين اللذات الرخيصة والمتعة الحاضرة :

دَعْ عَنْكَ - يا صاح - الفِكرَ      فيمن تغيّر أو هجرُ  
واشربْ كَمَيْتاً مُزّةً      عَنَسَتْ وأَقْعَدَها الكِبَرُ  
من كَفٍّ ظبي ناعمٍ      غَنَجِ ، بِمُقلته حورُ  
لم بصطبح منها النّدير      مُمُ ثلاثةٌ إلّا سِكرُ  
طرباً . وغنّى مُعلِناً      والطّرفُ منه قد نِكرُ  
« يا مَنْ أضرَّ به السّهرُ      عندي من الحُبِّ الخبرُ »

فالشاعر فيما يزعم لا يجد مندوحة من التداوى بالخمر قبل أن يقضى عليه من الغم ، مؤمناً أشد الإيمان بأن هذه هي الحكمة التي لا مثلها حكمة ، والنعمة التي يابعداها نعمة ، في خلق شجرة الكرم في هذه الأرض التي ضرب علينا فيها العناء والشقاء .

(١) الشفر : أصل منبت شعر الجفن .

ولعلنا لا نكون عند القارىء من أهل الاستطراد وتصيد الكلام ، إذا نحن  
أوردنا أسطورة من الأساطير اليونانية مناسبة للمقام . ولليونان — كما هو المعلوم —  
أساطير وثنية لتشخيص قوى الطبيعة وتعليل مظاهرها . وما برج شعراؤهم يتفننون  
بها ويتفننون فيها حتى بعد قيام المسيحية . ومن هؤلاء الشاعر نونوس Nonnus  
من الإغريق المسيحيين المقيمين في مصر في القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد .  
ولهذا الشاعر المسيحي منظومة مطولة في حياة أحد أرباب الوثنيين : ديونيسوس  
Dionysus . وقد روى الشاعر فيما روى في منظومته أنه كان لهذا الرب من أرباب  
اليونان ، حبيب حدث السن ، بارع الحسن ، من بنى الإنسان ، اسمه امبيلوس  
Ampelos . فخرج الفتى للصيد على عادته ذات يوم ، فكان أن كثر عليه ثور ، فهوى  
عن ظهر جواده فمات . فاشتد وجد الإله ديونيسوس على هذا الفتى من أبناء  
البشر الفانين ، حتى ود لو أنه لم يكن من الآلهة الخالدين ، فيلحق بالحبيب في  
عالم الأشباح أسفل سافلين . وظل ديونيسوس على هذه الحال من الحزن المبرح  
المقيم . فاشتفت الآلهة عليه آخر الأمر ، فجعلت من جسد الفتى كرمة عنب .  
وطابت بها نفس الإله الحزين ، فقد ابتدع منها الخمر فكانت ترياق الهم منذ  
ذلك اليوم .

وكذلك نتمثل شاعرنا المسكين الحزين — وقد زاد في وطأة بؤسه تفرز  
أعصابه ورهافة حسه — هائماً مسلوب القرار ، خائر الجَلَد مشفقاً على نفسه من  
نفسه ، لا يقوى على دواعي الهم ، فيستعين عليها بابنة الكرم ، وهو لا يعمل من  
التقرير وتوكيد الحجة وتكرار القول بأنها تسُلّ الحزن ، وتنفي الهم ، وتطرد الوسواس  
وتنعم البال وتمنح فراغ النفس ، وتترك صاحبها قليل الشواغل خلى الذرع رخيّة  
الخاطر قريح العين :

هَلَا اسْتَعْنَتْ عَلَى الْهَمُومِ صَفَرَاءُ مِنْ حَلَبِ الْكُرُومِ  
إِذَا خَطَرَتْ مِنْكَ الْهَمُومُ فِدَاوِيهَا بِكَأْسِكَ حَتَّى لَا تَكُونَ هَمُومُ  
يَنْتَمِشُ الْقَلْبُ حِينَ يَذْكُرُهَا وَيَحْيِرُ الطَّرْفُ حِينَ يَمِشَاهَا<sup>(١)</sup>  
تَرْحَلُ عَنْ صَدْرِهِ الْهَمُومُ إِذَا قَبَّلَ فُوهُ بِلَذَّةٍ فَاهَا  
يَحْيَا بِرُوحِ الْكُرُومِ لِي جَسَدُ أَخْنَتٍ عَلَيْهِ نَوَازِعُ الْهَمِّ  
تَفْعَلُ فِي الصَّدْرِ بِالْهَمُومِ كَمَا يَفْعَلُ ضَوْءُ النَّهَارِ بِالظُّلَمِ  
قُمْ يَا خَلِيلِي إِلَى الْمُدَامِ لِكَي تَطْرُدَ عَنَّا عَاكِرَ الْحَزَنِ  
نَعْمَ سِلَاحُ الْفَتَى الْمُدَامِ إِذَا سَاوَرَهُ الْهَمُّ أَوْ بِهِ جَمَعَا  
حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّبَا بِصَهْبَاءٍ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ شَمُولِ<sup>(٢)</sup>  
إِذَا مَا أَنْتَ دُونَ اللَّهِامَةِ مِنَ الْفَتَى دَعَا هُمُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ<sup>(٣)</sup>  
لَا تَحْزَنْ لِفُرْقَةِ الْإِخْوَانِ وَأَقْرِ الْهَمُومَ بِمُذْهِبِ الْأَحْزَانِ<sup>(٤)</sup>  
لَا تَبْكِي بَعْدَ تَفَرُّقِ الْخُلَطَاءِ وَاكْسِرِي بِمَائِكَ سُورَةَ الصَّهْبَاءِ  
مَا اسْتَقَرَّتْ فِي فِؤَادِ فَتَى فَدَرِي مَا لَوْعَةُ الْحَزَنِ  
لَا يَصُدُّكَ لَاحِ هُوَ عَنْ سُكْرِكَ صَاحِ  
أَيْسَ لِلْهَمِّ دَوَاءٌ كَاغْتِبَاقٍ وَاصْطَبَاحِ

(١) يحسر الطرف : يضعف ويكل ، يعشى : من عشى النار رآها ليلاً .  
(٢) الدرة : اللبنة وكثرته . (٣) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف  
الفم ، والمراد الحلق . (٤) قرى الضيف : أضافه .



## فَلَمَعَرَى لَا يُدَاوِي الْمَهْمُ بِالْمَاءِ الْقَرَّاحُ

ثم هنالك فوق هذا وذاك ما تبعث الخمر عليه من الرضا عن النفس ، والثقة الذاتية في قدرها ووفور فضيلها . وقد يكون ذلك كله ذهاباً مع الوهم والخيال دون اعتبار حقيقة الواقع ، إلا أن فيه على كل حال ما يحتاج إليه النفس من الفسح لها في الأمل ومدّها في الأمنية بما يُفصى إلى انبساطها واستبشارها ، والانشرح للديار والأنس بها . ثم إن الخمر وسيلة هينة « لقتل الوقت » عند من يطول عليهم الوقت من أهل البطالة والكسل . فتراهم في مجالسهم وقد ركبهم الفتور وغلب عليهم الملل ، يستحثّون خطو الزمن المتناقل باحتثاث كؤوس الخمر ، لما يكون من استفزازها لخامد الحس واهتياجها لحركات النفس في أول الأمر ، كما أنها حين يكثر من منها ضمنية لهم تقصير المتناول من يومهم ، بما يرين عليهم بعد ذلك من السكر :

كَرْخِيَّةٌ تَتْرَكَ الطَّوِيلَ مِنَ الْعَيْشِ قَصِيراً وَتَبْسُطُ الْأُمْلَا

تَهْدِي لِقَلْبِ الْمَسْتَكِينِ نَحْيُلًا وَتُبْدِي لِقَلْبِ الْبَاذِخِ التَّخِيلَ

لَسْتُ أَرَى لَذَّةً وَلَا فَرْحًا وَلَا نَجَاحًا حَتَّى أَرَى الْقَدْحَا

إِسْقَنِي — إِنْ سَقَيْتَنِي — بِالْكَبِيرِ مِنْ لَذِيزِ الشَّرَابِ ، لَا بِالصَّغِيرِ

قَدْ تَدَانَتْ لَنَا الْأُمُورُ كَمَا نَهْنَهَوِي وَذَلَّتْ لَنَا رِقَابُ الدَّهْورِ

أَدِيرَا عَلَى الْكَأْسِ تَنَكَّشَ الْبَلَوِي وَتَنَاتَذَ عَيْنِي طِيبَ رَائِحَةِ الدُّنْيَا

ولا ينبغي أن التخدير الحاصل من السكر يمس مراكز الرقابة الخلقية العليا في الشاربين مهما كان موضعهم من الفضيلة والعلم ، فيؤدي هذا إلى تحرير الفرائز الحيوانية الدنيا فيهم ، والتخلية عن هذه القوى المكبوتة الهوجاء لتجرى في

مجرياتها ومتصرفاتها كيف تشاء ، فتطاولع النفس ما لم تكن تطاولعه من النزعات ،  
وتستجري على ترك التصوّن والعفة وإلقاء الوقار والحشمة ، فإذا هم بعد هذه  
الطلاقة يستيقنون في حلبة الفسوق والمجون ، ويجهرون بارتكاب القبائح ويتغنون  
بمحاسنها ، ويبلغون في الإباحة والوقاحة وقلب الأوضاع والاستهتار بالعرف أبعد  
الغايات وأنكرها :

إِسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي حَسَنٌ عِنْدِي الْقَبِيحُ

لَا تَلْنِي عَلَى الَّتِي فَتَنْتَنِي وَأُرْتِي الْقَبِيحَ غَيْرَ قَبِيحٍ

إِسْقِنِي صِرْفًا حَمِيًّا تَتْرُكُ الشَّيْخَ صَبِيًّا

وَتُرِيهِ الْفَقْرَ رُشْدًا وَتُرِيهِ الرُّشْدَ غِيًّا

طَرِبْتُ إِلَى الصَّنَجِ وَالْمِزْهَرِ وَشَرِبْتُ الْمُدَامَةَ بِالْأَكْبَرِ

وَأَلْقَيْتُ عَنِّي ثِيَابَ الْهُدَى وَخَضْتُ بِمُحَوَّرًا مِنَ الْمُنْكَرِ

ولا نحسب القارىء بعد هذا يأخذه العجب ، إذا نحن زعمنا له أن أبانواس  
كان به انقباض واستحياء . ونحن حين نزعم ذلك لا نعتمد على الاستنتاج  
وحده ، وإنما نستشهد بأبي نواس نفسه ؛ فقد شكّا الشاعر ذلك في شعره ،  
وامتدح من كانوا يتألفون نافرته في مجلسهم حتى تسكن الروعة ، وتزول الوحشة ،  
ويتوكد بينهم الأُنس وتنبسط منه النفس :

فِي انْقِبَاضٍ وَوَحْشَةٍ ، فَإِذَا صَادَفْتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ

أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ <sup>(١)</sup>

(١) رواها لأبي نواس جامع ديوانه حمزة الأصباهاني في مقدمته . وقد ورد البيتان في الأغاني  
في أخبار قلم الصالحية منسوبين إلى محمد بن كناسة .

ولما كان هذا الشعر قد يُتنازع في نسبته ، مع رواية جامع ديوان أبي نواس له في مقدمته ، فإننا نزيد عليه من الأخبار ما فيه التأييد لمعناه ، والتوكيد لدلالته على شيمة الوحشة والاستحياء المركبة في طبع الشاعر ، المركوزة في سليقته . فقد وصف الوزير الفضل بن الربيع أبا نواس للأمين عند ولايته . وأبو نواس كما نعلم كان من صنائع الوزير الذين اتصلوا بخدمته وانحازوا إلى حركته في إسقاط حظوة البرامكة ونكبتهم . ولم يكن أبو نواس مجهولاً عند الأمين ، فقد عرفه أيام أبيه . فاستأذن له الوزير بعد أن ألح عليه في ذلك ، فلما دخل على الأمين في قاعة العرش دهش وتمتع وحرار ، فلما مثل بين يديه امتنع القول وأرتجج عليه ، ورام الإنشاد بكل طريق فلم يقدر على شيء ، فوقف ملياً لا ينطق بشيء ، وجعل يلحظ الوزير لحظان المرتجى لإسعافه ومعوته . ويحدثنا أبو نواس حديث قصته فيقول :

[ فسمعت الفضل بن الربيع يقول للأمين : « جلالة الخلافة ، وهيبة الإمامة ، وعظمة هذا المقام الشريف منعتني من الكلام ، فيجعل هذا يوم السلام » . وغمرني الوزير بعينه فخرجت . ورجعت بعدها إلى الفضل وشكوت إليه ما نالني ، فقال : « كذبت والله ، تفضحني ! » ثم سأله أن يعيد الاستئذان ، ففعل بعد مدة . فلما دخلت على الأمين غمضت عيني ، فلما نظرت إليه رأيت يبتسم فأنشدته :

يا دارُ ما فَمَلَّتْ بكِ الأيامُ ضامَتِكِ والأيامُ ليس تُضامُ

فجعل يتהלل وجه الفضل سروراً إلى أن فرغتُ وخرجتُ مسروراً . ]

ولا ينبغي أن يخذلنا عن هذه الخليفة — خليفة الوحشة والاستحياء — مانعاً من الرجل من المجاهرة بالاستهتار وخلع العذار . فإن في جماعة المستهترين المجاهرين نفراً غير قليل من هؤلاء المبتلين بالانقباض والاستحياء المطبوعين على الشعور بأنفسهم ؛ وذلك أن تفكيرهم فيما عسى أن يكون رأى الناس فيهم ونقد الناس

لهم يركبهم ويرهقهم ، حتى يلتمسوا مخادعة أنفسهم والناس عن هذا الضعف ،  
بالثورة الظاهرة على العرف والمجاهرة بالاستهتار . وأبو نواس كان متبرماً بهذا  
الانقباض ، يضيق به ويشكو منه ؛ لأن الرجل لم يكن بالوحشى المحب للانفراد  
والعزلة ، بل كان فى طبعه التألف والتأنس . ولعله لم يكن بين الناس من هو  
أشد منه أنساً بالناس . ولقد دفعه هذا — فيما كان يدفعه — إلى الشراب للخروج  
عن شعوره بنفسه واطراح الانقباض والحشمة ، والامتزاج بالجلساء .

ظَلَّتْ حُمَيَّا الْكَأْسِ تَبْسُطُنَا حَتَّى تَهْتَكَ بَيْنَنَا السُّتُرُ

### تأثير الخمر ودرجات السكر

ولقد سجل أبو نواس — فيما سجله عن الخمر — فعلها فى الشاربين فى جميع  
درجاته . ونحن نذكر أولى هذه الدرجات ، وهى التى ينشط فيها الجهاز الدورى  
من فعل الشراب ، فتشتد حركات القلب ، ويقوى النبض ويسرع ، ويتوارد  
الدم إلى ظاهر البدن ، فيتورد منه الخدان وقد تحمر العينان ، وينتشر عنه دفء  
فى الأطراف ، فيؤخذ هذا وذاك على أنه زيادة فى الدم الجيد وإذكلاء للحرارة  
الغريزية . ونذكر فى أولى هذه الدرجات كذلك فعل الشراب فى زيادة التنبيه  
فى المجموع العصبى ، فتشب الحيوية وتتجدد القوى ، وتنبسط النفس وتنتفتح  
الذهن ويتوقد الوجدان ، فيذبعث الجسم بهمة زائدة ، وتنفزز الأطراف بقوة  
فائضة ، ويتطلق الوجه وتبرق النظرة ، وينطلق اللسان حاضر الجواب مُمَنَّنٌ  
البيان ، وتهتاج العواطف وتتحرك الغرائز . ونحن نذكر هذا جميعه ، لنذكر  
لشاعرنا أبى نواس تجليته عن هذه الحالات فى هذه الأبيات التى يجدها القارى  
لشعره موزعة فى الخمرات :



فمن قوله في الخمر يتغنى بتحسينها اللون ، وقدحها لبريق العين ، وترطيبها  
البدن ، وتصفيتها للبشرة ، وتوريدها للخد ، وإظهارها الحمرة في الجلد :  
لِشْرَبِ صَافِيَةٍ مِنْ صَدْرٍ خَافِيَةٍ    تَغْشَى عَيْونَ نَدَامَاهَا بِأَلَاءِ

مِنْ يَدَيِ سَاقٍ ظَرِيفٍ    يَكْدُسِي الْحُسْنَ شِعَارَا  
يَقْتَرِي الْقَوْمَ بِكَأْسٍ    تُلْبِسُ الْخَمْرَ إِزَارَا<sup>(١)</sup>  
فَإِذَا مَا سَلَسَلُوها    أَخَذَ الْخَدُّ أَحْمَرَارَا

ظَلَّ يَسْقِينَا مُدَامًا    حَلَّتِ الْخِدْرَ مَنِينَا  
تَحْسَبُ الْوَرْدَ بِجَدِّدٍ    يُنَافِي الْيَاسْمِينَا

كَأَنَّمَا وَجَّهَتْهَا حَسَا    مِنْ يَدِهِ الْخَمْرُ ، ثُمَّ ثَنَّاها  
تُفَاحَةٌ فِي يَمِينِ ذِي كَلَفٍ    طَيَّبَهَا جَاهِدًا وَطَرَاها

كَأَسٌ إِذَا انْحَدَرَتْ فِي خَلْقٍ شَارِبِهَا    أَجَدَتْهُ حُمْرَتُهَا فِي الْعَيْنِ وَالْخَدِّ

ثم يقول في تجديدها القوة ومناوئتها النشاط بعد الكسل ، كأنما تردّ الشيوخ  
في طبائع الشباب ، وتردّ الشبان في نشاط الصبيان :

كَأَسٌ إِذَا مَا الشَّيْخُ وَالْيَ شَبَابُهَا    خَمْسًا ، تَرَدَّى بِرِدَاءِ الْغَلَامِ

مِنْ قَهْوَةٍ خَمْرَاءٍ كَرَّخِيَةٍ    كَأَنَّهَا الْيَاقُوتُ فِي النَّعْتِ  
تَتَرَكُّ مَنْ يَشْرِبُهَا هَائِمًا    يَقْفِزُ مِنْ فَوْقِ وَمِنْ تَحْتِ

ويقول في إدخالها على النفس أريحية السرور وهزة الطرب وانبساط الهوى  
وخفة الروح :

ونَدِمِي كُلَّ خِرْقٍ زَانَهُ حُسْنُ نِجَارِهِ <sup>(١)</sup>  
بَسَطَتُهُ سَوْرَةَ الْكَأْسِ <sup>(٢)</sup> لَنَا بَعْدَ اِزْوَارِهِ <sup>(٣)</sup>

لَمْ يَذُقْهَا قَطُّ شَارِبُهَا فَخَلَا مِنْ لَاعِجِ الطَّرَبِ

وَمُدَامَةٍ سَجَدَ الْمُلُوكُ لَهَا بَاكَرَتْهَا ، وَالذِّكُّ قَدْ صَدَحَا  
صِرْفًا إِذَا أُسْتَبْطِنَتْ سَوْرَتُهَا أَهْدَتْ إِلَى مَعْقُولِكَ الْفَرَحَا <sup>(٣)</sup>

صِرْفٌ إِذَا شَجَّهَا الْمِزَاجُ بِأَيْدِي شَارِبِيهَا تَوَلَّدَ الْفَرَحُ  
حَتَّى تُرِيكَ الْحَلِيمَ ذَا طَرَبٍ يَهْزُهُ فِي مَكَانِهِ الْمَرْحُ

ومما يخصه شاعرنا بالذكر نزوع الشارب كلما شارف حد السكر إلى الدندنة،  
ثم الترتيم ، ثم ترديد الصوت ورفع العقيرة بالغناء . ولقد كان أبو نواس في طویل  
خبرته يحبس الكأس عن نديمه إذا انطلق لسانه بالغناء مع ثقليته

فَاضْغَوْا إِلَى صَوْتِ وَحْنٍ عِصَابَةٍ وَفِينَا فَتًى مِنْ سُكْرِهِ يَتَرْتَمُ  
وَفَتًى كَأَطْوَعٍ مِنْ رَأَيْتُ ، إِذَا أَنْتَشَى غَنَى بِحُسْنِ لِبَاقَةٍ وَحَيَاءِ

وَمَا زَالِ يَسْتَقِيمُنَا وَيَشْرَبُ دَائِبًا إِلَى أَنْ تَغْنَى حِينَ مَالَتْ بِوِ سُكْرَا

صَرَفْتُ الْكَأْسَ عَنْهُ حِينَ غَنَى وَإِنَّ لِسَانَهُ مِنْهَا ثَقِيلُ

(١) الخرق : الكريم السخي ، النجار : الأصل والحسب .

(٢) الازورار : الانحراف . (٣) المعقول : العقل .

ولشاعرنا — مثل ما لسائر الشعراء — قول كثير في تحريك الخمر للأريحية ،  
وتزيينها للشحیح السماحة والتوسع في النفقة ، وبعثها على التطوع للوجود والبذل  
فوق الجهود . وليس يصح من هذه الأريحية للخمر فضيلة . فإنما يصدر هذا  
من طريق استلابها لإرادة الشارب ، فهي في تأثيرها كأما تغازل العقل  
وتداعبه ، وتخالله وتخدعه ، وتهزله وتغالبه ، كما تفعل المرأة الهلوك اللعوب  
بالرجل الرشيد ، فتستنزله على ما تريد وما يريد من حولها من المفاسيد :

وحمرء كالإاقوتِ بَتُّ أشجُّها      وكادتْ لكفِّي في الزُّجاجة أن تُدْمِي  
فأحسِنْ بها شَيْخُوخَةً في إنائها      وألطفْ بها بين المفاصل والعظم  
تغازلْ عقلَ المرءِ قبلَ ابتسامِهِ      وتخدعه عن لبِّهِ وعن الحِلمِ  
وعنه يسيلُ الهمُّ أولَ أوَّلَا      وإنْ كانَ مسجورَ الجوارحِ بالهمِّ<sup>(١)</sup>  
وينساقُ للجَدوى وإنْ كانَ مُمَسِّكًا      ويظهرُ إكثاراً وإنْ كانَ ذا عُدَمِ

أخي لي — يا صاح ! — رُوحِي      بِغَبوقِ وَصَبُوحِ  
قهوةٌ صَبَّاهُ بِكُرٍّ      غَرِسْتُ أزمانَ نُوحِ  
تُشَخِّصُ الهمَّ ، وتَهْ      تَرُّ لها نفسُ الشَّحِيحِ<sup>(٢)</sup>  
يَجْنَحُ القلبُ إليها      في الهوى أيَّ جنوحِ  
تلكَ لا أعدهُ نِيها      لله رُوحِي دُونَ رُوحِي

(١) مسجور : من سجر التنور ملأه وقوداً وأحماه .

(٢) تشخص الهم : تذهب به .

ومع الإكثار من الشراب يتصعد الدم بقوة إلى الدماغ ، فيملأ الأوعية الحية ويمددها ويتحيز فيها ، فيؤدي الاحتقان الضاغط على المراكز العصبية في الفصين السكريين للدماغ إلى تفتير الحواس . وهذا الفتار ابتداء النشوة ، ويكون عنه في اصطلاحهم بالديب ، فيقال دبّت الخمر ، إذا بدأت تأخذ في شاربها . فإذا تجاوزت في الأخذ قيل تمشت في مفاصله . فإذا طارت في رأسه قيل سارت ، ومنه سورة الخمر . والتختير أشد من التفتير ، والشمل أشد من التختير . ثم تشتد بالشارب سورة الشراب ، فيدار به ، ويعقب الدوار بالرأس ثقله كثلة النعاس :

دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ سَاطِعَةٌ لَا تَسْتَكِينُ لِأَنَسَى وَلَا جَانِ

سَوْرَتِهَا فِي الرُّءُوسِ صَاعِدَةٌ وَلِيْنَهَا فِي الْمَذَاقِ كَالذَّهْنِ

يُسْقَوْنَ مِنْ قَهْوَةٍ مُعْتَقَةٍ لَهَا دَيْبٌ فِي الْمَخِّ يَسْتَبِقُ

تَدِيبٌ دَيْبِيًّا فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ دَيْبٌ نِمَالٍ فِي نَقَا يَتَهَيَّلُ<sup>(١)</sup>

فَدَبَّتِ الرَّاحُ فِي مَفَاصِلِهِ وَرَنَّتْ فِيهِ قَتْرَةُ الْوَسَنِ<sup>(٢)</sup>

حَتَّى إِذَا دَرَجَتْ فِي الْقَوْمِ وَانْتَشَرَتْ هَمَّتْ عُيُونُهُمْ مِنْهَا بِإِغْفَاءٍ

بِأَنَامِ الطَّرَفِ مِنْ سُكْرِ تَرَادَفِهِ فِي كَفِّهِ الْكَأْسُ يَهْوَاهَا وَيَحْشَاهَا

وغير مُنْتَبِهٍ أَغْفَتْ لَوَاحِظُهُ لَا يَمْنَعُكَ سُكْرُكَ أَنْ تَحْسَاهَا<sup>(٣)</sup>

(١) النقا : القلعة المحدودة من الرمل . يتهيل : ينساب وينصب .

(٢) رنق النوم في عينيه : غشيها . (٣) أن تحساها : أن تتعساها .



وهنا في هذه المرحلة تظهر لنا خاصّة التخدير في الخمر ، وهي خاصّة لا خلاف عليها . بل يذهب الكثيرون من أهل البحوث الطبية إلى أن التنبيه القصير الأمد في المرحلة الأولى مرده إلى تخدير الخمر تخديراً يشلّ نوعاً من الشلل المركزي العصبية الكابحة الموكول إليها ضبط حركات القلب وقبض الأوعية ، فيقتل هذا التخدير من الشعور بالتعب والإعياء ووطأة الشواغل والهموم ، ويحصل من شلل الضوابط وتراخيها سرعة النبض وكثرة توارد الدم في الشرايين الصغيرة إلى الأطراف وظاهر الجلد .

وأياً كانت الحال ، فإن الخمر التي رأينا في البداية كيف كان تنشيطها لا تلبث مع الإكثار أن ينعكس أثرها ، فيحصل عنها التوهين للقوة العضلية والاعتياق للقدرة على ممارستها وتصريفها ، فتتخدر الأطراف كأنّ قد ألمّ بها فالجّ خفيف . وبخاصة الأطراف السفلى .

ولها ديبٌ في العظام كأنّه قبضُ النعاس وأخذهُ بالتفصيل

نشرُها صفراء مشمولة ترعى صحیح القوم بالنقرس

وكذلك يظهر سوء فعل الشراب في المخيخ — وهو المنطوى على مراكز ضبط حركات المجموع العضلي — في هذا الذي نشاهد في السكارى من تخاذل المفاصل وعدم تماسكها ، واضطراب نظام حركاتها وضعف توافقه ، وما يعتري الأعضاء والأطراف من رعاش وارتجاف .

فترى السكران — وقد ثقل منه اللسان وعسر عليه خروج الكلام — يردد الكلمة في فيه ، ولا ينطلق بالعبارة بعضها في إثر بعض ، وإنما كلامه لجلجة ونعته وتمتمة وفأفة ، حتى لا يكاد يُبين من اعتقال آلة النطق ، وقد يتطرق إلى منطقته كذلك الفنة والخنخنة :

مازلتُ أَشْرِبُهَا وَأَسْقِي صَاحِبِي حَتَّى رَأَيْتُ لِسَانَهُ مَكْسُورًا

مَتَى يَرُمُ فِي سُكْرِهِ مَنَظِقًا تَقُلُ بِهِ خَطَرَةٌ وَنَوَاسِ  
حَتَّى انْتَنَى مِثْلَ صَرِيحِ الْهَوَى وَالنَّوْمِ قَدْ عَانَى جُلَاسِي

وَمُهَفَّفٍ نَبَّهَتْهُ لَمَّا هَذَا وَتَغَلَّقَتْ عَيْنَاهُ بِالْإِغْفَاءِ  
فَشَكَ إِلَى لِسَانِهِ مِنْ سُكْرِهِ بَتَلْجُلُجٍ كَتَلْجُلُجٍ الْفَأْفَاءِ

نَادَيْتُهُ ، وَالظَّلَامُ مُنْسَدِلٌ وَغُرَّةُ الصُّبْحِ بَعْدُ لَمْ تَبَيِّنْ  
« قُمْ — يَا خَلِيلِي — إِلَى الْمُدَامِ لَكِي تَطْرُدُ عَنَّا عَسَاكِرَ الْحَزَنِ »  
فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَّا بَلَجَلَجَةٍ تَكَادُ تَخْفَى عَلَى الْفَتَى الْقَطَنِ

والغالب إلى ذلك في السَّكران أن تكثر في وجهه المنتفخ حركة الأسارير  
وتشتد أمارات التعبير ، ولكنها أمارات ملتأنة وحركات غامضة ، وربما زاد في  
مسخها وغرابة شكلها تكلفه للسمت والركانة ووقار الهيئة :

وَوَقَّرَ الْكَأْسَ عَنْ سَفِيهِ فَإِنَّ حَقًّا لَهَا الْوَقَارُ

ويظهر أثر الخمر في وظائف الحركة أشدَّ الظهور في مشية السكران ، فتراه  
تختلف منه عند المشي الرَّجْلَانِ ، مُنْكَبًّا بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَمَامِ ظَاهِرَ الْمِيلَانِ ، وَتَرَى  
سَائِرَ حَرَكَتِهِ فِي الْمَشْيِ مُخْتَلَةً الْوِزْنَ مَعْدُومَةَ النَّسْقِ ، فِيهَا خَبَالٌ وَتَجَبُّطٌ وَاخْتِلَاجٌ .  
ولعلَّ أَصْدَقَ مَا يَوْصَفُ بِهِ مَشْيُهُ أَنَّهُ دَفَعَاتٌ مُتتَالِيَاتٌ مِنْ خُطَاٍ عَدَةٍ فِي اتِّجَاهٍ  
مَنْحَرَفٍ ، وَيَكَادُ يَخْتَلِلُ لِلرَّأْيِ أَنَّهَا يُقْصَدُ بِهَا إِلَى اتِّقَاءِ الْانْكَبَابِ وَالسَّقَطَةِ أَكْثَرَ  
مِمَّا يُقْصَدُ بِهَا إِلَى الْإِنْتِقَالِ وَالسَّعْيِ . ثُمَّ لَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى تَعَذُّرِ الْمَشْيِ

بقدم ثابتة ، بل يتجاوزه إلى تمذّر الاستمسك في الوقوف منتصبَ مقامة مستويًا  
وقد يُعنيه مطلقُ القيام فيحبو على الأرض زَحْفًا.

قال جحظة :

يريدُ انتصاباً للمقام بزعمه ويرُعه الإدمانُ فهو يميلُ

وقال إسماعيل بن عمار الأسدي :

نُسقي شراباً كلونِ النارِ عتقه  
إذا ذكّرنا صلاةً بعد ما فرطتْ  
نمشي إليها بطاءً ، لا حراك بنا ،  
نمشي ، وأرجلنا عوجٌ مَواقِعُها  
أو مَشَى عُمَيانٍ دَيرٍ ، لا دَليلَ لهم  
يُمسى الأصحاح منه كالمجانين  
قُمنا إليها بلا عقلٍ ولا دين  
كَأَنَّ أَرْجُلَنَا يُقْلَعْنَ مِنْ طِينِ  
مَشَى الإوزِ انْتَى تَأْتِي مِنَ الصَّيْنِ  
سِوَى الْعِصَى إِلَى عِيدِ السَّعَانِينِ

ومن قول شاعرنا النواصي :

وشاطرٍ ماجنٍ أَخِي خَفْتُ  
كَأَنَّ نَفَاحَتَيْنِ نُضَدَتَا  
ما زال مِنْ رَاحَتِيهِ يَمْزُجُ لِي  
حَتَّى مَشَتْ فِي عُروْقِهِ ، وَبَدَتْ  
فَكَلَّمَا رَامَ أَنْ يَقُومَ ثَنَاهُ  
مُسْتَعْطِفٍ كَالْقَضِيبِ فِي مَيْلِهِ  
لَهُ عَلَى وَجْنَتِيهِ مِنْ خَجَلِهِ  
رَّاحَ مِنْ طَرْفِهِ وَمِنْ قَبْلِهِ  
فِيهِ ، وَمَالَ الْفَزَالُ مِنْ ثَمَلِهِ  
سُكْرُ ، فَارْتَدَّ مَيْلُ مُعْتَدِلِهِ

وَمُتَّصِلٍ بِأَسْبَابِ الْمَعَانِي  
رَفَعْتُ لَهُ النَّدَاءَ بِقَمٍّ فَخَذَهَا ،  
قَامَ وَقْتُ مِنْ أَخَوَيْنِ قَامَا  
لَهُ فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ حَمِيمٍ  
وَقَدْ أَخَذَتْ مَطَالِعَهَا النُّجُومُ  
عَلَى طَرْبٍ ، وَلِيْلَهُمَا بِهِمِ

أَجْرُ الزَّقِّ ، وهو يجرُّ رِجْلًا يَجُورُ بِهَا النَّعَاسُ وَيَسْتَقِيمُ  
 وَحَاوَلَ نَحْوَ الْكَأْسِ مَشِيًّا ، فَلَمْ يُطِقْ مِنَ الضَّعْفِ ، حَتَّى جَاءَ مُخْتَبِطًا يُجْبَوُ  
 وَلَيْسَ يَخْلُو مَدْمَنٌ لِلْخَمْرِ مِنْ ارْتِجَافِ الْأَطْرَافِ ، وَبِخَاصَّةِ ارْتِعَاشِ الْيَدَيْنِ .  
 وَيَعِيدُ الْمَصَابُونَ بِالرَّعَاشِ فِي الْيَدَيْنِ إِلَى الْمُبَاعَدَةِ بَيْنَ أَصَابِعِهِمَا لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَذَا  
 الِاسْتِعْرَاضِ عَلَى الْإِحْتِفَازِ بِشَيْءٍ مِنْ مَظْهَرِ ثَبَاتِهِمَا :

أُرْعَشْتَنِي الْخَمْرُ مِنْ إِدْمَانِهَا وَلَقَدْ أُرْعِشْتُ مِنْ غَيْرِ كِبَرٍ  
 إِذَا هُوَ لَقِيَ الْكَأْسَ يُمْنَاهُ خَانَهُ أُمَاوَيْتُ فِيهَا وَأُرْتِعَاشُ بَنَانٍ  
 وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ ظَاهِرَةَ الرَّعَاشِ هَذِهِ أَظْهَرَ آثَارِ الْخَمْرِ فِي وَظَائِفِ الْحَرَكَةِ لَمْ تَتَعَجَّبْ  
 مِنْ كَثَرَةِ إِشَارَاتِ أَبِي نَوَاسٍ إِلَيْهَا .

وَلَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ يَدَاوُونَ مَا يَعْرِضُ عَنِ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْأَعَشَى  
 شَيْخَ شَعْرَائِهَا الْأَقْدَمِينَ :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وَقَوْلِ شَاعِرِنَا أَمِيرِ شَعْرَائِهَا الْمُؤَلَّدِينَ :

دَعُ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاهُ وَدَاوَنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وَالشَّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ فِي شَعْرَائِي نَوَاسٍ كَثِيرَةٌ ، مِنْهَا :

وَإِذَا رَامَ نَدِيمٌ عَرَبْدَةً فَاقْرَعَنَّ بِالصَّرْفِ مِنْهَا كِبِدَةً

كَرَّرِ الْخَمْرَ عَلَيْهِ بِمَحْتَةٍ كِي تُقِيمَ الْخَمْرُ مِنْهُ أَوْدَهُ

وَتَدْمَانٍ صَدَقَ بِأَكْرَ الرِّاحِ سُحْرَةً فَأَضْحَى وَمَا مِنْهُ اللَّسَانُ وَلَا الْقَلْبُ



تَأْنِيْتُهُ كَيْمَا يُفِيْقُ ، فَلَمْ يُفِيْقْ إِلَى أَنْ رَأَيْتُ الشَّمْسَ قَدْ حَازََهَا الْغَرْبُ <sup>(١)</sup>  
 قَامَ يَخَالُ الشَّمْسَ لَمَّا تَرَحَّلَتْ ، فَنَادَى « صَبُوحًا » وَهِيَ قَدْ كَرَبَتْ تَخْبُو <sup>(٢)</sup>  
 وَحَاوَلَ نَحْوَ الْكَأْسِ مَشْيًا فَلَمْ يُطِقْ مِنْ الضَّعْفِ ، حَتَّى جَاءَ مُخْتَبِطًا يَجْبُو  
 فَقُلْتُ لِسَاقِينَا « أَسْقِهِ ! » فَانْبَرَى لَهُ رَفِيقٌ بِمَا سُمِنَاهُ مِنْ عَمَلٍ ، نَذَبَ  
 فَنَاولَهُ كَأْسًا جَلَّتْ عَنْ خُمَارِهِ وَاتَّبَعَهَا أُخْرَى ، فَتَابَ لَهُ لُبٌ  
 إِذَا ارْتَعَشَتْ يُمْنَاهُ بِالْكَأْسِ رَقَصَتْ بِهِ سَاعَةً ، حَتَّى يُسَكِّنَهَا الشَّرْبُ  
 فَغَنَّى وَمَا دَارَتْ لَهُ الْكَأْسُ ثَالِثًا « تَعَزَّى بِصَبْرٍ بَعْدَ فَاطِمَةَ الْقَلْبِ »

وهذا بعينه ما يقرره المحدثون من أصحاب البحوث الطيبة في الخمر وتأثيرها .  
 فقد ثبت لهم أن ظاهرة ارتعاش اليدين عند المدمنين تكون على أشدها في الصباح  
 وأنها تسكن بعد ذلك بعض الوقت إذا اصطبحوا من الخمر بالقدر اليسير :  
 إِذَا الْمَخْمُورُ بَادَرَهَا صَبَاحًا تَطَايَرَ عَنْ مَفَاصِلِهِ الْخُمَارُ

على أن هذه المداواة غير مستديمة الأثر ، وهي سبيل للمعاودة مستفحل الخطر :  
 وَنَدَمَانٍ تَرَادَفَهُ خُمَارُ فَأَوْرَثَ فِي أَنْامِلِهِ ارْتِعَادًا  
 فَلَيْسَ بِمُسْتَقِيلٍ الْكَأْسَ مَا لَمْ تَكُنْ يُسْرَاهُ لِلْيَمْنَى عِمَادًا  
 رَفَعَتْ لَهُ يَدِي — وَهْنًا — بِكَأْسٍ بِهَا مِنْهَا تَزِيدُ فَاسْتِعَادًا  
 وَقَالَ « أَلَسْتَ مُتَّبِعَهَا بِأُخْرَى تُوقِّرُنِي ، فَإِنَّ بِيَّ ازْدِيَادًا ؟ »  
 فَقُلْتُ لَهُ « بَلَى ! وَبِأُخْرِيَّاتٍ ، عَلَى أَنْى سَأَجْعَلُهَا جِيَادًا »

(١) تأنيته : لم أعجله . (٢) كربت الشمس : دنت للغروب .

فذلك دأبه — أبداً — ودأبى إذا ما زِدته منها استزادا  
إلى أن خَرَّ ، ما يَدْرِ أرضاً تَوَسَّدَ عند ذلك أم وسادا

وهكذا استوفى أبو نواس وصفَ نداماه في حال السكر ، بعد الذى كانوا عليه  
في حالهم الأولى من النشاط والانبساط . ولا نعرف شاعراً مثل أبي نواس يطالعنا  
بمثل ما طالعنا به من صورة بعد صورة للنديم السكران وقد كَفَّه الشرب واشتدَّ  
به أخذُ الخمر ، فبات لا توانيه يده على تناول المدام إلا ترقصت كأسه وتدقت ،  
ولا يدبر لسانه بالكلام إلا تتعنت وتلجلج ، ولا تطاوعه رجله على القيام إلا تطرَّح  
وترَّخ . ونجى نَجَزَى عن هذه الحال الثانية بما أوردناه ، لننتقل إلى الحال الأخيرة  
فالسكران لا يزال كلما اشتد به السكر تمضمض حواسه ، وتخفَّ رجاؤه  
رأسه حساً ومعنى . وكأنما تغيم غشاوةٌ بعد غشاوة على قوة إبصاره ، فيختلَّ  
ضبطها للبرئيات ، فلا يحقق الأشياء ، ولا يثبت شئاً عنده على صورة أو وضع ،  
وقد يرى الشئ الواحد شيئين . كذلك تختلط المسموعات على سمعه اختلاط  
المنظورات على نظره . ويكثر لغوه ويبطل حكمه ، ويرتفع لغطه وصخبه ،  
وتستشرى عربده وشغبه . ثم لا يلبث أن يرشح بالعرق الغزير جسمه ، ويتباطأ  
تنفّسه ونبضه ، وتنقبض حدقاته أو تنتشرا . ثم إذا بالمسكين ينجدل على الأرض  
صريعاً لا حراك به كما يسقط الجذع اليابس ، مستغرقاً في سُبَات أقرب ما يكون  
إلى سبات الأموات :

أَظْلُ منها على شفا سَدَرٍ<sup>(١)</sup> يأخذ من مَفْرِقِ إلى القَدَمِ

(١) السدر : حالة يجد معها الإنسان دوّاراً في رأسه وظلمة في عينيه ، وإذا قام كاد  
يسقط كالمصروع .

ومائِلِ الرَّأْسِ ، نَشْوَانٍ ، شَدُوتُ لَهُ « وَدَّعَ لَمَيْسَ وَدَاعَ الصَّارِمِ اللَّاحِي »  
 فَعَالَجَ النَّفْسَ كِي يَحْمِلُ لِيَهْمَهُ وَقَالَ « أَحْسَنْتَ » قَوْلًا غَيْرَ إِفْصَاحٍ  
 فَكَادَ أَوْ لَمْ يَكْدُ أَنْ يَسْتَفِيقَ لَهُ وَالنَّفْسُ فِي بَحْرِ سُكْرِ عَبِّ طَفَّاحٍ<sup>(١)</sup>  
 حَتَّى إِذَا اصْطَفَتْ الْأَقْدَاحُ ، وَانْتَضَمَتْ بِيضُ الْقَوَارِيرِ مِنْ أَعْيَانِ كَيَوَانٍ<sup>(٢)</sup>  
 خَلْنَا الظَّلِيمَ بِعِيرًا عِنْدَ نَهْضَتِنَا وَالتَّلَّ مِنْبَطِحًا فِي قَدِّ ثَهْلَانٍ<sup>(٣)</sup>  
 وَاسْقِنِي حَتَّى تَرَانِي أَحْسِبُ الدَّيْكَ حِمَارًا<sup>(٤)</sup>

إِشْرَبْ - فِدَيْتُكَ - وَاسْقِنِي حَتَّى أَنْامَ مَكَانِيهِ  
 وَنَدِيمٍ لَمْ يَزَلْ سَاقِينَا وَعَلَى الصُّبْحِ مِنَ اللَّيْلِ إِزَارُ  
 فَاحْتَسَى حَتَّى تَوَلَّى لِيْلَهُ وَكَسَاهُ الصُّبْحُ ثَوْبًا مَا يُعَارُ  
 فَتَغَشَّاهُ كَرَاهُ فَهَذَى سَاعَةً ، ثُمَّ تَغَشَّاهُ الْخُمَارُ  
 فَاسْتَوَى - كَالصَّقَرِ - مِنْ رَقْدَتِهِ يَنْفُضُ الرَّأْسَ وَمَا فِيهِ غُبَارُ  
 وَمُسْتَطِيلٍ عَلَى الصَّهْبَاءِ بَاكَرَهَا بِفَتِيَةٍ بِاصْطِبَاحِ الرِّيحِ حُذَاقٍ  
 فَكَلَّ كَفٍ رَأَاهَا ظَنُّهَا قَدْحًا وَكَلَّ شَخْصٍ رَأَاهُ ظَنُّهُ السَّاقِي  
 حَتَّى حَسَاهَا ، فَلَمْ يَلْبَثْ وَمَا لَبِثَتْ أَنْ خَرَّ مَيِّتًا صَرِيحًا مَا لَهُ رَاقٍ  
 كَأَنَّمَا الشَّرْبُ بَعْدَ هَذِهِ صَرَعَى تَمَادَى بِهِمْ كَلَالٌ<sup>(٥)</sup>

(١) عب البحر : كثر موجه وارتفع . (٢) كيوان : زحل (فارسية) .  
 (٣) الظليم : ذكر النعام . ثهلان : جبل في نجد . (٤) قال الأعشى :  
 شربت الراح بالقلتين حتى حسبت دجاجة مرت حمارا  
 (٥) الهده : اهزيع من الليل .

فلم نزل والصَّبوحُ يأخذُنا والكأسُ تجري هُناك نَجْراها  
حتى رأيتُ الغزالَ مُنْجِداً تَصُكُّ يُمْنِي يَدَيْهِ يُسْراها

ونَدِيمٍ مُساعِدٍ غيرِ نِكْسٍ حيثُ مامِلتُ مالَ مَعَكَ تَمِيلاً<sup>(١)</sup>  
رَنَحَتُهُ الكُؤُوسُ بالصَّرْفِ حتى خَرَّ منها على الجبين تَلِيلاً<sup>(٢)</sup>

صَهْبَاءُ تَفْتَرِسُ النُّفُوسَ فما ترى منها بهنَّ سوى السُّبَاتِ جِراحا

دَعُ ذَا — عَدِمَتَكَ — واشربْها مُعْتَقَةً صفراءُ تَفَرِّقُ بينَ الرُّوحِ والجَدَنِ

فَأَسْقِيهِ إِلَى أَنْ مَاتَ سُكْراً ولم يُدْفَنْ — وَعَيْشِكَ — في ضَرِيحِ

والقارى لهذا الشعر ، في وصف ما يعرض للسكرارى من أحوال السكر ،  
يخرج ولا ريب بأن الشاعر من الوصافين المحققين ، ينقل الواقع فلا يخرم منه  
حرفاً ولا يخلّ بدقيقة . بيد أن القارى لا يلبث كذلك أن يقع في ذهنه ويهيجس  
في صدره أن شاعرنا — وهو غير متهم في صدق وصفه — متهم في هوى نفسه ؛  
فهو يفيض على تصويره للسكرارى من عطفه عليهم ، ومشاركة شعوره لهم وحبه  
لحلمهم ، ما يجعل المنظر غير مستكره ولا مستنكر بالقدر الذى كان به حريّاً . بل  
أكبر الظن أن القارى لو سها عن إرادته ، ومقتضيات خلقه ومواضع بيئته ،  
لوجد للمنظر الموصوف في قلبه خفة ولطافة وأنساً .

ولقد أراد الزّواة أن يمثّلوا لنا كثرة إدمان أبى نواس للشراب والسكر ،  
فزهوا أنه رأى رجلاً سكران ، فصار يعجب منه ويضحك . فقل له :

(١) النكس : الجبان . الميل : الميل . (٢) تليلاً : صريباً .



« ما يضحك وأنت كل يوم مثله؟! » . قال : « ما رأيت سكران قط » . قيل له : « وكيف ذلك ؟ » . قال : « لأنى أسكر قبل الناس ولا أفيق إلا بعدهم ، فلا أعلم حال السكرى بعدى » .

وليس عندنا أدل على المبالغة فى هذه الرواية من كثرة ما أوردناه من وصف للسكرى ، وهو قليل بالقياس إلى ما فى ديوانه ، بل إننا لنجد لكثرة من عرف منهم ، وما عاين من حال سكرهم ، يبذل النصيحة أحياناً للزملاء السكرام من شاربى المدام ، ينبههم لما يرى فيه رشدهم ، ويبصّرهم عواقب أمرهم :

إحذر - فديت - كثيرة ، فكثيره . مَرَجْ عَلَيْكَ لَمَرَّكَ الشَّيْطَانِ  
إِنِّى بَعِىنِى أَنْ أَرَاكَ جَنِيَّةً بَعْدَ الْعِشَاءِ تُقَادُ بِالْأَشْطَانِ  
وَأَرَاكَ قَدَّامَ الصَّغَارِ كَبُومَةٍ عَمِيَاءَ وَسَطَ جَمَاعَةِ الْغُرَبَانِ  
سَكْرَانُ يُنْشِدُ فِى الطَّرِيقِ « أَلَا أَلَا » غَلَبَ الْغَرَامُ وَبُحْتُ بِالسَّكْمَانِ »

وما من شك فى أن أبانواس كان من أشد الشاربين احتمالاً للشرب ، حتى كان يمضى فيه بعد إمساكهم ، وكانت تمتد يده بعد اشتغاف كأسه إلى كأساتهم ، ليظهر لهم مبلغ احتماله ، ويظفر منهم بالإعجاب والتحية :

ما زلتُ أَشْرَبُ كَأْسَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ عَمْدًا ، وَمَا بَى عَجْزَةُ النَّشْوَانِ  
لَأَنَالَ مِنْهُمْ عِنْدَ ذَاكَ تَحِيَّةً إِمَّا بِوَجْهِهِ أَوْ بِطَرْفِ بَنَانِ

وهو يشير فى أكثر قصائده إلى مصارعهم حوله ، وكيف أنه كان يحركهم ويجهد ما استطاع فى تنبيههم ، ويبذل الوسادة لمن أعياه تنبيهه منهم . بل كثيراً ما يتعدى هذا المألوف الفاتك حدّ الأدب ، إلى الجهر بما يكون بينه وبين صرعى

السكر من الغلمان والجواري الحسان ، وقد أمكنته الفرصة منهم على هذه الحال ،  
كأنها غير ممكنة مع أمثالهم في جميع أحوالهم :

ومُعْتَدٍ بِالذِي تَحْوِي أَنَامِلُهُ      من كَأْسٍ مُنْتَخِبٍ لَمْ يَثْنِ الْمَلَلُ  
لَكِنْ تَحَاجَزَ عَنْهَا أَنْ تُعْجِزَهُ      بَيْنَ النَّدَامَى فَلَا عُذْرَ وَلَا عِلَلُ  
نَبْهَتْهُ بِمَدِّ مَا حَلَّ الرُّقَادُ لَهُ      عَقْدًا مِنَ الشُّكْرِ ، إِلَّا أَنَّهُ نَمِلُ  
فَقُلْتُ : « كَأْسُكَ خُذْهَا » قَالَ مُتَحَبِّزًا      « حَسْبِيَ الَّذِي أَنَا فِيهِ أَيُّهَا الرَّجُلُ »  
ثُمَّ اسْتَدَارَ بِهِ سُكْرُهُ فَالَّالَ بِهِ      فَقُمْتُ أَسْعَى إِلَيْهِ وَهُوَ مُنْجَدِلُ  
قَدْ دَبَّتِ الْخُرُ سِرًّا فِي مَفَاصِلِهِ      فَمَاتَ سُكْرًا ، وَلَكِنْ حَاطَهُ الْأَجَلُ  
فَلَمْ أَزَلْ أَتَقَدَّاهُ وَأَرْفَعُهُ      عَنْ وَهْدَةِ الْأَرْضِ ، وَالنَّشْوَانُ مُحْتَمِلُ  
حَتَّى أَفَاقَ ، وَثُوبُ اللَّيْلِ مُنْخَرِقٌ      وَغَارَ نَجْمُ الثَّرِيَّا وَاعْتَلَى زُحَلُ

وَمَتَرَفٍ عَقْلُ الْعُقَارُ لِسَانَهُ      فَكَلَامُهُ بِالْوَحْيِ وَالْإِيمَاءِ<sup>(١)</sup>  
لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى الْكَرَى فِي عَيْنِهِ      قَدْ عَقَّدَ الْجَفْنَيْنِ بِالْإِغْفَاءِ  
حَرًّا كَتَهُ بِيَدِي ، وَقُلْتُ لَهُ « انْتَبِهْ »      يَا سَيِّدَ الْخُلَطَاءِ وَالنَّدَمَاءِ  
حَتَّى أَزِيحَ الِهْمَّ عَنْكَ بِشْرِبَةٍ      تَسْمُو بِصَاحِبِهَا إِلَى الْعَلِيَاءِ  
فَاجَابَنِي - وَالشُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَهُ      وَالصُّبْحُ يَدْفَعُ فِي قَفَا الظَّلَامِ -  
« إِنِّي لِأَفْهَمُ مَا تَقُولُ ، وَإِنَّمَا      رَدَّ التَّعَافَى سَوْرَةَ الصَّهْبَاءِ »

وَلَمْ أَزَلْ بِالرُّقَى أَعْلَلُهُ      حَتَّى انْجَلَى عَنْهُ عَارِضُ الْوَسَنِ

وغزالٍ عاطيته الكأسَ حتَّى      فترت منه مُقلّةً ولسانا  
قال : « لا تُسكِرنّني بحياتي »      قلتُ : « لا بدّ أن ترى سكرانا  
إنّ لي حاجةً إليك إذا نمت      مت ، فإن شئت فاقضها يقظانا »

ناولُ نديمي يُوسُفا      خمرًا عُقارًا قَرَقَفَا<sup>(١)</sup>  
غُصْنًا تَدْنِي أَهْيَفا      أَنَحَلْ جِسمي دَنَفَا<sup>(٢)</sup>  
كفرة الشَّهر إذا      شَهْرُ بدا مُنَصَّفا  
حتّى إذا دار الكرى      في مُقلتيه وغفا  
قَبَلْتَه عَشْرًا على      عَشْرٍ ، وعَشْرًا مَلَفَا

### شاعر الخمرات

ولقد تفنن شاعرنا أبو نواس في نعت الخمر حتى افتتن بنعته لها من يعاقرها، ومن لا يعاقرها . ولم يكن شاعرٌ في عصره إلّا يحسده . وكان شاثوه يتعرضون لكل معنى من معانيه بالتزييف والتسخيف ، وإلا فبالتنسيق والتكفير ، وإلا يكن هذا ولاذاك فبالقول بانتحاله ومسرقة ؛ كما تجاوز بعضهم المعنى إلى المبنى ، فأكثرُوا من تلحينه . ولو أنصفوا لقالوا مقالة ابن قتيبة : « وقد كان يلحن في أشياء من شعره لا أراه فيها إلّا على حُجّةٍ من الشعر المتقدم وعلى علة بينة من علل النحو » . على أن جُلّ علماء اللغة والأدب مع تعصبهم للمتقدمين كانوا يرفعونه إلى مواضعهم في نعت الخمر ، لإجادته وبلوغه غاية الإحسان في ذلك . فكان أبو عمرو إسحق الشيباني يقول : « أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نواس » . وكان بعضهم مع ذلك لا يملك من شدة رسوخ العصبية للأوائل الذين

(٢) الدنف : المرض المخامر .

(١) الفرقف : من أسماء الخمر .

سبقوا وتقدمت بهم أزمانهم، إلا أن يظهر أسفه مخلصاً أن أبا نواس الذى يجاريهم ولا ينحط عن درجتهم لم يتقدم به زمنه ليكون منهم . وقد قال كلثوم العتابي لرجلين تناظرا فى شعر أبى نواس : « والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فضل عليه أحد » . وكان أبو عبيدة يقول : « أبو نواس فى الحديثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين » . ثم يعود إلى ذلك بالتوضيح والتفصيل فيقول : « ذهب اليمين بمجد الشعر وهزله : امرؤ القيس بمجده، وأبو نواس بهزله » . ويروى أن بعض المتأدين لحظوا على ابن الأعرابى اللغوى فى بعض زياراته أنه يحمل فى كفه صحيفة لا تفارقه، فأحبوا أن يلقوا عليها . فدخل يوماً إلى التهيأ وترك صحيفته تلك فى مجلسه . فنظروا فيها فإذا بها كثير من شعر أبى نواس فى الخمر، وكانوا إذا ذكروا أبا نواس بحضرته استخف به وبذكره . فلما عاد إلى المجلس أعادوا عليه ذكره — وعرف ابن الأعرابى فى وجوههم وقوفهم على ما فى الصحيفة — فقال : « أوقرائتم الصحيفة ؟ » قالوا : « أجل ! » وعجبنا من إزرائك بأبى نواس مع تدوينك شعره » . فقال : « إنه من أشعر الناس . وما يمنعنا من رواية شعره إلا تبدله » . ولا يخدعنا هذا القول من ابن الأعرابى ، فإن هذا التبذل فى شعر النواسى كان من الأسباب التى حببته إلى نفوس القوم ، وبخاصة أهل الجدم منهم ، لما فيه من الترويح عنهم ، وإن كره بعضهم أن يظهر للناس بذلك . وقد روى عن الرياشى البصرى أنه حين خلا مجلسه ذات يوم قال للحسن بن على الرياحى : « أنشدنى قصيدة أبى نواس التى أولها ( أياً دارها بالماء حتى تلينها ) » . فقال الرياحى : « ما أحفظها » . فقال الرياشى : « ويحك ! بصرى ، شاب ، متأدب ، متغزل ، يُسأل عن شعر شاعرٍ مضره ، ورئيس عصره ، فيذهب عنه ! والله إني لفي سن جدك ، وإني لأفككه نفسى فى اليوم مراتٍ بها وبأشباهاها من شعره » .



ولقد كان الشاعر نفسه مدركاً لمكان القوة في شعره . سأل سليمان بن أبي سهل بن نوبخت : « ما الذى استُجيد من أجناس شعرك ؟ » . قال : « أشعاري في الخمر لم يُقَلْ مثلها ، وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعري ، إن لم يزاحم غزلى ما قُلتُه في الطرد » . يُضاف إلى ذلك ما جاء في رده على سؤال لأبي حاتم سهل السجستاني عن شعره أيضاً ، إذ يقول في ختام رده : « فأما الذى أفتن فيه وحدى وكله جدٌ ، فإذا وصفتُ الخمر » .

وكان أبو نواس يُجيد الشعر — على حدّ قوله — حين تكون نفسه طيبةً ، كأن يكون في بستانٍ مونق ، أو على حالٍ يرتضيها من صلةٍ يوصل بها أو وعدٍ بصلة . وشاعرنا يُقرّ على نفسه أنه قال وهو على غير هذه الحال أشعاراً لا يرضاها . ولم يكن أبو نواس في الشعر بالبطيء ولا السريع ، بل كان في منزلة وسطى . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه فيُسقط كثيراً منها ، ويترك صافيتها ، ولا يسره كلُّ ما يقذف به خاطره ، وكان يهيم الشعر في الخمر ، فلا يعملهُ إلا في وقت نشاطه .

ولعله قد اجتمع في شعر أبي نواس من أوصاف الخمر جملة ما يرد على الخاطر فيها من الأخيلة والمعاني ، ومنها — ولا مرأ — ماسبق إليه المتقدمون عليه ، وبخاصة الوليد بن يزيد الأمويّ . إمام شعراء هذه الطريقة في الخلعة والاستهتار باللذات والخمر ، والظهور بالزندقة والكفر ، والمجاهرة بهذا جميعه في الشعر ، ثم منها ما وقع لغيره من المحدثين ، ومنها ما لم يسبقه إليه أحد .

ولقد جرى نقاد العرب في استقراء معانيه واستقصاء مآتيها والرجوع بها إلى أصولها الأولى مجرام مع غيره . وكان الغالب على الناقد من أهل زمانه أن يتسهّل ويتشدّد على قدر مودته للشاعر وانعطافه إليه ومبلغ اشتراكه في المذهب والطريقة

معه ، ثم قد يكون ذلك في بعض الأوقات تبعاً لوَحْيِ الساعة من جهة انبساط النفس أو انقباضها وصفاء الخاطر أو تكدره ، وكثيراً ما يكون ذلك منه نحرّاً لهوى السادة في مجالسهم ، ونزولاً على ملابسات الحال ومقتضى المصلحة .

وأمثال هؤلاء النُقَّاد لا يُحصون كثرةً في كل زمان ومكان . نكتفي منهم بذكر كلثوم بن عمرو العتّابي الأديب الكاتب الشاعر — وكان منقطعاً للبرامكة أيام عزّهم ، ووُصف للرشيد وبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه ، ثم فسدت حاله معه بعد ذلك . وإلى القارئ حديثين عن موقفه من شعر أبي نواس .

حدّث عبدون الحرّاني قال : دخلت على طوق بن مالك ، وعنده العتّابي وعليه جبةٌ صوف وكساء صوف ، وفي يده دفتر . فرفع رأسه إلى فقال : « قاتله الله ، ما أشعره ! » . قلت « مَنْ يا أبا عمرو ؟ » . قال الذي يقول :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ      فَأَنْتَ كَمَا تُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُثْنِي  
وَإِنْ جَرَتْ الْأَلْفَاظُ مِنَّا بِمَدْحَةٍ      لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

قلتُ : « من هو يا أبا عمرو ؟ » . قال « أَوْ مَا تَعْرِفُهُ ! » . قلت « لا » . قال « الذي يقول . . . » وأنشد أبياتاً أخرى . ثم تكرر إنشاد الشعر والسؤال عن الشاعر حتى عرفه آخر الأمر أن الشاعر الذي يتغنّى بقوله ويلهج بفضله هو أبو نواس .

وحدّث الجاحظ قال :

كان كلثوم العتّابي يضع من قدر أبي نواس ، فقال له راوية أبي نواس يوماً :  
كيف تضع من قدر أبي نواس وهو الذي يقول :  
إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ      فَأَنْتَ كَمَا تُثْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُثْنِي

وإن جرت الألفاظ مناً بمدحةٍ لغيرك إنساناً فأنت الذي نعتي

فقال العتّابي : « هذا سرقة » . قال الراوية : « ممن ؟ » . قال . « من أبي الهذيل الجمحي » . قال الراوية : « حيث يقول ماذا ؟ » قال : « حيث يقول :

وَإِذَا يُقَالُ لِبَعْضِهِمْ نِعْمَ الْفَتَى فابْنُ الْمُغِيرَةِ ذَلِكَ النَّعْمُ  
عَقِمَ النِّسَاءَ فَلَا يَجْنُنُ بِمِثْلِهِ إِنْ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عَقِمَ »

قال الراوية : « فقد أحسن في قوله بنعت الخمر :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ »

قال : « سرقة أيضاً » . قال له : « ومن ؟ » . قال : « من شوشة الفقعسي » .

قال : « حيث يقول ماذا ؟ » . قال : « حيث يقول :

إِذَا مَا السَّقِيمِ حَلَّ عَنْهَا وَكَأْهَا تَصَعَّدَ فِيهِ بُرُؤُهَا وَتَصَوَّبَا »

وبقيا برهة يتناظران ، حتى سكت الراوية . قال الجاحظ « ولو أتى بشعره

كله لقال له سرقة » .

وقد كان شعراء العصر يتناشدون أشعارهم ، ويتناولونها فيما بينهم أحياناً بالنقد ، ويتلاحون على مواضع الإحسان والإساءة فيها . ولم يكن كلامهم في ذلك ملازماً للقصد والساداد كله ، بل كانوا — بما جُبِلَ عليه الشعراء من غلبة الحماسة على طباعهم وسرعة الاحتياج إلى شعورهم — لا يَحْلُون من الاعتساف والغلو في حالي الإنكار والإعجاب .

حدث ميمون بن هارون الكاتب :

اجتمع أبو نواس ومسلم بن الوليد يوماً . فقال له مسلم : « ما أعلم لك بيتاً

إِلَّا مَدْخُولًا مُفْغًا سَاقِطًا . فَأَنْشَدَنِي أُمِّي بَيْتَ مَنْ شَعْرَكَ « فَأَنْشَدَ أَبُو نَوَاسٍ  
إِنْشَادَ الْمَدِيلِ » :

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بِسُحْرَةٍ فَارْتَاحَا وَأَمَلَهُ دَيْكَ الصَّبَاحِ صِيَاحَا

فَقَالَ لَهُ مُسْلِمٌ : قَفْ عِنْدَ حُجَّتِكَ . لِمَ أَمَلَهُ صِيَاحًا ، وَهُوَ الَّذِي بَشَّرَهُ  
بِالصَّبُوحِ الَّذِي ارْتَاحَ لَهُ ؟ « . فَانْقَطَعَ أَبُو نَوَاسٍ انْقِطَاعًا بَيْنًا ، فَجَعَلَ الْجَوَابَ لَهُ  
مَعَارِضَةً فَقَالَ : « أَنْشَدَ أَنْتَ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ شَعْرِكَ . فَأَنْشَدَهُ مُسْلِمٌ :

عَاصَى الشَّبَابِ ، فَارَاحَ غَيْرَ مُفَنِّدٍ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلَّدٍ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ : « حَسْبُكَ حَيْثُ بُلِغْتَ . ذَكَرْتَ أَنَّهُ رَاحَ ، وَالرَّوَّاحُ  
لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْإِنْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ . ثُمَّ قُلْتَ ، وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلَّدٍ ،  
فَجَعَلْتَهُ مُنْتَقِلًا مُقِيمًا . وَقُلْتَ عَاصَى الشَّبَابِ ثُمَّ قُلْتَ وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلَّدٍ ،  
فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ مَعَ الْمَعَاصَاةِ ؟ « فَانْقَطَعَ مُسْلِمٌ . وَتَشَاغَبَا وَافْتَرَقَا . قَالَ مَيْمُونٌ  
« وَالْبَيْتَانِ جِيدَانِ بَدِيعَانِ ، وَلَكِنْ كُلٌّ مِنْ طَلَبِ عَيْبَاءٍ وَجَدَهُ » .

وَحَدَّثَ رَزِينُ الْكَاتِبِ :

كَانَ الْأَدَبُ يَجْمَعُنَا كَثِيرًا ، فَيُؤَنِّسُنَا التَّنَاشُدَ وَالْمَذَاكِرَةَ . فَاجْتَمَعْنَا يَوْمًا  
عِنْدَ أَبِي نَوَاسٍ ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ فِي رَهْجِ الْأَمِينِ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْبِدة ، وَفِينَا دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ  
وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَبُو الشَّيْصِ . فَلَمَّا كَادَتِ السَّكُورُوسُ أَنْ تَغْلِبَ الْعُقُولَ ، قَالَ  
أَبُو نَوَاسٍ : « قَدْ اتَّفَقَ اجْتِمَاعُنَا ، فَلَيْمَ لَا نَتَّعِمُ يَوْمَنَا بِمَا يَذْكُرُنَا بِهِ الْمُتَأَدَّبُونَ ؟ » . قُلْنَا لَهُ :  
« إِنَّهُ لِيَوْمٌ ذَاكَ » . فَالْتَفَتَ إِلَى مُسْلِمٍ فَقَالَ : « هَاتِ ، فَلَهُ إِحْسَانُكَ فِي الْإِجَابَةِ  
إِذَا نُوْدِيتِ . فَاخْتَرِ مِنْ شَعْرِكَ مَا شِئْتَ ، فَلَيْسَ مِنْ شَاعِرٍ إِلَّا هُوَ يَعْرِفُ حَبَّةَ



القلادة من شعره . فاستوى مسلم جالساً وقال : « ليست بك حاجة إلى مكائرتنا ، فقد علمنا أن معك من الكلام دُرَّةٌ وخالصَ جوهره . وإنما أردت إقرارنا لك بذلك ، فقد سلمنا لك » . فقال أبو نواس : « ما لهذا قصدتُ ، ولكنك تريد أن تتعالى علينا بجودة شعرك ، فامض لما اجتمعنا عليه ، فلن ندع مشاركتك في ذلك » . فابتدأ مسلم في قوله .

أَجَرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزَلٍ وَشَمَّرْتُ هِمَمُ الْعَذَالِ فِي عَذَلِي  
فلما انتهى إلى قوله

مُوفٍ عَلَى مُهَجٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْمَى إِلَى أَمَلٍ  
قال أبو نواس : « ما أراه يحىء بعد هذا الكلام ما يفي بوزنه » . ثم التفت إلى دعبل مازحاً فقال : « هات الآن ، فكأنني بك قد جئت بسقط شعرك :  
[ ضحك المشيبُ برأسه فبكى <sup>(١)</sup> ]

قال دعبل : « هو ذلك ، فتجاوزني إلى غيري » . فقال : « كلا ، فأين استلذاذ السمع بعدوبة جيد الكلام » . فجاء بها إلى آخر بيت . فقال أبو نواس :  
« أحسنت ملء فيك » . ثم التفت إلى أبي الشيص فقال : الضادية الضادية !  
فما خطر بخلدي قط قولك :

[ ليس المُقِلُّ عن الزمانِ براضٍ <sup>(٢)</sup> ]

إلا حرَّك مني ساكناً ، وإنما اخترتها استحساناً لها » . فقال أبو الشيص :

(١) البيت : لا تعجى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

(٢) البيت : لا تنكرى صدى ولا إعراضى ليس المقل عن الزمان براض

« لا أفعل ، فليست عندي عقدٌ دُرّ مفصل ، ولكن أكثر بغيرها من قولي » ،  
وأنشد :

وَقَفَ الهوى بى حيث أنتِ فليس لى مُتأخراً عنه ولا متقدماً

وذكر الأبيات . فقال أبو نواس : « أردتُ صرفك عنها فأبيت إلا أن تخلى  
سبيلك » . قال « فكيف ترى هذا الطراز » . قال « أراه نمطاً حسناً » . وانفتوا  
إلى ( إلى رزين الكاتب ) لأسمهم ، فأبيتُ وكنت أصغر القوم سنّاً ودونهم  
فى الشعر . ثم أقبلنا على أبى نواس نقول : « هيا يا أبا على » ، وقد انقدنا لك فى  
الطاعة » . فقال : « هو حقكم ، ولم تدخلوا فى شيء إلا وأنا شريككم فيه » ؛  
ثم احتبى بمنديل وأنشد :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هندٍ واشرب على الورد من سحراء كالورد  
كأساً إذا انحدرت فى حلق شاربها أجدهتُ سحرها فى العين والحدّة  
فالخرُّ يا قوتهُ ، والكأسُ لؤلؤةٌ فى كفّ جاريةٍ ممشوقةٍ القدّة  
تسقيك من عينها خمرأ ، ومن يدها خمرأ فمالك من سُكرين من بدّة  
لى نشوتانٍ ، وللندمانِ واحدةٌ شيءٌ خصصتُ به من بينهم وحدى

فلم نملك من الطرب أنفسنا ، فقمنا فسجدنا له . فقال : « أعلمتموها أعجمية !  
ألا والله لا أكلّم ثلاثاً ، وثلاثاً ، وثلاثاً » . ثم أطرق ملياً ، ورفع رأسه وقال  
« تسعة أيام فى مهاجرة الأخلاء والله كثير » . ثم التفت فقال : « أعلمتم أن حكيماً  
عتب على حكيم ، فكتب المعتوب إليه إلى العاتب : يا أخى . إن أيام العمر أقلّ  
من أن تحتمل الهجر » .

وكان من فحول شعراء العصر حسين بن الضحاك الخليع . ويذكر عنه أن له

معاني في صفة الخمر أبدع فيها وسبق إليها فاستعارها أبو نواس ، وأن له شعراً نادراً في نعتها نسبته الناس إلى أبي نواس . ومما حدث به حسين بن الضحاك في هذا الشأن قوله : [ أنشدتُ أبا نواس لما حججتُ قصيدتي في الخمر التي مطلعها :

بُدِّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ      وَمِنْ صَبُوحِ دَرِّ الْإِبِلِ وَالشَّاءِ <sup>(١)</sup>

فلما انتهيت منها إلى قولي :

حَتَّى إِذَا أُسِنِدَتْ فِي الْبَيْتِ وَاحْتَضِرَتْ      عِنْدَ الصُّبُوحِ بِيَسَامِينَ أَوْ كَفَاءِ  
فُضَّتْ خَوَاتِمُهُمَا - فِي نَفْتٍ وَاصِفِيهَا -      عَنْ مِثْلِ رَقْرَاقَةٍ فِي جَفْنِ مَرْهَاءِ

رأيت أبا نواس صُعِقَ صَعَقَةً أَفْزَعَتْنِي ، وقال : « أحسنت والله يا أشقر ! » . فقلت : « ويلك يا حسن ! إنك أفزععتني والله » . فقال : « بلى والله ، أنت أفزععتني ورُعتني ، هذا معنى من المعاني الذي كان فكري لا بد أن ينتهي إليها أو أغوص عليها وأقولها ، فسبقتني إليه واختلسته مني ، وستعلم لمن يروى ، لي أم لك » . فكان والله كما قال ، سمعتُ من لا يعلم يرويهاله ، ورأيتها في دفاتر الناس في أول أشعاره ] .

وشبيه بذلك ما يزعمه عبد الرحمن بن أبي الهداهد الشاعر . فقد أنشد لنفسه

هذه الأبيات :

وَشَاطِرٍ مَاجِنِ الشَّمَائِلِ قَدْ      خَالَطَ مِنْهُ الْمُجُونُ تَخْنِيتًا  
يَمِيلُ لِلْمَشْيِ فِي مَصْفَرَةٍ      تَحْكِي لَنَا الْجُلْنَارَ وَالتُّوثَا  
أَغْرَ يَحْكِي بِحُسْنِ مَنْطِقِهِ      دُرًّا بِقَطْعِ الْجَمَانِ مَبْثُوثَا

(١) الآء : من الشجر الدفلى وهو نبت زهره اعتيادياً كالورد الأحمر .

خُصَّ بِرَدْفٍ كَانَ مُزَرَّةً      عَلَى رُكَايِمٍ مِنَ النَّفَا لَيْثَا  
 أَلْتَفُّعُ، إِنْ قُلْتُ: «يَا فَدَيْتُكَ قُلْ:      مُوسَى» يَقُولُ فِي رَطَانَةِ «مُونَى»  
 مَا زَالَ حَتَّى الصَّبَاحِ مُعْتَنِقِي      مُطَارِحِي فِي الدُّجَى الْأَحَادِيثَا

فَقِيلَ لَهُ: «إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا لِأَبِي نَوَاسٍ». فَقَالَ: «فَأَبُو نَوَاسٍ بَيْنِي  
 وَبَيْنَكُمْ. فَوَاللَّهِ مَا غَلَبَنِي عَلَى غَيْرِ شَعْرٍ، وَمَا يَدَّعِيهِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ حَظَى أَنْ يُنْسَبَ  
 إِلَيْهِ كُلُّ إِجَادَةٍ وَمَلَا حَةٍ».

وَنِسْبَةُ هَذَا أَوْغِيْرُهُ مِنَ الْخَمْرِيَّاتِ وَالْمَجُونِ إِلَى أَبِي نَوَاسٍ إِنْ دَلَّتْ عَلَى شَيْءٍ.  
 فَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى غَلْبَةِ شَهْرَتِهِ وَعَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْعَارَ لَا تَعْلُو عَلَى طَبَقَتِهِ، فَهِيَ لَا تَقْدَمُ  
 وَلَا تُؤَخَّرُ مِنْ مَوْضِعِهِ.

وَأَمَّا الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَوْ ذَاكَ مِنْ شَعْرِهِ، قَدْ أَلْمَّ بَيْتَ فُلَانٍ،  
 وَنَظَرَ إِلَى قَوْلِ فُلَانٍ، وَأَخَذَ الْمَعْنَى مِنْ فُلَانٍ، فَهَذَا — عَلَى حَدِّ مَا يَقْرُرُهُ صَاحِبُ  
 الْعُمْدَةِ وَسَائِرِ النُّقَادِ — بَابٌ مَتَسَعٌ جَدًّا لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَنْ  
 يَدَّعِيَ السَّلَامَةَ مِنْهُ.

ذَكَرَ حُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ أَنَّهُ حَبِجٌ فَلَقِيَ أَبَا نَوَاسٍ — بَعْدَ مَنْصَرَفِهِ مِنْ عِنْدِ  
 الْخَصِيبِ أَمِيرِ مِصْرَ — بِمَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ وَهُوَ يَطُوفُ. فَسَأَلَهُ النَّوَاسِيُّ عَمَّا أَحْدَثَ  
 بَعْدَهُ؛ فَأَنْشَدَهُ ابْنُ الضَّحَّاكِ:

وَشَاطَرِيَّ اللَّسَانَ، مَخْتَلَقِي      تَكْرِيهِ، شَابِ الْمَجُونِ بِالنَّسْكِ  
 كَأَنَّمَا نُصِبَ كَأْسُهُ قَرُّ      يَكْرَعُ فِي بَعْضِ أَنْجَمِ الْفَلَكَ

فَلَمْ تَمُضْ أَيَّامٌ حَتَّى أَنْشَدَهُ أَبُو نَوَاسٍ فِي قَصِيدَةٍ مُسْتَحْدَثَةٍ مِنْ خَمْرِيَّاتِهِ:  
 إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ خَلَّتْهُ      يَقْبَلُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ كَوَكْبَا



فقال له ابن الضحاك وقد ساءه أن يُغار على معناه : « يا أبا عليّ ، هذه مُصالته <sup>(١)</sup> » . فقال النواصيّ ضاحكاً : « أتظن أنه يروى لك في الخمر معنى جيد وأنا حيّ ! » .

ولقد تداول الناس من بعدهما المعنى ، ومنهم ابن الرومي في قوله :  
فكأَنَّهَا وَكَأَنَّ شَارِبَهَا قَمَرٌ يَقْبَلُ عَارِضَ الشَّمْسِ

ولقد قيل : إذا كان اتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجزاً ، فإن تركه كل معنى سبق إليه أفنّ وجهلّ ، ما دام يتصرّف في لفظه ويزيد في معناه . ومن كلام ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء : « كان الناس يستجيدون قول الأعشى

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

إلى أن قال أبو نواس

دع عنك لومي ، فإن اللوم إغراه وداوني بالتي كانت هي الداء

فزاد فيه معنيّ ، اجتمع له به الحسن في صدره وفي عجزه . فللأعشى فضل السبق إليه ، ولأبي نواس فضل الزيادة عليه » .

وقال عليّ بن العباس الكوفي الشاعر [ كنت عند أبي جعفر محمد بن حبيب ، فجرى ذكر الشعراء ، فذكر الناس شعراء الجاهلية : امرأ القيس وطرفة والأعشى ، فجعلوا يقدّمونهم ، وذكروا شعراء الإسلام فقدّموا جريراً والفرزدق ، وأنا ساكت . فقال لي : « يا أبا الحسن ، لم لا تتكلم ؟ » . فقلت : « أذكر لكم رجلاً

(١) المصالة : أن يأخذ الشاعر بيتاً لغيره بلفظه ومعناه .

أشعر من هؤلاء ؟ » فقالوا : « من هو ؟ » . فقلت : « أبو نواس » . فقالوا :  
« أولئك جاءوا إلى المعادن فاقتلعموها » . فقلت لهم : « فأيما أشعر ، مَنْ جاء  
إلى المعادن فاقتلعمها بتربها وتبرها ، أو مَنْ خلصها وخلص التبر من التراب ؟ ! » [   
ومما يؤثر في هذا الشأن قول الجاحظ : « نظرنا في الشعر القديم والحديث ،  
فوجدنا المعاني تُقلب ، وبعضاً يأخذ من بعض . وقلَّ معني من معاني الشعر  
القديم تفرّد بإبداعه شاعر إلا رأيت من الشعراء من زاحمه فيه واشتق منه شيئاً » .  
ولم يستثن الجاحظ إلا القليل النادر من أقوال المتقدمين والحديثين . وقد ضرب  
لذلك مثلاً من شعر عنتره ، ومثلاً من شعر أبي نواس . والأبيات التي اختارها  
الجاحظ لأبي نواس في الطبقة الأولى من غرر الشعر العربي ، وعلى ذلك اجتمع  
رأى نقادهم أجمعين . وكان الشاعر قد مرّ بالمدائن ، دار ملوك الفرس الساسانيين ،  
وفيها إيوان كسرى ، فعدل وصحبه إلى ساباط يشربون في مكان حسن ، وكان  
فيه آثار تدلّ على اجتماع لقوم من الفرس قبلهم . فأقاموا خمسة أيام يشربون  
هناك بين آثارهم على مشهد من أطلال الإيوان العظيم الشاهد على عظمة  
الأكاسرة وحضارة فارس . وفي صفة هذه الحال قال الشاعر أبياته :

ودارٍ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا	بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزُّقَاقِ عَلَى الثَّرَى	وَأَضْفَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابِسُ <sup>(١)</sup>
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَدْتُ عَهْدَهُمْ	وإني على أمثال تلك الخائِسُ
وَلَمْ أَدْرِ مَنْ هُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ	- بِشَرْقِ سَابَاطٍ - الدِّيارُ البَسَابِسُ <sup>(٢)</sup>
أَقْنَا بِهَا يَوْمًا ، وَيَوْمَيْنِ بَعْدَهُ ،	وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ

(١) أضفناث : جمع ضفث ، قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس .

(٢) البسابس : جمع بسبس ، القفر الخالي .

تُدار علينا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ  
قَرَارَتِهَا كَسْرَى ، وَفِي جَنْبَاتِهَا مَهَى تَدْرِيهَا بِالْقِسَى الْفَوَارِسُ<sup>(١)</sup>  
فَللْخَمْرِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ<sup>(٢)</sup>

وقبل أن ندع مشكلة المعاني وأصحاب عُذْرَتِهَا وما يقال في حق انتحالها  
وحقيقة نسبتها نقول إن الناقد يعدو مفصل الصواب إذا هو نسب هذا كله إلى  
تعمد الشعراء لانتحال المعاني بعضهم من بعض . فإن الأمر — مع ما قيل فيه  
من الرخصة والتجوز — قد يكون أعمق من هذا أحياناً وأفسح . فاشتراك المعاني  
قد يكون مردّه في بعض الأحوال وحادّة الشعور الإنساني ، كما يتبين ذلك من  
دراسة الأدب المقارن في شتى اللغات ، لمختلف الأمم ، في سائر الزمان والمكان

### خمریات وخمریات : « النواسی والخیام »

وليس يسع الكاتب في هذا المقام إلا أن يستطرد به الكلام إلى مقابلة موجزة  
بين خمریات شاعر العراق أبي نواس وخمریات شاعر الفرس عمر الخيام .

والقارئ لخمریات الشاعرین يجدّها صادرین عن شعور واحد ، ظلّ وسواس  
نفسهما ، ملازماً طوال الحياة لهما ، قد ملك مذهب الشعور والتفكير من جميع  
أقطارها عليهما : وذلك شعورهما بالموت ، بالموت غاية كل سعى ، وهالة كل  
مجد ، ومآل كل حُسن ، ونهاية كل حي .

وحسبنا من أبي نواس أبيات هذه المشهورات ، فإننا لا نعاود قراءتها ، حتى

(١) يدري : يختل على غرة وتحين غفلة . ومعناه أن كسرى مصور في أسفل الكأس  
وقرارها ، وفي جوانبها صور الفوارس . (٢) معناه أنهم صبوا الخمر في الكأس صرفاً  
إلى مواضع النحر من الفوارس المصورة ، وصبوا الماء في مزجها حتى علا زهوها .

نفس مبلغ شعوره الأليم بحكم الغناء المسلط على الأحياء من هذا التكرار  
القاج لكلمة « في التراب » مراتٍ متتاليات :

أَيَارُبَّ وَجْهِ — فِي التُّرَابِ — عَتِيقٍ      وَيَارُبَّ حُسْنٍ — فِي التُّرَابِ — رَفِيقٍ  
وَيَارُبَّ حَزْمٍ — فِي التُّرَابِ — وَنَجْدَةٍ      وَيَارُبَّ رَأْيٍ — فِي التُّرَابِ — وَثِيقٍ  
أَلَا كُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكٍ      وَذُو نَسَبٍ فِي الْمَالِكِينَ عَرِيقٍ  
فَقُلْ لِقَرِيبِ الدَّارِ إِنَّكَ ظَاعِنٌ      إِلَى مَنْزِلٍ نَأَى الْمَحَلِّ سَحِيقٍ  
إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكشَفَتْ      لَهُ عَنْ عُدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

ولعمَرَ الخِيَامِ في مثل هذا المعنى رباعيات كثيرة ، ولكننا نؤثر عليها هذا  
الرباعي ، مخاطبنا فيه خطاب الشاعر الفلكي ، وهذه ترجمته له :

أَصْعَدْتُ فِي الْفَلَكِ الْأَعْلَى وَلَمْ أَرْلِ      وَجُزْتُ أَطْبَاقَهُ حَتَّى ذُرَيْ زُحَلِ  
وَكَمْ حَلَّتْ لَدَى الْمِرَاجِ مِنْ عُقَدٍ      أَعْيَابُهَا الْفِكْرُ ، إِلَّا عُقْدَةُ الْأَجَلِ

والقول بأن الحياة وشبكة الزوال دانية الأجل ، وأن الدنيا — على حد تعبير  
سليمان الحكيم — قَبْضُ الرِّيحِ وباطل الأباطيل ، قولٌ لا اختلاف عليه ، وإن  
تفاوتَ الناسُ في الشعور به قوةً وضعفاً . وقد يختلف الناس في كل شيء إلا أن  
الموت حق . فتلك أولى الحقائق القائمة في بدائه العقول لوقوع المشاهدة عليها  
كل ساعة منذ أول الخلق . وإنما يرد الخلاف على الناس في المسلك حيال هذه  
الحقيقة . والناس في ذلك فريقان ، يتصرف كل فريق على مقتضى غرائزه وطبيعة  
مزاجه وتركيب بنيته وملابساته حاله .

فئة فريق يرفضون هذه الدنيا الباطلة الزائلة ، ويعرضون عن زخرفها وزينتها ،  
ويزهدون في متاعها ولذاتها . وفي هذا الرفض نفسه يقول زعيمهم أبو العلاء المعري :



ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عنى خفسه

والفريق الآخر يرون الإفادة من الموجود ، ومبادرة المتعة به قبل أن يغيبوا في الملحود . ومن هؤلاء من تبلغ بهم ملازمة الشعور بالموت الراسد للحياة أن يقولوا في وصفهم متاعاً من المتع قول ابن الرومي في ختام وصفه للعنب الرزقي ومغالاته بحسنه وطيبه :

تَعَلَّةٌ من يومنا المنظورِ ومُتَعَةٌ من مُتَعِ الغرورِ  
وفي طليعة هذا الفريق الأبيقوري وعلى رأسهم غير مدافع شاعر العراق أبو نواس ، وفي الرعييل الأول منهم شاعر فارس عمر الخيام .

ويتلخص موقف النواصي في قوله :

أمرُ غدٍ أنتَ منه في لبسٍ وأمسُ قد فات ، فالهُ عن أَمْسٍ  
فإنما العيشُ عيشُ يومِكَ ذَا فباكِرِ الشمسِ بابنةِ الشَّمْسِ  
رأيتُ اللَّيالي مُرَصَّدَاتٍ لِمُدَّتِي فبادرتُ لَذَاتِي مُبَادِرَةَ الدَّهْرِ

ومثله قول الخيام في أكثر من رباعية ما ترجمته :

إيه دَعْنِي أَغْنِمِ هَذَا اللَّدى قبل أن يُطوى تُرابي في التُّرى  
حيثُ لا خمرٌ ، ولا شَدْوٌ ، ولا قَيْنَةٌ ، كلاً ، ولا مِن مُنْتَهَى !<sup>(١)</sup>

ومع هذا الاتفاق في موقف الشعارين من التهافت على اغتنام فرص الحياة ومبادرة اللذات ، فإن القاري حين يقرأهما لا يخطئ أن يُحس بفارق بين خمريات وخمریات .

فنحن في خمریات أبي نواس نلقى صاحب خمر يشرب الخمر للخمر : ولا شك في أنه قد لقي من ظروف نشأته وملابسات حياته ما قد يحفز إلى طلب الشراب

(١) الترجمة للأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازني عن الترجمة الإنجليزية لفرنجيرالد .

ونشدان سكرته ، ولكن أبا نواس كان مع ذلك أقرب ما يكون إلى السكير بمولده وطبيعته . ولسنا في حاجة إلى القول إنه لم يكن من السكارى الغلاظ الحس ، الجامدى الطبع ؛ فهو على النقيض من ذلك معروف مشهور بأنه من أطف الخلق ظلاً ، وأخفهم روحاً ، وأذكاهم فؤاداً ، وألمهم ذهنًا ، وأرقهم حساً .

وأما خريات الخيام فتتمثل من قراءتها الرجل الذى أخذ على نفسه تحصيل العلوم من رياضيات وطبيعيات وفلسفة ونجوم ، وشقّ على نفسه فى استقصاء أطرافها والإحاطة بأصولها وفروعها . فلما تم له ذلك كله ، أراد أن يواجه المسائل الكونية الكبرى على هديها ، فخاب أمله فيها ولم تُغن فتيلًا . فهو حين يعاقر الخمر ويتغنّى بها كمن يحاول تسكين ثورة النفس عن طريق إشباع شهوات الحس . والقارئ له لا يخطئ أن يلمس وراء منادىته وسكره يأس للفكر وعريضة الفكر :

خُضْتُ فى عهدى غَمَارَ الجَدَلِ      وسمعتُ الشَّيخَ والقُطْبَ الوَلِى  
غَيْرَ أَنِّى كُنْتُ أُنِّى أَبَدًا      تَخْرَجِى - بعدَ عَنَائِى - مَدْخَلِ

كم بذرنا حكمة العقل سواء      ونعمَّدتُ بكفى النَّماءِ  
فتأمل ! ها حصادى كله :      جئتُ كالماءِ وأمضى كالهواءِ

يا أُخِلَّائِى لقد كنتمْ شهودى      حين دار القَصْفُ فى عُرسِ الجديدِ  
طلَّقَ العقلُ عقيمًا وغَدَّتْ      بنتُ هذا الكَرَمِ زَوْجِى وعَفِيدِ<sup>(١)</sup>

وليس يخلو شعر أبى نواس مما يحده قارئ الخيام من ذلك المزاج العجيب من

(١) الترجمة للأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى عن الترجمة الإنجليزية لفرزجيرالد .

الشك والسخر ، ولا من تلك اللوحات الخاطفات هنا وهناك من الإنكار المر ،  
ولكن ذلك أظهر في الخيام ، بل هو طابع رباعياته . وقد ساعد بنيان الرباعية  
المحدود المتبلور على إظهار هذا الطابع وإبراز معالنه .

والرأى عندنا بعد ذلك في الخمریات عموماً أن شعراء العربية وعلى رأسهم  
أبو نواس لم يُدرك شأوهم ولم يبلغ مبالغهم شاعرٌ سابق أو لاحق في أية لغة ،  
ولا يُظن أنه يوجد لهم نظير في مستأنف الدهر .

طرفان متضادان : « النواسي والمعري »

وإذا كنا قد وجدنا لأبي نواس شبيهاً في عمر الخيام من بعض الوجوه ، فإنه  
من تمام البيان أن نقابل بينه وبين نقيض له من جميع الوجوه ، جرياً على الحكمة  
القائلة « وبضدها تتميز الأشياء » . ومن ذا يكون هذا النقيض لأبي نواس غير  
شاعرنا الفيلسوف أبي العلاء ؟

فعلى قدر تهافت النواسي على الحياة كان ضجر المعري منها . وعلى قدر شكوى  
النواسي من قصر الأجل كان المعري يشكو تطاوله :

رَبِّ ! متى أَرْحَلُ عن هذه الدُّنيا ، فَإِنِّي قد أَطَلْتُ المُقَامَ  
والعِيشُ سُقْمٌ للفقى مُنْصِبٌ والموتُ يَأْتِي بِشِفاءِ السَّقَامِ

وقد كثر من أبي نواس التبرم بهذه الحال أو تلك من ملابسات الحياة .  
أما أبو العلاء فكان تبرمه بالحياة نفسها ، فهو يتعجل مُقَدِّم الموت ويتطلع  
إليه كما يتطلع العاني إلى الخَلاص الحبيب ، وإنه ليقسم لو بقي له حس ساعة الموت  
لاستعذبه :

ولو كان يَبْقَى الحِسُّ في فَمٍ مَيِّتٍ لَأَلَيْتُ أَنَّ الموتَ في الفمِ أَعَذَّبُ

وقد كان أبو نواس يفكر في الموت إشفاقاً منه على نفسه ، وأما أبو العلاء فكان مستغرقاً بشعوره وتفكيره في الفناء الشامل الذي يتناول كل شيء .

زُحِّلْ أَشْرَفُ الْكَوَاكِبِ دَاراً      من لقاء الردى على ميعادٍ  
ولِنَارِ الْمَرِيخِ مِنْ حَدَثَانِ ۝      دَهْرٌ مُطْفِئٌ وَإِنْ عَلَتْ فِي انْتِقَادِ  
وَالثَّرِيَّا رَهِينَةٌ بِافْتِرَاقِ ۝      شَمْلٍ حَتَّى تُعَدَّ فِي الْأَفْرَادِ  
وأعظم من هذا جميعه خطراً وأخص معنى أن هذى الحياة التى كان يجدها  
النوامى نعمة كان أبو العلاء يجدها نقمة وأى نقمة ، ويعدها شراً وأى شر . وليس  
شرها بالعرض العارض ، بل هو شر فى الصميم والجوهر . وتظهر هذه الحقيقة  
عارية فى حينها صرحت الطبيعة واختفى الرياء . وهى من أجل ذلك أظهر  
ما تكون فى الغابة . فإذا تأملنا شريعة الغابة فقد كشفنا القناع عن شريعة الحياة .  
وهنا يضرب لنا الشاعر هذا المثل بالذئاب تفترس الشاء ، ليقرر لنا فى غير خفاء  
أنه لا معدى للذئاب الجماعة من ذلك إذا أرادت البقاء ، وأن كلا الاثنين شقي  
معذب قمين بالزناء :

ولو علمتم بداء الذئب من سغبٍ      إذاً لساحتُمُ بالشاة للذئبِ

وهذه العقيدة الراسخة بأن الشر موجود ضرورةً فى طبيعة الأشياء ، تجعل  
الشاعر الفيلسوف يائساً كل اليأس من صلاح العالم وتقدمه . فالرجل متشائم  
ولا خلاف على تشاؤمه . ولو أن العيب الذى ينهه كان فى هذا النظام  
أو ذاك من النظم الاجتماعية أو غيرها من المواضع لكان الرجل أقل تشاؤماً .  
ولكنها طبيعة الحياة التى لا تبدل لها . فالعالم داؤه فى رأى هذا المتشائم العظيم  
داه عياء ، وليس يصح أن يتعلق باستصلاحه رجاء ، ولا لوم من هذا  
بلحق بالأحياء :



والشرُّ طَبِيعٌ، وقد بُثَّتْ غَرِيزَتُهُ مَقْسُومَةٌ بين أنواعٍ وأجناس

وجِبَلَةُ الناس الفسادُ فَضْلٌ مَنْ يَسْمُو بِحِكْمَتِهِ إِلَى تَهْذِيبِهَا  
ولقد كان أبو نواس ينتهز فرص الحياة فيبتدر لذته ، قبل أن يستوفي من الحياة  
مدَّته . وقد كان يصح لأبي العلاء كذلك أن يتعامل في هذه العاجلة بالذات  
شأن الكثيرين مثله من المتشائمين . والتشاؤم غير مانع من ذلك من حيث هو  
مذهب فكري لا مسلك خلقي . ولكن أبت ذلك على الرجل كبرياؤه وأنفته ،  
فما تعدوا لذات الدنيا عند عامة الناس شهوة المَطْعَمِ والنكح ، وهي لذات غير  
جديرة أن يحيا مثله من أجلها :

أَفَ لَهَا ، جُلُّ مَا يُفِيدُ بِهَا مَنْ فَازَ فِيهَا : الطَّعَامُ وَالْبَاءُ

وأما « خيار اللذات » التي سبقت إليها إشارته ، وهي اللذات الروحية العالية  
التي كان ربما وجد العزاء فيها ، فقد خذلته ، أو على حد قوله « خنسها » .  
وأبو العلاء كان جديراً بالأنس بالناس والاستمتاع بلذة الحديث إليهم ومطارحتهم  
والمحاورة لهم ، وهي لذة لا تعدلها عند أهل الفكر لذة . ولكنه جاء متقدماً على  
عصره ، فلم تقع بينه وبين أهل زمانه ألفة في التفكير والشعور ، حتى احتاج أن  
يصطنع في خطابهم المجاز والمداراة أخذاً بالتقية وحذراً من الوشاية وتوقياً للأذى .  
وكان كلما تقدم به العمر فاكتملت تجربته ورسخت فكرته وانهقدت مقومات  
شخصيته ، زادت الهوة سعة بينه وبين الناس ، حتى اضطر إلى طلب الانفراد  
وإيثار العزلة ، فتسمى « رهن الحبسين » :

لَقَاهُ النَّاسُ الْجَائِي بَرَغْمِي إِلَى حُسْنِ التَّجَمُّلِ وَالنَّفَاقِ

بِوَحْدَانِيَّةِ السَّلَامِ دِنًا فَدَعْنِي أَقْطَعُ الْأَيَّامَ وَخُدِي

وكما خاب ظن أبي العلاء في الناس خاب ظنه كذلك في المعرفة . فإنه — من بعد طول المعاناة والسهر في طلب الحقائق والانقطاع لنشدانها وتحري مظاهرها — ألنى نفسه في النهاية كما كان في البداية :

وعالمنا المنتهى كالصبي قيل له في ابتداء تهج

وإذا كان هذا المتشكك العظيم قد صح عنده شيء ، فهذا الشيء الذي كان منه على يقين جازم هو أن حقيقة الحياة « الألم » ولا حقيقة غير الألم . فالألم وحده له وجود إيجابي . أما ما يسمونه « لذة » أو « سروراً » فهما غيبة الألم ووجودهما سلبي . وفي ذلك يقول :

أعِنْ بِأَكْيَا لَجَّ فِي حُزْنِهِ وَسَلَّ ضَاكِكَ الْقَوْمُ : مَمَّ ابْتَهَجَ

تَسَمَّى « سُرُوراً » جَاهِلٌ مُتَخَرِّصٌ<sup>(١)</sup> بَفِيهِ الْبَرَى ! هَلْ فِي الزَّمانِ سُرُورٌ ؟

وفي مثل هذه الحالة النفسية الأليمة كان المعري لا محالة أحوج من سائر الناس ، لامن أبي نواس وحده ، إلى التماس الخمر تذهله عن نفسه وتخفف من وطأة ألمه ويأسه . ولكنه لم يفعل ، صوناً لكرامته ، واحتفاظاً بوقاره ، وإشفاقاً على رجاحة عقله :

أَيُّأَنِي نَبِيٌّ يَجْعَلُ الْخَمْرَ طَلْقَةً فَتَحْمِلُ ثِقَلًا مِنْ هُمُومِي وَأَحْزَانِي  
وَهِيَّاتَ ، لَوْحَلَّتْ لِمَا كُنْتُ شَارِبًا مُحْفَفَةً فِي الْحِلْمِ كِفَّةً مِيزَانِي

فلا جرم تكون الصورة التي تتمثلها لأبي نواس متطلق الوجه للحياة مشبوب الشهوة لأنواع اللذات شديد الإيمان بنفسه مع الاقتناع بعلمه ، يقابلها

في الطرف المقابل صورة أبي العلاء المفكر ، وقد قتل في قلبه بإمعان التحليل كل عاطفة ، وأبطل في ذهنه بإمعان التحقيق كل دعوى للمعرفة ، كما كبت بإمعان التقشف في نفسه الإرادة والرغبة ، فذهبت عن مفاتن الدنيا كل غواية وفتنة . وخلاصة القول أن أبا نواس كان على رأس المتفائلين ، انتهب لذات الدنيا انتهاباً ، فلم تفته منها لذة واحدة ، وهو إلى ذلك متطلع إلى نعيم الجنة بما يطعم فيه من مغفرة . وأما أبو العلاء فكان على رأس المتشائمين جميعاً ، يئس اليأس كله من الدنيا ، ولا يبعد أن يكون يأسه قد تعدى إلى الآخرة .

### الخمير بين الصوفية والحسية

ولقد حدث في الفارسية والعربية شعر في الخمير يحملونه على محمل المجاز وينسبونه إلى جهة التصوف ، فيجعلون فيه الخمير والقدح والساق جميعاً إشارات رمزية إلى ما شاءوا من المعاني المجردة الروحانية . فإذا الخمير هي المعرفة الإلهية ، والقدح قلب الإنسان ، والساق هو الله تعالى ، والسكر غيبة الحس عن الوجود للاتحاد بروح الوجود ، والفناء في الحق سبحانه ، وإذا الخان مجتمع الإخوان في الطريقة الصوفية ، وما أشبه ذلك من التأويلات مع بعض الاختلافات والمزيد من التلوينات .

ومن الخمريات التي تناولها من تناولها من متأخري الصوفية ، فنقلوها إلى طريقهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم على أنها رمزية ومعانيها صوفية ، خمريات عمر الخيام . وسواء أكانت خمير الخيام روحية أم غير روحية ، فإن الذي لا خلاف عليه ولا يمكن أن يكون عليه خلاف أن شاعرنا النواصي فيما لهج به من ذكر الخمير لا يقصد إلى رمز ، وإنما يعني الخمير ذاتها ولا يعني شيئاً سواها . بيد أنه على الرغم من أن هذه الخمريات التي نحن بسبيلها نظمها الشاعر في خمير حسية ،

فإن في شعره فيها ما يرد على السمع كأنه صلاة روحية وترتيلة من التراتيل الدينية ، مثل هذا المطلع :

إِثْنِ عَلَى الْخَمْرِ بِأَلَايِهَا وَسَمَّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا

ثم هذه التلويحات النورانية لما ينبعث عنها من شعاع :  
تَرَى حَيْثُمَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَغْرِبًا

فَعَلَّتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ مُثَلَّ فَعَلَ الصُّبْحُ فِي الظُّلَمِ  
فَاهْتَدَى سَارَى الظَّلَامِ بِهَا كَاهْتِدَاءِ السَّفَرِ بِالْعَلَمِ

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ فَذَهَرُ شُرَابِهَا نَهَارُ  
حَتَّى لَوْ اسْتَوْدَعْتَ سِرَارًا لَمْ يَخْفَ فِي ضَوْئِهَا السَّرَارُ<sup>(١)</sup>

ثم هذه المعاني المثالية التي لم يزد المتصوفة عليها شيئاً في أوصاف خرم الروحية وأشواقهم الغيبية :

تَحَيَّرَتِ الْأَوْهَامُ دُونَ صِفَاتِهَا وَجَلَّتْ صِفَاتُ عَنْ شَبِيهِ وَعَنْ نِدَرٍ  
مَنْ ذَاقَهَا مَرَّةً لَمْ يَنْسَهَا أَبَدًا حَتَّى يُغَيَّبَ فِي الْأُكْفَانِ وَالتُّرْبِ

وإذا كان مريدو شاعر الصوفية الأشهر الإمام شرف الدين عمر بن الفارض يطيب لهم أن يرددوا لشاعرهم — قدس الله سره — هذه الأبيات :  
وَلَوْ قَرَّبُوا مِنْ حَائِهَا مُتَمَدِّدًا مَشَى وَيَنْطِقُ مِنْ ذِكْرِى مَذَاقِهَا الْبُكْمُ

(١) السرار : استمرار القمر ليلة الثلاثين . ويعنى الشاعر أنها من صفاتها لو استودعت ما هو خفى لم يخف في ضوئها .



ولو جُلِّيت سِرًّا على أكمه غدا بصيراً ، ومن راووقها تسمع الصم

فليذكروا أمثالها لشعراء لم يقرن باسمهم قط تقديس مثل قولهم :

ومُقَعَّد قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سَقِينَاه ثَلَاثًا فَأَبْصَرَا

وأخْرَسَ لم يَنْطِقْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَدْرَنَاهُ السَّكَّاسَ يَوْمًا فَهَمَّرَا<sup>(١)</sup>

وهكذا كانت الخمر الحسية عند أبي نواس وأمثاله يجتمع لهم فيها أحياناً من

فرط الوله بها عوالم المعانى والحس ، والغيب والشهادة ، والواقع والمثال .

### أوصاف الخمر

على أن هذه المعانى المثالية قليلة الأشباه والنظائر فى خريات أبى نواس بعد هذا الذى قدمناه منها . ولا غرابة فى ذلك ، فما كان أبو نواس ليتغنى بغير الواقع أو يعتمد على غير الحس . فمدركاته كلها حسية ، ولذاته جميعها جسدية ، ونظرته للحياة فى عامة الأحوال واقعية . وهو فى شعره الوصفى يتناول الأشياء كما تقع فى الحواس الظاهرة فيستوعبها ويحلوها لنا فى أجمل صورة وأبهى معرض . فلا جرم تظهر أخص خصائصه هذه فى الخمر أحب الأشياء إليه وآثرها عنده ، فلا يدع شاردة ولا واردة إلا التفت إليها وأحاط بها وأثبتها ، مستقصياً كل ما يتعلق بمنظورها ومشمومها ومذاقها وتأثيرها فى الحس ، استقصاء انفرد به ولم يقع لغيره . وإلى القارىء تفصيل ما أشرنا إليه .

### ألوان ونيران

يعرض أبو نواس الشاعر لأوصاف الخمر فى رأى العين . ولم يكن كمنظر الخمر

(١) عمر : أكثر فى الكلام . والبيتان لأبى نواس فى حلبة الكيت ، والبيت الأول من قصيدة للأقشیر فى الأغاني .

منظرٌ في عينه . فكان أول همه إذا تناول الكأس أن يتأملها ويديم النظر إليها ،  
فلا يرفعها إلى فمه يحتسيها ويفرغ في جوفه ما فيها حتى يكون قد ملأ منها  
عينه جميعاً . ولو أنك شهدت يرنو لكأسه ويرمقها بمجامع ناظريه ويتوسمها  
ويتفرس في قرارتها ويدير الطرف في نواحيها ، لخليل إليك أنه عاشق وأن  
معشوقه فيها :

قد أدمنَ النَّظْرَةَ في كأسِهِ      كأنَّ من يهواه في كأسِهِ  
فهو إذا شاء رأت عينُهُ      ما لا ترى أعينُ جُلَّاسِهِ

وقد زعم لنا أبو نواس في تصويره لما يرد على نفسه من منظر الخمر ، أنها  
حين تطلع عليه في كأسها ، يبلغ من شعوره حيالها بما انفردت به من روعة  
جمالها في عينه ، أن يتملكه الإشفاق عليها من العين أن تصيبها ، فلا يزال  
ينفث فيها ويعوذها ويرقيها :

لم تنظرِ العَيْنُ إلى منظرٍ      في الحسن والظرفِ يَدَانِيهَا  
ما زلتُ خوفَ العَيْنِ لَمَّابِدَتِ      أنفثُ في كأسِي وأرقِيهَا

وندع هذا الإجمال الزاخر ببداية الخيال في نعت منظر الخمر إلى التفصيل ،  
وهو تفصيل بطبيعته وحكم موضوعه ضافي الذبول ، ولكنه فيما نعتقد قليل الفضول .  
ولتكن بداية القول هنا ما قاله الشاعر في الخمر من حيث تفصيل ألوانها .

والذي اتفق القوم على امتداحه من الأشربة هو الشراب الأحمر . وقد جرى  
الشعراء منهم على تمثيل لونه بلون الدم . ثم أرادوا إلى التجميل فقالوا دماء ظباء ،  
كأنما هي دماء لا كالدماء . وفي ذلك قول شاعرنا أبي نواس :

ومُزَنَّرٌ قد صَبَّ في قارورةٍ      رَيِّقَ السَّحَابِ على النَّجْمِ القَانِي<sup>(١)</sup>

(١) ريق السحاب : ماؤه ، سمى كذلك للممانه .

كَأَنَّهَا وَالزَّاجُ يَقْرَعُهَا فِي قَمَرِ كَأْسٍ نَجْمُ أَجَوافِ  
 كَدَمِ الْجَوْفِ إِذَا مَا ذَاقَهَا شَارِبٌ قَطَّبَ مِنْهَا وَعَبَسَ  
 نَارَعْتُهُ فِي الزُّجَاجِ مِثْلَ دَمِ ۥ الشَّادِنِ تَنْفَى طَوَارِقَ الْحَزَنِ  
 مِثْلَ دَمِ الشَّادِنِ الذَّبِيحِ إِذَا انْ سَابَعَ الْأَرْضَ مِنْهُ أَوْ قَطَرَا  
 فَدَمُ الشَّادِنِ الذَّبِيحِ ، وَمَا يَجِ تَلَبُّ السَّاقِيَاتُ مِنْهَا ، سَوَاهِ

على أن الأمر عند شاعرنا كان أقوى من أن يكون تشبيهاً ؛ فلقد ذهب به  
 شعوره القوى الخفى بأن الخمر دم العناقيد الحى ، أن تمنى — فى بعض ما تمنى —  
 لو يكون دمه هو المسفوح دون الخمر ، وأن تكون الخمر فى مهجته وعروقه خلفاً  
 صالحاً من دمه :

قُلْتُ لَدَنْ تَنْجٍ أوداجُهُ لَيْتَ دَمِي دُونَكَ مَسْفُوحٌ (١)  
 وَكُنْتَ مِنْهُ خَلْفًا صَالِحًا فِي مُهْجَتِي تَحْيَا بِكَ الرُّوحُ

ثم كان الشاعر يتمثل الخمر فى حمريتها « يا قوتة » أحياناً ، وأحياناً « عفيفة » ،  
 وتارة « كعين الديك يعلوها احمرار » ، وتارة أخرى « كالعندم القانى »  
 وكالجلنار . وأخيراً كالورد فى قوله :

لَا تَبْكِي لَيْلِي ، وَلَا تَطْرَبِي إِلَى هِنْدٍ وَاشْرَبِي عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ  
 وَقَهْوَةٍ كَجَنِيِّ الْوَرْدِ خَالِصَةٍ قَدْ أَذْهَبَ الْعَتَقُ فِيهَا الدَّمَاءَ وَالرَّغَا (٢)

وهذه الخمر الصرف الحمراء ، يدخلها من مزاجها بالماء كيمياء ، فإذا اللون  
لونان حين تستحيل الحمرة الأصيلة إلى صفرة منقولة :

وَلَوْنَانِ لَوْنٌ لَهَا أَحْمَرٌ وَلَوْنٌ عَلَى الْمَاءِ كَالْعَصْفَرِ<sup>(١)</sup>

وحمرء قبل المزج ، صفراء بعده غدت بين ثوبى نرجس وشقائق  
حكّت حمرة المعشوق صرّفاً ، فسلبوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق  
وقد تنتهى الحال بشاعرنا أن يرى بها الألوان كلها :

أَخَذَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَوْنَهَا فَهِيَ فِي نَاجُودِهَا قَوْسُ قَزَحٍ<sup>(٢)</sup>

والخمر الحمراء تسمى لمرتها « الجزيال » وهو صيغ أحمر . وتسمى « المدامة »  
لما تقدم من محاليتها لون الدم . فإذا كانت حرمتها إلى الكلفة سميت  
« الكميت » . فإذا اشتدت حرمتها حتى تضرب إلى السواد فهي « الكفاء » .  
وإذا قنأت حرمتها فهي « الأرجوانية » . فإذا رقت قليلاً فكانت في لون  
الورد الأحمر فهي « وردة » فإذا رقت كثيراً فلم تر إلا يسيراً فهي « صهباء » .  
فإن كان يياضها يضرب إلى الزرقة قيل عن شرابها « الأمق » .

صفراء ما تتركّت ، زرقاء ما مزجت تسمو بحظين من حسنٍ ولألاء

وجملة القول أن ألوان الخمر تنتظم جميع الألوان من الحمرة الداكنة التي تشبه  
أن تكون سواداً ، إلى الصفرة أو الزرقة الباهتة التي تشبه أن تكون بياضاً .

ولشاعرنا نعوت كثيرة في الخمر الصفراء . فهي تارة الخلق وتارة الزعفران  
والورس ، ثم بعد هذا كله وقبل هذا كله هي عنده الذهب الذي لا يعدله ذهب :

(١) العصفر : صيغ أصفر اللون . (٢) الناجود : إناء الخمر .



يا خَاطِبَ القُوَّةِ الصَّهْبَاءِ يَمُورُهَا بِالرُّطْلِ يَأْخُذُ مِنْهَا مِلْأَهُ ، ذَهَبًا  
قَصَّرَتْ بِالرَّاحِ ، فَاحْذَرُ أَنْ تُسَمِّمَهَا فَيَحْلِفَ الْكَرْمُ أَلَّا يَحْمِلَ الْعِنْبَا

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وَهِيَ تَكْسُو كَفَّ شَارِبِهَا دَسْتَبَانَاتٍ مِنَ الذَّهَبِ

فَجَاءَ بِهَا زَيْنَتِيَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ فَلَمْ نَسْتَطِعْ دُونَ السُّجُودِ لَهَا صَبْرًا

ذَهَبِيَّةٌ يَخْتَالُ فِي جَنَابِهَا كَالدَّرِّ أَلْفَهُ نِظَامُ الْفَاتِقِ

وَكَأَنَّما الذَّهَبُ الْمَذُوبُ بِكَأْسِهَا بِمَحْرٍ يَجِيشُ بِأَعْيُنِ الْحَيْتَانِ

صَفْرَاهُ تَحْكِي التَّبَرَّ ، فِي حَافَتِهَا عُقْدُ الْحَبَابِ كُلُّوْلُو مُتَبَدِّدٍ

عَلَى أَنْ أَحَبَّ نَعْوَتَهَا الشَّعْرِيَّةُ إِلَى الشَّاعِرِ بِجَانِسَتِهَا النَّارَ . وَهِيَ بِجَانِسَةِ جَامِعَةِ  
لَوْنٍ وَالشَّعَاعِ وَالْحَرَكَةِ جَمِيعًا :

لَمْ يَبْقَ لِي فِي غَيْرِهَا لَذَّةٌ كَرَخِيَّةٌ فِي الْكَأْسِ كَالنَّارِ

وَحَنْدَرِيسٍ لَهَا شُعَاعٌ يَلْمَعُ فِي الْكَأْسِ كَالضُّرَامِ

صَبَّهَا الشَّادِنُ فِي كَاسَاتِهَا فَتَرَامَتْ بِشَرَارٍ كَالْقَبَسِ

كَأَنَّهَا وَالْمِزَاجُ يَفْرَعُهَا شِهَابُ نَارٍ فِي الْجَوِّ يَحْتَرِقُ

كَأَنَّ نَارًا بِهَا مُحَرَّشَةٌ نَهَايُهَا تَارَةً وَنَفْسَاهَا

تَلْتَهِبُ الكَفُّ مِنْ تَلَاهُهَا وَتَحْسِرُ العَيْنُ أَنْ تَقْصَّاهَا  
وَكَأَنَّ شَارِبَهَا لَقَرَطٍ شُعَاعَهَا بِاللَّيْلِ يَكْرَعُ فِي سَنَا مِقْبَاسِ  
لَوْ تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ قُلْتَ قَوْمٌ مِنْ قِرْقَةٍ يَصْطَلُونَا<sup>(١)</sup>  
وَمَقْرُورٍ مَزَجَتْ لَهُ شَمُولًا بِمَاءٍ ، وَالذُّجَى صَعْبُ الْجَنَابِ  
فَلَمَّا أَنْ رَفَعْتُ يَدِي فَلَاحَتْ بَوَارِقُ نُورِهَا بَعْدَ اضْطِرَابِ  
تَزَاخَفَ ثَمَّ مَدَّ يَدِيهِ يَرْجُو دِفَاءً حِينَ جَارَتْ بِالتَّهَابِ<sup>(٢)</sup>

ولعل أعجب أوصافه لها ، وأذهبها مع التوهم والخيال ، صورة هذه القافلة يلح الشاعر في آخر الأفق شبحها ، وقد أضلها في البادية حلت الليل عن قصد السبيل . والشاعر وندمانه يشربون في الناحية الأخرى على حد العمار . والذي يزعمه لنا الشاعر في هذه الأبيات أنه وندمانه كانوا كلما رفعوا كؤوس المدام ليحتسوها ، بدا في الظلمة شعاعها كالضرام ، فإذا بالركب الساري يهتدى بها ويقبل نحوهم ميمماً . فإذا هم حسوها وأفرغوها في أجوافهم ، غاب الشعاع فعى الركب عن وجهه ، وأقام مكانه ، فإذا عادوا ثانية فأتروا الكؤوس بالشراب ، عاد أهل السيارة يحثون إليهم الركاب :

وَسَيَّارَةٌ ضَلَّتْ عَنِ الْقَصْدِ بَعْدَ مَا بَدَأَ دُونَهُمْ أَفُقٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمٌ<sup>(٣)</sup>  
فَلَاحَتْ لَهُمْ مَنَّا عَلَى الْبُعْدِ قَهْوَةٌ كَأَنَّ سَنَاها ضَوْءُ نَارٍ تَضَرَّمْ  
إِذَا مَا حَسَوْنَاهَا أَقَامُوا مَكَانَهُمْ ، وَإِنْ أَظْهَرَتْ حَفَّوْا الرِّكَّابَ وَيَمَّمُوا  
وهذه الخمر حمراء كانت أو صفراء ، لم يكن يرى الشاعر شعاعها في الكأس

(١) القرة : البرد . (٢) الدفاء : كل ما يستدفأ به من الثياب وغيرها .

(٣) السيارة : القافلة .

حتى يتمثلها المصباح الوضي ، أو الكوكب الدرّي ، أو الشمس المتوقدة :

قال « ابغني المصباح » قلت له « اتّئذ حَسْبِي وحسْبُكَ ضوءها مصباحا »  
فَسَكَبْتُ منها في الرُّجَاجَةِ شَرْبَةً كانت لنا حتى الصُّبَّاحِ صباحا

أَذْكَى سِرَاجًا ، وساقى القومَ يَمْزُجُهَا فلاح في البيت كالْمِصْبَاحِ مِصْبَاحُ  
كَذُنَا على علمنا — للشَّكِّ — نسأله « أراحنا نارُنا ، أم نارُنا الرِّاح ؟ »

فأصبحتُ في جَوْفِ مُحَدَّوْدِبٍ كالْكَوْكِبِ الدَّرِّيِّ في الحِنْدِسِ

إذا عَبَّ فيها شاربُ القومِ خِلْتَهُ يُقَبِّلُ في دَاجٍ من اللَّيْلِ كَوَكْبًا

في كُؤُوسٍ كأنَّهنَّ نِجْمٌ جارِياتٌ ، بُرُوجُهَا أَيْدِينَا  
طَالِعَاتٌ مع السُّقَاةِ عَلَيْنَا — فَإِذَا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فِينَا

بِمَشْمُولَةٍ كالشَّمْسِ يَغْشَاكَ نُورُهَا إذا ما تَبَدَّتْ من نَوَاحِي المَشارِقِ

واشْرَبِ الخمرَ على تَحْرِيمِهَا إِنَّمَا دُنْيَاكَ دارٌ فَايِنُهُ  
من عُقَارٍ مَنْ رآها قال لي : « صَيَدَتِ الشَّمْسُ لَنَا في بَاطِيَةِ » (١)

كَأَنَّمَا الشَّمْسُ في مَطَالِعِهَا تَغْرُبُ في جَوْفٍ مَنْ تَحَسَّاهَا

وتَطْلُعُ شَمْسُهَا في صَحْنِ كَأْسٍ وتَغْرُبُ حينَ تَغْرُبُ في التَّنْدِيمِ

ويبلغ في عين الشاعر لمعان الخمر في الكأس وشدة شعاعها أن يمدّ من أجفانه  
من خوف نورها أن يخطف بصره ويودي بنور إبصاره :

(١) الباطية : إناء زجاج للشراب .

تَكَادُ تَخْطَفُ أَبْصَاراً إِذَا مُزِجَتْ بالماء واجتُلِيَتْ فِي لَوْنِهَا الْجَالِي <sup>(١)</sup>

فَكَأَنَّمَا أَجْفَانُ شَارِبِهَا مَطْرُوفَةٌ بِتَلَاوُزِ النَّجْمِ

تَرَى الْعَيْنَ تَسْتَعْفِيكَ مِنْ لَمَعَانِهَا وَتَحْسِرُ حَتَّى مَا تُثْقِلَ جُفُونَهَا

وَقَهْوَةٍ عُتِّقَتْ فِي بَيْتِ شَمَاسٍ تَقْتَرُ فِي كَأْسِهَا عَنْ ضَوْءِ مِقْبَاسٍ

لَوْلَا مُدَارَاةُ حَاسِبِهَا إِذَا اقْتَرَبَتْ مِنْ فِيهِ، لَا تَنْهَبُ مِنْ مُقَلَّةِ الْحَاسِي

عُقَارٌ كَأَنَّ الْبَرْقَ فِي لَمَعَانِهَا تَجَلَّى لِأَبْصَارٍ فَكَادَتْ لَهُ تَعْمَى

أَشْمَسًا أَعْرَتَ الْكَأْسَ، أَمْ هِيَ لَمْعَةٌ مِنْ الْبَرْقِ، أَمْ أَقْبَلَتْ بِالْكَوْكَبِ السَّعْدِ

مَدَدَتْ لَهَا الْأَجْفَانُ مِنْ خَوْفِ نُورِهَا عَلَى بَصَرٍ قَدْ كَادَ حِينَ بَدَتْ يُودِي

وَيَنْتَهَى الشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ الْخَمْرِ وَصَفَرَتِهَا إِلَى وَصْفِ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الشَّرَابُ  
الْأَصْفَرُ حِينَ يَمْزَجُ بِالمَاءِ الْبَارِدِ فَيَرْقُ لَوْنُهُ حَتَّى يَبْدُو أَيْضُ ، أَوْ عَلَى أَصْحَ الْقَوْلَيْنِ  
لَا لَوْنُ لَهُ :

وَصَفَرَاءُ قَبْلَ الْمَزْجِ ، بَيَاضٌ بَعْدَهُ كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَلْقَاكَ دُونَهَا

بَلَوْنٍ رَقٍّ حَتَّى كَادَ يَخْفَى عَلَى عَيْنِي ، وَطَابَ عَلَى الْمَذَاقِ

وهذه الخمر في انعدام اللون والنقاء ، أشبه ما تكون بالماء ، ولكنها حارة كالدمع  
دمع الحسناء المحزونة المرهأ .

أتى بها قهوة كالْمِسْكِ صَافِيَةً كَدَمْعَةٍ مَنَحَتْهَا الْخَلْدُ مَرَّهَا



كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ فِي عَيْنِ غَانِيَةٍ      مَرَهَاءَ رَقَرَقِهَا ذِكْرُ الْمُصِيبَاتِ  
 كَرَّخِيَّةٌ كَصَفَاءِ دَمْعٍ مَشُوقَةٍ      مَرَهَاءَ تَرْغَبُ عَنْ سَوَادِ الْإِثْمِ (١)  
 حَنْتُ مُكَاتَمَةً ، فَبَيْنَ جُفُونِهَا      رَقَرَقْتُ دَمْعَ فَاظٍ أَوْ فَكَانَ قَدْ  
 وَتَخَافُ تَحْدِرُهُ ، فَتَرْفَعُ جَفْنَهَا      فَالْدَمْعُ بَيْنَ تَحْدِيرٍ وَتَصَعُّدٍ  
 بَلْ هِيَ عِنْدَهُ أَرْقُ مِنَ الْمَاءِ كُلِّهِ فِي النِّقَاءِ ، وَأَشْبَهُ بِشَفِيفِ الضِّيَاءِ :

رَقَّتْ عَنْ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُبْلَاثِمُهَا      لَطَافَةً ، وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ  
 فَلَوْ مَزَجْتَ بَهَا نُورًا لِمَا زَجَّهَا      كَمَا تَمَازَجُ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ  
 أَنْتِ دُونَهَا الْأَوْهَامُ حَتَّى كَأَنَّهَا      تَفْتَقُّ نُورٍ مِنْ فَتُوقِ سَمَاءِ

### ثورة في قدح

وكان أبو نواس يحسنى الشراب أحياناً صرفاً غير ممزوج ، ويزعم أن مزج  
 الشراب امتهان له وانتهاك لحرمة وتدنيس لقدسيته :

إِسْقِنِي صُهْبَاءَ صَرْفًا      لَمْ تَدْنَسْ بِمَزَاجٍ

بَيْنَ الدَّمَامِ وَبَيْنَ الْمَاءِ شَحْنَاهُ      تَنْقَدُّ غَيْظًا إِذَا مَامَسَهَا الْمَاءُ  
 حَتَّى تَرَى فِي نَجُومِ الْمَاءِ أَعْيُنَهَا      بَيْضًا وَلَيْسَ بَهَا مِنْ عَلَّةٍ دَاءُ

تَوَارَتْ عَنِ الْأَبْصَارِ مِنْ عَهْدِ آدَمِ      حِذَارَ يَكُونُ الْمَاءُ يَوْمًا قَرِينَهَا  
 وَقَدْ سَمِعْتَ أَذْنَاكَ عِنْدَ مَزَاجِهَا      أَنْيَاً وَالْحَنَانُ تَجِيبُ أَنْيَهَا  
 فَصْنُهَا عَنِ الْمَاءِ الْقَرَّاحِ ، وَهَاتِهَا      فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْقِنِي مِثْ دُونِهَا

(١) الإثم : ما يكتحل به .

ولكنه لم يكن يطاوع نفسه في شربها صرفاً وهو الخبير بها وبمبلغ غولها  
وسطوتها وشدة أخذها ، وما تحدث من سدرٍ ودوران إذا لم تعالج بالمزاج القليل  
أو الكثير حتى يفعل فعله في ذهاب حدتها وانكسار قوتها . ومن نثر أبي نواس  
« الخمر شقيقة الروح وصديقة النفس ما ارتضعت ممزوجة . وصرفها غير مأمون  
على نهك البدن بعاجل الألم وآجل السقم ، مع غرسٍ وصَبٍ يؤدي إلى عطب » .  
ولهذا كان في أكثر الأحيان يمزجها تخفيفاً لها وتليناً لقسوتها عليه :

أَشْرَبُهَا صِرْفًا فَإِنْ هِيَ قَسَتْ زَوَّجْتُهَا بِالمَاءِ حَتَّى تَلِينُ

هِيَ الْعَرُوسُ إِذَا دَارَيْتَ مَرْجَتَهَا وَإِنْ عُنُفَتْ عَلَيْهَا أُخْتُ شَيْطَانٍ

وكان أحب منظر إلى أبي نواس منظر الخمر حين يشجها الماء فتثور وتشفب  
وتعلوها فقبح الحبيب وله في ذلك بدائع أوصاف لا آخر لها :

تَرَى كَأْسَهَا عِنْدَ الْمِزَاجِ كَأَنَّهَا نَثَرَتْ عَلَيْهَا حَلَى رَأْسِ عَرُوسٍ

سَاحٍ بِكَأْسٍ ، إِلَى نَاشٍ عَلَى طَرَبٍ كَلَّاهُمَا حَبَّبَ فِي مَنْظَرٍ مَجْبٍ <sup>(١)</sup>

قَامَتْ تُرْبِنِي ، وَأَمْرُ اللَّيْلِ يُجْتَمِعُ صُبْحًا تَوَلَّدَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعِنَبِ

كَأَنَّ كُبْرَى وَصُغْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

كَأَنَّ ثُرْكَاءَ صُفُوفًا فِي جَوَانِبِهَا تَوَاتَرُ الرَّامِي بِالنَّشَابِ مِنْ كَثَبٍ <sup>(٢)</sup>

كَأَنَّهَا بِزُلَالِ الْمُزْنِ إِذَا مُرِجَتْ شِبَاكُ دُرٍّ عَلَى دِيْبَاجٍ يَاقُوتٍ

تَضْحَكُ عَنْ لَوْلُؤٍ شَتِيَةٍ أَلْفُهُ الْمَاءُ فِي نَظْمٍ

حَتَّى إِذَا مُرِجَتْ بِالمَاءِ وَاخْتَلَطَتْ حَالِكُ الْمِزَاجِ لَهَا مِنْ لَوْلُؤٍ فَلَا

(١) ناش : نشوان أى ثمل من السكر . (٢) تواتر : تتابع ، النشاب : السهام .

تَفَرَّتْ فِي الْكَأْسِ - حِينَ نَمَزُجُهَا      بَمَاءِ مُزْنٍ - عَنْ دُرٍّ أَصْدَافٍ <sup>(١)</sup>  
 مُنْتَظَمَاتٍ وَغَيْرِ مُنْتَظَمٍ      تَغُورُ فِيهَا ، وَبَعْضُهَا طَافَ  
 إِذَا مَا عَلَاهَا الْمَاءُ خِلَتْ حَبَابُهَا      تَفَارِيقَ دَرٍّ فِي جَوَانِبِهَا شَتَّى  
 ثُمَّ شَجَّتْ ، فَاسْتَضَحَكَتْ عَنْ لَّالٍ      لَوْ تَجَمَّعْنَ فِي يَدٍ لَأَقْتُنِينَا  
 صَفْرَاهُ تَضْحَكُ عِنْدَ الْمَزْجِ مِنْ شَغَبٍ      كَأَنَّ أَعْيُنَهَا أَنْصَافُ أَجْرَاسٍ  
 كَأَنَّ يَوَاقِيتَهَا رَوَاكِدَ حَوْلَهَا      وَزُرُقَ سَنَانِيرٍ تُدِيرُ عُيُونَهَا <sup>(٢)</sup>  
 كَأَنَّ أَحْدَاقَهَا وَالْمَاءُ يَقْرَعُهَا      فِي سَاحَةِ الْكَأْسِ أَحْدَاقَ الْيَعَاسِبِ <sup>(٣)</sup>  
 ثُمَّ شَجَّتْ فَأَدَارَتْ حَوْلَنَا مِثْلَ الْعُيُونِ <sup>(٤)</sup>  
 حَدَقًا تَرْنُو إِلَيْنَا لَمْ تُحْجِرْهُ بِحُفُونٍ <sup>(٥)</sup>  
 شَجَّتْ فَعَالَتْ فَوْقَهَا حَبَابًا      مُتْرَاصِفًا كَتَرَاصِفِ النَّظْمِ  
 ثُمَّ انْفَرَّتْ لَكَ عَنْ مَدَبٍ دَبَّى      عَجَلَانِ صَعَدَ فِي ذُرَى أُمِّ <sup>(٦)</sup>  
 وَكَأَنَّمَا يَتَلَوُّ طَرَائِدَهَا      نَجْمٌ تَوَاتَرَ فِي قَفَا نَجْمِ  
 حَمْرَاهُ عَلَّقَهَا بِالْمَاءِ شَارِبُهَا      نَفَقْتُ عُذْرَتِهَا فِي بَطْنِ رَحْرَاحٍ  
 وَثَبَّتُ الْمَاءُ فِي حَاقَاتِهَا حَبَابًا      كَالْقَطْرِ يَذُبْتُ فِي حَاقَاتِ ضَحَضَاحٍ  
 تَنْزُو فَوَاقِعُهَا فِي وَجْهِ شَارِبِهَا      مِثْلَ الدَّبِيِّ هَاجَهُ طَشٌّ بَقِيعَانٍ <sup>(٧)</sup>

(١) المزن : السحاب  
 (٢) اليعاسيب : جمع يعسوب : ذكر النحل . (٤) شج : الشراب بالماء : مزجه .  
 (٥) أي لا جنون حولها . (٦) المدب : المجري ، يقال مدب الليل ومدب النمل .  
 الدبى : النمل أو أصفر الجراد . أم : جمع أمكة وهي التل . (٧) الطش : المطر الضعيف .

وَيُبْدَى لَنَا مِنْ جَوْفِهَا مَسُّ مَرْجِهَا كَأَلْسِنَةِ الْحَيَّاتِ تَبْدُو مِنَ الدَّعْرِ  
 فَإِذَا عَلَاها الْمَاءُ أَلْبَسَهَا حَبِيًّا كَمَثَلِ جَلَّالِ الْحِجْلِ <sup>(١)</sup>  
 حَتَّى إِذَا سَكَنْتْ جَوَاحِئُهَا كَتَبَتْ بِمِثْلِ أَكَارِعِ النَّمْلِ <sup>(٢)</sup>  
 سَطْرَيْنِ مِنْ شَيْءٍ وَجُمُتَمَعٍ غُفْلٍ مِنَ الْإِعْجَامِ وَالشَّكْلِ <sup>(٣)</sup>  
 كَتَبَ الْمَزَاجُ عَلَى مُقَدَّمِ تَاجِهَا سَطْرَيْنِ مِثْلَ كِتَابَةِ الْعَسْرَاءِ  
 كَانَ سَطُوراً فَوْقَهَا خَيْرِيَّةٌ تَكَادُ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ تَبِينُ  
 صَفَرَاهُ سِلْكُ بُحَّانٍ لَوْثُوهَا أَلْفَاتُ كَاتِبِ سَيِّدِ الْفُرْسِ  
 وَتَكَتْسَى لَوْثَوَاتٍ مِنْ تَعَطُّفِهَا - عِنْدَ الْمَزَاجِ - شَبِيهَاتٍ بِوَاوَاتِ  
 كَانَ مَنْظَرُهَا وَالْمَاءُ يَقْرَعُهَا دِيْبَاجُ غَانِيَةٍ أَوْ رَقْمُ وَشَاءٍ <sup>(٤)</sup>  
 كَأَنَّهَا وَلِسَانُ الْمَاءِ يَقْرَعُهَا نَارُ تَاجِجٍ فِي آجَامِ قَضْبَاءِ  
 كَانَ مَازِجَهَا بِالْمَاءِ طَوْقَهَا مَنزُوعَ جِلْدَةٍ ثُعْبَانٍ وَأَفْعَاءِ  
 لَهَا مِنَ الْمَزْجِ فِي كَاسَاتِهَا حَدَقٌ تَرْنُو إِلَى شَرْبِهَا مِنْ بَعْدِ إغْضَاءِ  
 تَنْزُو فَوَاقِعِهَا مِنْهَا إِذَا مُرِجَتْ نَزَوِ الْجَنَادِبِ مِنْ مَرْجٍ وَأَفْيَاءِ <sup>(٥)</sup>  
 لَهَا ذُبُولٌ مِنَ الْعَقِيَانِ تَذْبَعُهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَاءِ <sup>(٦)</sup>

## روائع الجنان

وإذا كان أبو نواس قد بسط القول في منظر الخمر ، فجلاها للعين أبداع جلوة  
 لونا وشعاعاً ، وشغباً عند المزج وحبباً ، وتصرف ما شاء في التشبيه ، وتفنن في

(١) الحجل : الخللخال . (٢) الأكارع : جمع كراع وهو مادون الكعب .  
 (٣) أعجم الكتابة : وضع نقطها وحركاتها . (٤) الرقيم : التخطيط والوشى .  
 (٥) الجنادب : ضرب من الجراد . (٦) العقيان : الذهب الخالص .



العوص على المعاني ، مع صدق الوصف وحسن التخريج ، فإنه لم يغفل لحظة عن شميمها والنفنن إلى ما يبادر أنفه منها من البنة<sup>(١)</sup> الطيبة والعرف الذكي . فكثر ذكره في خمرياته لطيب ريحها مع الإشارة الدالة إلى ما تنفس عنه أنواع الأشربة من صنوف الأرايح وشتى الأعطار :

فإذا ما الكؤوسُ دارتْ عَلَيْنَا قَذَفَتْ فِي أَنْوْفِنَا بِالْعَبِيرِ  
كَأْسٌ مِنْ الرَّاحِ الْعَتِيقِ لِرِيحِهَا — قَبْلَ الْمَذَاقَةِ — فِي الرُّءُوسِ سُرُورُ  
فجاءَ بِهَا شَعْنَاءُ مَشْدُودَةَ الْقَرَا<sup>(٢)</sup> عَلَى رَأْسِهَا تَاجٌ ، مَلَا حِفْهًا عُفْرُ  
فَلَمَّا تَوَجَّى خَضَرَهَا ، فَاحَ رِيحُهَا فَقُلْتُ «أَذَا عِطْرٌ؟» فَقَالَ «هُوَ الْعَطْرُ»  
شَبَّعَ رِيحُ الْوَرْدِ أَرْوَاحَهَا وَرِيحُهَا أَطْيَبُ مِنْ رِيحِهِ  
فَالرَّيْحُ عَنَبَرَةٌ ، وَالطَّعْمُ فُلْفُلَةٌ وَالكَأْسُ مِنْ ذَهَبٍ ، وَاللَّوْنُ مِنْ نُورِ  
عَبَقَتْ أَكْفُهُمْ بِهَا فَكَأَّمَا يَتَنَازَعُونَ بِهَا سِخَابَ قَرَنْفُلٍ<sup>(٣)</sup>  
كَانَ أَكْفُ الْقَوْمِ وَالْآلَةِ الَّتِي يُدِيرُونَ فِيهَا أَمْرَهَا ضُمَّخَتْ مِنْهَا  
لَهَا مِنْ ذِكْرِ الْمِسْكِ رِيحٌ ذَكِيَّةٌ وَمِنْ طِيبِ رِيحِ الزَّعْفَرَانِ نَسِيمٌ  
يَدُّ أَنْ شَاعَرْنَا أَدَقُّ شَمِيماً لِلخمرِ مِنْ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ هَذِهِ التَّشَابِيهِ بِالطُّيُوبِ  
وَالْعَطُورِ ، فَهُوَ يَشِيرُ فِي أَكْثَرِ مَكَانٍ إِلَى مَا يَخَالُطُ رِيحَ الْخمرِ أحياناً مِنْ رَائِحَةِ  
أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بَرَائِحَةُ التَّفَاحِ ، تَفَاحَ لَبْنَانِ :

يُوتِي بِهَا كَالْخُلُوقِ فِي قَدَحٍ خَالِطَ رِيحُ الْخُلُوقِ تَفَاحاً<sup>(٤)</sup>  
تَنَفَّسَتْ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ ضَاحِكَةً تَنَفَّسَ الْمِسْكِ فِي تَغْلِيحِ تَفَاحِ  
سُلَافٍ دَنٍ إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا فَاحَتْ كَمَا فَاحَ تَفَاحُ بِلَبْنَانِ

(١) البنة : الرائحة . (٢) القرا : الظهر . (٣) السخاب : القلادة .

(٤) الخلق : ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران .

وللشاعر نعتٌ مفردٌ في وصف الخمر ، تجمّع لها منه اللونُ في أبهج زهوته ،  
والعطر في أذكى سطعته ، وذلك في تسميته لها وتكنيته عنها بـ « ربحانة الكأس » :  
يا عاذلي ، عن ملامٍ مرٍّ بالياسِ      فلستُ أقْلَعُ عَنْ رِبحانَةِ الكاسِ

### شهادة اللسان

ولم يبق بعد هذا التمهيد بالمنظر والرائحة إلا المذاق ، ليشهد اللسان وهو جارحة  
الدوق والكلام إن كان قد صدق الخبرَ الخَبْرُ .

صفراء ، زان رُواءها تحبُّورها      فلها المَهْدَبُ من ثناء الحاسي

والشراب من جهة الطعم أقسام كثيرة عند القوم ، فنه الحلو والعَفْصُ والقابض  
ومنه الجامع بين الحلاوة والمرارة والقبض جميعاً .

ويتلخص وصف الشاعر لمذاق خمره المستطابة أنها مُزَّة الطعم تحذى اللسان  
وأن في مذاقها مثل قرص الفلفل . ثم هو يشير إلى أنها من غير مزج صعبة محركة  
في الحلق ، قد يعبس لها معاقرها وقد تغرغر عينه ، على أن الثقل منها إنما هو  
القدح الأول ، ثم يكون ما لحقَ أطيبَ مما سبق :

مشمولةٌ مُزَّةٌ ، كالمسكِ قرَقَقَةٌ      تطيرُ الهمَّ عن حَيْزُومِ حَرَّانٍ<sup>(١)</sup>

سَلْسَالَةُ الطَّعْمِ ، إسْفَنْطُ مُعْتَقَةٌ      بشرِّها قِيَمُ الحانوتِ أَوْصَانِي

وأبرزَ بَكرًا مُزَّةَ الطَّعْمِ قَرَقَقًا      صَنِيعَةً دَهْقَانٍ تراخى له العُمرُ

مَّا تَخَيَّرَهَا التَّجَارُ تَرَى لَهَا طَعْمًا إِذَا ذِيَقَتْ كَقَرْصِ الْفُلْفُلِ  
 كَدَمِ الْجَوْفِ ، إِذَا مَازَقَهَا شَارِبٌ قَطْبٌ مِنْهَا وَعَبَسٌ  
 مِزَاجُهَا دَمْعٌ حَاسِيهَا ، فَأَيُّ قَتَى لَمْ يَبْكْ إِذَا ذَاقَهَا مِنْ حُرْقَةِ الْكَاسِ  
 سَلْمٌ ، وَلَكِنَّهَا حَرَبٌ لِدَائِقِهَا يَا حَبِّذَا بِأَمْسِهَا مَا كَانَ مِنْ بَاسِ

ولما كان الشراب يختلف قوامه بين الكثافة والغلظة وبين اللطافة والرقّة ،  
 فقد عُني شاعرنا بالإشارة إلى ما يستحب :

مِنْ شَرَابٍ أَلَذٍّ مِنْ نَظَرِ الْمَعْدِ شَوْقٍ فِي وَجْهِ عَاشِقٍ بِابْتِسَامِ  
 لَا غَلِيظٍ تَنْبُو الطَّبِيعَةُ عَنْهُ نَبْوَةُ السَّمْعِ عَنْ شَنِيعِ الْكَلَامِ  
 بِنْتُ عَشْرِ صَفَتْ وَرَقَتْ فُلُوصُ بَتَّ عَلَى اللَّيْلِ رَاحَ كُلُّ ظَلَامِ  
 وَإِلَيْكَ بَعْدَ هَذَا وَصِيَّتُهُ لَشَارِبِهَا :

وَإِذَا شَرِبْتَ فَكُنْ لَهَا مُتَمَطِّقًا حَتَّى تَبَيَّنَ طَيِّبَ الطَّعْمِ (١)  
 وَتُمَتِّعَ اللَّهُوَاتِ مِنْكَ بِطَيِّبِهَا وَالْمِنْخَرَيْنِ بِكَثْرَةِ الشَّمِّ (٢)

### الفضل للمتأخر

ومعلوم أن جميع هذه المزايا التي يحمدها أصحاب الخمر في الخمر من منظرٍ ورائحةٍ  
 وطعمٍ يتعلق معظم الفضل فيها بإحكام الاختيار ومبلغ القدم والعتق .  
 وليس أكثر من تشاييه شاعرنا ومبالغاته في نعت الخمر بالعتق والقدم .  
 وأوصافه لا تخلو مع وحدة الغرض من تنويع . ونحن نوردها هنا في نظمٍ منضدٍ

(١) تَمَطَّقُ الطَّعَامُ : تَذَوُّقُهُ . (٢) اللَّهُوَاتُ بِمَعْنَى الْخُلُقِ .

من المبالغة يتعالى طبقاً على طبق ، ثم تتوَجُّها جميعاً بآية من آيات شعره في  
المعنى نفسه :

كريمةٌ أصغرُ آبائها      إن نُسِبتَ كسرى وسابورُ

أدرها علينا مِرَّةً بابليةً      تخيرها الجاني على عهد قيصر

فقلت لها : « يا خمر ! كم لك حجة ؟ »      فقالت . « سكنت الدنَّ دهرًا من الدهر »

فقلت : لها « كسرى حواكٍ ؟ » فعبست      وقالت : « لقد قصرت في قلة الصبر »

سمعتُ بذى القرنين قبل خروجه      وأدركت موسى قبل صاحبه الخضر »

شهدتُ ثموداً حين حلَّ بها البلي      وأدركتُ أياماً لعَمرو بنِ عامرٍ

بدميةٍ ورثَ الزَّمانُ لُبابها      عن ذى الأوائلِ من أكابرِ عادٍ

قهوةٌ لو أنَّها نطقتُ      ذكَّرتُ ساماً أبا العربِ

ذخيرةُ نوحٍ في الزَّمانِ الذى اجتني      فأدخلها في الفلكِ إذ ركبَ الفلكُ (١)

كانت على عهدِ نوحٍ في سفينتهِ      من حُرٍّ شِحنَتِها والأرضُ طوفانُ (٢)

رأتُ نوحاً وقد شِطت وشابتُ      وقد شهدت قرونا قبل نوحِ

شمطاه تذكرُ آدمًا مع شِيثٍ      ونخبِرُ الأخبارَ عن حواءِ

ذخِرتُ لآدمَ قبل خلقتهِ      فتقدَّمتُه بخطوةٍ القبلِ

(١) جاء في سفر التكوين في الأصحاح التاسع في خبر نوح بعد خروجه من الفلك « وأبتدأ نوح  
يكون فلاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب من الخمر » . (٢) الشحنة : ما تشحنه السفينة .



إِسْقِنِيهَا سُلَافَةً سَبَقَتْ خَلْقَ آدَمَا  
 فَهِيَ كَانَتْ وَلَمْ يَكُنْ مَا خَلَا الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ  
 رَأَتْ الدَّهْرَ نَاشِئًا وَكَبِيرًا مُهَرَّمًا  
 تُحْبِرُ النَّجُومَ وَتَقِفُ لَمْ يَتِمَكَّنْ بِهَا الْمَدَارُ  
 مِنْ عُقَارٍ بَلَغَتْ فِيهِ الدَّنْ أَقْصَى مُسْتَزَادٍ  
 رَضَعَتْ وَالدَّهْرَ نَذِيًّا وَتَلَّاهُ فِي الْوِلَادِ

فَهِيَ لِلْيَوْمِ الَّذِي بُرِئَتْ وَهِيَ تَرِبُ الدَّهْرَ فِي الْقِدَمِ  
 عُنُقَتْ حَتَّى لَوْ انْصَلَتْ بِلِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمٍ  
 لَاحْتَبَّتْ فِي الْقَوْمِ مَائِلَةً نَمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ الْأُمِّ

### المحجوبة المخطوبة

والشاعر في شغفه بالتمر وعكوفه عليها ، ينتهي به الحال أن يخلع عليها الحياة  
 ويمثلها كأنها حيًا مدركا محسًا ، فهو يزعمها هنا أميرة محبوبة محجوبة :

ثُمَّ اصْطَبَحَ مِنْ أَمِيرَةٍ حُجِبَتْ عَنْ كُلِّ عَيْنٍ بِالصَّوْنِ وَالرَّصَدِ  
 لَمْ يَرَهَا خَاطِبٌ فَيَمْنَعُهَا وَلَا دَعَا لَهَا أَخُو فَنَدَّ

وهذه العروس المخذرة من بنات الكروم ، توصف بأنها بكر إذا هي جليت  
 على الشاربين صيرفاً ، فإذا مازجها الماء لم تعد في رأى صاحبنا عذراء ، فالمزاج  
 هو الزواج :

وخذها - إن شربت - وميض بحرٍ بماء المزن من نطف الغيوم<sup>(١)</sup>  
فتجعل هذه عرساً لهذا فإن القطر بعل للكروم

فخذها من بنات الكرم صرّفاً كعين الديك يعلوها احمرارُ  
شرباً إن تزواجه بماء تولد منها دُرٌّ كِبَارُ

فقوما فالتحّا خمرأ بماء فإن نتاج بينهما السرورُ

وقهوة كالعقيق صافية يطير من كأس لها شررُ  
زوّجتها الماء كي تذلل به فامتعضت حين مسها الذّكر  
كذلك البكر عند جلوتها يظهر منها الحياء والخفرُ

إله عما أنت طالبه من جواب النوى والطلل  
بينات الشمس، لو منعت نفسها عن كف مبتذل  
وإذا ما الماء واقعها ، أظهرت شكلاً من الغزل<sup>(٢)</sup>  
فإذا ما المره قبلها أسكرته لذة القبل

إن المزاج لها إلف يعانقها وفيه طعم يحاكى قبلة الحاسى

على أن الشاعر يعود للخمر وكأنما أدركته الغيرة ، فيبدل في التشبيه ويبدله .  
فهى كما شاء بكر عذراء ، الكرم أمها ، وأبوها الماء ، وهو خاطبها . ولا يبرح  
الشاعر يكرر هذا المعنى كأنما يؤكد :  
الشاعر يكرر هذا المعنى كأنما يؤكد :

(١) النطف : جمع نطفة وهى الماء الصافى . (٢) الشكل : دلال المرأة وغنجها .

حَطَطْنَا عَلَى خَمَارِهَا جُنَحَ لَيْلَةٍ      فَلَاحَ لَنَا فَجَرٌ ، وَلَمْ يَطْلُعِ الْفَجْرُ  
وَأَبْرَزَ بِكَرًا مِزَّةَ الطَّعْمِ قَرْقَفًا      صَنِيعَةَ دَهْقَانٍ تَرَخَى لَهُ الْعُمْرُ <sup>(١)</sup>  
فَقَالَ « عَرُوسٌ كَانَ كَسْرَى رَيْبِهَا      مَعْتَقَةٌ مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسُّتْرُ »  
فَقُلْتُ « أَدِلْ مِنْهَا الْعَنَانَ ، فَإِنِّي      لَهَا كَفٌّ صِدْقٍ لَيْسَ مِنْ شَيْعَتِي الْعُمْرُ <sup>(٢)</sup>

ابْنَةُ عَشْرِ قَالَ خُطَّابُهَا      « زُقُوا بِهَا لَيْلًا إِلَى الْمُعْرِسِ »

خَطَبْنَا إِلَى الدَّهْقَانِ بَعْضَ بَنَاتِهِ      فَرُؤُوجُنَا مِنْهُنَّ فِي خِدْرِهِ الْكُبْرَى  
وَمَا زَالَ يُغْلَى مَهْرُهَا وَيَزِيدُهُ      إِلَى أَنْ بَلَّغْنَا مِنْهُ غَايَتَهُ الْقُصْوَى  
رَحِيقٌ أَبُوهَا الْمَاءُ ، وَالكَرْمُ أُمُّهَا      وَحَاضِنُهَا حَرُّ الْمَجِيرِ إِذَا يَنْحُمَى

عَقَارٌ أَبُوهَا الْمَاءُ ، وَالكَرْمُ أُمُّهَا      وَفِي كَأْسِهَا تَحْكِي الْمَلَأُ الْمُرْغَفَا

عَلَى أَنْ هَذِهِ الْبِكْرُ عَانِسٌ شَمَطَاءٌ ، قَدِ هَرِمَتْ مِنَ التَّعْتِيقِ فِي الدَّنِ ، وَعَلَاهَا  
مِنَ الرِّغْوَةِ مِثْلَ الشَّيْبِ . وَلَكِنَّهَا حِينَ تَنْدَلَعُ مِنْ غِيَابَةِ دَنْهَا إِلَى الْكَأْسِ يَسْتَجِدُّ  
لَهَا عُرَامٌ كَعُرَامِ الشَّبَابِ وَفُورَةٍ كَفُورَتِهِ .

نَفْتَضُ بِكَرًا عَجُوزًا زَانَهَا كِبَرٌ      فِي زِيٍّ جَارِيَةٍ فِي اللَّهْمِ مِلْحَاحٍ

فَافْتَرَعْنَا مِزَّةَ الطَّعْمِ ، فِيهَا      نَزَقُ الْبِكْرِ وَلَيْنُ الْعَوَانِ

### أجناس الأشربة

والخمر معروفة للإنسان منذ أقدم العصور . وقد ورد في أخبار التوراة في سفر  
التكوين أن نوحاً بعد خروجه من الفلك ( أخذ يفلح الأرض ، وغرس كرماً ،

(١) القرقف من أسماء الخمر . (٢) أدل منها العنان : اجعل أمرها إلى .

وشرب من الخمر فسكر) . وقد أدى هذا إلى القول بأن نوحاً أول من غرس الكرم ، مع أن الخبر لا يمنع أن يكون نوح قد استأنف ما كان معروفاً قبل الطوفان . ولعل هذا هو الذي حدا الدميري إلى القول بأن أول استنبات الكرم كان على يد آدم نفسه ، وإلى قولهم إن إبليس أول من عصرها لقائيل وأولاده .

والثابت من نقوش الفراعنة وأقوال المؤرخين الأولين أن قدماء المصريين كانوا يتخذون الخمر من العنب وكان لها عندهم المقام الأول ، وأنهم عرفوا خمر النخل وخمر البلح . ويروى العالم الطبيعي الروماني بليسي الأكبر اتخاذهم نوعاً من الخمر من نبات المَخِيْط ، ثم استحدثتهم خمر الرمان ، وهذا فضلاً عن شيوع الجعة من الشعير بين العامة .

كذلك عرف العرب منذ جاهليتهم الأولى أجناساً من الخمر : الصهباء من العنب ، والنبيد من الزبيب ، والفضيخ من البُسر ، والسُكر من التمر ، والقنديد من القند ، والبتع من العسل ، والجعة من الشعير ، والسُكركة والمِرزة من الذرة . والمأثور عن مواطن الأشربة في الدولة الإسلامية أن الصهباء خمر فارس والطائف ، والفضيخ في المدينة ، والبتع في اليمن ، والسُكركة في الحبشة .

وقد عرض أبو نواس لمعظم هذه الأجناس ولم يقصر شعره كله على خمر العنب ومن إشاراتِهِ إلى الخمر المتخذة من البلح والعسل والزبيب قوله :

لنا خمرٌ ، وليس بخمر نحلٍ      ولكن من نتاج الباسقاتِ

ليست إلى النَّخْلِ والأعقابِ نِسْبَتُها      لكن إلى العسلِ الماذيِّ والماءِ

تركتُ الطَّلَا ، أولستُ أَقْرَبُ شُرْبَه      وما راحتي في أن أُمرَّ الأعاديَا



أخوالخمر من عُقُودِهَا ، غير أنهم إذا قَطَعُوهُ جَفَفُوهُ لِيَالِيَا  
 على أن شاعرنا الخَمِيرُ أعرف بالأشربة وأخبر بحال كل شراب ومزيتة من  
 أن يعدل بخمر العنب شيئاً :  
 ليست كمثل نَبِيذِ التَّمْرِ أو عَسَلٍ أو الزَّيْبِ — من المُسْتَكْنَةِ القَانِي

## الكرمة المكرمة

وما برحت الكرمة الشجرة المكرمة منذ القدم . وقد ذهب قدماء المصريين  
 في تمجيد الكرمة إلى أن أوزيريس أول من التفت إلى شجرتها وعنى بشمرتها ،  
 وأنه أول من استنبط عصرها ولقن الناس الطريقة التي درجوا عليها ، كما علمهم  
 استنبات الكرمة وتعهدها . وكذلك كان شأن الإغريق والرومان ، فقد جعلوا  
 فضل اتخاذ الخمر من الكرم للإله باخوس ، ولولا كرامة الخمر عند القوم ما اتخذوها  
 زلفى يتقربون بها على مذابح أربابهم .

ويظهر تكريم هذه الشجرة عند العرب من هذا التأنيق في صفتهم لها :  
 « فهي الشريفة العنصر ، تضحك عن ثمر حلوا الخبز ، كأنه شمرايح الجواهر ،  
 وكبائس الشذر المعنبر . استخرجته الأيام ، من الغمام . ونقلته الأزمان ، إلى ضمائر  
 الأغصان . فصار غذاء يراه العيان ، بعد أن كان هواء خفي المكان . ثم عاد ماء  
 لطيف المنظر ، جميل المصوّر ، كالزعفران ، وكعصارة المرجان » .

وليست تخلو الأساطير التي نقلها العرب — وهي في كل أمة ترجانها الصادق  
 ولسان حالها الناطق — من الإشادة بالكرمة والتعظيم لشأنها . ومن ذلك  
 ما يروونه عن أول عهد السريان بزراعة الكرم . والقراء لا شك يذكرون فيما  
 طالعه من تواريخ الأولين أن العنب كان من أهم غلات سوريا القديمة ، ومن أجل

مراقبتها الأولى ، وأن خمره كانت من المتاجر الراجحة التي كان يحملها الفينيقيون إلى الآفاق . وإلى القارئ الأسطورة كما يرويها المسمودي في مروج الذهب في كلامه عن الملوك السريانيين ، قال :

[ثم ملك بعد ذلك آزور وخلنجاس ، ويقال إنهما كانا أخوين ، فأحسننا السيرة وتماضدا على الملك . ويقال إن أحد هذين الملكين كان ذات يوم جالساً إذ نظر في أعلى قصره إلى طائر كان قد فرّخ هنالك وهو يضرب بجناحيه ويصيح ، فتأمل الملك ذلك ، فنظر إلى حية تنساب إلى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر . فدعا الملك بقوس ، فرمى به الحية فصرعها ، وسلمت الفراخ . وجاء الطائر بعد هنيهة فصفق بجناحيه ، وفي منقاره حبة وفي مخالبه حبتان ووازي الملك فألقى ما كان في منقاره ومخالبه ، والملك يرمقه . فوقع الحب بين يدي الملك ، فتأمله وقال : « لأمرٍ ما ألقى هذا الطائر ما ألقى . لا شك أنه أراد مكافأتنا على ما فعلنا به » . فأخذها ولم يعرف مثلها في إقليمه . فقال له حكيم من جلسائه لما نظر إلى حيرته في الحب : « أيها الملك ! ينبغي أن يودع هذا النبات أرحام الأرض ، فإنها تخرج كُنه ما فيه ، ويوقف على الغاية منه ، وأداء ما في مخزونه ومكنونه » . فدعا بالأكرّة<sup>(١)</sup> ، وأمرهم بزراعة الحب ومراعاة ما يكون فيه . فزرع وأقبل يلتف بالشجر ، ثم حصرم وأعنب . وهم يرمقونه والملك يراعيه ، إلى أن تناهى في البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً . فأمر الملك بعصر مائه وأن يودع الآنية بعد إفراغ الحب منه ، ومنه ما ترك على حالته . فلما صار في الآنية عصيراً ، وقذف بالزبد ، وفاحت له روائح عبقة ، قال الملك : « على بشيخ كبير فان » . فأتى به . فجعل له من ذلك في إناء ، فرأى لوناً ياقوتياً أحمر شمعياً ، ومنظراً كاملاً

(١) الأكرّة : جمع أكار وهو الحراث .

عجيباً . ثم سقوه الشيخ . فما شرب ثلاثاً حتى صال ، وأرخى من مئزره الفضول ، وصفق بيديه وحرك رأسه وأوقع برجليه على الأرض ، وطرب ورفع عقيرته يتغنى فقال الملك : « هذا الشراب يذهب بالعقل ، وأخلق به أن يكون قاتلاً . ألا ترون الشيخ كيف عاد إلى حال الصبا ، وسلطان الدم ، وقوة الزيادة والشباب ؟ » . ثم أمر الملك به فرفقده . فسكن الشيخ ونام . فقال الملك : « هلك » . ثم إن الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب وقال : لقد شربته فكشف عني الغموم ، وأزال عن ساحتي الأحزان ، وما أراد الطائر إلا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف » . فقال الملك : « هذا أشرف شراب الرجال » . وذلك أنه رأى الشيخ قد حسن لونه ، وانبسط في نفسه ، وطرب في حال طبيعية الحزن وسلطان البلغم ، وجاد هضمه ، وجاءه النوم ، واعتزته أريجية . وأمر الملك أن يكثر من غرس الكرم . فكثر الغرس للكرم . وأمر بمنع العامة من ذلك ، وقال : « هذا شراب الملوك » . وأنا كنت السبب في كونه ، فلا يشربه غيري » فاستعمله الملك بقية أيامه . ثم نما في أيدي الناس فاستعملوه [ .

وبديهي أن يكون أبو نواس أشد هؤلاء أجمعين تكريماً للكرمة وتعتظيماً شأنها . وإتنا لتراه حين يذكرها ، يهون عليه كل شيء في الدنيا إلى جانبها :

مَالِي وَدَارًا دَرَسْتُ    اسْتَوْحَشْتُ أَمْ أُنِسْتُ  
وَمَا اذْكَارِي دِمْنًا    وَسَطَ عِرَاصٍ رُمِسْتُ<sup>(١)</sup>  
وَأَتْرَكُ الْكَرْمَةَ لَا    أَبْكِي لَهَا إِذْ يَبِسَتْ  
لَوْ أَنَّ عَيْنًا عَمِيَتْ    مِنَ الْبُكَاءِ فَانْطَمَسَتْ  
لَانْطَمَسَتْ عَيْنِي عَلَى    آثَارِ كَرَمٍ دَرَسْتُ

(١) الدمن : آثار الديار . العراص : جمع عرصة ، ساحة الدار .



لو طار قلبه فرحاً      أو أن نفساً خلست  
 لطار قلبى إذ رأى      عيدان كرم غرست  
 لأنها من نعم الله      نيا إذا ما أُسست  
 ونعم كثر المقتنى      راح إذا ما التمسست

## الحلال والحرام

ولقد وردت في القرآن الكريم في شأن الخمر آيات أربع . فأول ما نزل فيها بمكة « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » ، فكان المسلمون يشربونها يومئذ وهي حلال لهم . ثم كان ما دعا عمر بن الخطاب ونفراً من الأنصار أن يتقدموا إلى النبي عليه الصلاة والسلام يسألونه الفتوى في الخمر والميسر فإنهما للعقل مذهبٌ وللمال مسئلةٌ ، فنزلت الآية « ويسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » . فترك الخمر قومٌ للإثم الكبير، وشربها قومٌ لما فيها من منافع للناس . ثم كان أن صنع كبير من أكابر الصحابة ، عبد الرحمن بن عوف ، طعاماً ، فدعا ناساً من أصحاب النبي ، وأنهم بخمر فشربوا وسكروا ، وحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلى بهم ، فعرضت له من السكر سقطة في القراءة ، فنزلت الآية بتحريم السكر في أوقات الصلاة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . فرأى قوم أنه لا خير في شيء يحول بينهم وبين الصلاة فتركوا الخمر إطلاقاً ، ومضى قوم على شربها في غير وقت الصلاة . ولكنه لم يلبث أن تكررت الملاحظة والنازعة بين نفر من المسلمين في حال السكر ، وذلك لما يتولد عن السكر عادة من احتياج الحس وارتفاع السيطرة عن حركات النفس ، وكادت أن تقع العداوة والبغضاء بينهم وتحل التفرقة في صفوفهم ، فنزلت الآية « يا أيها الذين آمنوا

(١٣)



إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » . وكان نزول آية التحريم بالمدينة في شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة ، وقيل بعد غزوة الأحزاب بأيام في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

وقد روى أنس بن مالك صاحب رسول الله وخادمه أنه كان ساقى القوم يوم حرّمت الخمر في بيت زوج أمه أبي طلحة زيد الأنصاري — ولم يكن شرابهم إلا الفضيخ من البسر والتمر — فإذا مناد ينادى . فقال أبو طلحة : « أخرج فانظر » فخرج أنس ، فإذا مناد ينادى « إلا إن الخمر قد حرمت » ، فأخرج الناس الحِجَاب<sup>(١)</sup> إلى الطريق فصَبُّوا ما فيها . ومنهم من كسر حُبَّه ، ومنهم من غسله بالطين والماء لتطهيره . ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً كأنما مُطِرت ، وقد استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها .

وقد جاء في الحديث النبوي « الخمر من هاتين الشجرتين : الكرمة والنخلة » . ومن ثمة استقر الناس على أن الخمر المحرمة هي الشراب المتخمر المتخذ من عصير العنب بعد أن يغلى ويقذف الزبد من غير أن تمسه نار ، وكذلك المتخذ من التمر . ويزعم بعضهم أن أولهما هو المحرم بالكتاب والآخر بالسنة .

ثم حدث على أثر ذلك في أيام الصحابة أن بعض المسلمين أخذوا بحرف الحديث الشريف ، فعدلوا عن خمر « هاتين الشجرتين » إلى غيرها مما يتخذ من العسل والحبوب . فقام عمر بين الناس يخطبهم على منبر النبي فيقول : « أما بعد ،

(١) الحِجَاب : جمع حب وهو الجرة الضخمة .

أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر . وهى من خمسة : من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير .

وهكذا وقع الاختلاف منذ عهد الصحابة فى مدلول الخمر ، وما زال يتسع فى عهد الخلفاء الأمويين حتى بلغ مداه فى عصر العباسيين .

ولكنه لم يبلغ أحد من الاجتراء فى هذا الشأن ما بلغه بعض المعتزلة حين تركوا التفاصيل لمن شاء الاختلاف فيها ، وأمرّضوا للأصل بالتأويل . فذهبوا فى تفسير الآية الكريمة إلى أنها غير داعية للتحريم ، فقالوا إن الخمر ليست محرمة ، وإنما نهى الله عن شربها تأديباً ، كما أنه أمر فى الكتاب بأشياء ونهى فيه عن أشياء على جهة التأديب . واحتجاجهم أن الله لو أراد تحريم الخمر لقال « حرمت عليكم الخمر » كما قال « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » .

على أن هذه المقالة لم تخرج عن أنها دعوى جريئة لم يلتفت إليها . فالتحريم عند عامة المسلمين مسلّم به مفروغ منه . وإنما كان الاختلاف بين الفقهاء واقعاً على مدلول الخمر ، وكيفية ما يحل منها وما يحرم . فالمتشددون من ذوى الفيرة على الدين مجمعون على أن التحريم جاء على وجه التعميم ويروون فى ذلك أحاديث للنبي منها « كل مسكرٍ خمر . وكل مسكر حرام » ومنها « ما أسكر كثيره فقليله حرام » ومنها « ما أسكر منه الفرق <sup>(١)</sup> ، فالحسوة منه حرام » وغيرها وغيرها مع أخبار يطول الكلام باستقصائها ، إلا أن ما ذكرناه أغلظها فى التحريم وأبعدها من حيلة التأويل . ويتلخص احتجاج أهل الرخصة والسماح منهم فى أن لفظ الخمر مقصور على عصير العنب فلا يدخل فى الحرمة غيرها من الأشربة ، ويزعم

(١) الفرق أكبر المكاييل عند العرب وهو ستة عشر رطلا .

بعضهم أن المحرم من الأشرية بالسنة فيه فسحة كالقليل من الديباج والحرير ،  
ويروون في ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « حرمت الحمرة بعينها ،  
والسكر من كل شراب » . وقد ذهب فريق إلى أن موجب التحريم للخمر  
المنصوص عليها في الكتاب هو السكر ، ويستدلون على ذلك بأن آية التحريم  
تنص على ما يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وذلك  
يكون في الشراب الكثير دون القليل .

ويحسن التنبيه في هذا الموضع إلى أن الاختلاف بين الفقهاء هنا لا يرجع  
بطبيعة الحال إلى استيلاء شهوة الشراب على فريق وفقدانها عند فريق ، وإنما  
هو اختلاف فقهي مرجعه إلى منهج البحث . فأهل الحديث ، وعلى رأسهم مالك  
ابن أنس ، يعتمدون في استنباط الأحكام الشرعية على الأحاديث النبوية الواردة  
على السنة الرواة وهم كثيرون في المدينة حيث كان مولد الإمام مالك ووفاته .  
وأما أهل الرأي ، وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان ، فلا يعتمدون جميع الأقوال المنسوبة  
إلى النبي ، ولعل ذلك لقلّة رواة الحديث في العراق وضعف مكاتبتهم . وقد بلغ  
من تشديد أبي حنيفة في شروط الرواية أن لم يسلم عنده من الأحاديث على كثرتها  
سوى سبعة عشر حديثاً . فلا جرم يكون مرجع هؤلاء في استنباط الأحكام  
الشرعية إلى القياس المنطقي والدليل العقلي . وإذا عرفنا هذا فقد عرفنا أن  
المتشددين في الشراب هم لا محالة من أهل الحديث ومذهبهم الغالب على الحجاز ،  
وأن المترخصين في الشراب هم من أهل الرأي ومذهبهم الغالب على العراق .

وفي ذلك قول القائل « إنما حرم النبيذ أهل الحرمين وأطاموا الغناء ، وأطلق  
فقهاء العراق النبيذ وحرّموا الغناء ، فنحن نأخذ من الأمرين رخصتي الفريقين  
حتى يجتمعوا على تحريمهما » .

وإلى ذلك يشير بعض الشعراء في قوله :

إِسْتَفْنَى مَا تَمَجُّ سُخْمُ الزَّقَاقِرِ      وَأَقْرَبَ تَمَعَى مَثَانِي الْحُدَاقِ  
رَأَيْنَا فِي السَّمَاعِ رَأْيَ حِجَازِ      يَ ، وَفِي الشَّرْبِ رَأْيَ أَهْلِ الْعِرَاقِ

وقد ذهب ابن الرومي إلى أبعد من ذلك في قوله :

أَبَاحَ الْعِرَاقِيُّ النَّبِيذَ وَشَرَبَهُ      وَقَالَ «حَرَامَانِ: الْمُدَامَةُ وَالسُّكْرُ»  
وَقَالَ الْحِجَازِيُّ «الشَّرَابَانِ وَاحِدٌ»      فَحَلَّ لَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْلِهِمَا الْخَمْرُ

والقارئ لاحتجاجات المحرمين للنبيذ والمُحَلِّين له لا يملك نفسه في حالتها الموافقة والمخالفة من الإقبال على متابعة ما يأتون به من دقائق المعاني وفنون التخريج . ونضرب مثلاً على ذلك نظرية التحريم لعلة الإسكار . فهذه النظرية يصدر عنها المحرمون للنبيذ ، فيقولون إن العلة التي لها حرمت الخمر من الإسكار والصد عن ذكر الله وعن الصلاة قائمة بعينها في النبيذ كله ، فسيبيله سبيل الخمر لا فرق بينهما . فيجيبهم المحلون للنبيذ أن الخمر حرّمها الله تعبدًا لا لعلّة الإسكار ولا لأنها رجسٌ بالمعنى الذي تأولتم ، ولو كان ذلك كذلك لما أحلّها الله للأَنْبياء المتّقدين والأمم السالّفين ، ولا شربها أصحاب محمد صلوات الله عليه في صدر الإسلام قبل التحريم . وإنما جعلها الله رجسًا بالتحريم ، كما جعل السّفَاح معصيةً بالتحريم كذلك ، وإنما هو جماعٌ كجماع النكاح ، وهو عن تراضٍ وبذلٍ كما أن النكاح عن تراضٍ وبذلٍ ، وقد يُبْذَلُ في السّفَاح ما لا يُبْذَلُ في النكاح . فالله تعالى حرّم ما حرّم تعبدًا ، ومن ثمة لا يتناول تحريم الخمر غيرها من الأشربة .

وهذه النظرية نفسها — نظرية التحريم لعلّة الإسكار — يصدر عنها المحلون للنبيذ فيقولون : السكر حرام ، فما كان دون سكرٍ وبعيداً منه فما عليه حظٌّ ولا حجب . فيجيبهم المحرمون : ليس بين شارب المسكر وموافقة السكر حدٌّ



ينتهى إليه ويوقف عنده . فما يعلم شارب المسكر متى يسكر ، كما لا يعلم الناس متى يرقد . وقد يشرب الرجل من الشراب المسكر قدحين وثلاثة أقداح ولا يسكر ، ويشرب منه غيره قدحاً واحداً فيسكر . بل إنه قد يختلف طبع الرجل في نفسه فيسكر مرة من القدحين ، ويشرب مرة أخرى ثلاثة أقداح فلا يسكر .

أما شاعرنا أبو نواس فلم يكن يعنيه من هذه الاحتجاجات شيء . وما عساه يَدْخُلُه فيها ، ولا نفع له من سائر تراخيصها وفتاويها ! فالرجل لا يلد إلا الخمر ، خمر العنب الذي انعقد إجماع المسلمين على أنها محرمة :

يا صاحبَ الخانوتِ لا تَكُ مُشْفِياً      إِنَّ الشَّرَابَ مُحَرَّمٌ كَمَحَلِّ  
فَدِيعِ الَّتِي نَبَذْتَ يَدَاكَ ، وَعَاطِنِي      - لَهِ دُرُّكَ - مِنْ عَصِيرِ الْأَرْجُلِ

لا تَسْقِنِي الدَّهْرَ - إِمَّا كُنْتَ لِي سَكَنًا -      إِلَّا الَّتِي نَصَّ بِالتَّحْرِيمِ جِبْرِيلُ  
إِنْ كَانَ حَرَمُهَا الْفُرْقَانُ بَعْدُ ، فَقَدْ      أَحَلَّهَا قَبْلُ تَوْرَاةُ وَإِنْجِيلُ

فخُذْهَا إِنْ أَرَدْتَ لَذِيذَ عَيْشٍ      وَلَا تَعْدِلْ - خَلِيلِي - بِالْمَدَامِ  
فَإِنْ قَالُوا « حَرَامٌ » قُلْ « حَرَامٌ » ،      وَلَكِنْ اللَّذَاذَةُ فِي الْحَرَامِ  
هَذَا مِنْ جِهَةِ الْكَيْفِ . أما جِهَةُ الْكَمِّ فَهُوَ لَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ  
إِلَّا بِالْقَدَحِ الْكَبِيرِ ، وَيَشْرَبُ أَرْطَالًا بَعْدَ أَرْطَالٍ ، وَلَا يَعْرِفُ حَدًّا لِلشَّرْبِ  
دُونَ السَّكْرِ :

طَرَبْتُ إِلَى الصَّنَجِ وَالْمَزْهَرِ      وَشَرِبِ الْمُدَامَةَ بِالْأَكْبَرِ

نَشْرَبُهَا فِي الْكِبَارِ صِرْفًا      وَلَيْسَ فِي شُرْبِنَا مِطَالُ

إِسْقِنِي - إِنْ سَقَيْتَنِي - بِالْكَبِيرِ      إِنَّ فِي السُّكْرِ لِي تَمَامَ السُّرُورِ

إِنْ شُرِبَ الصَّغِيرُ صُغُرٌ وَعَجَزٌ فَاجْعَلِ الدَّوْرَ كُلَّهُ بِالْكَبِيرِ

لَا تُطْلِعِ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ ضَوْءَهَا إِلَّا وَأَنْتَ فَضِيحَةٌ فِي الدَّارِ  
وصاحبنا لا يغالط نفسه في أمر الخمر، فهو مقرٌّ بما نزل في تحريمها . وإنه ليكاد  
ينظر لهذا كأنما هو المعنى به لبلائه وشقوته ، فتراه يبكي ويندب حظه ،  
ويعمى مع ذلك في شربها ، فما له قدرة على تركها :

بَكَيْتُ ، وَمَا أَبْكِي عَلَى دِمْنٍ قَفَرٍ وَمَا بِي مِنْ عِشْقٍ فَأَبْكِي مِنَ الْهَجْرِ  
وَلَكِنْ حَدِيثٌ جَاءَنَا عَنْ نَبِيِّنَا فَذَلِكَ الَّذِي أُجْرَى دُمُوعِي عَلَى النَّحْرِ  
بِتَحْرِيمِ شُرْبِ الْخَمْرِ وَانْتَهَى جَاءَنَا فَلَمَّا نَهَى عَنْهَا بَكَيْتُ عَلَى الْخَمْرِ  
فَأَشْرَبُهَا صِرْفًا ، وَأَعْلَمُ أَنِّي أُعَزَّرُ فِيهَا بِالثَّمَانِينَ فِي ظَهْرِي<sup>(١)</sup>

وإذا نحن ذكرنا أن الحد في الخمر على أيامه لم يكن على مجرد الشرب وإنما  
كان على السكر ، وإذا ذكرنا فوق ذلك أن السكر الذي يجب فيه الحد — على  
حكم قاضي القضاة في عهد الرشيد — ألا يعرف الإنسان سماء ولا أرضاً ، فإننا  
ندرك مقدار الخمر الذي كان يعبه صاحب هذا الشعر حتى يتعرض للحد .

ثم إن التعرض للحد على السكر ليس غاية ما يعاقب به صاحب الخمر . فالذي  
أعده الله تعالى لمن عصاه فيها أنكى وأمر . ولكن شاعرنا السكير كان لا يملك  
إلا أن يعاقرها مع كامل يقينه بما يحمله فيها من عظيم الوزر :

الرَّاحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهُ فَاشْرَبْ وَإِنْ حَمَلْتُكَ الرَّاحُ أَوْزَارًا  
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى خَمَرَاءٍ صَافِيَةٍ صِرْ فِي الْجِنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنُ النَّارَا  
فالرجل مستهتر فيها مُصرٌّ عليها ، لا كفرًا منه وتحدياً ، ولكنه منجذب إليها

(١) التعزير : اللوم والتأديب والضرب الشديد .

بطبيعته ، ممتزج ماؤها بطبيعته ، لم يَضمِرَ لشيء ما يضمُرُه لها من حب ، وكل همه أن يشربها مع الندامى من أمثاله وحسب :

أَلَا لَا تَلُمْنِي فِي الْعُقَارِ جَلِيسِي      وَلَا تَلْحَنِي - فِي شُرْبِهَا - بُعْبُوسِ  
لَقَدْ بَسَطَ الرَّحْمَنُ مِنِّي مَوَدَّةً      إِلَيْهَا ، وَمِنْ قَوْمٍ لَدَيَّ جُلُوسِ  
وأنه في عجزه عن تركها ليكاد يعتقد عقيدة الجبر في شربه لها :

أَذَاقَنِي الصَّدَّ سُوهُ تَدِيرِي      لِأَنَّ قَصْدِي بَغِيرَ تَقْدِيرِي  
ذَلِكَ لِأَنِّي قَتَى لَهَجْتُ بِمَا      يَخْلُصُ فِي خَالِصِ الْقَوَارِيرِ

ولكنه كان في إصراره هذا على شربها واستهتاره بها يعتمد على أنه مؤمن وأن الإيمان يكفي فيه — على قول المرجئة — التصديق بالقلب ، وأن الله يغفر الكبائر جميعها إلا الكفر :

تَرَى عِنْدَنَا مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ كُلَّهُ      سَوَى الشَّرْكِ بِالرَّحْمَنِ رَبِّ الْمَشَاعِرِ

تَرَى عِنْدَنَا مَا يُسْخَطُ اللَّهُ كُلَّهُ      مِنْ الْعَمَلِ الْمُرْدَى الْقَتَى مَا خَلَا الشَّرْكََا

وَوَقَّتُ بِعَفْوِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ      فَلَسْتُ عَنْ الصَّهْبَاءِ مَا عِشْتُ مُقْصِرَا

غَادِ الْمُدَامَ وَإِنْ كَانَتْ مُحَرَّمَةً      فَلِلْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ غُفْرَانُ

ولقد كان أبو نواس مبغضاً لمن يقول بغير ذلك ، حتى لينبذ مودته وينزع يده من يده ، ولو كان آثر الناس عنده وأقربهم مودة إلى قلبه . ونذكر من ذلك أنه قد صحب في صباه أبا إسحق إبراهيم النظام ثم افترقا حيناً ، فلما التقي بعدها كان النظام قد اعتقد مذاهب المعتزلة وصار على رأس فرقة من فرقهم ، فصار يدعوهم إلى ما ذهبوا إليه من القول بصوم الوعيد ، وصار ينهاه عن أفعاله ، ويقول له إن الكبائر مخلدات في النار . ولم يزل يزعم له أن

مذهب المعتزلة هو الحق حتى ضاق به أبو نواس وفارقه ، ثم هجاه معترضاً به وبعلمه ، وهو من العلم في المنزلة التي يقول عنها الجاحظ المعتزلي « الأوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لا نظيره . فإن صح ذلك ، فأبو إسحق من أولئك » . ومن تعريض أبي نواس به قوله في إحدى خمرياته :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي ، فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ      وداوَنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ  
وَقُلْ لِمَنْ يَدْعَى فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةً      « حَفِظْتَ شَيْئاً ، وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ  
لَا تَحْظُرُ الْعَفْوُ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا حَرِجًا      فَإِنَّ حَظْرَكَهُ بِالَّذِينَ إِزْرَاءُ

فشاعرنا الخليع كان مطمئن النفس إلى أنه مهما يكن من تركه للفرائض وشربه وفسوقه ، فإن هذه المعاصي جميعاً غير مخلّلات له في النار ، إذ لا يكون خلود في النار لغير الكفار . وفوق ذلك كان شاعرنا الخليع شديد الاطمئنان إلى حلم العزيز الجبار ، عظيم الرجاء في عفوه وحسن مغفرته ورحمته التي وسعت كل شيء . والشواهد على ذلك كثيرة في أخباره . منها حديث الأمير أبي العباس بن محمد معه . فقد كان الأمير يتشوق أبا نواس ويميل إليه . فلما رآه وسمع منه ورأى ظرفه وكلامه ، أقبل عليه وقال : « يا أبا علي ! أريد أن أقول لك شيئاً فأستحييك ، وأستحي من نفسي في ترك نصحك . وقد بلغني أنك مكبٌ على المعاصي ، مشتهر بالقبائح والمجون » . فقال أبو نواس : « أيها الأمير ! أما المجنون فكل أحد يقدر أن يَمَجُنْ ، وإنما المجنون ظرف ، ولست أبعد فيه عن حد الأدب أو أتجاوز مقداره . أما المعاصي فإنني أثق فيها بعفو الله عز وجل وقوله تعالى ، فوالله لو أن السندی يقول ما قال الله عز وجل لو ثقْتُ به ، فكيف يقول رب العالمين وهو يقول : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .



ومما يروونه كذلك أنه كان مع شَرِبِ يشربون نبيذاً ، وهو يشرب خمرأ ،  
فدعوه إلى ما يشربون ، وخوفوه الله عز وجل . فقال :

رُدَّا عَلَى الكَأْسِ ، إِنَّكُمَا لَا تَذَرِيَانِ الكَأْسَ مَا تُجْدِي  
لَوْ ذُقْنَا مَا ذُقْتُ مَا امْتَزَجْتُ إِلَّا بِدَمْعِكَا مِنَ الْوَجْدِ  
إِنْ كُنْتُمَا لَا تَشْرَبَانِ مَعِيَ خَوْفَ الْعِقَابِ شَرِبْتُهَا وَحْدِي  
خَوْفَتَانِي اللَّهُ رَبُّكَا وَكَيْفَتِيهِ رَجَاؤُهُ عِنْدِي

والشواهد في أشعار أبي نواس أكثر من أن نحصيها هنا ، فنجتزئ بقوله :

اتْرُكِ التَّقْصِيرَ فِي الشُّرْبِ وَخُذْهَا بِنَشَاطٍ  
مِنْ كَمَيْتٍ كَسْنَا الْبِرَّ قِي أَضَاءَتْ فِي الْبَوَاطِي  
لَمْ — وَعَفُوُّ اللَّهِ مَبْذُورٌ لُغْدًا عِنْدَ الصَّرَاطِ —  
خَلَقَ الْغُفْرَانَ ، إِلَّا لَامِرِي فِي النَّاسِ خَاطِي !  
يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ ، عَفُوُّ اللَّهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ  
أَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ فِي أَصْفَرِ عَفْوِ اللَّهِ يَصْفُرُ

### النبيذ والخمر المطبوخة

ونقف هنا لحظة عن متابعة الكلام في الخمر ابنة الكرم ، لنقول كلمة عن  
النبيذ والخمر المطبوخة ، وهما اللذان اختلف الفقهاء فيهما تحريماً وتحليلاً .

النبيذ لفظ عربي كالنَّبُودُ بمعنى المتروك غير المعصور . وهو كل ما انتبذ في  
الأوعية المتينة فاشتد حتى يُسكر كثيره . وما لم يشتد فلا يسمى نبيذاً . وعلى  
الجملة هو كل شراب مسكر سوى الخمر .

وأقرب الأنبذة إلى الخمر المتخذ من الزبيب ثم التمر ثم العسل ، وما عداها عند القوم ردى .

فأما نبيذ الزبيب ، فمنه النىء وهو النقع ، ولا يشتد ولا يجود إلا بالضرب الوجيع . ومنه المطبوخ ، وصناعته عند المتقدمين أن ينقع الزبيب في عشرة أمثاله ماء مدة يوم ، ثم يطبخ حتى يذهب النصف ، وبعدها يعصر ويصفى ، ويعاد طبخه حتى يبقى ثلثه ، ثم يوضع في الجرار المزفتات مسدوداً ستة أشهر فما دون . ومن أجناسه ما يسمونه رزين الأهواز من زبيب الداقياذ ، وهو من غير أن يسيل سلافه أو يماط عنه ثقله يعود كلون العقيق ، في رائحة المسك الفتيق ، وهو أصلب الأنبذة عريكة وأشدّها خشونة .

ويجىء بعد ذلك النبيذ المتخذ من ثمر النخل ، ومنه السكر من التمر ، ومنه الفضيخ ويتخذ شرابه من البسر والرطب كليهما من غير أن تمسه نار ، وصناعته أن يؤخذ العذق وهو نصفان بسرّ ورطب ، فيخرج منه الرطب فيلقى في الدن ويؤخذ البسر فيشدخ في المناخير<sup>(١)</sup> ثم يطرح مع الرطب لم ينزع له نوى ولا قمع ، ويصبّ عليهما الماء ويتركا حتى يغليا فيه . ومنه الغربى وهو ما اتخذ من الرطب وحده . ومنه الدوشاب البستاني من الرطب الجنى بالحلب الرتيلي ، وهو إذا أوجع ضرباً وأطيل حبساً في الدن أعطى صفوه ، فإذا كشف عنه قناع الطين ظهر في لون الشقر والكمث وسطع برائحة كالمسك .

وأخيراً نبيذ العسل وصناعته أن يصفق بالماء ويوضع على النار حتى يغلى ، فتزج رغوته ويودع بعدها الجرار المقيرة المسدودة ، ويسمى البتع .

وأما الأنبذة الأخرى فلا نعرض لها بتفصيل لعدم احتفال القوم بها وقلة

(١) المناخير : جمع منحاز وهو الهاون .

لهجهم بشربها ، وبعضها من الثمار كأنبذة الكشمش والتين والجزر ، وبعضها من الحبوب كالزرة والسكركة من الذرة والفقاع ، والجمعة من الشعير .

وقد كان أبونواس لا يشرب النبيذ إذا الخمر أمكنت . وفي الخمر أبدع مدائحه وأبرعها ، وكأنما كان يخشى إن هو قصر في مدحها ولم يؤدّ شكرها أن تحرمه درّتها ، فلا يبقى له غير النبيذ يشربه :

غَضِبْتُ عَلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْخَمَّارِ      لَمَّا بِهَا شَبَّهْتُ فِي الْأَشْعَارِ  
قَالَتْ « يُشَبِّهُنِي بِنَارٍ أُجِّجَتْ      تَحْبُو إِذَا نُضِجَتْ بِمَاءِ حَارِ  
وَأَنَا الَّتِي أَزْدَادُ حَسَنًا كُلَّمَا      لَاحَ الْمِزَاجُ كَكُوكِبِ الْأَسْحَارِ  
فَلَنْ لَجَجْتَ لِأَخْرَمَنكَ دِرَّتِي      حَتَّى تَجْرَعَ قَهْوَةَ التَّمَّارِ »

وفي مثل هذا المعنى قوله :

فَاشْرَبْنَهَا مُرَّةً — تَذْ      هَبْ بِالْهَمْ — عُقَارَا  
وَاصْرِفْنَهَا عَنْ أَبِي أَيُّ      وَبَ ، إِذْ تَاهَ فُخَارَا  
بَاعَ رَاحًا بِنَيْذٍ      هَكَذَا ، بَيْعًا خَسَارَا  
مِثْلَ مُبْتَاعٍ بِطَرْفٍ ،      سَبَقَ الْخَيْلَ ، حِمَارَا

وعلى أن هذه الزراية بالنبيذ لا تعدّ شيئاً إلى جنب كراهته الشديدة للخمر المطبوخة . وقد كان الطبخ وسيلة القوم لاستباحة الخمر المجمع على تحريمها وهي المتخذة من عصير العنب . وفي ذلك يقول الجاحظ : ( قد يكون الشيء من جنس الحرام ، فيعالج بضرب من العلاج حتى يتغير بلون يحدث له ورائحة وطعم ونحو ذلك ، فيتغير لذلك اسمه ويصير حلالاً بعد أن كان حراماً ) . ومصدق ذلك ما نجد من مختلف الأسماء للخمر المطبوخة . فهم يسمون العصير المطبوخ «الطلاء»

لأن ما يبقى بعد طبخه يكون شبيهاً بطلاء الإبل في نخبه وسواده . ومن أسمائه « الباذق » معرب عن باده الفارسية، وذلك للعصير الذى يطبخ أدنى الطبخ وتطرح طفاحته<sup>(١)</sup> ويطيب بالأفاويه<sup>(٢)</sup> ويجعل فى الأوعية فيخمر فيكون خمرأ شديداً. وقد يعاد على البُخْتُح الماء الذى ذهب منه ثم يطبخونه بعض الطبخ ويودعونه الأوعية ويخمرونه ، فيأخذ أخذاً شديداً ، ويسمونه « الخمرى » و « المُحْدَب » وأما الذى ذهب فى الطبخ نصفه فيسمونه « المنصف » وهو فى رأى طائفة من الفقهاء المترخصين حلال إلا أنه يكره . فإذا ذهب ثلثاه وبقي ثلثه أسموه « المثلث » وهو عند هؤلاء طُلُق حلال مباح لأهل الملة بيعه وشربه . وبديهى أن الشرب المباح عندهم للطلاء ما كان دون السكر وبعيداً منه .

وقد كان من شيوع « الطلاء » عند المقتونين بالشراب من متحجرة المسلمين أن رأى الخليفة الأموى الورع عمر بن عبد العزيز أن ينفذ رسالة فى ذلك إلى أهل الأمصار ينهى عن شرب الخمر من الطلاء لما يراه فيها من أنها الخمر بعينها ، وإن عولجت بما عولجت وتغير اسمها . وهذا نص المنشور الخليفى :

[ أما بعد ، فإن الناس كان منهم فى هذا الشراب المحرم أمرٌ ساءت فيه رغبة كثير منهم حتى سَفَّه أحلامهم وأذهب عقولهم ، فاستحل به الدم الحرام وفرج الحرائر . وإن رجلاً منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون « شربنا طلاء فلا بأس علينا فى شربه » ولعمري إن فيما قرأتُ مما حرم الله بأساً . وإن فى الأثرية التى أحل الله من العسل والسويق والنبيذ من الزبيب والتمر لمندوحة عن الأثرية الحرام غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا فى أسقية الأدم التى لا زفت فيها ولا يشرب منها ما يسكر ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله

( ١ ) الطفاحة : ما طفع فوق الإناء كزبد القدر . ( ٢ ) الأفاويه : التوابل ونوافج الطيب



عليه وسلم نهى عن شرب ما جعل في الجرار والدباء والظروف المزفة ، وقال كل مسكر حرام . فاستغنوا بما أحلّ لكم عما حرّم عليكم . وقد أردت بالذى نهيت عنه من شرب الخمر من الطلاء وما جعل في الدباء والجرار والظروف المزفة وكل مسكرٍ إظهار الحجة عليكم . فمن يقطع منكم فهو خير له ، ومن يخالف إلى ما نهى عنه نعاقبه على العلانية ويكفيها الله ما أسرّ فإنه على كل شيء رقيب ، ومن استخفى بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ]

وأياً كان رأى فى تحليل الطلاء أو تحريمه ، فإن شاعرنا أبا نواس كان يعاف هذه الخمر المطبوخة التى كان يُقبل عليها عامة الناس . وقد بلغ من عيافه لها ونفوره منها أنه كان وهو المدمن السكير يؤثر الزهد فى الشراب على شربها :

لَمَّا أَتَوْنِي بِكَأْسٍ مِنْ شَرَابِهِمْ يُدْعَى «الطَّلَاءُ» صليباً غير خوارٍ<sup>(١)</sup>  
أظهرتُ نُسكاً ، وقلتُ « الخمر أشرُّها !! »

والله يعلمُ أنَّ الخمرَ إضمارى  
آلى زعيمهمُ بالنَّارِ قد طُبختْ يريدُ مدحَها بالشَّينِ والعارِ  
فقلتُ : « من ذا الذى بالنَّارِ عَذَّبَها لا خَفَّ اللهُ عنه كُرْبَةُ النَّارِ »

ومن نعمة كانت إشاراتِه فى أكثر من موضعٍ من خمرياته إلى أنه إنما يقصد إلى معتقة العقار التى لم تمسها نار :

لَمْ تَزَلْ فى قَمَرٍ دَنٍ مُشعِرٍ زِفْتًا وَقَارًا  
بِنتٍ عَشْرِ لَمْ تُعَايِنِ غَيْرَ حَرِّ الشَّمْسِ نَارًا

لَمْ تَدْنُ مِنْهَا يَدٌ مُذْ يَوْمٍ قَطَّقَهَا وَلَمْ تَعَذِّبْ بِتَدَخِينِ وَنِيرَانِ

(١) الصليب كالصلب : الشديد .

ظَلِمْتُ أُعَاطِيهِ سُلَافَةَ قَرَقَفٍ مُخَدَّرَةٍ عِذَاءٍ مِنْ سَبَى بَابِلَ  
 سَلِيلَةَ كَرَمٍ لَمْ يَفُضَّ خِتَامُهَا وَلَمْ يَلْتَذِعْهَا فِي بَطُونِ الْمَرَاجِلِ  
 يَكُرُّ عَلَيْهَا صَيْفُهَا وَشَتَاؤُهَا وَيَأْتِي عَلَيْهَا قَابِلٌ بَعْدَ قَابِلٍ  
 أَدْرِهَا وَخُذْهَا قَهْوَةً بَابِلِيَّةً لَهَا بَيْنَ بُصْرَى وَالْعِرَاقِ كُرُومٌ  
 وَمَا عَرَفَتْ نَارًا وَلَا قَدَرَ طَابِخٍ سِوَى حَرِّ شَمْسٍ إِذْ يَهْبِجُ سَمُومٌ

وَإِذَا كَانَ قَطَافٌ وَتَوَقَّعَتِ الْعُصَارَا (١)

فَاطْبِخِ الرِّيحَ بِشَمْسٍ فَكُنْ بِالشَّمْسِ نَارًا

طَبَخْتُهَا الشَّعْرَى الْعَبُورَ ، وَحَشَّتْ نَارَهَا بِالظُّهَائِرِ الْجُوزَاءِ (٢)  
 لَمْ يَسْمَعْهَا الطَّاهِي بِمَاءٍ ، وَلَا غَيَّ رَهَا عَنْ طَبِيعَةِ الْكَرَمِ مَاءُ  
 فَالْجَلِّ كَمَا رَأَيْنَا شَدِيدَ الْكَلْفِ بِالْخَمْرِ الْحَرَمَةِ لَا يَحْمَدُ سِوَاهَا . وَأَمَّا الْأَشْرَبَةُ  
 الَّتِي وَقَعَ فِي وَهْمِ الرَّاهِمِينَ أَنَّهَا « شَرَابُ الصَّالِحِينَ » ، فَلَيْسَ يَسْبِغُ نَوْعًا مِنْهَا  
 طَلَاءٌ كَانَ أَوْ نَبِيذًا :

يَا ابْنَةَ الشَّيْخِ أَصْبَحِينَا مَا الَّذِي تَنْتَظِرِينَا

قَدْ جَرَى فِي عُودِهِ الْمَاءُ ، فَأَجْرَى الْخَمْرَ فِينَا

إِنَّمَا نَشْرَبُ مِنْهَا — فَأَعْلَمِي ذَلِكَ يَقِينَا —

كُلٌّ مَا كَانَ خِلَافًا لَشَرَابِ الصَّالِحِينَ

## صناعة الخمر

ولما كانت الخمر المتخذة من عصير العنب هي المدار الذي عليه تدور خريات

(١) العصار : ما تحلب من العصير .

(٢) حش النار : أوقدها ، الظهائر : جمع ظهيرة ، حد انتصاف النهار .

أبى نواس . فليس عليها بمستكثر أن تختصها بهذا الفصل مفرداً لها مقصوراً عليها .  
 ونبدأ بصفة العنب الذى منه تتخذ الخمر . وهو أشهر من أن يُعرف . ويختلف  
 بألوانه ، فنه الأبيض والأحمر والأسود ، كما أنه يختلف بحسب السكب والاستطالة  
 وغلظ القشر وحجم البزر أو عدمه وكثرة الشحم أو قلته ومقدار الحلاوة . وأجوده  
 الكُبار ، الرقيق القشر ، القليل البزر ، الحلو . وقد ذكر مؤلفو العرب من أنواعه  
 الجُرَشَى وهو أطيب العنب كله ، ولونه أسحر — وهو المغبر فى حمرة — وعناقيد  
 طوال ، وحبّه متفرّق . ومنها الأقماعى وهو غلة الناس وأصل العنب الذى عليه  
 يُعتمد ، وهو أبيض فإذا انتهى اصفرّ فصار كالورس ، مكتنز العناقيد ، وحبّه  
 كبارٌ مدحرج كثير الماء ، وليس وراء عصيره غاية فى الجودة . ومنها السُكَّر وهو  
 أبيض رطب عذب من طرائف العنب . وأطراف العذارى وهو أبيض طوال يشبه  
 بأصابع العذارى المخضبة لطوله . والضُّروع وهو أبيض عظيم العناقيد كبار الحب  
 قليل الماء . والنواسى وهو الشامى ، أبيض كثير العناقيد مدحرج الحب كثير  
 الماء حلو . ومنها عيون البقر وهو أسود ليس بالخالك ، عظام الحب مدحرج  
 وليس بصادق الحلاوة . والدّوالى وهو أسود غير خالك ، وعنبه مدحرج جاف  
 يتكسر فى الفم وعناقيد أعظم العناقيد كلها .

وفى مجانى هذه الكروم تنتشر النواطير لحراسة قطوفها إلى يوم القطاف .  
 ولقد ترك لنا أبو نواس وصف ناطور من هؤلاء أصلع شرس ، وهو فى قميصٍ بالٍ  
 وسراويلٍ قصار :

كُرمٌ تَخالُ على قُضبانٍ تَخْلتهِ      يومَ القِطافِ له - هَامَاتِ حُبْشانِ  
 وحولها حارِسٌ ذو صِلَةٍ شَكسٌ      عِلجٌ يدور ، أخو طَيْرٍ وتُبَّانٍ<sup>(١)</sup>

(١) التبان : السروال القصير . الطمر : الثوب البالى .

كما ترك لنا وصف خيمة ناطورٍ منهم في رأس رابية مُنيقة يمتد على سفوحها  
عرائش الكروم ، وحكى ما كان من نزوله وأصحابه بالخيمة يتفَيَّئون ظلها في وقدة  
المجير ، ودعوته إياهم للمنادمة على معتقة من ماء هذه الكروم قد اتخذها الناطور  
ذخيرة من سنين يبيع منها لمن عاج بحيمته من المتنزهين ، حتى إذا خيم الليل ومدّ  
على خيمة الناطور رواقه ، استرسل شاعرنا الخليع وندمانه إلى ما تعودوه بعد  
السكر من خلاعة وفجور :

وخيمة ناطورٍ برأسٍ مُنيقةٍ	تهمُّ يداً من رامها بزليل <sup>(١)</sup>
إذا عارضتها الشمسُ فامتَّ ظلالها	وإن واجهتها آذنتُ بدُخول
حططنا بها الأثقالَ فلَّ هَجيرةٍ	عبوريةٍ تُذكى بغير فتيل <sup>(٢)</sup>
تأيت قليلاً ثمَّ فامتَّ بمذقةٍ	من الظلِّ في رثِّ الأباء ضئيل <sup>(٣)</sup>
كأننا لديها بين عطفي نعامٍ	جفا زورها عن مبركٍ ومقيل <sup>(٤)</sup>
حلبت لأصحابي بها درة الصبا	بصبياء من ماء الكروم شمول
إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى	دعا همُّه من صدره برحيل
فلما توفى الشمس جُنح من الدُجى	تصابيتُ واستجملتُ غير جميل
...	...

ويدرك العنب في شهر تمّوز في أول الصيف ، ويدوم إلى كانون في أواخر

- 
- (١) الناطور : حافظ الكرم أو الزرع . الزليل : الزلل .  
(٢) يقال رجل فل وقوم فل أى منهزم ومنهزمون . والمراد غلبة الهجيرة عليهم ونبيلها منهم .  
عبورية نسبة إلى الشعري العبور ، لأنها إذا طلعت بالنداء فهو أشد الحر .  
(٣) تأيت : تلبست . المذقة : المزجة . من مذاق الشراب مزجه ، والمراد الظل الشفيف .  
الأباء : جمع أباءة وهى القصبة . (٤) الزور : أعلى وسط الصدر .



الخريف . فإذا جان أوان القطاف اجتمع الأجراء من الجُناة في مجانى الكرم بين الزياط والهرج والتطريب ، وظلوا أياماً يعملون المقاضب في أصول العناقيد لا يدعون عنقوداً ولا عُنيقيداً إلا قطعوه . وهم يجمعون ما يجنونه في المكاتل<sup>(١)</sup> يحملونها إلى المعصرة غير بعيد من الكروم .

## المعاصر

والمعصرة كانت حوضاً كبيراً مستطيلاً واسع الجوف قميماً ، ولهذا الحوض مَنَعَبٌ<sup>(٢)</sup> أو أكثر من مشعب يجري منه ما يسيل بالمعصر إلى حوض أصغر منه يجتمع فيه العصير ، على نحو ما استدل عليه الباحثون في التاريخ القديم لأرض فلسطين ، وكما يُستدل من أوصاف آنية الخمر عند العرب في كتب اللغة . وهذه المعاصر في البلاد الجبلية مثل فلسطين كانت تنقر في الصخر ، وهي حوضان في سفح الراية ، الحوض الكبير ثم يليه أسفل منه الحوض الصغير . وأما في البلاد غير الصخرية فتتخذ المعاصر من خشب . وما من شك في أن صناعة المعاصر قد ارتقت كغيرها من الصناعات مع انفساح دولة العرب وأخذهم بأسباب الحضارة . والحوض الكبير الأعلى هو المقصود على وجه التحقيق بلفظ المعصر أو المعصرة . وفيه تلقى الأعناب بعضها فوق بعض بعناقيدها أو منزوعة عن ثفاريقها<sup>(٣)</sup> ، فلا تلبث للضغط الحاصل من طباقها المتراكبة أن يسيل ماؤها ويتحلَّب وحده من قبل المعصر ، وهذا العصير الأول يسمونه السُّلاف أو السلافة ، واسمها عند الروم بروتوبون Protopon واشتقاق الكلمة الرومية كالمرية فيه معنى السِّلَف وهو المتقدم في كل شيء . والسلافة عندهم جميعاً أفضل الخمر .

(١) المكمل : زنبيل من خوص . (٢) المشعب : مسيل الحوض .

(٣) الثفاريق : أقماع حب العنب .

سُلَافَةٌ لَمْ تَعْتَصِرْهَا يَدٌ وَلَمْ تُدَنَّسْهَا الْمَعَصِيرُ  
 شَمَطَاهُ تَأْتِي أَنْ يَدُوسَ أَدِيمَهَا قَدَمُ الرَّجَالِ وَمَا بِهَا اسْتِكْبَارُ  
 مُشَغَّشَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْكُرُو م سَالَتْ نِطَافًا وَلَمْ تُعَصِّرْ<sup>(١)</sup>

ثم يُقبلون بعد ذلك على الأعناب في الحوض يتناولونها بالعصر إما مَرَسًا  
 بالأيدي أو دهسًا بالأرجل ، أو يستعينون في عصرها بالعواصر وهي ثلاثة أحجار  
 غلاظ ثقال :

فَدَعِ الَّتِي نَبَذَتْ يَدَاكَ ، وَعَاطِنِي — اللَّهُ دُرُّكَ — مِنْ عَصِيرِ الْأَرْجُلِ  
 لَمْ تَدَنْ مِنْهَا يَدٌ مِنْ يَوْمِ قَطَّقْتُهَا وَلَمْ تُعَذَّبْ بِتَدَخِينِ وَنِيرَانِ  
 حَتَّى إِذَا غُصِرَتْ سَالَتْ سُلَاقَتُهَا فِي قَعْرِ مَعْصِرَةٍ كَالْعَنْدَمِ الْقَانِي  
 وَهَذَا الَّذِي عُصِرَ بَعْدَ السُّلَافِ يَسْمُوهُ النَّظْلُ وَيَجِيءُ بَعْدَ السُّلَافِ فِي الْجُودَةِ .  
 ثُمَّ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعَاوِدَةِ الْعَصْرِ الشَّدِيدِ بَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ أَقْلَهَا جُودَةٌ .  
 وَبَدِيهِي أَنْ تَحَلَّبَ السُّلَافَةُ مِنْ غَيْرِ عَصْرِ يَسْتَفِرُقُ أَيَّامًا . وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي  
 اسْتِخْرَاجِ النَّظْلِ وَمَا بَعْدَهُ بِالْعَصْرِ . وَأَشْيَعُ طَرَائِقِ الْعَصْرِ كَانَ الدَّوسُ بِالْأَقْدَامِ ،  
 وَيَقُومُ بِهِ أَكْثَرُ مِنْ رَجُلٍ عَلَى حَسَبِ الْحَوْضِ وَهُمْ عَرَاةُ الْأَقْدَامِ وَالسِّيقَانِ ،  
 وَقَدْ تَخَضَّبَتْ سُرَاوِيلُهُمْ وَقَصَانُهُمُ الْمَشْمُورَةُ بِرَشَاشِ الْعَصِيرِ مِنْ تَوَثُّبِهِمْ بِقُوَّةٍ وَعَنْفٍ  
 فَوْقَ الْأَعْنَابِ الْمُتَفَقِّئَةِ .

ولما كانت جراثيم الاختمار المعروفة بجراثيم فُطْرِ السُّكَّرِ موجودة دائماً على  
 جلد الأعناب الناضجة ، فإنها حين تتفقأ ويسيل عصيرها يختلط به دِقَاقُ

(١) النطاف : جمع نطفة ، الصافي من الماء .

الغبار الذى فيه تعيش تلك الجراثيم فضلاً عما يحدثه التعرض للهواء . ومن ثمة يبدأ الاختمار ويستهلّ فعله . وفى عصير العنب كل ما يُحتاج إليه لتغذية هذه الخميرة ، ففيه مقدار عظيم من السكر يبلغ أحياناً خمسة عشر فى المائة ، ومقادير قليلة — ولكنها كافية — من المواد الأزوتية والفوسفاتية والدهنية لالتزيد وغيرها من مركبات العصير على الخمسة فى المائة ، وأما الثمانون فى المائة من العصير فماء كما هو معلوم .

وهذا العصير يودع الأوعية المتينة ليمضى فى الاختمار .

### الزقاق والجرار

وكان يُتخذ للتخمير والتعتيق أنواع الجرار من الفَخَّار ، والزقاق من الجلد . وكانت الزقاق من جلدٍ يُجَزُّ ولا يُنتف و بره ، كما يدل عليه قول ابن الهندي :  
تَضَمَّنْهَا زَقٌّ أَزَبٌ ، كَأَنَّهُ صَرِيعٌ مِنَ السُّودَانِ ذَوْشَعَرٍ جَعْدٍ<sup>(١)</sup>  
ويقال لزقاق الخمر الذوارع ومفردها ذارع . ثم الأداوى ومفردها إداوة ، وهى الأوعية الصغيرة للخمر تتخذ أيضاً من الجلد :

فَقَالَتْ: «مِنَ الطَّرَاقِ» . قَلْنَا: عَصَابَةٌ خِفَافُ الْأَدَاوَى تُبْتَغَى لَهَا الْخَمْرُ

وقد تكون هذه الأوعية مُقَيَّرَةً كما فى قول الهذلى :

سَلَاةٌ رَاحٍ ضَمَّنَتْهَا إِدَاوَةٌ مُقَيَّرَةٌ رِذْفٌ لُمُوخِرَةُ الرَّحْلِ

وظاهر أن الغرض من ترك الوبر فى الأدم ومن تقييره هو سد المسام فى

(١) الأزب : الكثير الشعر .

الأوعية ليستد التخدير ويجود التعتيق . وهذه هي حكمة نهى النبي عن الانتباز في الدباء والمزفت .

ولأبي نواس أوصاف كثيرة في هذه الزقاق المتخذة من جلود الغنم السلوخة سليمة كاملة على هيئتها وقد ملئت بالشراب فارتفعت قوائمها ، وهو معنى قولهم الشاصيات ، مع الإشارة إلى لونها الأسود الساحم السواد :

وَجَرَّ زِقًا كَأَنَّهُ رَجُلٌ مَفْصَلُ السَّاعِدَيْنِ مِنْ حَامٍ

وبنت كرم سَفَكْنَاهَا بِدَرْهَمِنَا مِنْ بَطْنِ أَسْحَمٍ مُسَوِّدٍ ، وَمَا سَفَكَا  
كَأَنَّ أَكْرُعَهُ أَيْدٍ مُقَطَّعَةٌ لَا يَرْتَجِي قَوْدًا مِنْهَا وَلَا دَرَكًا<sup>(١)</sup>

حتى تُلَاقِي رَبَّ شَاصِيَاتٍ مُحْتَطَبَاتٍ لَا تُخَضِّرَاتٍ

إذا نَزَفُوا زِقًا أَقْتُ مَكَانَهُ مِنَ الشَّاصِيَاتِ السُّودِ مُحْزُوزَةِ الظَّهْرِ  
وأكبر الظن أن الزقاق في أيام أبي نواس كانت تتخذ لحفظ الخمر . أما التخدير والتعتيق فكان معظمه في الجرار .

وكانت الجرار يقيم باطنها بالزفت كذلك لليلة التي تقدم بيانها في الزقاق ، ثم يسدون على فيها بالطينة . ومن قول أبي نواس في صفتها :

مِنْ قَهْوَةٍ لَمْ تَزَلْ تَنْخَفِ وَيُحْجِبُهَا كُنُّ الْحَرَائِرِ عَصْرًا بَعْدَ أَعْصَارٍ  
ظَلَّتْ مِنَ الدَّهْرِ أَرْمَانًا مُخَدَّرَةً بِصَوْنِهَا كَنْفٌ مِنْ بَيْتِ خَمَارٍ  
مِنْ قَمَرٍ أَجْوَفَ ذِي سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ نَيْطَتْ بَدَنَ عَظِيمِ الْبَطْنِ هَذَارٍ

(١) القود : القصاص . الدرك : اللحاق ، يريد إدراك الثأر .



مُمَازَجِ الْخَلْقِ، مِنْ زِفَتِ إِطَانَتِهِ وَالظَّهْرِ مِنْ فَوْقِهِ بِنْيَانُ فَخَّارٍ  
 مِنْ خَنْدَرِيسٍ لَجَامُهَا خَزَفٌ وَثَوْبُهَا الْمُسْتَكِينُ مِنْ قَبْرِ  
 وَهَذَا الْقَارِ الَّذِي يَتَبَطَّنُ بِهِ الْجَرَّ كَانَ يَتْرَكُ لَا مُحَالَةَ أَثَرُهُ فِي لَوْنِ الْحَرِّ فِي نَكَبَتَيْهَا:  
 فِيهِ مُدَامٌ كَعَيْنِ الدِّيَكِ صَاقِيَةٌ مِنْ مَسَكٍ دَارِينَ فِيهَا نَفْحَةُ الْقَارِ

كَأَنَّمَا شَرِبَتْ مِنْ نَفْسِهَا جُرْعَةً فَازْدَادَ مِنْ لَوْنِهَا فِي بَاطِنِ الْقَارِ  
 وَلِلْجَرَارِ مِنَ الْفَخَّارِ أَسْمَاءٌ عَدَّةٌ عَلَى حَسَبِ هَيْئَاتِهَا وَأَحْجَاءُهَا . مِنْهَا الدَّنَانُ  
 وَأَسْفَلُهَا كَهَيْئَةِ الْعَصَاعِصِ<sup>(١)</sup> فَلَا تَقْعُدُ إِلَّا أَنْ يَحْفَرُ لَهَا . وَالْحَبَابُ وَهِيَ أَكْبَرُ  
 مِنَ الدَّنَانِ ، وَالْقِلَالُ دُونَ الْحَبَابِ الْعِظَامُ ، وَالْخَوَابِي مَا عَظُمَ مِنَ الدَّنَانِ ، وَالرَّوَاقِيدُ  
 أَصْغَرُ مِنَ الدَّنَانِ ، وَالْحَنَاتِمُ الْخَضِرُ مِنَ الرَّوَاقِيدِ .

فَاسْتَوْدَعُوهَا رَوَاقِيداً مُزْفَقَةً مِنْ أَغْبَرٍ قَاتِمٍ مِنْهَا وَغَبْرَاءُ  
 فَاتَّحَفْنَا الْخَمَّارُ عِنْدَ طُرُوقِنَا بَرَاقُودَ خَمْرِ شَكٍّ فِي جَنْبِهِ شَكًّا  
 فَضُمْنَ صَفْوُ مَا يَجْنُونَ مِنْهَا خَوَابِي - كَالرَّجَالِ - مُقَبَّرَاتٍ  
 ثُمَّ أَتَتْ فِي الْحَبَابِ يَخْفَرُهَا مَشْيُ هَوَيْنِي مَا لِنْ بِهِ نَزَقُ<sup>(٢)</sup>

وَقَدْ تَكَرَّرَ وَصْفُ شَاعِرِنَا لِلظَّاهِرِ هَذِهِ الدَّنَانِ وَأَثَرِ تَقَادُمِ الْعَهْدِ بِهَا وَتَطَاوُلِ الْأَيَّامِ  
 عَلَيْهَا بِمَا تَرَاكُمُ فَوْقَهَا مِنْ غُبَارِ الْهَوَاءِ وَنَسِجِ الْعَنْكَبُوتِ الْخُرْقَاءِ ، وَبِمَاتِحَاتٍ مِنْ  
 رَدَّوْسِهَا وَتَفْتَتٍ مِنْ سِدَادِهَا :

(١) الْعَصَاعِصُ جَمْعُ عَصَصٍ : عَظْمُ الذَّنْبِ . (٢) يَخْفَرُهَا : يَحْمِيهَا وَيُوْنِئُهَا أَنْ تَقْعُ .

لَبِثْتُ فِي دِنَانِهَا أَلْفَ شَهْرٍ      لَمْ تُقَمَّصْ وَلَمْ تُدَنَّسْ بِنَارِ  
 نَسَجَ الْعَنْكَبُوتُ بَيْتًا عَلَيْهَا      وَعَلَى دَنِّهَا دِقَاقُ الْغُبَارِ  
 أَلَسْتَ تَرَاهَا قَدْ تَعَفَّتْ رُسُومُهَا      كَمَا قَدْ تَعَفَّتْ لِلدَّيَّارِ رُسُومُ  
 تَحُومُ عَلَيْهَا الْعَنْكَبُوتُ بِنَسَجِهَا      وَلَيْسَ عَلَى غَيْرِ الدَّنَانِ تَحُومُ  
 أَشَقُّ عَنْهَا — وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ —      مُهْلَهْلَ النَّسْجِ مَا لَهُ هُدُبُ  
 مِنْ نَسْجِ خِرْقَاءٍ لَا تُشَدُّ لَهَا      آخِيَّةٌ فِي الثَّرَى وَلَا طُنْبُ<sup>(١)</sup>

أَقَامَتْ فِي الدَّنَانِ فَلَمْ يَضِرْهَا      وَلَكِنْ زَانَهَا طَوْلُ الْمُقَامِ  
 أَشْبَهَهَا وَقَدْ صُفَّتْ صَفُوفًا      بِأَشْيَاخٍ مُعَمَّمَةٍ قِيَامِ  
 يَشُجُّ الْقَطَرُ أُرُوسَهَا، وَيَسْفِي      عَلَيْهَا الرِّيحُ عَامًا بَعْدَ عَامِ  
 إِلَى أَنْ لَمْ يَذَرْ دَهْرٌ عَلَيْهَا      بِهَا طِينًا وَلَا أَثَرَ اخْتِامِ  
 فُجَاءَتْ كَالْذَّمُوعِ صَفَا وَحُسْنًا      كَقَطْرِ الطَّلِّ فِي صَافِي الرِّخَامِ

### تدبير التخمير

وكانت هذه الدنان المزفتة « المقيرات » ، المشتعلة على عصارة العنب ، توضع في الشمس زمناً حتى يطبخها حرُّها من غير أن تسمها نار . وهذا التشميس يجعلها في قولهم رقيقة لطيفة الإسكار :

فُجَاءَ بِهَا قَدْ أَنْهَكَ الْغَمُ جَسَمَهَا      وَأَوْجَعَهَا فِي الصَّيْفِ حَرُّ الْمَجَائِرِ<sup>(٢)</sup>

(١) الآخية : حبل يدفن في الأرض ذو حلقة تشد فيها الدواب ، والطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد . الخرقاء : وصف للعنكبوت (٢) الغمو : التغطية بالخشب والطين .

من كَمَيْتٍ أَرْقَمَهَا وَهَجَّ الشَّمْسُ ، وصُيْفٌ تَغْلَى بِهِ وَشْتَاءُ  
 نَحَضَّتْهَا كَوَاكِبُ الْقَيْظِ حَتَّى أَقْلَمْتُ عَنْ سَمَائِهَا الْأَقْدَاءُ  
 ثُمَّ تَوَضَّعَ بَعْدَهَا فِي ظِلِّ مَمْدُودٍ وَارِفٍ . وَأَوْفَقَ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي كَنْفٍ  
 لَا يَنَالُهُ الْهَوَاءُ :

فِي دِنَانٍ مُسْنَدَاتٍ مُعْلَمَاتٍ بِمَدَادٍ  
 بَيْنَ أَفْيَاءِ عَرِيشٍ عَمَدُوهُ بِعِمَادٍ

قَدْ غَبَرَتْ ، فِي الدَّنَانِ مَسْكِنُهَا وَتَحْتَ ظِلِّ الْعَرِيشِ مَأْوَاهَا

فَهِيَ فِيهَا عَرُوسٌ خَدِيرٍ وَكِينٍ رُبِّيَتْ فِي النِّعَمِ بَعْدَ النِّعَمِ  
 فِي ظِلَالٍ مَحْفُوفَةٍ بِظِلَالٍ مِنْ كُرُومٍ وَمِنْ عَرِيشِ كُرُومٍ  
 وَهَذَا التَّعَاقُبُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ وَبَرْدِ الظِّلِّ يَفْعَلُ فَعْلَهُ فِي الْحَرِّ ، فَإِذَا هِيَ عَلَى  
 حَدِّ وَصْفِهِ :

عُتِقَتْ فِي الدَّنَانِ حَتَّى أَفَادَتْ نُورَ شَمْسٍ الضُّحَى وَبَرْدَ الظَّلَالِ  
 وَمِنْ الدَّنَانِ مَا كَانَ بَعْدَ تَشْمِيسِهِ يَدْفَنُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ مَكْنُونًا مَصُونًا عَنْ  
 تَقَلُّبِ الْجَوِّ وَاخْتِلَافِ الْفُصُولِ :

فَسَقَنِيهَا سُلَاقًا سَلَسَلًا حُجِبَتْ فِي دَنْهَا حِقْبًا فِي رُكْنٍ دِيمَاسٍ<sup>(١)</sup>

كَانَتْ مُحَبَّأَةً فِي الدَّنِّ قَدْ عَانَسَتْ فِي الْأَرْضِ مَدْفُونَةً فِي بَطْنٍ تَابُوتٍ

(١) الدِّيمَاسُ : الْخَفِيرُ تَحْتَ الْأَرْضِ .

فصانها في مغار الأرض ، فاختلفت على الدفينة أزمان<sup>١</sup> وأزمان<sup>٢</sup>

وحسبنا للدلالة على تعدد أساليب أهل ذلك العصر في معالجة تخمير القطاف في شتى الأحوال ومختلف الأقاليم ، وعلى بصرهم بتدبير الحرارة اللازمة لجودة الخمر ، واحتياهم على ذلك بما كان في ميسورهم من وسائل التدفئة والتبريد على حسب الاقتضاء ، أن نسوق للقارى هذه الشواهد من شعر النواصي :

سقانى أبو بشرٍ من الرّاح شربةً لها لذةٌ ما ذُقْتُها لشرابٍ  
وما طبخوها ، غيرَ أن غلامهم مَشى في نواحي دنها بشهابٍ  
مَحْجوبة في مَقيلٍ حَوَّبتها تسعين عاماً مَحْسوبة العَدَدِ<sup>(١)</sup>  
لم تعرفِ الشَّمسُ أنها خِلقت ولا اختلافُ الحرورِ والصَّرَدِ<sup>(٢)</sup>  
بين فسيلٍ يَحْفُها خضِلٍ وبين آسٍ بالزَّيِّ مُنْفَرَدِ<sup>(٣)</sup>

## أدوار الاختمار

ومؤدى الاختمار تحويل ما يستطاع تحويله من المادة السكرية في عصير العنب إلى كحول. والشراب المختمر يغلى أثناء ذلك وتزيد درجة حرارته ، ويحصل مع السائل الكحولى أيضاً غاز هو غاز ثانى أكسيد الكربون ، وهو يتصعد فيسمع لتصعده في العصير الآخذ في الاختمار غرغرة وبقبة ، ثم هو في تصعده يحمل معه النفل — من بقايا قشور العنب وبزره وغيرها من الجوامد غير الذائبة — إلى سطح الشراب ، وتتجمع من ذلك كتلة كالرغوة ذات مسام يسمونها الطفاحة

(١) الحوبة : وسط الدار . (٢) الحرور : حر الشمس ، الصرد : البرد .

(٣) الفسيل : جمع فسيلة وهى النخلة الصغيرة . خضل : ندى مبتل .



وتبقى هذه الطفاحة - بطبيعتها الرغوية وفعل الغاز المتصعد المتعاقب بها - عامة طوال مدة الاختمار . ولا يلبث الكحول الحاصل في العصور أن يصمد إلى محاربة خميرة الفطر التي هو وليدها ، فيكسر من شوكتها ويفل من حدتها ، فيضعف الغليان ويخف الهدير ، حتى إذا أربى مقدار الكحول وبلغت نسبته اثنتي عشرة أو أربع عشرة درجة في المائة تغلب على خميرة الفطر فأثى عليها وقتلها . وحينئذ يقف الاختمار وينتهي فعله ، وترسب الطفاحة ويصفو الشراب وتحصل منه الخمر . وإذا تركنا هذه اللغة العلمية المحدثه ، واقتصرنا على المتعارف في كلام القوم قلنا إن عصارة العنب لا تلبث في الدنان بضعة أيام حتى تنشط فيها حركة الاختمار ، فيسمع لها في بادئ الأمر نَشٌّ خفيف ثم تضطرب وتهيج ، ثم يشتد غليانها فتصخب وتهدر وتقذف بطفاحتها . فيصبر عليها حتى تنفي زبدها ويقر هيجها ويسكن هدرها . فتكون الخمر قد خلصت وصفت ، وراقت ورقّت ، وأشرق لونها ، وتفتق عرقها :

أَقَامَتْ حِقْبَةً فِي قَعْرِ دَنْ      تَفُورُ وَمَا يُحَسُّ لَهَا لَهِيْبُ  
كَأَنَّ قِرَاتِهَا فِي الدَّنِّ تَحْكِي      قِرَاةَ الْقَسِّ قَابِلَهُ الصَّلِيبُ<sup>(١)</sup>

أَنْتِ زَمَانًا كَمَا أَنَّ الْمَرِيضُ ، وَلَمْ      تَبْرَأْ ، فِدَافِعَ عَنْهَا الْخَالِقُ الْبَارِي

مِنْ مَدَامٍ مَعْتَقٍ أَخْرَسَتْهُ      حِقْبَةُ الدَّاهِرِ بَعْدَ طَوْلِ الْهَدِيرِ

فَقَرَّتْ عَنْ تَرَنُّمٍ قَدْ حَسَبْنَا      هُ حَدِيثَ الْمُبْرَمِّ الْمَحْمُومِ<sup>(٢)</sup>

(١) قراتها : أى قراتها والمراد صوت غليانها .

(٢) المبرم : المصاب بالتهاب في الحجاب الذى بين الكبد والقلب .

بنتُ دهرٍ هُجِرَتْ في دنِّها ورَمَتْ كُلَّ قَذَاةٍ وَدَنَسٍ

حتى إذا ما صَفَتْ في دنِّها بُزِلَتْ حمراء تذهبُ عنكَ الهمُّ والبُوسا

وُعُمِّرَتْ حِقَبًا في الدنِّ لم يَرَهَا حَيٌّ من الناس في صُبحٍ وإمساء

حتى إذا سَكَنْت في دنِّها وَهَدَتْ من بعد دَمْدَمَةٍ منها وضَوْضَاء

جاءت كشمسٍ ضُحَى في يومٍ أَسْعَدَهَا من بُرْجٍ لهُوٍ إلى آفاقٍ سَرَاء

### درجات العتق

وهم يسمون الشراب الحديث الذي لم يتعد ستة أشهر ولم تنزل فيه حلاوةٌ

مُسْطَارًا أو مصطارًا . واللفظ رومى معرب أصله Mustum ( ومنه Must

بالإنجليزية و Moût بالفرنسية وهو عصير العنب الحلو قبل أن يصير خمرًا )

وقد ذهب أطباؤهم إلى أن الشراب الحديث جدًا لا ينبغي أن يُشرب لأنه

لا يمرى الطعام ويكدر ما يستمرى ، وهو إلى ذلك بطيء الانحدار والنفوذ يبقى

في المعدة مدةً طويلة فتسرع معه الحموضة ، وليس يصلح لغذاء البدن ولا يعين

على توليد الدم .

أما الشراب المتوسط فما كان بين الحديث والعتيق ، وهو الذي يسلم سنة .

ومن أقوالهم : « اللحم لوقتته ، والخبز ليومه ، والشراب لسنته » . وقد ذهبوا إلى

أن الشراب المتوسط ليست فيه مضرةٌ الحديث ولا مضرة القديم . ولذلك

يُختار في الصحة وفي حال المرض . وفي هذه الخمر التي استوفت حولاً كاملاً يقول

شاعرنا قوله المشهور :

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحِلاَّ وقامَ وزنُّ الزمانِ واعتدلاً  
وغنَّت الطيرُ بعدَ عُجمتها واستوفت الخمرُ حَوَها كَمَلاً  
ويبلغ الشرابُ المتوسطُ أقصى حدِّه ويؤذنُ بتجاوز طوره حينَ يناهزُ أربعَ  
سنينَ . وفي حدِّه الوسط يقول النواسي ولا يخلو قوله من شبهة الانطباع للقافية  
والنزول عند حكمها :

سُخَامِيَّةٌ لَمْ تَقَطْعِ السَّنُ مَتْنَهَا لَهَا مُذْ ثَوَتْ فِي دَنِّهَا سِنَتَانِ<sup>(١)</sup>  
والشراب الذي يتجاوز أربع سنين يسمونه العتيق . وينصحون لمن كان في  
عصبه وسائر حواسه ضعف أن يحذره . ويقولون إن المزاج الكثير بعله ويسلم  
من مضرته . ويزعم أبو نواس أن العتيق هذا بداية الحرام :

فاسْقِنِيهَا سُلَافَةً بَنَتْ عَشْرِي دَبًّا فِي جِسْمِهَا غِذَاءَ الْحَرَامِ  
وقد يسمون الذي فات السنين الأربع لا إلى نهاية بالقديم . ولكنهم ذهبوا  
إلى أن أجود القديم من خمس عشرة سنة إلى أربعين ، وهو أعظم نكابةً من  
العتيق لا محالة .

وأما ما زاد في القدم على هذا الحد فإنه يتناقض حتى يعدم نفعه في الثمانين ،  
كما ورد فيما بين أيديهم من كتب الحكمة القديمة . ولعل هذا القول هو الذي  
حدا شاعرنا المولع بالخمرة القديمة منذ عهدٍ متطاولة يبالغ في مدتها إلى حد الإحالة  
أن يشير في صفة قدمها هذه الإشارة مدافعاً عنها :

أقامت في الدُّنَانِ فلم يَضِرْهَا ولكن زانها طولُ المقامِ

(١) السخامية : الخمر السلة .

موصوفة بفنون الطيب ، طال لها عمرٌ فلم تعد أن رقت حواشيها

لم يذهب الدهرُ عنها حدسُورَتها ولم ينفك الأذى في دهرِها الخالي  
والغالب في غير الكلام العلمى استعمال النعتين العتيق والقديم كلٌّ في موضع  
الآخر . وقد تتابعت الشعراء على مدح الشراب بالعتق والقدم .

### أسماء المعتقة وخصائصها

وقد رأينا في سائر ما تقدم بنا من خريات أبي نواس ، أنه حين يمتدح الخمر  
ويثني عليها بالآنها ، ويسمّيها أحسن أسمائها ، إنما يعنى المعتقة :  
نعم شبابك بالخمر العتيق ولا تشرب كما يشرب الأغمار من ماذى<sup>(١)</sup>  
ومن أسماء هذه المعتقة : المدام والمدامة . سميت بذلك لأنها أديمت في ظرفها .  
والعقار لأنها عاقرت الدنّ أى لازمتها . والشمول لأنها تشمل الناس برمجها . والراح  
لأن صاحبها يرتاح لشربها . والقهوة لأن شاربها يقهى عن الطعام أى لا يشتهي .  
والقرقف لأن صاحبها يقرقف إذا شربها أى يردد . والشموس لأنها تجمع  
بصاحبها . والخندريس البعيدة القدم ، ولا تسمى خندريساً حتى يتبين القدم عليها  
في راحتها فتنشم<sup>(٢)</sup> . وهم أخيراً يقولون لأعلى الخمر وأصفاها إسفنت . وأشهر من  
ذلك تسميتهم صفوة الخمر بالرحيق .

وإنما تستجد المعتقة لأن الشراب لا يرقّ ويعتدل قوامه ويلطف كونه ،

(١) يسمى الشراب ماذياً والخمر ماذية من قولهم غسل ماذى لسهولة مدخله .

(٢) يقال نشم اللحم تغير وابتدأت فيه رائحة كريهة .



ولا يروق وتصفو كثافته ويشف لونه ، ولا يستوفى بعد أن رقّ وراق غاية الإشراق ، وتم له عَصْفَتُهُ<sup>(١)</sup> التي اختص بها من ريح ومذاق ، إلا بعد أن يمضى عليه زمان في الدنان أو الزقاق يعتق فيها ويستحكم عتقه .

وسبب ذلك أن الخمر الحديثة فيها مقدار غير قليل من المواد الغروية والمواد السكرية لم يتحول إلى كحول ، وفيها أيضاً أجسام أخرى ذائبة مثل فوسفات الكلس وكبريتات الكلس وزبدة الطرطير وطرطرات المغنيسيا وكبريتات البوتاسا . وفيها كذلك حوامض عضوية مختلفة . فإذا عتق الشراب زاد مقدار ما يتحول إلى الكحول من المواد السكرية والغروية ، ومن ثمة تزيد رقة الخمر ، وترسب كذلك بقية الأجسام الذائبة لأنها أقل ذوباناً في الكحول منها في الماء ، ورسوبها يزيد صفاء الخمر . وفوق هذا وذاك فإن الخمر مع تطاول الزمن بها يتكون فيها أنواع كثيرة من الإثير من انحلال الحوامض العضوية ، وهذه الإثيرات يضيف بعضها إلى طعم الخمر ويضيف بعضها إلى رائحته ، وهي سرّ عصفته الخاصة .

ولا تَسْقِيَانِي بِنْتِ عَشْرِ ، فَإِنِهَا كَمَا عَصِرْتَ ، لَمْ يَنْسَ فَرْقَتَهَا الْكَرْمُ  
ولكن عجوزاً بنت كسرى قديمةً معتقةً قد دبّ في طيّها الحِلْمُ  
إذا ذاقها شُرَّابُهَا بَجِلُوا لَهَا بِالسُّنَنِمْ شُكْرًا فَهَمَّ عَرَبٌ عُجْمُ<sup>(٢)</sup>

وقد كثرتريد شاعرنا أبي نواس لهذه الخصائص في صور شتى ، جادة تارة وأخرى ماجنة . وقد تقدّمت طائفة كبيرة من أوصافه لركة الخمر وصفائها ورائحتها ومذاقها . ولكننا قد نحتاج إلى العود لذكر بعضها وترديد أمثالها—وهي

(١) العصفة تقابل ما يطلق عليه الفرنجة لفظ Bouquet . (٢) بجل : فرح .

كثيرة في شعره — لنستشهد بها على ما بيناه من فعل العتق ، وتأثير ما يحصل عنه من أنواع الإيثار ومن شتى الانحلالات والتركيبات الكيميائية البطيئة ، في طعم الخمر ورائحتها خاصة .

فأما من جهة المذاق فإن شاعرنا ينفعتها ولا يمل من نعتها في كل خمرية له بأنها مرزة الطعم تحذى اللسان لا من حموضة ، وأن لمذاقها مثل قرص الفلفل :

واشربْ كَمَيْتًا مُرَّةً عَذَسْتُ وَأَقَعْدَهَا لِكَبَرٍ

من قهوة مرزة مُعْتَقَةٍ عَتَّقَهَا دُهَا وَرَبَّاهَا

مما تخيرها التجارُ ترى لها طعمًا إذا ذِيقْتَ كقرص الفلفلِ

وأما رائحتها التي يجدها ويحدثنا عنها فهي لمن يراجع شعره أرايح مختلفات . منها الورد والقرنفل والعنبر والزعفران والخلوق إلى آخر ما فصلناه في موضعه ، والغالب منها على شعره المسك تارة والتفاح تارة أخرى :

نَكْهَتُهَا أَطْيَبُ مِنْ فَارَةٍ مَمْلُوءَةٍ مِسْكَاً لِعَطَّارٍ<sup>(١)</sup>

من بذتِ كَرِيمَ لها في الكأسِ رائحةٌ تحكى — لمن نالَ منها — رِيحُ بُتْفَاحٍ

وحقيقة الحال أنها رائحة لا يشبهها شيء ولا يحقها الشارب تمام حقها . وقد رأى صاحبنا المتحير بين المسك والتفاح أن يخرج من حيرته ، بأن يجعل بين الرائحتين ريح خمرته :

صَهْبَاءُ صَافِيَةٍ تُجْدِيكَ نَكْهَتُهَا تَنْفَسُ الْمِسْكَ مَلَطُوخًا بُتْفَاحٍ

(١) الفارة : وعاء المسك .

وأما رقة الخمر المعتقة فمن شعره فيها غير ما تقدم ذكره ، قوله الما جن :  
عُتِّقْتُ فِي الدَّنِّ حَتَّى هِيَ فِي رِقَّةٍ دِينِي

وقوله :

بنت كَرِيمٍ أَبَاحَهَا حَبَبُ الْجَوِّ هَرٍ فِيهَا وَرَقَةٌ فِي الْأَدِيمِ  
لَا تُعْرَجُ بِدَارِسِ الْأَطْلَالِ وَاسْتَقْنِيهَا رَقِيقَةُ السَّرْبَالِ  
مَاتَ أَرْبَابُهَا ، وَبَادَتْ قُرَاهَا وَبَرَّاهَا الزَّمَانُ بَرَى الْخِلَالِ<sup>(١)</sup>  
وَعُجِبَ بِنَا نَصْطَبِجٍ حَمَاءَ رَاقِدَةٍ فِي حُمرةِ النَّارِ ، أَوْ فِي رِقَّةِ الْآلِ

وهم يصفونها بقولهم شراب سَلْسَلٍ وَسَلْسَالٍ ، وذلك لسهولة مساغته في الخلق .  
وكذلك يقولون في صفتها خمر سُخَامٍ وَسُخَامِيَّةٍ من قولهم شعر سُخَامٍ وهو اللين الحسن :

سَلْسَالَةُ الطَّعْمِ اسْفَنْطُ مُعْتَقَةٌ بُشْرِهَا قَيْمُ الْحَانُوتِ أَوْصَانِي  
قَدْ هَتَكَ الصُّبْحُ سُتُورَ الدُّجَى فَانْحَسَرَتْ أَثْوَابُهُ الْجُونُ  
فَاضْبَحَ نَدَامَاكَ سُخَامِيَّةً أُنَى لَهَا فِي دَنِّهَا حِينَ<sup>(٢)</sup>

ونذكر أخيراً كثرة وصف الشعراء لما يكون من رسوب المواد الذائبة في  
الشراب كلما عتق ، وما يكون من صفائه بعد ذلك وشفوف لونه . وفي ذلك قول  
شاعرنا :

مَنْفِيَّةُ الْأَقْدَاءِ صَفَقَهَا كَرُّ اللَّيَالِي الْبَيْضِ وَالسُّحْمِ

ومن قبله ردّد شعراء الجاهلية في مدحهم الخمر قولهم إنها لفرط الصفاء ،  
لا تحجب عن النظر قذاها الراسب في قعر الإناء :

(١) الخلال : عود دقيق يبرى ويتخلل به . (٢) صبحه : سقاء الصبح .

سُلَافَةٌ رَاحَ تُرِيكَ الْقَذَى ، نُصَقُّ فِي بَطْنِ زِقٍ وَجَزٍ<sup>(١)</sup>

صِرْفٌ تَرَى قَعَرَ الْإِنَاءِ وَرَاءَهَا تُودِي بِمَقْلٍ الْمَرْءَ قَبْلَ فُوقِ<sup>(٢)</sup>

وقد بذم الأعشى جميعاً بقوله المشهور :

تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ فُوقِهَا وَهِيَ فُوقَهُ إِذَا ذَاقَهَا مِنْ ذَاقِهَا يَتَمَطَّقُ<sup>(٣)</sup>

ولقد ذهب أبو نواس في نعت هذا الصفاء إلى آخر الشوط ، فزعم أنها مجرد لون ونور ، ليس وجودها بالوجود العيني المحسوس الملموس ، وإنما وجودها كله في رأى العين متوهم محدوس :

وَكَاثِمًا هِيَ حِينَ تُبْرِزُهَا لِلشَّارِبِينَ عُصَارَةُ الْوَرَسِ<sup>(٤)</sup>

وَإِذَا تُرَامُ تَفُوتُ لَا مِسَهَا مِثْلَ الْهَبَاءِ يَفُوتُ بِاللَّسِ

فَهَوَةٌ يَحْسِبُهَا النَّاسُ ظَرْفٌ — إِنْ صُبَّتْ — شُعَاعًا

دَقَّتْ عَنِ اللَّحْظَانِ حَتَّى مَا تَرَى إِلَّا الْيَاعَ شُعَاعِهَا الْعَيْنَانِ

مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ يَتَمَنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا

أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا وَتَبَقَّى لِبَابِهَا مَكْنُونَا

فَإِذَا مَا اجْتَلَيْتَهَا فَهَبَاءٌ تَمْنَعُ الْكَفَّ مَا تُبَيِّحُ الْعُيُونَا

فهى ليست من المحسات الملموسات ، وإنما هى من المدركات المعقولات :

(١) البحر : جمع جرة كالبحرار . (٢) الفواق : حشرة الموت .

(٣) تمطق الرجل : صوت باللسان والغار الأعلى وذلك عند استطابة الشيء .

(٤) الورس : نبات يتخذ منه صيغ أصفر يضرب إلى الحمرة .



فَأَتَاكَ شَيْءٌ لَا تُلَامِسُهُ إِلَّا بِحِسِّ غَرِيزَةِ الْعَقْلِ

ثم ينتهي الشاعر إلى أنها ليست إلى المحسات الملهوسات ولا إلى المدركات المعقولات ، بل هي خرافة مما يُتصور في الأوهام ، وأنها ظن من رجم الظنون ، وخیال لا تحققة العيون ، ومعنى لا يدركه عقل ولا يُثبتته يقين .

كَأَنَّهَا حِينَ تَمْطُو فِي أُعْنَتِهَا - مِنَ اللَّطَافَةِ - فِي الْأَوْهَامِ عَنَقَاهُ<sup>(١)</sup>

فَاتَتْكَ فِي صُورٍ تَدْخُلُهَا الْبِلَى فَازَالَهُنَّ وَأَثْبَتَ الْأَشْبَاحَ

دَقَّ مَعْنَى الْخَمْرِ حَتَّى هِيَ مِنْ رَجْمِ الظُّنُونِ  
كَلَّمَا حَاوَلَهَا النَّاسُ ظَرُّ مِنْ طَرَفِ الْجُفُونِ  
رَجَعَ الطَّرْفُ حَسِيرًا عَنْ خَيَالِ الزَّرَجُونِ<sup>(٢)</sup>  
لَمْ تَقُمْ فِي الْوَهْمِ إِلَّا كَذَّبَتْ عَيْنَ الْيَقِينِ  
فَتَى يُدْرِكُ مَا لَا يُتَحَرَّى بِالْعُيُونِ

وهنا يقف الشاعر منها موقف الشك ، وهو مطبوع عليه لا يبرح يفالبه ويعاوده ، كما يدل على ذلك قوله :

جَلَّتْ عَنِ الْوَصْفِ حَتَّى مَا يُطَالِبُهَا وَهْمٌ فَتُخْلِفُهَا فِي الْوَصْفِ أَسْمَاءُ  
تَقْسَمُهَا ظُنُونُ الْفِكَرِ إِذْ خَفِيَتْ كَمَا تَقْسَمُتِ الْأَدْيَانُ آرَاءُ

(١) تَمْطُو : تسرع في حركتها . (٢) الزرجون : الخمر الذهبية اللون .

## ذخيرة الحمار

والحمّارون يذخرون هذه المعتقدة لمن يعرف فضلها ، وَيَقْدُرُهَا قَدْرَهَا ، ولا يَسْتَعْلَى  
مهرها ، من الوجوه الأثرياء الذين تعودوا إطلاق اليد في النفقة لما هم عليه من  
سعة الثروة ، ومن أصحاب الخلاعة السادرين الذين لا يتماثلون لشدة ولعهم بها  
أن يخرجوا عن جميع ما احتوته أيديهم من أجلها :

يا خاطِبَ القهوه الصَّهْبَاءِ يَمَهْرُهَا بِالرَّطْلِ يَأْخُذُ مِنْهَا مِلاَهُ ذَهَبًا  
قَصَّرَتْ بِالرَّاحِ ، فَاحْذَرُ أَنْ تُسَمِّعَهَا فَيُخْلِفَ الْكَرْمُ أَلَّا يَحْمِلَ الْعِنْبَا  
إِنِّي بَذَلْتُ لَهَا لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا صَاعًا مِنَ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا تُقْبَا  
يَا قَهْوَةً حُرِّمَتْ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ أَثْرَى فَأَتْلَفَ فِيهَا الْمَالَ وَالنَّشْبَا

إِذَا قُطِرَ بُلٌّ عَصَرَتْ وَحَازَ دِنَانَهَا الْأَهْلُ  
فَزِنْ خَمَارَهَا وَأَفْعَلْ بِهِ مَا يَفْعَلُ السَّهْلُ  
فَلَوْ كَانَتْ بِبَيْتِ السَّمَالِ بَيْعَتْ ، لَمْ تَكُنْ تَفْلُو

ويعتمد أصحاب الحوانيت على هذه الذخيرة المعتقدة لاستدرار المكاسب الطائلة  
من وراء المغالاة بتمنيتها ، وإنها لكفيلة لهم بسداد الخراج مهما عظم ، وكفيلة لهم  
فوق ذلك بصلاح الحال واتساع النعمة وإفادة الغنى ووفور المال :

ذخيرةُ دَهْقَانٍ حَوَاهَا لِنَفْسِهِ إِذَا مَلَكَتْ أَوْفَى عَلَيْهِ وَسِيمُ  
وَمَا بَاعَهَا إِلَّا لِعُظْمِ خَرَاஜِهِ لِأَنَّ الَّذِي يَجْنِي الْخَرَاجَ ظَلُومُ

فِي كُلِّ يَوْمٍ يَظُلُّ قِيَمَهَا      مُكَبَّلًا كَالْأَسِيرِ فِي صَفَدٍ<sup>(١)</sup>  
 مَزْمَزِمًا حَوْلَهَا وَمُرْتَنِبًا      يَرْجُو بَصَوْنَ لَهَا غِنَى الْأَبَدِ<sup>(٢)</sup>  
 يَزِيدُ خُطَابَهَا حُكُومَتَهُ      عَذْرَاءَ لَمْ تَعْتَمِدْ عَلَى وَلَدٍ  
 حَتَّى بَذَلْنَا بِعَقْرِهَا مِثْلَهُ      صَفْرَاءَ تَبْدُو بِكَفٍّ مُنْتَقِدٍ

### جواهر بلا عرض وروح بلا جسد

وإذا كان الحارون يستامون بهذه المعتقدة سومًا غالبًا ، فلأنها من التعتيق  
 نصير إلى نقصان ، وقد تؤول إلى النصف وإلى أقل من النصف في الدنان :  
 رَأَيْتُ الشَّيْءَ حِينَ يُصَانُ يُزْكَو      وَنُقْصَانُ الْمُدَامِ عَلَى الصَّيَانِ

قَدْ عُنُقْتُ فِي دَنِّهَا حَقَبًا      حَتَّى إِذَا آلَتْ إِلَى النُّصْفِ  
 سَلَبُوا قِنَاعَ الطَّيْنِ عَنْ رَمَقٍ      حَتَّى الْحَيَاةِ مُشَارِفِ الْخُتْفِ

قَدْ أَتَى الدَّهْرُ عَلَيْهَا      غَيْرَ شَيْءٍ فِي قَرَارِهِ

فَلَمْ تَزَلْ تَأْكُلُ اللَّيَالِي      جُثْمَانَهَا ، مَا بِهَا انْتِصَارُ  
 حَتَّى إِذَا أَمْرُهَا تَلَا شَيْءَ      وَخُلُصَ السَّرُّ وَالنَّجَارُ  
 آلَتْ إِلَى جَوْهَرٍ لَطِيفٍ      عَيَانُ مَوْجُودِهِ ضِمَارُ

طَوَى عَلَيْهَا الدَّهْرُ أَيَّامَهُ      وَعُمِيَّتْ عَنْهَا الْمَقَادِيرُ

فلم تزل تخلصُ حتى إذا صار إلى النصفِ بها صير<sup>(١)</sup>  
جاءت كروحٍ لم يقمَ جوهرُ لطفاً به أو يُحصيه نور

وكذلك خلص الشاعر من أوصافه للخمر إلى أنها صارت من التعتيق خلاصة ، ثم انتقل من كونها خلاصة طبيعية إلى أنها صارت من فرط اللطافة والصفاء روحاً مجردة نورانية . ويرى القارىء من تكراره لهذا المعنى — سواء كان بكرة لم يسبق إليه أو غير بكرة — مبلغ اغتباطه بهذا التشریف للخمر :

فإن فيها بنات السكرم ، ما تركت منها الليالى سوى تلك الحشاشات

كرخية قد عتقت حبة حتى مضى أكثر أجزائها  
فلم يكذب يدرك خمارها منها سوى آخر حوالبها

أنت من دونها الأيام حتى تفانى جسمها والروح باق

فهى روحٌ تخلص فارق الآخيم والدما

جاءت بخاتمها من بيت خمار روح من السكرم فى جسم من القار

ما زال يجلوها تقادماً حتى اغتدت روحاً بلا جسم

وليس الأمر عند شاعرنا مجرد تشبيه ، بل هو عنده حقيقة وجدانية وتجربة شعورية ، فإنه ليشرب الخمر ويكثر من الشرب ، فإذا استخفه السكر واستطاره



الطرب، أحسن فيما يحسه من طرب وخفة في نفسه وجسمه ، أنها أضافت روحاً إلى روحه :

مازلتُ أَسْتَلُّ رُوحَ الدنِّ في لُطْفٍ      وأَسْتَقِي دَمَهُ من جَوْفِ مَجْرُوحِ  
حتى انْتَنَيْتُ ولى رُوحانٍ في جَسَدٍ      والدنُّ مُنْطَرِحٌ جَسَماً بِلا رُوحِ

### دقائق الصناعة

ونحن إذا أجرينا في الخاطر واستحضرنا قيد الذاكرة ما مر بنا في شعر النواسى من أنواع الأشربة ، أمكننا أن نتمثل مبلغ علم القوم بهذه الصناعة وما وصلت إليه خبرتهم بها .

ولقد وصف أبو نواس فيما وصف من الخمر ، الشراب الأحمر والأصفر والأبيض . فالتقوم كانوا لا محالة يعرفون ما لا بد من معرفته لصنع كل نوع منها . ومن غير المعقول أن يكون حصولها في كل مرة اتفاقاً من غير قصد ، لاسيما أنهم قد أكثروا الكلام فيها وفي خواصها الطبية . وذهب عامة أطبائهم إلى أن أجودها الأحمر الصافي . وكلما اشتدت حمرة وغلظه كان أكثر للدم توليداً . ويليه الأصفر الأصلي . وأما الأسود والأبيض فأقلها جودة عندهم . وسواء صَحَّتْ مقالة أطبائهم أو لم تكن صحيحة ، فإن خماريهم كانوا ولا ريب يعرفون موضع المادة الملونة من العنب . وأنها في باطن قشرتها إذا كان شحم الأعناب جميعاً عند نزع القشرة عنه لا لون له . فإذا كان الشراب الأحمر هو المرغوب فيه عمدوا إلى الأعناب السود والحر الداكنة ، وهي في العادة أغنى الأعناب في المادة السكرية . فإذا أريد الأصفر اتخذوا له الأعناب الضاربة إلى الحمرة أو البيض

مضافاً إليها بعض عنبات سود أو حمراء كثة . وأما الشراب الأبيض فيختارون له العنب الأبيض ، وإلا عمدوا إلى الأعناب الملونة فعصروها عتب قطافها وأحسنوا تصفيتها من بقايا القشر وسائر الثفل في التوت قبل أن يختمر . ولهذه العجلة سرها ، وهو أن مادة القشرة الملونة لا تذوب في الماء ولا في ذوب السكر ولا الحوامض ، وإنما ذوبانها في الماء الممزوج بالكحول وهو لا يكون في العصير قبل الاختمار . والشراب الأبيض الحاصل عن الأعناب الحمر على هذه الصفة يكون مشرباً بصفرة خفيفة ، وهو ما يسمونه الصهباء . وهذه بعض أوصاف الشاعر للخمر المتخذة من الأعناب الملونة :

أَلَا خُذْهَا كَصَبَاحِ الظَّلَامِ      سَلِيلَةَ أَسْوَدٍ جَعَدِ سُخَامِ<sup>(١)</sup>

نُسْقَى سُلَاقًا مِنْ بَنْتِ دَسْكَرَةٍ      مَا شَابَهَا فِي دِنَانِهَا الرِّنْقُ<sup>(٢)</sup>  
إِخْتَارَهَا فِي الْقِطَافِ سَائِمُهَا      مُحَرًّا وَسُودًا كَأَنَّهَا الْحَدَقُ

كذلك تتمثل من الخمرات تلك الرتب الثلاث التي تنقسم إليها الخمر من جهة خواصها عند أهل زماننا ، وهى الخمر الحلوة ، والخمر اليابسة أو القابضة ، والخمر ذات الرغوة .

والخمر الحلوة إما أن تكون حديثة لم يكتمل اختمارها ومن ثمة لم يتحول غير القليل من سكرها إلى كحول فبقى فيها معظم السكر على حاله وهذه هى المصطار ، وإما أنها اتخذت لها الأعناب الشديدة الحلاوة بحيث يفضل فيها مقدار من المادة السكرية حتى بعد تمام الاختمار .

وإلى الخمر الحلوة الحديثة يشير عدى بن الرقاع في قوله وقد جعل فيه اللبن الحليب بمنزلة المصطار .

تَقْرِى الضَيُوفَ إِذَا مَا أَزَمَتْ مُصْطَارَ مَاشِيَةٍ لَمْ يَعُدْ أَنْ عَصِرَا  
وإذا كان المصطار ينال بالنشوة عدى بن الرقاع على حدّ قوله :

مُصْطَارَةٌ ذَهَبَتْ فِي الرَّأْسِ نَشْوَتُهَا كَأَنَّ شَارِبَهَا مِنْهَا بِهِ لَعَمُ<sup>(١)</sup>

فإن هذه المصطارة عند مدمنى الخمر غير مطلوبة ولا محبوبة ، لأنها أضعف نكاية من أن تنالهم منها نشوة ، وهم ما هم ، لا يكتفون من الخمر بما دون السكر . فلا عجب إذن أن نسمع الأخطل يقول :

تَدْمَى إِذَا طَعَمُوا فِيهَا بِجَائِفَةٍ<sup>(٢)</sup> فَوْقَ الزُّجَاجِ عَتِيقٌ غَيْرُ مُصْطَارٍ<sup>(٣)</sup>  
وإنما المطلوب المحبوب عند القوم هو الخمر العُزّة التي تحذى<sup>(٤)</sup> اللسان . وهي التي تُعرف اليوم باسم الخمر القابضة أو اليابسة .

والخمر القابضة يغلب فيها طعم الكحول والحوامض . وهي تتميز خاصة بما تحتوى عليه من مادة التّنين القابضة . والمادة التّينية تكثر في بعض أنواع الأعناب وتقل في بعضها . ولما كانت ثفاريق<sup>(٤)</sup> العنب جميعاً حافلة بهذه المادة القابضة فإنه يراعى في الأعناب القليلة التّنين عصرها بعناقيدها مع الثفاريق . وقد يتركون في العصير ثفل العنب — ويسمونه الثّجير — لما في الثفل فضلا عن كسارة الثفاريق من بقايا البزر ، وهي أيضاً لا تخلو من مادة التّنين . وهذه الخمر القابضة هي ولا مرأه التي يقول فيها النّواصي :

(١) اقم : طرف الجنون . (٢) الجائفة : الطعنة التي تبلغ الجوف .

(٣) تحذى : تلذع .

(٤) الثفاريق : جمع ثفروق ، أقماع حب العنب والعناقيد الخالية من الحب .

وَكَاثَنٌ عُقْبَى طَعْمِهَا صَبْرٌ وَعَلَى الْبَدِيهَةِ مُزَّةُ الطَّعْمِ<sup>(١)</sup>  
 وإذا ذكر الذّاكرون من أبناء اليوم الخمر المعروفة بذات الرغوة أو المرغية ،  
 فلنذكر أن خمر النواسى كلها خمر مرغية .

والذى جاء فى الخمرىات قاطع بأن القوم كانوا إذا جعلوا العصير فى الأوعية  
 المتينة للاختمار سدّوا أفواهها بالطينة .

وَكَمْ أَفْوَاهُهَا دَهْرًا عَلَى وَرَقٍ مِنْ خُرٍّ طِينَةِ أَرْضٍ غَيْرِ مَيْثَاءِ<sup>(٢)</sup>

أو أنهم كانوا على الأقل يسدونّها قبيل تمام الاختمار سدّا موثقًا محكمًا :

فَضُمَّنَ صَفْوُ مَا يَجْنُونَ مِنْهَا خَوَابِي — كَالرَّجَالِ — مُقَيَّرَاتِ  
 فَلَمَّا قِيلَ قَدْ بَلَغَتْ وَلَمَّا وَيُوشِكُ أَنْ تَقَرَّ وَأَنْ تُوَاتَى  
 نَسَجْتُ لَهَا عَمَائِمَ مِنْ تُرَابٍ وَمَاءٍ ، مُخَكَّمَاتٍ مُوثَقَاتٍ

وقد تعرّض شاعرنا لوصف التخمير فى خمرياته دون أن يذكر سدّ الطين على  
 أفواه الدنان . ولقد ذكر أكثر من مرّة ما أسماه « خاتم الدنان » على أنه  
 — كعلامات اليوم المسجّلة — علامة الضمان لأصالة الصنف وجودة البضاعة :

بِمَصُونَةٍ قَدْ صَانَ بِهَجَةٍ حُسَيْنَا كُنَّ الْخُدُورُ وَخَاتَمُ الدَّنَانِ

وحجى، بالدنّ على مرفعٍ وخاتمُ العليجِ على طِينِهِ  
 والذى يحصل من هذا الحرص على سدّ الدنان وتكليم أفواهها ألا يجد غازُ  
 ثانى أكسيد الكربون الحاصل من الاختمار منفذاً للخروج ، فيبقى من وطأة  
 الضغط ذائبا فى الشراب ، حتى يُفكّ عن الدنان الختامُ وتسكب الراح فى

(١) الصبر : عصارة شجر مر . (٢) الميثاء : الأرض اللينة السهلة .



الأقداح . فيتعرض سطح الشراب للهواء ، وتزيده تعرضاً حركة المزج بالماء ،  
وعندئذ يتصعد الغاز على هيئة فقائيع فائرة متناثرة ، وهى ما يسميه أصحاب الخمر  
بالحبّ والحباب . ولأنكاد تخلو من التغي بمنظرها قصيدة واحدة من الخمريات .  
ونورد هنا لشاعرنا فى صفة ما لهذه الخمر المرغية من حركة فى القدح عند صبها  
فيه ، ومن فوران ورَمي بالحب عند المزج ، طرائف من شعره لم يسبق إلا فى  
الأقل إيرادها والاستشهاد بها :

فأبدي لنا صهباء تمّ شبابها لها مَرَحٌ فى كأسها ووُثوبُ

ويا تعالى عُقاراً قَرَقَفاً رَقَصَتْ عند المِزاج بطاساتٍ وأقداح

تَسْتَنُّ من مَرَجٍ، فى كَفِّ مُضْطَبِحٍ من خمرِ عانةٍ أو من خمرِ سُوراء<sup>(١)</sup>

كأنها — عند مسّ الماء من جَزَعٍ والماء يَجَزَعُ منها — شبهُ فَرَارٍ  
والكأس تُمسكها من أن تُراعَ، فما تَنفَكُّ فيها ياقبالٍ وإدبار

من ماء كرمٍ إذا تُصَفَّقها بماء مَزْنٍ رَمَتْكَ بالزَّبَدِ

مزجَ الكأسَ لى غَزالٍ أريبٍ هاشمى أصابَ فيها المِزاجا  
خَندريسُ كأنها كلُّ طيبٍ زوَّجوها وليس تهوى الزَّواجا  
فرَمَتْ أوجُهَ النَّدَامى بِنَبْلِ ليس يُدْمى وليس يُبدى شِجَاجا<sup>(٢)</sup>

(١) تستن : تقبل وتدبر . (٢) الشجاج : الجراح .

## فن صاحب الدنان في البزل والكيلان

والآن وقد فرغنا من الكلام على صناعة الخمر، نتكلم على فن تقديمها . فترى الخمار يتقدم إلى الدنان ينقرها واحداً واحداً يتعرف بذلك أصفها . فإذا وقع على واحد منها اختياره ، نَفَضَ عن الدن العتيق غباره ، وجاء به — يمشى الهوينى من الحرص عليه — محمولا على مِرْفَعٍ إلى موضع البَزَل . وينظر الخمار إلى سداة الطين في رأس الدن ، فإذا استوثق من خاتمه شَمَّرَ كَمَّه عن ساعده ، وغسل يده إلى مرفقه ، وتناول المِبْزَل أو الإِشْنَى ، فتَوَجَّأ الدن بشبابة حديدته في شَكَّةٍ واحدة لا ثانية لها . وما يكاد يَشْخَب من البزال على ترائب الدن عرقٌ أحمر حتى يَهْلَل الخمار متحمساً لشرابه ، مهبجاً إليه شهوة شُرَّابه ، فإذا استقبلهم لخمرة لا يقل تهللاً وحماسة عن استقباله .

ثم أنت في الحباب يخفُّرها مَشَى هُوَيْنِي ما إنْ به تَزَقُ  
فبادروا لافتضاض عُذْرِيهَا بِنَاقِدٍ في شَبَابِهِ زَلَقُ<sup>(١)</sup>  
فسال منها مثل الرُعَافِ دَمٌ يُشْفِي بِهِ مِنْ سَقَامِهِ الصَّعِقُ<sup>(٢)</sup>

نَدَبَتْ لها الخمارَ فانصاع مُسرِعاً إلى عِدَّةٍ من حَنَمٍ ودنانٍ  
دراسته الإنجيلُ حول دنانهِ بصيرُهُ يَبْزِلُ الدنَّ والكيلان

فجاءها مُستعداً كالحارِثِ بن عبادٍ  
قد لَفَّ الكُمُّ منه كَنَازِيعُ لِقَتَادٍ  
فسلَّ منها بَرَاً فسال مثلُ الفِصَادِ

(١) الناقد : المثقب . الزلق : الحدة . (٢) الرعاف : خروج الدم من الأنف .

وجيء بالدين على مرفعه وخاتم العليج على طينه  
وافترض الأكل من دننا فانصاع في حمرة تلوينه

رأيت عرجاً ، بباطرُنْجِي لها تَوَجَّى ، فلم يُسْنِ

وخندريس باكرت حانتها فودَّجوا خصرها بميزال  
فسال عرق على ترابها كأنَّ نجره قتل خلخال

لما أتيت الدهقان أخطبها من بين أصهارها وأحماها  
قال: «مَنْ الخاطبون؟» قلت له: «فتيان صدق» فقال: «أ كفاها»  
حتى إذا حطَّها وأنزلها وفكَّ عنها الختام — فذاها

فقام بميزال فأجاف دنًا كمثل سماء الجمل الهيجان  
فسيل باليزال لها شهاباً أضاء له القرات إلى عُمان

فَشَكَّ بِاشْفَاء له بطن مُسْنِدٍ فسالت نحاكي في تلائها البذرا

ويدفع الخمار إلى الراغبين في خمره أنموذجات منها ، ليدوقوها ويعرفوا صدق  
قوله فيها ، ثم يكتال لهم بلباقة وحسن فن ، على قدر ما أدوا من ثمن . ويقال  
لمسكايل الخمر النياطل . وأكثر ما كان يحمل المتزودون شرابهم في الأداوى  
والزقاق من جلد . وأما الذين يشربون في حانوت الخمار فإنه يتخذ لهم آلة الشراب  
المعهودة في ذلك العهد .

## نماذج من الشعر التعليمي

وما دمنّا قد جمعنا فيما تقدم أشتاتاً مما قاله الشاعر في وصف صناعة الخمر ، فيحسن بنا أن نورد في هذا الشأن قصائد على التمام أو ما يشبه التمام . وبعض هذه القصائد من أبلغ الأمثلة على الشعر التعليمي في الأدب العربي . والشعر التعليمي — كما هو مفهوم من اسمه — قوامه التعريف والإفادة . فهو درس . وقد يكون هذا الدرس المنظوم مواظ خلقية ، أو فوائد لغوية ، أو جوامع لأصول الأدب ومتون الأجرومية ، أو عجالة فلسفية أو علمية . والشعر التعليمي كثير في الآداب القديمة وذلك أن القوم في العصور الخوالي السابقة على الطباعة كان اعتمادهم كله أوجهه على الذاكرة . ومن ثمة كان إقبال الكثير من أهل الفكر عندهم على نشر المعارف في قالب الشعر لما خبروه من سهولة استظهار الناس للمنظوم ، وسرعة انطباعه في لوحة القلب ، وثباته في محفوظهم ، وبعد نسيانهم له . ولقد ساهم شاعرنا أبو نواس مساهمة لطيفة المدخل في هذا الباب . وجاء درسه — ولا غرو — مختصاً بصناعة الخمر ، كما هو المؤمل المرتقب منه . ولقد أجاد شاعرنا الوصف ، وتقصى في التفصيل ، واستطاع مع توخي الصدق العلمي أن يُفرغ موضوعه في قالب الجمال ، مستعيناً بالجزالة في اللفظ، والطلاوة في العبارة ، وحن الافتنان في الصورة .

وهذه أولى القصائد ، ومدارها الخمر بالمعنى الحقيقي الذي خصه بها أهل اللغة ، أي التي من ماء العنب . والشاعر في هذه القصيدة — كمثله في سائر القصائد — يبدأ بالبداية . فيصف الكرمه مذ كانت عوداً حتى أطلعت العناقيد مكتنزة ، متراصة الحب ، سود الألوان ، ثم ينتقل بالوصف إلى ابنة العنب مذ كان القطاف إلى أن حوتها الدنان ولا يختم الكلام حتى تدور كثورها المتلألئة على الندمان :



وَعُودِ كَرَمَةٍ كَرْنَحٍ زَوَّجْتُهَا مَاءَ وَادٍ  
فَلَمْ يَزَلْ يَعْتَلِيهَا بِمُسْقِيَاتِ الْغَوَادِي (١)  
حَتَّى اسْتَهْلَتْ بِسُودٍ مُسَرَّهَاتٍ جِمَادٍ (٢)  
فَمَهَّدَتْ فِي دَنَانٍ سَقِيًّا لَهَا مِنْ مِهَادٍ  
حَتَّى إِذَا مَرَّ دَهْرٌ لَهَا ، أَتَاهَا عِبَادِي (٣)  
وَقَدْ تَنَاهَتْ وَصَارَتْ كَمَثَلِ قَبَسِ الزُّنَادِ  
فَجَاءَهَا مُسْتَعْدًّا كَالْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ  
قَدْ لَفَفَ الْكَمَّ مِنْهُ كَنَازِيعَ الْقَتَادِ (٤)  
فَصَلَّ مِنْهَا بِزَالًا فَسَالِ مِثْلَ الْفَصَادِ  
إِلَى قَنَانٍ تَلَالَا مُدْمَلَجَاتِ الْقِلَادِ (٥)  
فَاذْهَلْتَنِي عَقْلِي وَاسْتَأَثَرْتُ بِفَوَادِي  
وَاخْتَرْتُ إِخْوَةَ صَدَقٍ مِنْ خَيْرِ هَذِي الْعِبَادِ  
فَقُلْتُ : «لَذُّوا ، بِنَفْسِي أَفْدِيكُمْ وَفَوَادِي  
وَنَفِرُوا اللَّيْلَ عَنْكُمْ بِلَذَّةٍ وَسُهِادٍ»

وأوفى من هذه بياناً لطريقة تخمير العنب ، ولعلمها كذلك أبلغ أداء وأعلى طبقة في الجزالة وخفامة الأسلوب ، قوله :

(١) الغوادي : السحب تأتي في الغداة .

(٢) سود أي عناقيد سود . المرهد : السمين . الجعد : المجتمع المترابك بعضه فوق بعض .

(٣) العبادي : النصراني من عرب الحيرة . (٤) القتاد : شجر شائك .

(٥) القلاد : خيط من الصفر (النحاس) يشد به رأس القنينة .

يا ليلة طاب لي بها الأرق  
نُسقي سُلافاً من بنتٍ دَسْكَرَةٍ  
إِختارَها في القِطافِ سائِمُها  
حتى إذا في الحِياضِ صيرَها  
حَصَنَها في الحِياضِ فاحتَجَبَتِ  
خَمْسِينَ عاماً حتى إذا هَرِمَتِ  
أَتَوْا بها في الحِبابِ يَخْفَرُها  
فبادَرُوا لافْتِضاضِ عُذْرَتِها  
فقال منها مثل الرُّعافِ دمٌ  
نارَعِها سادة غَطارِفَةٌ  
يُسْقَوْنَ من قَهْوَةٍ مُعْتَقَةٍ  
أَعْطَوْا بِها رَبِّها حُكومتَها  
جاء بها كالخَلوقِ في قَدَحٍ  
كَأَنَّ إِبْرِيقَنَا إذا صُفِّقَتْ  
كَانَها والمِزاجُ يَقرَعُها  
كَأَنَّمَا حَفٌّ من قَرارِها  
في مجلسٍ ليس فيه فاحِشَةٌ  
حتى بدا من صَباحِها الفَلَقُ  
ما شابهَها في دِنايَها الرِّثَقُ  
مُحمرّاً وسوداً كَأَنَّها الحَدَقُ  
خالَطَها الرِّعْفرانُ والعلَقُ<sup>(١)</sup>  
ما راعِها رَهْبَةٌ ولا فَرَقُ  
واخضَرَ من نَبَتِ نَبَتِها الورَقُ  
مَشَى هُوَيْنِي ما إِنَّ به نَزَقُ  
بناوِدٍ في شُبابِته زَلَقُ  
يُشْفَى به من سَقامِهِ الصَّعِقُ  
كَأَنَّهُم من شَقِيقةٍ شَقَقُوا  
لِها دَيْبٌ في المِخِّ يَسْتَبِقُ  
بِبيضاً كمثل السِّيوفِ تَبْتَرِقُ  
تَزْهَرُ في جَوْفِهِ فَنائِلِقُ<sup>(٢)</sup>  
في الكَأْسِ شَيْخٌ مُزْمَرٌ شَرِقُ<sup>(٣)</sup>  
شِهَابٌ نارٍ في الجَوِّ يَحْتَرِقُ  
بَطَوَّقِها جِلْدٌ حَيَّةٌ يَبْقُ<sup>(٤)</sup>  
إِلَّا حَدِيثٌ وَمَنْطِقٌ أُنِقُ

ثم القصيدة التالية وهي في صناعة السكر وهو المتخذ من التمر . والشاعر

(١) العلق : الدم ، والمراد المشابهة في اللون . (٢) الخلق : الطيب . تزهَر : تضيء .

(٣) شرق : غصان . (٤) القراقر : صوت تصاعد الحب . اليبق : الشديد البياض .

يَقْدَم لها — مثلما فعل في سابقتها — بدرس شائق جميل من دروس التاريخ الطبيعي في صفة النخل . فيستهلّ درسه بوصف موجز للنخلة في ظاهر منظرها من استقامة قدّها وجلالة هيئتها وارتفاع شطاطها ارتفاعاً يبعد بثراها عن تناول الجُنّة ، وهو يشبه الكبائس<sup>(١)</sup> للثمرة المتدلّية بالضرع الحافلة ، ثم يشير إلى المساحات المترامية التي تغطيها هذه الأحراش من النخيل مُدّعياً أنها جميعاً من غرس من تقدّموا من الفرس . وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى ذكر المواقيت الزراعية فيما يتعلق بالنخل ، فيذكر أن بدء إثماره في مستهل الصيف عند نزول الشمس أول برج السرطان ، ويمضي في وصف الأدوار التي يمر بها هذا الإثمار من نجوم الكوافير<sup>(٢)</sup> في أعلى النخلة على هيئة الأكف ، إلى تشقق هذه الكوافير عن نورها — وهو الطلع — كاللآلئ المنظومة في سلوكها ، ثم تقلّب الرياح المتناوذة ناقلة غبار اللقاح من ذكور النخل إلى إناثها ، فإذا بالطلع يصير خلّالاً ، ويخضر فيصير بلحاً كالزمرّد خضرةً ، حتى يطلع سُهَيْل في أواخر القيظ فإذا البسر يلون كاللّواقيت حمراً وصفراً . ولا تكاد ترطب أطرافه حتى يبادر الجنّة إلى النخل يتسلقونه ومعهم أدوات القطع ، وهي مُعَقَّفات من حديد ، فيقطعون الكبائس ويستزلونها في رفق . وهنا ينتقل الشاعر إلى القسم الأخير والأهم من درسه وهو صناعة الخمر من البسر . فيصف لنا البسر المرطب يُودع الخوابي المقيّرة ويضاف إليه الماء ، ثم كيف يعمدون إلى تحريكه ضرباً بالسيّاط المحركة القتل من اللّيف تنشيطاً للاختار وحثاً له . فإذا قارب الاختار أن يتم عمدوا إلى أفواه الخوابي فسدّوها سدّاً محكماً منعاً لفساد الخمر وتخلّلها . وعلى هذه الصفة يحصل أصحاب الخمر من ثمرات النخيل على خمر جيّدة طيبة مشرقة اللون متلاثلة :

(١) الكبائس جمع كباسة : العذق وهو من النخل كالعنقود من العنب .

(٢) الكوافير جمع كافور : وعاء طلع النخل .

لنا خمرٌ وليس بخمرٍ نخل  
 كَرَامُ في السَّماءِ زَهَيْنٌ طُولاً  
 قلائصُ ، في الرُّوسِ لها ضُرُوعٌ  
 مَسَارِحُهَا الْمَذَارُ ، فَبَطْنُ جَوْخَا  
 ثَرَانًا عَنْ أَوَائِلِ أَوَّلِينَا ،  
 فحين بدا لك السَّرطانُ يتلو  
 بدا بين الذَّوَائِبِ في ذُرَاهَا  
 فَشَقَّتْ الْأَكْفُ ، فَخِلَتْ فِيهَا  
 وما زال الزَّمانُ بِحَافَتَيْهَا  
 فَعَادَ زَمُرْدًا ، وَاخْضَرَ حَتَّى  
 فَلَمَّا لَاحَ لِلسَّارَى مُهَيْلٌ  
 بدا اليَاقوتُ ، وَاِنْتَسَبَتْ إِلَيْهِ  
 فَلَمَّا عَادَ آخِرُهَا خَبِيصًا  
 بعثتُ جَنَاتَهَا فَاسْتَنْزَلُوهَا  
 فَضُمْنَ صَفْوُ مَا يَجْنُونَ مِنْهَا  
 وَقُلْتُ « اسْتَعْجَلُوا » فَاسْتَعْجَلُوهَا  
 ذَوَائِبُ أُمِّهَا جُعِلَتْ سَيَّاطًا  
 فَوَلَدَتْ السَّيَّاطُ لَهَا هَدِيرًا  
 فَلَمَّا قِيلَ قَدْ بَلَّغْتَ وَلَمَّا ،  
 وَلَكِنْ مِنْ تَسَاجِرِ الْبَاسِقَاتِ  
 فَفَاتَ ثِمَارُهَا أَيْدِي الْجُنَاتِ  
 تَدِرُّ عَلَى أَكْفِ الْحَالِيَاتِ  
 إِلَى شَاطِئِ الْأُبُلَّةِ ، فَالْفُرَاتِ  
 بَنَى الْأَحْرَارُ ، أَهْلَ الْمَكْرُمَاتِ  
 كَوَاكِبَ كَالنَّعَاجِ الرَّائِعَاتِ <sup>(١)</sup>  
 نَبَاتٌ كَالْأَكْفِ الطَّالِعَاتِ  
 لَالِيٌ فِي السُّلُوكِ مُنْظَمَاتِ  
 وَتَقْلِبُ الرِّيَّاحُ اللَّاقِحَاتِ  
 تَخَالُ بِهِ الْكِبَاشُ النَّاطِحَاتِ  
 قَبِيلُ الصُّبْحِ مِنْ وَقْتِ الْغَدَاةِ  
 بِحُمُرٍ أَوْ بِصُفْرِ فَاقِعَاتِ  
 بعثتُ جَنَاتَهَا بِمُقَفَّعَاتِ <sup>(٢)</sup>  
 يَرْفِقُ مِنْ رُءُوسِ سَامِقَاتِ  
 خَوَائِبِ — كَالرَّجَالِ — مُقِيرَاتِ  
 بَضْرِبِ السَّيَّاطِ مُحْدَرَجَاتِ <sup>(٣)</sup>  
 تَحُمُّ ، فَمَا تَنَاهَى ضَارِبَاتِ  
 كَتَرَجِيعِ الْفُحُولِ الْهَائِجَاتِ <sup>(٤)</sup>  
 وَتُوشِكُ أَنْ تَقَرَّ وَأَنْ تُوَاتِي

(١) السرطان : من بروج السماء . ويكون الصيف عند نزول الشمس أول السرطان .  
 (٢) المعقفة والمقفاء : حديدة أو نحوها ملوى طرفها وفيها انحناء .  
 (٣) محدرجات : مفتولات محكات .  
 (٤) الفحول : جمع فعل ، ذكر الإبل .  
 (١٦)



نَسَجَتْ لَهَا عَمَائِمَ مِنْ تُرَابٍ وَمَاءٍ ، مُحْكَمَاتٍ مُوثَقَاتٍ  
 سَتَرَتْ الْجَوَّ خَوْفًا مِنْ أَذَاهُ فَبَاتَتْ مِنْ أَذَاهُ آمِنَاتٍ  
 فَلَمَّا قِيلَ قَدْ بَلَغْتَ كَشَفْنَا إِلَيْهَا عَمَائِمَ عَنْ وُجُوهِ مُشْرِقَاتٍ  
 حَسَّاهَا كُلُّ أَرْزُوعٍ شَيْظُمِيٍّ كَرِيمٍ الْجَدِّ مَحْمُودٍ مُؤَاتٍ<sup>(١)</sup>  
 تَحِيَّةً بَيْنَهُمْ « تَفْدِيكَ رُوحِي » وَآخِرُ قَوْلِهِمْ « أَفْدِيكَ هَاتِ »

وآخر ما نسوقه من نماذج الشعر التعليمي عند شاعرنا ، هذه الحمزية . وهي ليست في خمر العنب ، ولا في خمر النخيل ، وإنما هي في صناعة البتع أى النبذ المتخذ من العسل . والصورة التى يقدمها الشاعر بين أيدينا لا تعدلها صورة شعرية في التوضيح والاستيفاء العلمى . فهو يصف النحل العاملات ، ضامرات الجسوم ، فُطَس الأنوف ، غائرات العيون ، تغدو إلى الغيطان والأودية ، فتحط على نوارها وأزهارها متنقلة بينها ، تمتص بألسنتها الطوال الدقاق من كؤوس الرياحين رحيقها المعسول . ثم يعود الشاعر إلى هذه الأسراب من النحل العاملات فيصف عودتهن في المساء إلى القفير ، وفيه معقل الملكة التى يعملن تحت إمرتها ، والتى تمضى فيهن جميعاً حكومتها . والملكة أعظم منهن جرماً وأعزَّ شأنًا . وهن يكدحن جميعاً طوال النهار يذرغن الفضاء جيئةً وذهوباً ، فلا يزلن يبنين فى القفير أقراص الشمع ، ويخترن أزواد العسل . والملكة فى موضعها متربعة على عرشها لا ترى زهراً ولا تحوم على ثمر . إنها الملكة دعامة القفير ، ولا مستقبل لملكة القفير بغيرها .

ولسنا نزعم أن شاعرنا قد ألهم السداد فى جميع ما ذكره عن حياة النحل ، وأنه لم يلتبس عليه وجه الصواب فى شيء . فلقد جعل الشاعر ملكات النحل ملوكاً ، وجعل وظيفة النسل شائعة فى النحل العاملات ، وهى مقصورة على الملكة

(١) الشيطم والشيطمى : الجسيم الفتى .

أم الجميع . غير أنه من الإنصاف للشاعر أن نقول إن هذه معارف العلماء في عصره . وإنتا لنظمه أشد الظلم إذا طالبناه أن يتقدم في العلم عصره وأن يعلم في التاريخ الطبيعي أو غيره من العلوم ما نعلمه اليوم . وحسبنا منه هذه الصورة الحية لحياة النحل ، وما أشاع فيها هنا وهناك من الحركة ، حتى لنحسبنا منها بمشهد من مشاهد الطبيعة المسجلة عن الحياة في أشرطة الصور المتحركة التعليمية في عصرنا الحاضر . قال :

ليست إلى النَّخْلِ والأَعْنَابِ نِسْبَتُهَا      لكنْ إلى العَسَلِ المَآذِيِ والمَاءِ<sup>(١)</sup>  
نِتَاجُ نَحْلِ خَلَايَا غَيْرِ مُقْفَرَةٍ      خُصَّتْ بِأَطْيَبِ مُصْطَافٍ وَمَشْتَاءِ  
تَرَعَى أَزَاهِيرَ غِيطَانٍ وَأَوْدِيَةٍ      وتشربُ الصَّفْوَ منْ غُدْرٍ وَأَحْسَاءِ<sup>(٢)</sup>  
فُطْسُ الأنُوفِ ، مَقَارِيفُ مُشْمَرَةٍ      خُوصُ العِيونِ ، بَرِيثَاتُ منْ الدَّاءِ<sup>(٣)</sup>  
منْ مُقَرَّبِ عُشْرَاءِ ذَاتِ زَمْرَمَةٍ      وعَائِدِ مُتَبِعٍ مِنْهَا وَعَذْرَاءِ<sup>(٤)</sup>  
تَغْدُو وتَرْجِعُ لَيْلًا عَنْ مَسَارِبِهَا      إلى مُلُوكِ ذَوِي عِزٍّ وَأَحْيَاءِ<sup>(٥)</sup>  
كُلٌّ بِمَعْقَلِهِ يُمَضَى حُكُومَتَهُ      في حِزْبِهِ بِجَمِيلِ القَوْلِ والرَّاءِ  
لَمْ تَرَعِ بِالسَّهْلِ أَنْوَاعَ الثَّمَارِ وَلَا      مَا أَيْبَعَ الزَّهْرَ منْ قَطَرٍ وَأَنْدَاءِ<sup>(٦)</sup>  
زَالَتْ وَزِلْنَ بَطَاعَاتِ الْجَمَاعِ فَمَا      يَنْبِنَ في خُدْرِ مِنْهَا وَأَرْجَاءِ  
حَتَّى إِذَا اصْطَكَ منْ بُنْيَانِهَا قَرْصٌ      أَرْوَسْنَهَا عَسَلًا مِنْ بَعْدِ إِصْدَاءِ<sup>(٧)</sup>  
وَأَنْ مِنْ شَهْدِهَا وَقْتُ الشَّيَارِ فَلَمْ      تَلْبَثْ بَأَنْ شُيِّرَتْ في يَوْمِ أَضْوَاءِ<sup>(٨)</sup>

(١) المآذى : العمل الأبيض . (٢) الغدر : جمع غدير . الأحساء : جمع حصى وهو السهل من الأرض يستنقع فيه الماء . (٣) مقاريف : جمع مقروف وهو الضامر . خوص العيون : غائرتها . (٤) المقرب : التي قرب ولادها . العشاء : التي مضى لحملها عشرة أشهر . العائد : الحديثة التاج . متبع : يتبعها ولدها . (٥) أحياء : جمع حي وهو القبيلة والعشيرة . (٦) هذا البيت وسابقه وصف للملكات النحل . (٧) اصطك : انطبق وتقارب . الصدى : العطش . (٨) الشيار : جنى العمل .

وصَفَّقُوهَا بِمَاءِ النَّيْلِ إِذْ بَرَزَتْ      فِي قِدْرٍ قَسٍ كَجَوْفِ الْجُبِّ رَوْحَاءُ<sup>(١)</sup>  
 حَتَّى إِذَا نَزَعَ الرِّوَادُ رَغَوَتَهَا      وَأَقْصَتِ النَّارُ عَنْهَا كُلَّ ضَرَاءِ  
 اسْتَوْدَعُوهَا رَوَاقِيْدًا مُزَفَّتَةً      مِنْ أُغْبِرٍ قَائِمٍ مِنْهَا وَغَبْرَاءُ<sup>(٢)</sup>  
 وَكَمْ أَفْوَاهُهَا دَهْرًا عَلَى وَرْقٍ      مِنْ حُرٍّ طِينَةٍ أَرْضٍ غَيْرِ مَيْثَاءِ  
 وَعُمِّرَتْ حِقْبًا فِي الدَّنِّ لَمْ يَرَهَا      حَتَّى مِنْ النَّاسِ فِي صُبْحٍ وَإِمَاءِ  
 حَتَّى إِذَا سَكَنْتُ فِي دَنْهَا وَهَدَّتْ      مِنْ بَعْدِ دَمْدَمَةٍ مِنْهَا وَضَوْضَاءِ  
 جَاءَتْ كَشَمْسٍ مُضْحَى فِي يَوْمِ أَسْعَدِهَا      مِنْ بُرْجٍ لَهْوٍ إِلَى آفَاقِ مَرَاءِ

### هيئة مجلس الشراب

وبعد ما شهدناه من حوائث الخمر واجتئزنا به من حانات الأديرة وأقدناه من معارف عن صناعة الأنبذة ، نظن أن قد حان الوقت للكلام عن هيئة مجلس الشراب على اختلاف المكان والزمان ، وما يكتمل به نظمه من مقدمات وأركان ، وما يجري عليه أمره من سنن موضوعة وعادات مألوفة ورسوم مرعية . وذلك جميعه سنأتى عليه سالكين طريق الإيجاز .

ففي النهار كانوا يؤثرون — كما رأينا — المجلس المرتفع المكشوف ليشربوا على وجه السماء . فالخمر أحب ما تكون إليهم هنا وهم يتنسمون برد الهواء ، ويمتلئون العين بالضياء ، ويسرحون النظر إلى البعيد من مناظر القيعان والأودية . فإن كان اليوم قانظاً شديد الحر عمدوا إلى الرياض يتفيثون ظلالها عند ماء جار

(١) تصفيق الشراب : مزجه بالماء وتقليبه من إثناء إلى إثناء ليصفو . روجاء : واسعة . والنيل : خليج كبير يتخلج من الفرات من أعمال بابل وهو معروف منذ التاريخ القديم .  
 (٢) الرقاقود : دن كبير طويل الأسفل يطل داخله بالقار .



وجعلوا مجلسهم على بساط الخضرة فوق العشب المرصع بنجوم الزهر، وتحت الشجر المفتّر عن مضاحك النّور .

أما في الليل فنراهم يكثرون مع المصابيح من إيقاد الشموع ، يروقهم منها يياضها الشاحب وقامتها المشرّعة ، ومن فوقها لسان ذبالتها واحمرار شعلتها ، وهي في صورتها هذه تتراءى لخيالهم الشعري المترف كأنها رماح ولكن من فضة ، ولها أسننتها ولكن من ذهب . والشموع فيما عدا منظرها العجّب تزيد من التنبه العصبي بما يحصل عن كثرتها من شدة النور ، وإنه ليتكاثر فوق ذلك ويتضاعف بانعكاساته على آنية البلور .

وإذا كان الشرب في أوان الصيف في الدّور ، رشوا المجلس بالمياه العطرية المسّكة أو المستخرجة من الزهر ، وفرشوه على مألوف العادة بالياحين ، من منشور وورد ونسرين ، ومن آس ونيلوفر وياسمين . وهم يسمون ما يزين به مجلس الشراب بالعمارة أو العمار ، وتسميه الفرس مبوران . ولا تخلو هذه المجالس من فاكهة الصيف لا سيما التفاح ، إذ ليس في الأرض — على زعمهم — رائحة أعصم للروح من رائحة التفاح .

إشْرَبْ نَدِيمِي فِي كَاسَاتِ بَلُورٍ فِي مَجْلِسٍ يَفْنُونِ الزَّهْرَ مَعْمُورِ

يَا حَبَّذَا الْمَجْلِسُ مِنْ مَجْلِسٍ قَدْ حُفَّ بِالْخَيْرِ وَالنَّرْجِسِ  
وَفِيهِ إِخْوَانٌ لَنَا سَادَةٌ كُلُّهُمْ ذُو كَرَمٍ يَحْتَسِي

فَالْعَيْشُ فِي مَجْلِسٍ حُفَّتْ جَوَانِبُهُ بِالنَّرْجِسِ الْغَضِّ وَالنَّسْرِينِ وَالْأَسِ

وَدَارِ نَدَامِي عَطَّلُوهَا وَأَذْلَجُوهَا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ  
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّفَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَابَسِ



وأما في الشتاء فيكون مجلس الشرب في الأكنان على فرش الصوف .  
ومشموماتهم فيه فتبت المسك والعتبر ، وفي وسط المجلس الحجار يحرق فيها  
العود والند .

وفي هذه المجالس ينصب الخوان ، أو يمدّ على الأرض السباط ، وعليه مالد  
وطاب من لحم وحشٍ وطير ، ومن جنى الفاكهة وأنواع النقل . وتأخذ العين من  
بين هذه جميعاً آنية الشرب كأنظف ما تكون وأظرفه ، وإذا كان المجلس  
للشرب وتلك آتته ، فمن حقها علينا أن نخصها بشيء من البيان والوصف المفصل .

### آلة الشرب

كانت الخمر تسكب إذا لزم الأمر في الراووق لتصفو ويسب كدرها قبل  
شربها . والراووق معروف من قديم وفيه قول الأعشى المشهور :

نارعتهم قُضِبَ الرِّيحَانِ مُرْتَفِقًا وقهوةٌ مَزَّةٌ راووقها خَضِلُ

وهم يجعلون الخمر إما في الناجود ، وهو كل إناء يجعل فيه الشرب من جفنة  
أو غيرها ويفترف منه القوم في أقداحهم ، وإما في الدوارق وهي على هيئة الجرة  
الصغيرة ذات عروة ، وإما — وهو الغالب الأعم — في الأباريق من زجاج  
أو من رصاص أو شبه أو من معدن كريم كالفضة والذهب ، يصبون منها الشرب  
في الكؤوس . وقد أكثر أبو نواس من ذكر هذه الأباريق ذات العروة والبلبل<sup>(١)</sup>

وجاء بمختلف التشابه في رقابها الطوال العوج :

ثُمَّ صَارَتْ إِلَى أَغْنٍ كَطِيرٍ أَلْ ماءٍ إِبْرِيقٍ فِضَّةٍ مَقْدُومٍ<sup>(٢)</sup>

ثُمَّ زُفَّتْ إِلَى الزُّجَاجِ بِدِرْعٍ مِثْلَ نَارٍ تَحْكِي التَّهَابَ الْحَمِيمَ

(١) البلبل : قناة الكوز التي تصب الماء .

(٢) مقدم : جعل عليه القدماء (المصفاة) .

فِي أَبَارِيقَ سَجْدٍ كَبَنَاتِ الْمَا ۝ أَقْعَيْنَ مِنْ حِذَارِ الصُّقُورِ <sup>(١)</sup>

لَدَيْنَا أَبَارِيقٌ ۝ كَأَنَّ رِقَابَهَا رِقَابُ كِرَاكِي نَظَرْنَ إِلَى صَقْرِ <sup>(٢)</sup>

كَأَنَّ إِبْرِيْقَنَا ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ ۝ قَدَمَدَمْنُهُ لِيَخُوفِ الْقَانِصِ الْعُنْفَا

فِي أَبَارِيقَ مِنْ لُجَيْنٍ حِصَانٍ ۝ كَطَبَاءِ سَكَنَ عُرْضَ قِفَارٍ  
أَوْ كِرَاكِ ذُعْرُنَ مِنْ صَوْتِ صَقْرِ ۝ مُفَزَعَاتٍ ، شَوَاخِصِ الْأَبْصَارِ

كما جاء بأكثر من تشبيهه لحكاية صوت الشراب في اندفاقه من الإبريق :

كَأَنَّ إِبْرِيْقَنَا إِذَا صُفِّقَتْ ۝ فِي الْكَاسِ شَيْخٌ مَزْمَزٌ شَرِيقُ

كَأَنَّ قَرَقَرَةَ الْإِبْرِيقِ بَيْنَهُمْ ۝ رَجَعُ الْمَزَامِيرِ أَوْ تَرْجِيعُ فَافَاءِ

ومن آنية الشرب التي تتخذ فيما تتخذ له الأباريق ، القناني والقوارير من زجاج ، وهي على هيئات ، منها العظيمة الأسفل كالخوجلة ، والطويلة العنق كالخوالة والواسعة الأعلى الضيقة الأسفل كالباطية . وعلى فم هذه الأواني جميعاً يشدون في أكثر الأحيان خرقة يسمونها القدم بثابة المصفاة . وقد يتخذ الكوب وهو كالسكوز إلا أنه لا عروة له ، وقد يكون ذا خرطوم وعُرْي ، وفي الكوب قول النواصي :

وَالْكُوبُ يَضْحَكُ كَالْفَزَالِ ، مُسَبِّحًا ۝ عِنْدَ الرُّكُوعِ بِلُتْفَةِ الْفَأَفَاءِ

أما الأقداح فمنها الغمر وهو القدح الصغير الذي لا يبلغ الرى ، ومنها القعب وهو القدح الكبير ، وأكبر منه العُسُّ والضَّخْنُ . وكالأقداح والكاس والطاس

(١) أقعين : جلست على أذنائها .

(٢) الكراكي : جمع كركى طائر كبير طويل العنق والرجلين .

والجام والزجاج وغيرها . ويسمى القدح المقعر الكثير الأخذ من الشراب الوأب ، ويقال للقدح أعلاه ضيق ووسطه واسع المكوك ، ويوصف القدح الواسع المنبسط القصير الجدار القريب المقعر بأنه أرح أو ررح أو رحراح ، وغير ذلك من الأسماء والصفات تزخر بها كتب اللغة والأدب .

ولقد عرض شاعرنا لهذه الآنية بالوصف في كثير من شعره . فتناول منها المتخذ من البلور أو من الزجاج الفرعوني ، وظاهر أنها من صناعة مصرية ، فقال :  
 إثرب - نديمي - من كاسات بلور في مجلس بفنون الزهر معمور  
 قلت « القناني والأقداح ولدها فرعون » قالت « لقد هيئت لي طربا »  
 وقد بلغ هذا البلور من الصفاء ورقة المستشف أن زعم لنا الشاعر أن كأسه صيغت من حجر كريم ، فالكأس تارة لؤلؤة ، وتارة ياقوتة بيضاء . ثم لا يلبث خياله أن يستقل متن الهواء ويبعد في الفضاء ، فيتمثل الكأس كأنها كوكب دري فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة في كف جارية ممشوقة القد  
 فالخمر فينا كالبجادي مجرة والكأس من ياقوتة بيضاء<sup>(١)</sup>  
 وكان أقداح الزجاج إذا جرت وسط الظلام كواكب الجوزاء  
 وظاهر أن بعض هذه الآنية كان من زجاج ملون ، وينص الشاعر في هذه المرة على أنه صناعة فارسية على حد قوله :

بآنية مخروطة من زبرجد تخير كسرى خرطها ليصونها  
 أما الآنية غير الزجاجية ، فقد ترك لنا النواصي منها أكثر من قدح من ذهب . وأقداحه هذه كلها أو جلها مصور ، ونصاويرها إما رومية نصرانية ، وإما

(١) البجادي : حجر كالياقوت أحمر تملوه بنفسجية كثير الماء .

— وهو الأكثر — فارسية ساسانية . وهذا قوله في الكأس المصورة الرومية :

وامتَوَسَّقَ الشُّرْبُ لِلنَّدَامَى وَأَجْ رَاها عَلَيْنَا اللَّجَيْنُ وَالغَرَبُ<sup>(١)</sup>

أَقُولُ لَمَّا تَحَاكِيَا شَبَهَا : « أَثِيْمَا — لِلتَّشَابُهِ — الذَّهَبُ »

هَما سَوَا ، وَفَرَقُ بَيْنَهُمَا أَنَهُمَا جَامِدٌ وَمُنْسَكَبٌ

مُلْسٌ ، وَأُمَثَالُهُمَا مُحَفَّرَةٌ صُورٌ فِيهَا الْقُوسُ وَالصُّلْبُ

يَتَلَوْنَ إِنْجِيلَهُمْ ، وَفَوْقَهُمْ سَمَاءٌ خَرَجَ نَجْمُهَا الْحَبَبُ

وأما الأقداح المصورة الفارسية ، فالذي يلحظ فيها جميعاً أن في قرارتها صورة

كسرى يستقبلها نظر الشارب ، ثم في جنباتها صور الفوارس :

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَارِيرِ فَارِسُ

قَرَارَتُهَا كَسْرَى ، وَفِي جَنْبَاتِهَا مَهْمًا تَدْرِيبُهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

فَحَلَّ بِزَالِهَا فِي قَعْرِ كَأْسٍ مُحَفَّرَةِ الْجَوَانِبِ وَالْقَرَارِ

مُصَوَّرَةٌ بِصُورَةِ جُنْدٍ كَسْرَى وَكَسْرَى فِي قَرَارِ الطَّرْجَهِارِ<sup>(٢)</sup>

وَجُلُّ الْجُنْدِ تَحْتَ رِكَابِ كَسْرَى بِأَعْمَدَةٍ وَأَقْبِيَةِ قِصَارِ

بَنَيْنَا عَلَى كَسْرَى سَمَاءً مُدَامَةً مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومِ

نُزُوجٍ اخْرَجَ مِنَ الْمَاءِ فِي طَاسَاتٍ تَبْرِ جَوْفُهَا يَفْهَقُ<sup>(٣)</sup>

مُنْطَقَاتٍ بِتَصَاوِيرَ لَا تَسْمَعُ لِلدَّاعِي وَلَا تَنْطِقُ

عَلَى تَمَائِيلِ بَنَى بِأَبْكَ مُحْتَفَرٌ مَا بَيْنَهُمْ خَنْدَقٌ

(١) استوسق له الأمر : انقاد وأمكن . الغرب : الذهب .

(٢) الطرجهار : كأس للشراب (معرب) . (٣) فهق الإناء : امتلأ حتى تصيب .



كَأَنَّهُمْ وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ كَتَائِبٌ فِي لُجَّةٍ تَفَرَّقُ  
وَأَكْبَرُ الظَّنِّ عِنْدَنَا أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ كَانَ مُحِبًّا إِلَيْهِ مَزِينًا عِنْدَهُ الْأَقْدَاحَ الْمَلَّاحَ  
مِنَ الزَّجَاجِ الشَّفِيفِ الرَّقِيقِ ، لَشَفَوفِهَا عَنِ مَنَظَرِ الشَّرَابِ وَحِكَايَةِ لَوْنِهِ لِلْعَيْنِ ، ثُمَّ  
لَا نَعْكَاسَ لَوْنِ الشَّرَابِ مِنْهَا عَلَى كَفِّ السَّاقِ الْمُنَادِمِ ، وَمَا يَخِيلُهُ مِنْ تَخْضِيبِ بَنَانِهِ  
الرَّخِصَ النَّاعِمَ :

وَحَمْرَاءُ كَالْيَاقُوتِ بَتُّ أَشْجُهَا      وَكَادَتْ لَكُنْفِي فِي الزُّجَاجَةِ أَنْ تُدْمِيَ  
كَأَنَّ بَنَانَ مُمَسِّكِيهَا أُشِيمَتْ      خِضَابًا حِينَ تَلْعَمُ فِي الزُّجَاجِ  
يَسْقِيهِمْ      حَمْرَاءُ يَاقُوتَةً      تَسْرَجُ فِي الْكَأْسِ وَفِي الْكَفِّ  
وَإِذَا ذَكَرْنَا كَثْرَةَ تَشْبِيهِ النُّوَاسِي لِلْكُؤُوسِ بِالسَّرَجِ وَبِالنَّجُومِ ، لَمْ يَبْقَ لَدَيْنَا  
شَكٌّ فِي إِثْرِهِ اتِّخَاذَ الْكُؤُوسِ الزَّجَاجِيَةِ النَّقِيَّةِ فِي مَجَالِسِ شَرَابِهِ . وَنَجْتَزِي مِنْ  
أَوْصَافِهِ الْكَثِيرَةِ هَا بِمَقْطُوعَتَيْنِ مِثَالًا عَلَى كُلِّ مِنَ التَّشْبِيهِينِ الْأَثِيرَيْنِ عِنْدَهُ :

حَثَّنَا مُغْنَيْنَا عَلَى شُرْبِ كَأْسِهِ      فَتَدْرِكُهُ كَأْسٌ وَفِي كَفِّهِ أُخْرَى  
فَأَمْسَكَ مَا فِي كَفِّهِ بِشِمَالِهِ      وَأَوْمَأَ إِلَى السَّاقِ لِيَسْقِيهِ بِالْيَمَنِ  
فَشَبَّهَتْ كَأْسِيهِ بِكَفِّهِ إِذَا بَدَأَ      سِرَاجَيْنِ فِي مِحْرَابِ قَسٍ إِذَا صَلَّى  
إِذَا الْكَاسَاتُ دَارَ بِهَا عَلَيْنَا      تَكُونُ بَيْنَهَا فَلَكُ يَدُورُ  
تَدُورُ نَجْوَاهُ عَجَلًا وَرَيْنًا      مُشْرِقَةً ، وَتَارَاتٍ تَغُورُ  
إِذَا لَمْ يُجْرِهِنَّ الْقُطْبُ مِثْنًا      وَفِي دَوْرَاتِهِنَّ لَنَا نُشُورُ

### احتفال الشاربين وأدب الشرب

وكان لمجالس الشرب التي يعقدها الأمراء والكبراء حُلَّتُهَا الرسمية ، وهي خاصة

بهذه الاحتفالات ، وتعرف بثياب النادرة . وهى غلائل رقاق من المصبغات الزاهية الألوان من حمر وصفر ، وتكون عليها أحياناً ملاءة تقوم قياماً من شدة الصقال .

ويأخذ الندمان مجالسهم فى هيئة حسنة ، فلا ترى إلا حسن البزة ، متأنق اللبسة ، مطيب الأردان ، مضمخ الشعر ، مسرح اللحية ، متظرفاً فى العبارة ، متلطفاً فى الإشارة .

وكانت العادة فى مجالس الشراب عامة أن تكلم رءوس الشاربين ومعهم الساقى بأكاليل الزهر ، أو على الأقل يضعون على متن آذانهم زهرة من الآس أو الأذريون . وهم يجلسون وبين أيديهم قضب الرياحين ، وكلما دخل عليهم داخل رفعوا شيئاً منها بأيديهم يحيونه بها . ولا جرم تكون هذه المجالس المثل الأعلى للحياة عند من كان مثل شاعرنا فى حب الدعة والترف :

أَلَدُّ وَأَحْلَى مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ      مُصَافَحَةُ الطَّاسَاتِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ  
وَأَخَذُ تَحِيَّاتِ النَّدَامَى وَرَدُّهَا      بِتَرْحِيبِ أَنْسٍ مِنْ حَيْبِ وَصَاحِبِ  
وَلُبْسُ أَكَالِيلِ الرِّيحَانِ مَعَهُمْ      وَإِنْصَاتُ آذَانٍ إِلَى ضَرْبِ ضَارِبِ

أَحْسَنُ عِنْدِي مِنْ انْكِبَابِكَ بِالْفِئْهِ      رِ مَلِجًا بِهِ عَلَى وَتَدِ<sup>(١)</sup>  
وَقُوفُ رِيحَانَةٍ عَلَى أُذُنٍ      وَسَيْرُ كَأْسٍ إِلَى فَمِ بِيَدِ

لَنَا رَوَامِشْنَ يُنْتَخِزْنَ لَنَا      تَظَلُّ آذَانُنَا مَطَايَاهَا<sup>(٢)</sup>

وكان إذا بدأ الدور تقدم الساقى إلى رب المجلس فى أدب ولطف يسقيه ، ثم دار

(١) الفهر : حجر قدر ما يملأ الكف .

(٢) روامشن : جمع روامشة وهى ورقة آس لها رأسان (فارسية) .

بعده على حلقة الحاضرين يسقيهم . والساقى فى دورته بالكأس يجريها على اليمين،  
إلا إذا شاء رب المجلس أن تجرى يساراً كرامة لبعض من على يساره من الجالسين .  
ولم تزل هذه عادة العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، كما هو المدلول عليه فى أقوالهم .  
قال عمرو بن كلثوم :

صرفتِ الكأسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو      وكان الكأسُ مَجْرَها اليمينَا

وقال الوليد بن يزيد الأموى :

أَدِرِ الكأسَ يَمِينًا      لا تُدِرْها لَيْسَارِ

وعلى النديم إذا تناول القدح أن يشمه وينظر فيه ، مع المحادثة عليه قليلاً .  
وإذا كان حديث أو غناء أصغى إلى صاحبه ، فلا يشرب قبل انقطاع صوته .  
ويكون قدحه فى أثناء ذلك محمولاً بين أنامله لا يضعه على الأرض .

ويكون البدء عادة بالأقداح الصغار ثم الأوساط ثم القِعَاب الكبار . والقوم  
فى أثناء الشرب يتهادون ما بين أيديهم من تحايا ، وهى من أطيب الفاكهة حيناً  
وأحياناً قضبان الرياحين أو الطاقات اللطاف من الزهر وبعد كل دور من التناول  
يشغلون بالحديث نوبةً وبالغناء أخرى .

### المنادمة والنديم

وليس بعد استجادة الشراب وتهيئة آتله وزينة مجلسه ما يهتم له صاحب  
المجلس ويحتفى به مثل اختياره لنديمه أو لندمائه على الشراب . وفى ذلك  
يقول النواسى :

أرى للكأسِ حقاً لا أراه      - لغير الكأسِ - إلا للنديمِ -

وليس كل مشارب يشرب معك بالنديم . فالنديم الكامل أديب بأوسع معاني الكلمة . والكثير من مجاميع الأدب القديمة دعا إلى جمعه منادمة الكبراء . وفي تفسير الأديب يقول ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنن في العلوم » . ومثله قول ابن خلدون « إن الأدب لاموضوع له » . فإذا أريد حده قالوا هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من العلوم اللسانية والشرعية . على أن النديم كان يحتاج إلى أكثر من ذلك في عصور الحضارة ، فلم يكن له عن الإلمام بأنواع الثقافات في هذه العصور غنى ولا مندوحة ، ومنها الطب والفلك والنجوم والطرْد والقنص ولعب الصواج والشطرنج والموسيقى والفناء . ولا تقف حاجة النديم عند هذه الثقافات الذهنية والفنية فحسب ، بل لا بد أن تجتمع له معها ألوان من الشائلي الخلقية يوفق بينها بحسن الاستعداد والمرونة ، فيكون له مع عزة الملوك تواضع العبيد ، ومع عفاف النساك مجون الفتاك ، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث . ثم هو محتاج أن يجمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير الذي يناديه على حسب ما يبلوه من خلائقه ، وما يتعلمه من ملاحظه وإشاراته .

ولقد وردت بعض هذه الصفات التي يحتاج إليها على لسان معاصر لأبي نواس ، هو أبان اللاحق فيما وصف به نفسه للأمير الفضل بن يحيى البرمكي حين ورد على بابه يعرض نفسه وأدبه عليه :

أنا من بُغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباب  
شاعر مُفلق أخف من الرُّب شة مما يكون تحت الجفاح  
ثم أروى عن ابن هرمة للشعر وقول النسيب والأمداح  
ثم أروى عن ابن سيرين للغة بقول منور الإفصاح  
لى فى النحو فطنة ونفاذ أنا فيه قِلادة لوشاح



كاتبٌ، حاسبٌ، خطيبٌ أديبٌ    ناصحٌ راجحٌ على النصّاح  
 لستُ بالضخمِ يا أميرُ ولا ا    قدّم ولا بالمجحدِ الدّخاح  
 لحيّةٌ سبّطَةٌ ووجهٌ جميلٌ    واتّقادٌ كشُملة المصباح  
 وظريفٌ الحديث من كلّ فنٍّ    وبصيرٌ بخفياتٍ ملاح  
 كم وكَم قد خبأتُ عندي حديثاً    هو عند الملوك كالنفّاح  
 أيمنُ الناسِ طائراً يومَ صيدٍ    في غُدوةٍ خرجتُ أو في رَواح  
 أبصرُ الناسِ بالجوارحِ والخي    ل وبالخرَد الحِسان الصُّباح  
 كل هذا جمعتُ والحمدُ لله    ه ، على أنتى ظريف المزاح  
 لستُ بالنّاسك المُشمرِ ثوبيتٍ    ه ، ولا الماَجِن الخَلع الوّاقح  
 إن دعاني الأميرُ عاينَ مني    شمريّاً كالبلبل الصّياح

### منادمة الرؤساء

وكانت للخلفاء والملوك والأمراء والوزراء مجالس منادمة قد تحدّثتُ فأكثر  
 من الحديث عنها كتبُ الأدب . ولهذه المجالس شرائط صعبة ومسالك ضيقة على  
 الندماء . فعلى كل نديم أن يجلس في مرتبته ، جائياً على ركبته ، لا يظهر  
 شيء من قدمه ، من غير اتكاء ولا استناد إلى جدار أو مَحْدّة ، مع حسن أدب  
 وسكون ، فلا يعبث بثوب ولا خاتم ولا لحيّة . وعليه كلما نهض الرئيس أن  
 ينهض لهوضه ويجلس لجلوسه . وآلا يدنو إلّا إذا استدناه ، ولا يبتدئه بكلام  
 ولا يستعيده منه . وإذا سأله الرئيس نهض قائماً على قدميه وأجاب بأوجز عبارة  
 وألطف إشارة ، ثم لا يجلس حتى يأذن له . وينبغي أن يكون ذهنه وإصفاؤه  
 وبجاميع قلبه كلها مع الرئيس ، لا يتشاغل عنه ولا يلتفت إلى غيره .

ومهما يكن ما بين يديه من الرياحين والأزهار ، فينبغي ترك الإكثار من شهما  
أو من تناول غيرها من الشَّمَامات<sup>(١)</sup> ، أو العبث بالفاكهة . ويحسن منه الإقلال  
من التنقل على الشراب . وليس له بحال من الأحوال أن يستحث الشراب ، أو  
يقترح صوتاً على مغن أو مغنية . وكان لكل خليفة أو ملك أمانة يعلم منها ندماءه  
أنه يريد قيامهم فينصرفون .

وليس غريباً بعد ما تقدّم من صفة هذه المجالس أن كانت منادمة شاعرنا  
الخليع للخليفة هارون الرشيد مما تنازع فيه أصحاب التواريخ والسير . وما نحسب  
شاعرنا — مع الذى كان لشعره من حسن الموقع لدى الخليفة ومع دخوله  
أحياناً عليه — قد شهد فى حضرته مجلساً من مجالس المنادمة والفناء ، وهى  
لا تحصى من الكثرة وقد شهدا غير واحد من الشعراء . وإنما نادم أبو نواس  
من الخلفاء محمداً الأمين ، مع من كانوا ينادمونه من الغلمان والخصيان  
والخلعاء المستهترين .

وأكبر الظن أن الشاعر كان من الكرامة لنفسه بحيث لا يطيب له أن ينادم  
من الرؤساء إلا من كان يجرى مع الندماء مجرى الأقران والأكفاء . فلهذا ذكر  
الرواة اتصاله ببعض أولاد الخلفاء كولدَى المهدي وبعض الأمراء من الهاشمين ،  
وأنه كان يلزمهم وينادهم ، ونجد مصداق ذلك فى صفته لهذا المجلس :

أشربها صرفاً فإنّ هي قستُ زوّجتها بالماء حتى تباينُ  
لدى شريفٍ حسنٍ وجهه أخوّراً ، قلبى بهواه رهين  
من ولد المهديّ فى ذروفي مهذبٍ يخلطُ حزمًا بليّن

(١) الشّمَامات : كل ما يشم من الروائح الطيبة .

ولقد نادى أبو نواس القاسم بن الرشيد ، فلم يلبث أن لقي القاسم منه أشياء  
كرهها وكرهت له ، ففارقه .

ومن نادىهم أبو نواس الأمير عيسى بن أبي جعفر المنصور . وقد عزم الأمير  
يوماً عليه أن يقيم معه في قصره أسبوعاً بالقفص بين بغداد وعكبراً قريباً من  
بغداد ، وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزه ، وتنسب إليها الخمر الجيدة  
والحانات الكثيرة . وقد أقام الجماعة بالقفص يقصفون ويشربون بين عزف  
وغناء في مجلس مونت وسط الحدائق الفيحاء ، فلما أرادوا الانصراف ، وصله  
الأمير وخلع عليه وحمله الهدايا ، وقال له : « بحياتي عليك ! صف مجلسنا هذه  
الأيام كلها التي أقناها » فقال في ذلك :

يا طيبنَا بقُصور القُفصِ مُشرقةً	فيها الدَّساكرُ والأنهارُ تَطَرِدُ
لما أخذنا بها الصَّهباءَ صافيةً	كأنها النَّارُ وَسَطَ الكَأْسِ تَنَقِّدُ
جاءتْكَ من بيت خَمَّارٍ بطينَتِها	صفراءُ مثلَ شعاعِ الشمسِ تَرْتَعِدُ
فقام كالنُصن قد شُدَّتْ مَنَاطِقُهُ	ظبيٌ يَكادُ من التَّهْيِيفِ يَنْتَقِدُ
فاستلها من فم الإبريقِ فانبعثتْ	مثل اللسانِ جَرى ، واستنمك الجَمَدُ
فلم نزل في صباح السَّبْتِ نأخذُها	والليل أجمعه حتَّى بدا الأحَدُ
ثم ابتدأنا الطلا باللَّهِو من أُمِّ	في نعمةٍ غاب عنها الضيقُ والنَّكدُ
حتَّى بدتْ غُرَّةُ الإِثْنَيْنِ واضحةً	والسَّعدُ مُعْترضٌ ، والطَّالِعُ الأسدُ
وفي الثُّلَاثاءِ أعملنا المَطْيَّ بها	صهباءُ ما قرَعَتْها بالمزاج يدُ
والأربعاءِ كَسَرْنَا حَدَّ سَوَرِهَا	والكأسُ يَضْحَكُ في تيجانِها الزَّبدُ
ثم الخميسِ وَصَلْنَاهُ بليته	قَصْفاً ونَمَّ لنا بالجُمُعَةِ العَدَدُ

يا حسننا! وبحارُ القَصَفِ تغمرنا      في لُجَّةِ اللَّيْلِ والأوتارُ تغترِدُ  
 في مجلسِ حوله الأشجارُ مُحدِّقَةً      وفي جوانبه الأنهارُ تطرِدُ  
 لا نَسْتَخِفُّ بساقينا لِفِرَّتِهِ      ولا يَرُدُّ عليه حُكْمُهُ أحدُ  
 عند الأميرِ أبي عيسى الذي كُملت      أخلاقه، ففَى كالأوراقِ تُنتقدُ

ولقد كان للبرامكة مجالس منادمة . وكانت هذه المجالس مختلفة في الصفة بمقدار ما كان بين أبناء هذه الأسرة من اختلاف المنزعة من حيث اصطناع التصون والوقار أو التخفف من الحشمة والمجاهرة بطلب اللذة .  
 ونحن نعلم ما كان ينصح به شيخهم يحيى البرمكي :

إنصَبْ نهاراً في طِلابِ العُلا      واصْبِرْ على فَقْدِ لقاءِ الحبيبِ  
 حتى إذا اللَّيْلُ بدا مُقْبِلاً      وغابَ فيه عنكَ وجهُ الرقيبِ  
 فبادِرِ اللَّيْلَ بما تَشْتَهَى      فإنما اللَّيْلُ نهارُ الأريبِ  
 كم من فتى تحسبه ناسِكاً      يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بأمرٍ عجيبِ  
 أتى عليه اللَّيْلُ أَسْتارَهُ      فبات في لهو وعيشٍ خصبِ  
 ولذَّةُ الأحقِّ مَكشُوفَةٌ      يسعى بها كلُّ عدوِّ مُريبِ

ولكن جعفرأ في شبابه واعتداده لم يكن ليستجيب لدواعي العقل . فكان لا يخلو بمنزله يوماً إلا ويهيأ له مجلس الشراب ، فيلبس الحرير ، ويتضمن بالخلق ، ويحضر ندماؤه الذين يأنس بهم ، فيجلس إليهم وقد لبسوا للشراب والاهو الثياب المعصرة حمراً وصفراً وخضراً . فيقضون ليلتهم يسكرون وقد دارت الكاسات وخفت الميدان .

أما الفضل فكان أقرب في طباعه إلى أبيه ، فهو رجل همة وجد ، إلا أن فيه



كبراً شديداً يغطيه ما كان عليه من جود وعظم سخاء على من يجتمعون ببابه من أهل الأدب والشعراء . ولقد كان مجلس منادته مثالا لما ينبغي أن تكون عليه مجالس الأمراء، فكان يدعو إليه الرواة والشعراء في بهوله قد فرش كله بالسَّوَر وهو في صدر المجلس . وعليه دواج سمور<sup>(١)</sup> ، وبين يديه كانون من فضة ، في وسطه أثفية<sup>(٢)</sup> من ذهب ، وعلى الأثفية قِدرٌ أوقد تحته العود المنذلي . وأمامه صينية من فضة ، على أسد رابض من فضة وعيناه ياقوتتان حمراوان ، والصينية والأسد قطعة واحدة . وفي الصينية إبريق زجاج فرعوني ، لا يبلغ حسنَ فنه وصف ولا يني بقدره ثمن . وإلى جنبه كأس تسع رطلا . ويقف على القدر خادم فزرى ، والخدم خارج البهو جلوس . ولقد حضر الأصمعي إمام اللغة وراويّة العرب مجلس الفضل وصوره لنا على عادته تصويراً دقيقاً مفصلاً . فوصف ما أمر به الأمير له من خلعة كاملة ، من جبة ، وكساء بحواشيه ، وجوارب ، وكلها خز مبطن بسمور . ثم انتقل إلى خوانه فوصف الرقاقات وألوان الأطعمة في صحاف الفضة ، وبخاصة ما قدم إليه من طعام طيب المذاق في جام فضة خسروانية وقد نثر عليه السكر . والظن الغالب عنده وإن لم يحقّقه أنه كان مخ خصيان الضأن الذي يذبح في مطبخ الأمير كل يوم ، وبعد أن تملأ الأصمعي من الأكل ورفع الخوان ، جاءه الطست فأعطى أربعة أصناف من الأشنان<sup>(٣)</sup> فلما مسح يديه جاءه خادم بيده ملعقة غالية فتغلف بها ، ثم إن الفضل أخذ الكأس بيده ، فصب فيها من النبيذ قدر ثلثيها ثم ملأها بالماء وشرب . ثم صب مثل ذلك للأصمعي ، فبدره إليه وصيف ، فقال « تنح ، هذا يوم منادمة الأدب » . وأراد الأصمعي أن يستهل المنادمة

(١) السمر : حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة ، وربما أطلق السمر على جلده .

الدواج : ثوب يلتحف به . (٢) الأثفية : الحجر توضع عليه القدر .

(٣) الأشنان : ما تغسل به الأيدي من الحمض .

بأبيات من الشراب لأبي نواس فقال : « جعلت فداك ، قال الشويعير . . . »  
 فلما علم الأمير أنه يعنى أبا نواس ، راجعه : « بل قل الشاعر الذى قلما طلب  
 فأكره القوافى » . ثم عقب على ما أنشده الأصمى من خمرياته بقوله « لله دره ،  
 ما أئينه لدرر الوصف فى هذا الشعر وغيره . وإن كان فُتح له الباب ورُسم  
 له الوصف ، لقد أحسن الاشتقاق ، ودرر معانيه فى هذا الباب كثيرة ، وإن  
 كنت أكره أن أشتغل به عما أنا إليه أميل » ثم قال « والله لولا أن بجالسته  
 سَخَفُ يُسَبِّ به عند العامة لكان ثالثنا فى هذا اليوم . ولقد كنت على بَرٍّ له ،  
 فحالت بين ذلك وبينه الأشغال من يوم نادانى مطلقاً من رسيس الهوى الذى يجده  
 فى حب جنان فقال :

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ    هَوَاكُمُ لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

ولقد هزّت الأريحية الأمير الجواد عند ذكره الشاعر فنادى : « يا غلام ! على  
 بمنصور الخازن » . فلما وقف بين يديه قال : « إبعث إلى الحسن بن هانى بمندبل  
 فيه خمسة آلاف درهم . »

### منادمة الإخوان

وتختلف آداب المنادمة فى مجالس النظراء عنها فى مجالس الرؤساء . فالآداب  
 هنا ترك التقيد بالآداب ، وإطراح التحفظ والتكاف وما يؤدى إلى حصر وضيق .  
 ولما كانت هذه المجالس تخلو من رئيس يهابونه ويحتشمونه ، فهم يتواصلون  
 فيما بينهم بتحامى كل ما يجر إلى الملاحاة والخلاف ، كالعرض بالعيب ، والتفاخر  
 بالحسب والنسب ، والإملال بإطالة الحديث والاستئثار به ، والتكلم بالقحش  
 وهُجْر القول ، فهذا جميعه يجر إلى الشغب والعريضة والخصام والأذى . ولقد

أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ الْحِلْمِ ، وَالتَّغافل عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ ، وَإِدْمان الرِّضا وإِطراح  
ما مضى ، حتَّى بَلَغَ بِهِمُ الْأَمْرُ أَنْ يَمْتَدِّحُوا النَّدَامَى بِقَلَّةِ الْكَلَامِ وَطُولِ الصَّمْتِ ،  
فَإِذَا كَانَ كَلَامٌ فَلْيَكُنْ فِي وَصْفِ الْمَدَامِ وَمَا يَلْحَقُ بِهَا وَيَتَفَرَّعُ مِنْهَا ، فَلَا يَتَعاطَى  
النَّدَامَاءُ كَلَاماً خَارِجاً عَنْهَا

الرَّاحُ طَيِّبَةٌ ، وَلَيْسَ تَمَامُهَا إِلَّا بِطَيِّبِ خَلَاتِقِ الْجَلَامِ

لِمَثَلِي مِنَ الْفَتَيَانِ حَلَّتْ - أَخِي - الْخَمْرُ      وَطَابَتْ لَهُ اللَّذَاتُ وَاسْتَرْخَصَ الْشُّكْرُ  
إِذَا كَانَ شُرْبِي لَا يَكْدَرُ مَجْلِسِي      وَلَا يَغْتَرِي فِيهِ خِصَامٌ وَلَا هُجْرٌ

نَدَامَايَ - طُولَ الدَّهْرِ - خُرِمْتُ عَنْ الْخَنَا      وَغُمِي عَنْ الْعَوْرَاءِ ، نَزَهْتُ عَنْ الْكِبَرِ

إِذَا مَا كُنْتُ شَارِبَهَا فَشَرِبًا      عَلَى غَيْرِ الْخِلَافِ أَوْ التَّلَاحِي

لَا تَشْنُهَا بِأَلَّتِي كَرِهْتُ      فَهِيَ تَأْتِي دَعْوَةَ النَّسَبِ

خُلْنَا شَرِبَ تَشِينَانِ الْفَتَى      حَيْنًا حَلَّ : الْخَنَا وَالْعَرَبْدَه

وَوَقَّرَ الْكَأْسَ عَنْ مَفِيهِ      فَإِنَّ آيِنَهَا الْوَقَارُ<sup>(١)</sup>

وَلَمْ نَزَلْ نَتَحَسَّأُهَا مُشْفَعَةً      مَعَ كُلِّ مُدَّرِعٍ بِالْحِلْمِ سَكَّيْتُ

وَأَجُودُ الشَّرْبِ لَهَا عِنْدَنَا      أَنْ نَشْرَبَ الْقَهْوَةَ بِالصَّمْتِ

نَازَعْتُهَا فَتِيَةً غُرًّا غَطَارِفَةً      لَيْسُوا إِذَا امْتَحَنُوا يَوْمًا بِأَنْكَاسِ

لَا يَبْطَرُونَ وَلَا يُخْزُونَ نَادِيَهُمْ كَانَهُمْ جُثَّةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْفَاسٍ

نَفْسُ الْمُدَامَةِ أَطْيَبُ الْأَنْفَاسِ أَهْلًا يَمْنُ يَجْمَعِيهِ عَنْ أَنْجَاسٍ  
فَإِذَا خَلَوْتَ بِشُرْبِهَا فِي تَجَلُّسٍ فَانْكَفُفْ لِسَانَكَ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ  
فِي الْكَأْسِ مَشْغَلَةٌ وَفِي لَذَائِهَا فَاجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ  
صَفْوُ التَّعَاشُرِ فِي مُجَانِبَةِ الْأَذَى وَعَلَى اللَّيِّبِ تَخِيرُ الْجُلَاسِ

ومع أن أبا نواس كان خيراً يستكثر من الشراب ويستهلك به ويحيف على نفسه فيه ويستحب ذلك في نداماه ، فإنه كان في أكثر الأحيان إذا تبين في النديم أنه أخذ من الشراب حظه وانتهى إلى الكفاية وقارب السكر ، لم يحلف له على الشراب ولم يزد منه ولم يشغل عليه فيه . ولم يكن ذلك كله من الرحمة للنديم ، بل مجانبة لما قد يبدر منه في سكره وتوقياً من عربدته .

وَلَسْتُ بِقَائِلٍ لِنَدِيمٍ صِدْقٍ وَقَدْ أَخَذَ الشَّرَابُ بِمَقْلَتَيْهِ  
« تَنَاوَلْهَا وَإِلَّا لَمْ أَذُقْهَا » فَيَأْخُذْهَا وَقَدْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ  
وَلَكِنِّي أُدِيرُ الْكَأْسَ عَنْهُ إِذَا اسْتَعْفَى بِغَمَزَةٍ حَاجِبِيهِ  
وَإِنْ طَلَبَ الْوَسَادَ لِنَوْمٍ سُكْرٍ مَدَدْتُ وَسَادَتِي مِثْنِي إِلَيْهِ

ولقد وقعت الخبرة لأبي نواس في هذه المجالس بأنها مجال ذو سعة تعرف أخلاق الناس ، بما يكون عليه حالهم بعد الشراب . وذلك لما تثيره حميا الخمر من كوامن الطباع ، فينهتك ستر المصانعة ، ويغلب الطبع التطبع ، وتنكشف كل نفس على جليتها وحقيقة جوهرها :

أَرَى الْخَمْرَ تُرَبِّي فِي الْعُقُولِ فَتَنْتَضِي كَوَامِنَ أَخْلَاقٍ تُثِيرُ الدَّوَاهِيَا<sup>(١)</sup>  
تَزِيدُ سَفِيهِ الْقَوْمِ فَضْلَ سَفَاهَةٍ وَتَتْرُكُ أَخْلَاقَ الْكَرِيمِ كَمَا هِيَ



وَجَدْتُ أَقْلَ النَّاسِ عَقْلًا إِذَا انْتَشَى أَقْلَهُمْ عَقْلًا إِذَا كَانَ صَاحِبًا  
ولقد رأى الشاعر مما تقلب على عينيه ، أن الحاجة ماسة إلى وضع دستور  
للمنادمة ، فنظمه من خمس وصايا للمتنادين ، وهذه هي أبياته كما وردت في ديوانه  
وقد نسبها صاحب زهر الآداب إلى أبي عبد الرحمن المطوى :

حُقُوقُ الْكَأْسِ وَالنَّدَمَانِ خَمْسٌ فَأُولَاهُمَا التَّزَيْنُ بِالْوَقَارِ  
وثانيها مُسَاحَقَةُ النَّدَامَى وَكَمْ حَتَمَتِ السَّاحِقَةُ مِنْ ذِمَارِ  
وثالثها - وَإِنْ كُنْتَ ابْنَ خَيْرِ آلٍ بَرِيَّةً مَحْتَدًا - تَرُكُ الْفَخَارِ  
ورابعها وَلِلنَّدَمَانِ حَقٌّ سِوَى حَقِّ الْقَرَابَةِ وَالْجَوَارِ  
إِذَا حَدَّثْتَهُ فَاكْسُ الْحَدِيثِ أَلَا مَذَى حَدَّثْتَهُ ثُوبَ اخْتِصَارِ  
وخامسها يَدُلُّ بِهِ أَخُوهُ عَلَى كَرَمِ الطَّبِيعَةِ وَالتَّجَارِ  
كَلَامُ اللَّيْلِ يَنْسَاهُ نَهَارًا فَإِنَّ الذَّنْبَ فِيهِ لِلْعُقَارِ

وكذلك كان من وحي التجربة والمكابدة أن أوصى الشاعر ألا يتجاوز  
المجلس خمسة ، بما في ذلك صاحب الدعوة والمغنى ، تحرزاً من المهرج والمرج  
والفوضى التي لا تؤمن مع كثرة العدد :

ثَلَاثَةٌ فِي مَجْلِسٍ طَيِّبٍ وَصَاحِبُ الدَّعْوَةِ وَالضَّارِبُ  
فَإِنْ تَجَاوَزْتَ إِلَى سَادِسٍ أَتَاكَ مِنْهُمْ شَفَبٌ شَاغِبٌ

ومع ذلك فقد تجاوز شاعرنا فجعلهم ستة :

وْخَيْرُ النَّدَامَى سِتَّةٌ مِنْ ذَوَى الْحِجَى خَمْسَةٌ إِخْوَانٍ وَآخَرُ مُسَمِّعٍ  
ومما يلفت النظر في هذه الإحصاءات على اختلافها عدم الغفلة أبداً كان العدد  
عن وجود من يتولى العزف والغناء . وذلك أن السماع ركن من أركان مجلس

الشراب لا يتم المجلس إلا به ، ومن ثمة زيادة الشاعر لهذه الحاشية على وصاياه :  
 وَيُحَمَّدُ فِي الْإِخْوَانِ مَنْ كَانَ مُنْشِداً بِصَوْتٍ يُغْنِيهِ وَلَا يَتَمَنَعُ  
 وظاهر من خمریات أبی نواس أن المنادمة للصحاب كانت تزيد طلباً للمجالس  
 الشراب ، وأن لذة المنادمة عنده كانت لا تعد لها غيرها من اللذات ، لا يستثنى  
 منها وصال البيض الغانيات .

إنما العيشُ في مُنادمة الإخِ وان ، لا في الجلوس عند الكعابِ  
 فإذا أحمَد يوماً منادِمة الكواعبِ ، فقد أحمَدَهنَّ لأنهنَّ قد كنَّ ممن يحسنُ  
 التصرف في الحديث وتلذَّ معهن المذاكرة والمسامرة :

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْكَوَاعِبِ حُسْرًا فَلَقَيْنِي بِتَبَسُّمٍ وَتَهَلُّلٍ<sup>(١)</sup>  
 فَأَصَبْتُ مِنْ طَرَفِ الْحَدِيثِ لَذَاذَةً وَأَصْبَنَهَا مِنِّي وَلَمَّا أَجْهَلُ  
 وقد أجمع أصحاب الخمر أنها خير مسامرٍ في الخلوة ، وأنها تغني عن المجلس  
 وتقوم مقام الأنيس . ولكن شاعرنا كان لا يكتمل له أنس بغير نداماه ، فإن  
 شربها يوماً وحده خالياً بها ، فذاك أنه لم يجد في يومه النديم الذي يرضاه لها :

خَلَوْتُ بِالرَّاحِ أَنْاجِيهَا آخُذٌ مِنْهَا وَأُعَاطِيهَا  
 نَادَتُهَا إِذْ لَمْ أَجِدْ مُسْعِداً أَرْضَاهُ أَنْ يَشْرَكَنِي فِيهَا  
 شَرِبْتُهَا صِرْفًا عَلَى وَجْهِهَا فَكُنْتُ سَاقِيَهَا وَحَاسِيَهَا

وغنى<sup>٢</sup> عن البيان أن ما يتطلبه شارب الخمر في الخمر من النشاط والانبساط  
 والخفة ، يزيد أضعافاً مضاعفة بما يتطارحه الندمان على بساطها من أطايب  
 الحديث ، وما يحضرهم عليها من الحكايات والمُلح ، وما تستخفهم إليه من

اختراع الفكاهات والأضاحيك ، فضلاً عما تهزم إليه النشوة من ذكر صبوات الشباب ، وما تجريه على ألسنتهم من تقارض التحايا والثناء ، وما تدبّ به فيهم من مظاهر التعاطف والولاء . فلا يلبث أن يشيع في جو المجلس السرور وتتجاوب الضحكات ، وتفيض النفوس بالشعور وتفتتح للمودات ، وليس شيء أسرع من انعقاد الصداقات بين القناني والكاسات .

وَجَلَسَ فِتْيَةٌ طَابُوا ، وَطَابَتْ بِجَالِسُهُمْ ، وَطَابَ بِهَا الذَّمُّ  
تَدَارُ عَلَيْهِمْ فِيهَا عُقَارٌ مُعْتَقَةٌ لَهَا يَصْبُو الْحَكِيمُ

مَقِيًّا لِمَجْلِسِ فِتْيَانٍ أَنْادِيَهُمْ مَا فِي أَدِيمِهِمْ وَهَيَّ وَلَا خَلَلُ  
هَذَا لِدَاكَ ، كَمَا هَذَا وَذَاكَ لِدَا ، فَالْشَّمْلُ مُنْتَظِمٌ وَالْحَبْلُ مُتَّصِلُ

وَنَدَّامَانِ صَدَقَ ، بَلْ يَزِيدُ فَكَاهَةً عَلَى الصَّدَقِ ، لَمْ يَخْلُطْ مُوَاتَاتُهُ مَحْكَاً<sup>(١)</sup>  
حَوْلَ لَمَّا حَمَلَتْهُ غَيْرَ ضَيِّقٍ ذِرَاعاً بِمَا ضَاقَ الْكِرَامُ بِهِ مَسْكَ  
دَعَانِي ، وَأَعْطَانِي مِنْ أُنْتَةِ نَفْسِهِ مَوَدَّتَهُ الْمُثَلَّى ، وَفِي مَالِهِ الشَّرْكََا

### معاقرة العقار مع الشطار

ولقد كانت في المدن طائفة من أهل البطالة المستهترين بالدعارة ، وكان اجتماعهم على الفساد والضلال ، وكانت وجوه ارتزاقهم من غير الحلال ، وكلهم من ذوى الطبائع الثورية الخارجين على النظم الاجتماعية والأوضاع الخلقية ، ولم نواذر وأخبار تملأ الصحف الكبار ، وكانوا يعرفون في العراق بالشطار وأحياناً بالفتاك أو الفتيان<sup>(٢)</sup> وكان لهؤلاء هؤلاء وبذلك وخيالاً حتى اتخذوا لهم زياً خاصاً بهم ، وأخص

(١) المحك : التماهى في اللجاجة .

(٢) انظر صفحة ١٦٨ في الجزء الأول من الحيوان للجاحظ .

ما فيه منظر يأتزون به على صدورهم يعرف بإزرّة الشطار . وكان أبو نواس من المعجبين بهذه الطائفة لما بنفسه من النزوع إلى خلع الطاعات والتحلل من ربة العادات ، إطلاقاً لعنانه في معاقرة الراح وإصابة اللذات . وقد أكثر شاعرنا في أشعاره من نعت الفتيان والجواري بالشاطر والشاطرات كلما أراد تحسين الخلاعة لهم أو مدحهم بها وتمليقهم ، حتى صارت الشطارة علماً على الخلاعة ومرادفاً لها . ثم أفرط به إعجابه بالشطارة فنعت بالشاطرة ما هو أحب إليه وأحظى عنده من الغلام والجارية ، ونعنى به الخمر :

من كان يَهْدِي بحبٍّ جاريةٍ      أو بغلامٍ ، فإنني أُمِقُ  
شاطرةً في الإناء صافيةً      تمسّي لها من شعاعها الحدق

ويروى ابن منظور أن أبا نواس عند خروجه إلى مصر خرج في زى الشطار وتقطيعهم ، بطرّة قد صفّفا ، وكُمّين واسعين ، وذيل مجرور ، ونعل مطبق . وسواء أصبح الخبر أم لم يصبح ، فأبو نواس كان يستحب الاجتماع بالشاطر ويصاحبهم ويخرج معهم متنزهاً في الرياض ، فيعاقرون الشراب ويعبثون بكل من يجتاز بهم متبذلين ماجنين على عادتهم من تجاوز الحد وقلة المبالاة :

أيها العاذلُ دَعْ لَوْ      رمى في شرب الرَّحِيقِ  
خندريسٌ عِطْرُ النَّكْدِ      همة كالمسك السَّحِيقِ  
إنما طابت لذي فتة      لكِ تَرَدَّى بفسوق<sup>(١)</sup>  
جاهرَ النَّاسِ بما يَأْتِيهِ      في ضَنْكِ وضيق  
وبدا في النَّاسِ مَشْهُو      رأكَ ذى الرَّأسِ الخليق<sup>(٢)</sup>

(١) تردى به : لبسه .

(٢) قوله مشهوراً كذى الرأس الخليق ، إشارة إلى ما كان يفعله الحكام بالمخالفين من حلق رؤوسهم وإركابهم حماراً أو جملاً والطواف بهم في الطرقات لإشهارهم والتجريس بهم .



وَمُدِحَةٍ بِاللَّوْمِ تَحْسَبُ أَنِّي بِالْجَهْلِ أَوْثَرُ صُحْبَةَ الشُّطَارِ  
 بَكَرَتْ عَلَيَّ تَلَوْمُنِي ، فَأَجَبْتُهَا إِنِّي لِأَعْرِفُ مَذْهَبَ الْأَبْرَارِ  
 فَدَعَى الْمَلَامَ ، فَقَدْ أَطَعْتُ غَوَايَتِي وَصَرَفْتُ مَعْرِفَتِي إِلَى الْإِنْكَارِ  
 وَرَأَيْتُ إِيَّانِي اللَّذَاذَةَ وَالْهَوَى وَتَعَجَّلِي مِنْ طَيْبِ هَذِي الدَّارِ  
 أُخْرَى وَأَحْزَمَ مِنْ تَنْظَرِ آجَلٍ عَلِمَى بِهِ رَجْمٌ مِنَ الْأَخْبَارِ  
 مَا جَاءَنَا أَحَدٌ يُخْبِرُ أَنَّهُ فِي جَنَّةٍ مُذَمَّاتٍ أَوْ فِي النَّارِ  
 فَدَعَى مُعَاتِبَتِي عَلَى تَرْكِ التَّقَى وَاعْتَبَى فِيهِ عَلَى الْأَقْدَارِ  
 لَوْ عَنَّا لِي قَدَرٌ يُسَاعِدُ صَرْفَهُ لَرَأَيْتَ كَيْفَ تَعَقَّنِي وَوَقَارَى

### الساقى

وللساقى شأن ملحوظ فى مجلس الشراب . وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو  
 مدير الكأس ؛ والكأس قطب المجلس ، من أجلها انعقاده وحولها تَحَلَّقُهُ :  
 هِى الْقُطْبُ الَّذِى دَارَتْ عَلَيْهِ رَحَى اللَّذَاتِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ .  
 والساقى فى دورته بالكأس يتنقل بين القوم خفيف الحركة رشيق الخطو ،  
 وعليه قبل المناولة أن يستأذن فى المزج وعدمه . فمن القوم من يشرب الراح صرفاً ،  
 ومنهم من يختار المزوج قليلاً أو كثيراً . فإن كان الساقى عارفاً بأخلاق القوم ،  
 عامل كلاً منهم بما يلائم طباعه من غير سؤال . كما أن من واجبه فى كل حال  
 مراعاة الإنصاف وإصابة المزاج . ومن هذا جميعه يتبين أن الساقى لا يكون  
 ساقياً حتى يحذق الصناعة :

يَارُبَّ لَيْلٍ بَتْ فِي نَعْمَةٍ عِنْدَ فَتَى أَيْضَ بَسَامِ .

قد بات يَسْقِينِي دِرْيَاقَةً سالت من الإبريقِ في الجام<sup>(١)</sup>  
 بكفٍّ ساقٍ حسنٍ وجهه في السقي عدلٍ غيرِ ظلامٍ  
 يَسْقِيكُمَا مُخْتَلِقٌ مَا جِنُّ مَمَوَّدٌ لَلسقي نَحْرِيرُ  
 مُنْقَطِعُ الرَّدْفِ هَضِيمُ الحشا أَحورُ في عَيْنَيْهِ تَفْتِيرُ  
 قد عَقَرَبَتْ رَايَةً صُدْغَهُ فَالصُدْغُ بِالْعَنْبَرِ مَطْرُورُ<sup>(٢)</sup>

يوم الخميس أَقَمْنَا سَاقِيًا حَكَمًا نرى حُكُومَتَهُ عَدْلًا ، وما زَعَمَا  
 أَقُولُ لَمَّا أَدَارَ الكَاسَ لِي قَسَمٌ : « الآنَ قِيلَ تَعَاطَى القوسُ بِأَرِيهَا  
 يَا أَلْبَقَ النَّاسِ كَفًّا حِينَ يَمْزُجُهَا وَحِينَ يَشْرِبُهَا صَرْفًا وَيَسْقِيهَا  
 قَدْ قَمْتُ فِيهَا عَلَى حَدٍّ يُوَافِقُنَا وَهَكَذَا فَأَدِرُّهَا بَيْنَنَا ، إِيهَا ! »

وكانوا يستحبون في الساقى أن يكون حدث السن ، بارع الحسن ، رشيقيًا  
 كالظبي النافر ، مُخْطَفَ الخصر ، محطوط المتن ، يتثنى في مشيته ، ناعم الإهاب ،  
 أبيض بلون العاج ، كالبدر غُرَّتِهِ ، وكالليل طُرَّتِهِ ، قد كَسَّرَ شعره على جبينه وَاوَاتِ ،  
 وعقرب سوائفه المطرورة بالعنبر على صدغيه كالنونات ، أَحور ، مكحول الجفن ،  
 غنج اللحظ ، في عينيه تفتير ، أغن الصوت ذا لثغة ، رخيم الكلام ، حسن الدلّ  
 خنث الشماثل ، مخضب البنان ، يلبس القرطق أو الدواج أو القباء من الديباج ،  
 معصوب الرأس بتاج من الرياحين ، مقلد العنق بقلائد الياسمين ، مقرط الأذنين  
 وعلى المتن منهما وردتا آذريون :

إِنَّمَا العِيشُ فِي مُبَاكَرَةِ الخ رِ ، وَسُكْرِ يَدُومٍ فِي كُلِّ حَالٍ

(١) الدرايقة : الخمر .

(٢) الرابية : بمعنى الرقية المربية . مطرور : مدهون .

وتمام السُرورِ فيها بساقِ حسنِ الوجهِ مُستندِرِ الجمالِ

يدورُ بها ظليُّ غريرٍ مُتَوَجِّجٍ بتاجِ من الرِّيحانِ ، ملءِ القَراطِقِ  
له عَقْرَبَا صُدُغٍ على وردِ خَدَّه كَأَنَّهُما نُونانِ من كَفٍّ ماثِقِ

يسقيهمُ ذو وَفْرَةٍ أَحورٍ يُسْبِلُ صُدْغًا فَاتَرَ الطَّرْفِ  
يُكْسِرُ الرِّاءَ وتكسيها يَدْعُو إلى الشَّقَمِ مع الحَتَفِ

بيدَي ساقٍ عليه حَلَّةٌ من يَاسمينِ  
وعلى الأُذُنَيْنِ منه وَرَدَتَا آذَرِيونَ  
غَايَةً في الشَّكْلِ والظَرِّ فِ ، وفَرَدُ في المَجُونِ

يَسْعَى بها خَنِثٌ ، في خُلُقِه دَمَثٌ يَسْتَأْثِرُ العَيْنَ في مُسْتَدْرَجِ الرَّاثِ  
مُقَرَّطٌ ، وافرُ الأعْطافِ ، ذو غَنَجٍ كَأَنَّ في راحَتَيْهِ وَسْمَ حِنَاءِ  
قد كَسَرَ الشَّعْرَ واوَاتٍ ، ونَضَّدَه فوقَ الجَبِينِ ، وردَ الصَّدْغِ بالفاءِ  
عَيْنَاهُ تقسمُ داءَ في مُحاجِرِها ورُبَّما نَفَعَتْ من صَوْلَةِ الدَّاءِ  
إِنِّي لأَشْرَبُ من عَيْنَيْهِ صَافِيَةً صرفاً ، وأَشْرَبُ أُخْرَى مَعَ نَدَامائِي

وكان القوم إذا دبت فيهم النشوة ونخفوا من الحشمة ، أعملوا الطرف إلى الساقِ  
الغرير الشاب وهو يدور عليهم بالشراب ، وجَمَّشَهُ فُتًا كَهِم خَفِيَةٌ بطرفة العين  
وغمزة الكف ، وهو يثنى دلالاً ويزيد تيهًا ، ولا يني في خبثه يوزع البسمات  
هنا وهناك ، ويجيب بالعداء كاذبات وصادقات على غفلة من هذا وذاك .

يَمْدُ به إِلَيْكَ يَدَا غُلامٍ أَغْنَى كَأَنَّهُ رَشَاءُ رَيْبٍ  
غَذَّتْهُ صَنْعَةُ الدَّايَاتِ حَتَّى زَها ، فزَها به دَلٌّ وطِيبُ

فإن جَمَشْتَهُ خَلَبْتِكَ مِنْهُ طرائفُ تُسْتَخَفُّ لَهَا الْقُلُوبُ  
يكاد—من الدلال إذا تَذَنَّى عَلَيْكَ، ومن تَسَاقَطَهُ—يذوب

وهذه الأبيات جميعاً صريحة الدلالة على ما كان عليه السقاة من نقص  
الرجولة والتخنث والاسترخاء، ولكنها مع هذا قاعدة لا تخلو من استثناء :

يَسْعَى بِهَا مِثْلُ قَرْنِ الشَّمْسِ ذُو كَفَلٍ يَشْفِي الضَّجِيعَ بِذِي ظَلَمٍ وَتَشْنِيبٍ<sup>(١)</sup>  
كَأَنَّهُ كُلَّمَا حَاوَلَتْ نَائِلُهُ ذُو نَحْوَةٍ قَدْ نَشَا بَيْنَ الْأَعَارِيبِ  
ومن الإنصاف أن نقرر أن هؤلاء السقاة كانوا من كل جنس وكل نحلة  
لا يختص بعارهم فريق دون فريق :

يسمى بها من وُلِدَ « يافث » أَخَوْرٌ كَقَضِيبِ بَانٍ فَوْقَ دِعْصِ نَقَاءٍ<sup>(٢)</sup>

وساقٍ غَرِيرِ الطَّرْفِ وَالذَّلِّ، فَاتِنٍ رَيْبٍ مُلُوكٍ كَانَ وَالْدُهمُ كِشْرِي

وْغَزَالٍ مِنْ بَنِي الْأَصْ قَرٍ ، مَعْصُوبٍ بِتَاجِ  
شَخْصُهُ مَنَّى بَعِيدٌ وَهُوَ مَنَّى كَالْمُنَاجِي  
دَارَ بِالصَّهْبَاءِ صِرْفًا لَمْ تُدَنَّسْ بِمَزَاجِ

بَسْفِيكَهَا مِنْ بَنِي الْعِبَادِ رَشَاءٌ مُنْتَسِبٌ عَيْدُهُ إِلَى الْأَحَدِ

مَزَجَ الْكَأْسَ لِي غَزَالٌ أَدِيبٌ هَاشِمِيٌّ أَصَابَ فِيهَا الْمَزَاجَا  
وكان ساقى القوم في أكثر الأحوال مغنيهم ، بعد أن يفعل الشراب فيه  
فعله وفيهم :

(١) الظلم : بريق الأسنان ، والتشنيب بياضها ورقتها .

(٢) الدعص : الكشبان . النقا : الرمل .



نَارَ غَتِّهِمْ قَهْوَةً صَفَاءَ  
بِشَادِنِ خَنْثِ كَالْفُصْنِ مَيَّاسِ  
كَأَنَّ إِكْلِيلَهُ تَاجُ ابْنِ مَارِيَةَ  
إِذْ رَاحَ مُفْتَصِّبًا بِالْوَرْدِ وَالْأَسِ  
مُخَنَّثُ اللَّفْظِ ، بِسَيِّئِي بِمُقْلَتِهِ  
مُقَرَّطُ ، قُرَشِيُّ الْوَجْهِ عَبَّاسِي  
وَقَدْ يُفَنِّيكَ مِنْ سُكْرِ وَمِنْ طَرَبِ  
وَالْكُاسُ تُتَخَالُ مِنْ سَاقٍ إِلَى الْحَاسِي  
« اللَّهُ دَرُّكَ ، قَدْ عَذَّبْتَنِي حُرْقًا  
بِالْقُرْبِ وَالْبُعْدِ وَالْإِطَاعِ وَالْيَاسِ »

بِسَفْيِكُمَا أَحُورُ الْعَيْنَيْنِ ذُو صُدُغٍ  
مُسَمَّرٌ بِمَزَاجِ الرَّاحِ قَدْ حَذَقَا  
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهُ حِينَ تُبْصَرُهُ  
كَأَنَّهُ مِنْ جَنَّاتِ الْخُلْدِ قَدْ سُرَقَا  
مَا زَالُ يَمْزُجُهَا طَوْرًا ، وَيُشْرِبُهَا  
طَوْرًا ، إِلَى أَنْ رَأَيْتُ الشُّكْرَ قَدْ سَبَقَا  
ثُمَّ تَفَنَّنِي وَقَدْ دَارَتْ بِهِامَتِهِ  
فَمَا يَكَادُ يُبَيِّنُ الْقَوْلَ إِذْ نَطَقَا  
« إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنِ فَافْتَرَقَا  
وَعَلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءِ مَا عَلَقَا »

### تَعَشَّقُ الْغُلَّامَانِ وَالْغَزَلَ بِالْمَذْكَرِ

وَكَانَ السَّقَاةُ وَالنَّدَمَانُ فِي دَوْرِ الْقَوْمِ مَعْظَمُهُمْ غُلَّامَانِ مِنْ مَمَالِكِهِمْ ، وَهُم بَيْضُ  
مِنَ التُّرْكِ وَالْفَرَسِ وَالْدِيلِمِ وَالطَّبَرِيَّةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ يُسَبَّى وَيَحْمَلُ لِلْبَيْعِ .  
وَفِي بَعْضِهِمْ قَوْلُ النَّوَّاسِيِّ :

كَأَمَّا الْبَدْرُ يَمْشِي فِي قَرَاطِقِهِ إِلَى بَنِي الْأَصْفَرِ الصُّهْبَانِ يَنْتَسِبُ  
وَقَدْ صَارَ هَؤُلَاءُ زِينَةً لِقُصُورِ الرُّؤَسَاءِ حَتَّى أَصْبَحَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ  
الْأَمِينِ ، فَقَدْ جَعَلَ مِنْذُ وَلِيَ الْخِلَافَةَ يُوْجِهَ فِي طَلَبِ الْخَصِيَّانِ مِنَ الْغُلَّامَانِ يَبْتَاعُهُمْ  
مَغَالِيًا بِهِمْ مُسْتَكْتَرًا مِنْهُمْ . وَرَفُضَ النِّسَاءُ الْحَرَائِرُ وَالْجَوَارِي الْإِمَاءُ حَتَّى رَمَى بِهِنَ .  
وَصِيرَ الْخَصِيَّانِ لَخْلُوتَهُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَجَعَلَهُمْ قَوَامَ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه معهم في المنادمة والشرب ، حتى أحفظ هذا الإيثار لهم أبا نواس وهو نديمه وأقرب الشعراء منزلة عنده ، فقال :

إِحْدُوا اللَّهَ جَمِيعاً يَا جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ  
ثُمَّ قُولُوا ، لَا تَمَلُّوا ، «رَبَّنَا أَبْقِ الْأَمِينَا !»  
صَبِّرْ الْخَصِيَانَ حَتَّى جَمَلَ التَّعْنِينَ دِينَا  
فَاقْتَدَى النَّاسُ جَمِيعاً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

وهكذا انقلب الزمان وصارت للخصيان دولة . وصار يقسم بها شاعرنا فيما

يقسم به من يمين برة :

أَمَّا وَحَقُّ الْإِيوَانِ وَالْبَزْمِ وَالْمِهْرَجَانِ  
وَحُرْمَةِ الْخُسْرَوَانِي إِذَا بَكَى فِي الدَّيَّانِ  
وَرَزَّةِ الْعِيدَانِ وَكُلِّ بَيْمٍ وَثَانِ  
وَنَهْمَةِ الْمُجَّانِ وَنَخْوَةِ النَّشْوَانِ  
وَبِاتِقِ اللَّابِ الزَّمانِ وَدَوْلَةِ الْخَصِيَانِ  
يَمِينِ غَاوٍ خَلِيعٍ مُضَلَّلٍ مَخْرَشَانِي  
لَقَدْ شَكَّكَتْ فُؤَادِي بِأَسْنَمِ الْهَجْرَانِ

ولقد كان الأصل في اتخاذ المالك من العلمان للخدمة ، والخصيان منهم لخدمة الحرم .

ثم اتخذ شجعانهم لحمل السلاح ، واشتغل بعض أهل الفطنة منهم في الدواوين :

يَا رُسْتَمُ بْنُ خَدَاهِي يَا ظَبِيَّةَ الدِّيَوَانِ

\*\*\*

وكان الرسم عند أصحاب الدواوين أن يضموا القلم فوق متن الأذن ليكون قيد

متناولهم عند استئناف الكتابة ، وقد روى سنداً لذلك أن معاوية بن أبي سفيان

كان يكتب للنبي فكان أن رأى منه إعراضاً فوضع القلم في فيه ، فنظر إليه النبي

وقال : « يا معاوية ، إذا كنت كاتباً ، فضع القلم على أذنك ، فإنه أذكرك لك والمُعلّى » ، ومن ثمة إيرادهم لفظ « يستحب » عند الحض على ذلك ، ومنه قول محمد بن المدائني « يستحب للكاتب في كتابته إذا فكر أن يضع القلم على أذنه » . ولم يزل الأمر على هذه الصورة إلى عهد قريب عند كتاب الدواوين . وإلى هذه الصورة يشير شاعرنا في قوله :

وَصِلَ الشَّادَنَ الَّذِي يَرُوحُ إِلَى الـ دِيَّوَانِ مِنْ فَوْقِ أُذُنِهِ قَلَمٌ  
وَيَمْضَى فِي اسْتِكْمَالِ الصُّورَةِ فِي غَيْرِ وَاحِدَةٍ مِنَ الْمَقْطَعَاتِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ فِي  
هَذِهِ الْآيَاتِ :

إِنَّ الَّذِي تَيَمَّنَى حُبُّهُ      أَمْرُدُ مِنْ نَشْءِ الدَّوَاوِينِ  
قَدْ نَشَرَ الطُّومَارَ فِي حِجْرِهِ      مُبْتَدِئًا بِالْبَاءِ وَالسَّيْنِ (١)  
يُطَرَّرُ الْوَرْدَ عَلَى خَدِّهِ      مِنْ عَرَقِ الْمَسْكِ مَعْجُونِ

ولقد كان من الرؤساء كما رأينا من اتخذوهم زينة لمجالسهم . وبلغ من كثرة الغلمان أن كان الأمير من الأمراء يصل شاعره بالجائزة السنوية من مال وبغلام أو أكثر من غلمانه ، ثم كان من تبدل حياة القوم الاجتماعية ، وما استتبعته الحرية الفكرية من توهين ما كان مستولياً على نفوسهم من الإخبات للنواهي الشرعية أن دخل على القوم ما دخل من البدع والعادات الأجنبية عنهم ، وكان شراً ما حدث من ذلك شيوع الإباحية الجنسية .

وفي ديوان أبي نواس غزلٌ كثيرٌ بمالك القصور شاهدٌ على مبلغ ما أشاعوه في ذلك العصر من الميل الجنسي الشاذ :

يَا أَبَايَ ظَنَنْتُ بِهِ مَسْحَةً      قَدْ شَبَّ ، فِي بَغْدَادَ مَاوَاهُ  
رُبِّي « بِقَضْرِ الْخُلْدِ » فِي نِعْمَةٍ      حَيَّاهُ بِالنَّعْمَةِ مَوْلَاهُ  
أَغْفَلَهُ الْبَوَّابُ مِنْ شِقْوَتِي      فَجَاءَنِي بِضَحْكَ عِظْفَاهُ  
وَمَرَّ لِلْحَيْنِ بِنَا ضَخْوَةً      فَصَادَ مِنِّي الْقَلْبَ عَيْنَاهُ

( ١ ) يشير إلى الابتداء بالبسلة . الطومار : الصحيفة يكتب فيها .



فَصِرْتُ لِلشَّقْوَةِ فِي فَخِّهِ كَطَائِرٍ قُصِّ جَنَاحَاهُ  
 إلا أن ديوان شاعرنا لا يخلو إلى جانب ذلك من دلالة شماء على امتسراء  
 الداء ، بما يتضمنه من جملة عظيمة المقدار من الغزل بالذكر في غير المالك . ولو  
 شئنا لآتيناه على أسمائهم ؛ وإن كان الشاعر في أكثر الأحوال يكتفي بالتكنية  
 عنها والتلميح ، ولا يجترئ على المجاهرة والتصریح . ويلاحظ أن هذا العاشق  
 الفاسق كان يلقي أحياناً من حزم أهلهم وشدتهم ما يفوت عليه خبث نيته  
 وسوء قصده .

يَا أَيُّهَا الرِّيمُ الذِي صَادَنِي بِمُقْلَةٍ فِي اللَّحْظِ حُورَاءُ  
 وَحَاجِبٍ كَالنُّونِ قَدْ نُمِّقَتْ فَوْقَ حَجَاجِ الْعَيْنِ زَجَاءُ<sup>(١)</sup>  
 وَمَحْجَرٍ أَنْوَرَ مِنْ فِضَّةٍ مَجْلُوءَةٍ بِالصَّقْلِ بَيْضَاءُ  
 وَعَارِضٍ أَظْهَرَ تَشْيِيكَهُ كَرَوْضَةِ الْفِرْدَوْسِ خَضَاءُ  
 قَدْ مَلَنِي أَهْلُكَ يَا سَيِّدِي وَنَفَرُوا عَنِّي مَوْلَائِي  
 وَأَضْرَمُوا - إِذْ فَرَّقُوا بَيْنَنَا - فِي كَيْدِي نَاراً وَأَحْشَائِي  
 إِنِّي غَدَاً مِنْ حُبِّكُمْ مَيِّتٌ كَعُرْوَةٍ فِي حُبِّ عَفْرَاءُ  
 وقد انتشرت لأبي نواس من ذلك في الناس قالة سيئة ، وشاعت له شهرة  
 فاضحة ، حتى لقد تسمع به الصغار - فيما زعم الزاعمون - فلم يكن فيهم من  
 يجمل اسمه وإن كان لا يعرف شخصه . قال الحكم بن عمار الواسطي : [ مررت  
 وأنا غلام بداود بن رزين الشاعر ، فقال لي : « اصمداً يا حَكَم » فصعدت إليه  
 وإذا معه رجل وكانت في يدي وردة فددت يدي بها إلى ابن رزين ، فقال :  
 « ناوِلها هذا الرجل » فناولته إياها ، فقبض الرجل على كفي وهي فيها فشمها وقال :

ووردة جاء بها ورودة تُشبهه ريماً فخياني  
 عجبتُ منها حين أبصرتها ريمانة في كف ريمان

(١) الحجاج : العظم الذي ينبت عليه الحجاب . زجاء : رقيقة في طول .



فقال له ابن رزين : « أحسنت يا أبا نواس » . فلما سمعت كنيته ، نفضت يدي من يده [ .

وكان أبو نواس — على حبه للسلامة — يملك زمام خوفه ويتعرض لحتفه مغامرة منه في هذه السبيل . ونسوق من جملة أخباره لابن منظور هذا الخبر مهذباً مختصراً على طريق التمثيل :

كان بالكوفة فتى من أهلها يقال له « جمال » من بني دارم ، قدم بغداد أيام الرشيد . وكان جميلاً حديث السن ، وكان لا يشرب الخمر ، وله شطارة وجلد ، وكان يقرض الشعر ، وقرئ من شعره على أبي نواس شيء . فسأل عنه ، فقالوا : « إنه لجمال الكوفي » ، فاستظرفه واستحسن معانيه . وكان جمال صاحب جراحات وآفات ، ولم يستوف العشرين سنة . فعظم في عين أبي نواس ، وتمنى أن يراه . وقد كان خبره فشا في الكرخ ، وعظم ذكره . فبينما أبو نواس في أصحاب القراطيسي — وكان له مجلس في الكرخ بدرب القراطيسي ، ومجلس بعسكر المهدي ، في الوراقين — إذ مر به غلام في قدّ الفتيان ، فاستحسن قده ، واستحلى وجهه ، وراعه منظره ، ففطن له أصحاب القراطيسي ، فأخذوا بطرف ردائه ، وقالوا له : « أتدرى من هذا ؟ » . قال : « لا » . قالوا : « هذا جمال الكوفي » . فقال : « قاتله الله ! هو والله كما سُمي » . قالوا : « إن له بأساً وجلداً وكرهنا أن يعاجلك بالحديد ، فيأتى على نفسك » . فقال : « أما من رسول يبلغه رقتي ؟ » . فأتوه بغلام ، وكتب إليه رقعة فيها شعر . فأتاه الغلام بالشعر ، فلما قرأه ، قال : « قل له : يا دعى ، يا شارب الخمر ، والله لينزعنك نفسك يا ابن الزانية » . فرجع الغلام فأخبره بقوله ، فقال أبو نواس في ذلك :

قد يخضعُ الحرُّ للغلام فما ينقصُ ذاك الخضوعُ من شرفه

« فسُبَّ ما شئت سيدي أبداً » هذا خضوعي له على سرفه

ثم بعث بالبيتين . فقال للغلام : « أنرى خنجري هذا ؟ — وأخرجه من

كه ، — أبلغه عنى أنى والله قاتله به » . فقال أبو نواس :

يا من دعا قلبي إلى حبه      فقال : كَبَيْك وسَمَدِيكا  
أَوْعَدْتَنِي بِالْقَتْلِ مِنْ غَيْرِ مَا      جُرْمٍ وَقَلْبِي رَهْنُ كَفْنِيكا  
ما خَنْجَرٌ تَسْلُبُ رُوحِي بِهِ      أَقْتَلَ مِنْ تَفْتِيرِ عَيْنِيكا

ومثل هذا الموقف وقفه من أبي نواس غالب الصفدى أو « غلبون » فى تدليله

له . وهذه إشارة شاعرنا إلى ما كان منه :

قولوا لمن قد تَنَفَّرَ      من كَلِمَتِي وَتَشَوَّرَ  
إِنِّ أَنُوبُ إِلَى اللَّهِ      هـ من مزاحك فاغفر  
وَدَعْ وَعِيدِي بِقَتْلِ      فالوعد بالقتل مُنْكَرَ  
وكيف يا فاطر الآخِ      ظ، ساحر العينِ، أَحُورَ  
تَمَرُّ مِثْلَ كَمِيٍّ      مُهْدِداً لى بِخَنْجَرِ  
يا ناعماً لو بَرَفَقِي      لَمَسْتُهُ لَتَكْسِرَ  
تَسْبِئْنِى المَرْدُ حَتَّى      غَلْبُونُ ، فالله أَكْبَرُ !

بيد أن الحال لم تكن دائماً على هذا المنوال ، كما أن النهاية لم تكن دائماً

مطابقة للبداية .

والرأى العلمى فى المطبوعين على التخنث من هؤلاء العلماء أن الاختلال إنما يكون فى الوظائف العضوية عندهم أكثر ظهوراً منه فى هيئة خلقهم وتركيب بنيتهم . ومع ذلك فالتغيير فى هيئة الخلقة وتركيب البنية قد يكون من الظهور فى بعضهم بحيث لا تخفى معالنه . فيلاحظ فى أوساط أبدانهم أن تجويف الحوض أقرب فى استعراض أقطاره إلى حوض المرأة ، مع استعداد لا كتناز الشحم فوق الأرداف والأخاذ . وقد يذكر شعزهم فى نسقه شعر النساء ، وقد تكون أبشارهم فى رقبتها كأبشارهن ، وقد تسمع لأصواتهم نغمة غير طبيعية فيها ترطب وتضع . ونسوق

مصدقاً لقول السادة العلماء قول شاعرنا المقدم على سائر الشعراء الخلقاء ؛  
ولا ينبئك مثل خير :

يا مَنْ تَأَنَّقَ بَارِيهِ ، وَصَوَّرَهُ دِعْصاً مِنَ الرَّمْلِ فِي غُصْنٍ مِنَ الْبَانِ  
قلتُ «الوِصال» فقامَ يَقْدُمُنِي يَرْتَجُّ مِنْهُ مَكَانُ مُؤَنَزَرِهِ  
كَمَ لَيْلَةٍ ذَاتِ أَبراجٍ ، وَأَرْوَقَةٍ ، كاليمِّ تَقْذِفُ أمواجاً بأَمْواجِـ  
سامرْتِها بِرِشاً كالغُصْنِ يَجْذِبُهُ دِعْصُ النِّقَافِ بياضِ العاجِ رَجراجِـ  
فوقَ الخُماسيِّ ، لَمَّا طَرَّ شاربُهُ رَخْصُ البنانِ ، جَلَّامِنْ جَلْدِهِ الشَّعْرُ

يا خوطَ بَانٍ تَثْنَى عليه بدرٌ مصوَّرُ  
وخذُ وجهٍ مُنِيرٍ بمائه الزهرُ يَقْطُرُ  
ولثقةٌ وخناثٌ وطى كَشَحٍ مُخَصَّرُ

وشادنٌ أَحورَ في طرفه قَتَرٌ ، وفي مَنْطقه غَنَّةُ  
قلتُ لأصحابي وقدمرَ بي أَظنَّ ذا فَرٍّ مِنَ الجَنَّةِ  
يُعْجِبُنِي تَخْنِثُ ألفاظه وغايةُ المطلوبِ فِيهِنَّ

ولما كانت هذه الظواهر فيمن ذكرنا من الفلمان ليست عامة في جميع من  
على هذه الشاكلة ، فإننا لا نعدم غزلاً بالمذكر عند شاعرنا يعدل فيه بأوصافه  
وتشابهه معدلاً يجعلها أقرب إلى الفتوة :

السَّيْفُ مَضْحَكُهُ ، والقوسُ حاجِبُهُ والسهمُ عَيْنَاهُ ، والأشْفارُ أَرْماحُ

ويضاف إلى ما وصفنا من الظواهر الجسدية في المختلين ما يشاهد في معظمهم من انقلاب ذوقهم في التجميل إلى ما يشبه زينة النساء ، وإظهارهم مثل ما يظهره في حال الزينة من الزهو والخيلاء . وهذا أيضاً مما سجله أبو نواس في ديوانه الجامع :  
وَمُخْطَفِ الْخَضِرِ فِي أَرْدَافِهِ عَمَمٌ      يَمِيسُ فِي خَامَةِ رَقَّتْ حَوَاشِيهَا

أَيُّهَا النَّاسُ ، اِرْزَحُونِي      وَتَمَشَّوْا إِلَى إِلَيْهِ  
كَلِّمُوهُ فِي سُكُونٍ      لَا تَشُقَنَّ عَلَيْهِ  
كَلِّمُوهُ الْيَوْمَ يَرْضَى      عَنْ أَسِيرٍ فِي يَدَيْهِ  
لَوْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ يَمْشِي      كَاسِراً مِنْ حَاجِبَيْهِ  
فِي إِزَارٍ قَدْ لَوَاهُ      ثُمَّ دَلَّى طَرَفِيهِ  
قَلْتُمْ « ذَا الْفَتَكُ حَقًّا      لَيْسَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ »

بدا من الخلد لنا غُدُوَّةٌ      فِي قَصَبٍ مِنْ صُنْعِ إِسْكَندِرا  
فِي مَوْكِبٍ تَحْمِيهِ خِصْيَانُهُ      كَمَا رَأَيْتَ الْمَلِكَ الْأَكْبَرَ

ومن أعجب العجب أن تكون هذه الصفات المؤثرة موفورة في الإناث فلا يطلبونها في غير الغلمان . وهذا الذي جعل معظم الأطباء ينظرون إلى الانحراف الجنسي على أنه داء عضال شديد العياء .

ويشهد الجاحظ أن هذه الشهوة لم تكن شائعة في الأعراب . ويستدل على عدم شيوعها فيهم قديماً أنها لو كانت كذلك لنسبوا بهم من جرّاء تعشقهم لهم ، ولحدثت في ذلك أخبار وأشعار ، ولجاء لهم فيه باب من النسيب كالذي نراه لشعراء الدولة العبّاسية .



وما كان هذا التنزيه للأعراب ليرتضيه أو يسكت عنه أبو نواس الشعوبى ،  
ولاسيما والأمر يمس في موضع هواه الشخصى . فنراه لا يتورع عن رمى عشاقهم  
المشهورين بجمل العشق ، ثم هو يأبى أن يُنسب انصرافهم عن هوى الغلمان إلى  
صحة الفريزة واستقامة الطبع وسلامة التركيب ، فنراه يعلن — مؤكداً قوله بأغاظ  
الأيمان — أن مرَدَّ ذلك عندهم إنما كان إلى تخلفهم في الحضارة وجهلهم بمفاتها :

أما والله لا أشرا حلفت به ولا بطرا  
لو أن « مرَقشاً » حى تعلق قلبه ذكرا  
وأيقن أن حب المر دىلقى سهل وعرا  
ولا سيما وبعضهم إذا حيتته انتهرا  
ومر يريد ديوان ال خراج مضمخا عطرا  
كان ثيابه أطف ن من أزراره قعرا  
بوجه سايرى لو تصوب ماوه قطرا  
وعين خالط التفية ر فى أجفانها حورا  
وقد خطت حواضنه له من عنبر طورا  
يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

ويمضى الجاحظ فى دفاعه مبينا ما كان من طرود هذه الفاحشة وسريانها من  
ناحية الخراسانيين . ويقول إن الأمر كان شائعا فى خراسان ، والسبب الذى  
أشاعه فيهم كثرة خروجهم فى البعوث الحربية ، وكانوا لا يستطيعون إخراج  
النساء والجوارى معهم ، ولم يكن لهم يد من غلمان تهى مؤوتهم ، فلما طال  
مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار وفى حالة التبذل والتكشف ، وكانت  
الغلة تهيج بهم ، شغفوا بغلمانهم .

وليس في شعراً بى نواس ما يفيد في تمحيص قول الجاحظ. وكل الذى يُستدلّ عليه بوجه التحقيق من مطالعة غزل شاعرنا بالعلمان والجوارى أن الزىّ الشائع بينهم كان الزىّ الخراسانى وهو القرطق والقباء. وكلاهما — على خلاف الثياب العربية الفضفاضة — مجبوك على الأجسام يرسم العين تقاطيعها. ويظهر دقّة الخصور ومن تحتها استرسال الأعطاف ووفرة الأرداف. ومن إشارات الشاعر إلى « تَخْرُسُن » العلمان أو « خرسنة » سادتهم لهم في اللباس قوله :

قلْ لِدَى الْوَجْهِ الْمُتَرَكِّ وَلِدَى الصَّدْعِ الْمُمَسَّكِ  
وَلِدَى النِّسْرَةِ وَالْأَغْكَ نِ وَاللَّدَى الْمُفْكَكِ  
قَدْ تَخْرُسُنْتَ بِلَا طَبِّ عِ لَكِ نَعْتَدُ ذَلِكَ

لا خربَ الله كرخ السُّوس والسُّوسا      مغنى، ولا تجلساً فى السُّوسِ مأنوسا  
وحبذا حانة بالكُرخ تجمعُنا      نطيعُ فيها بشربِ الخمرِ إبليسا  
حتى إذا ما صفتُ فى دنِّها بُزِلَتْ      حمراءُ تذهبُ عنك الهمُّ والبُوسا  
نازعتها واضح الخدين مُعتدلاً      يحكى بهجته للنَّاسِ بَلْقِيسا  
مقرطقُ خرْسَنُوهُ فى حدائته      لم يُغْدَ — والله — فى مَرِّ ولا طُوسا  
مُتَخْرَسِنٌ ، دِينُ النَّصَارَى دِينُهُ      ذُو قُرْطَقٍ لَمْ يَتَّصِلْ بَيْنَانِي

أَشْتَهَى السَّاقِيَيْنِ لَكِنَّ قَلْبِي      مُسْتَهَامٌ بِأَصْفَرِ السَّاقِيَيْنِ  
ليس بالآبِسِ الْقَمِيصُ ، وَلَكِنْ      ذُو الْقَبَاءِ ، الْمُقَرَّبِ الصَّدْعَيْنِ  
الَّذِى بِالْجَمَالِ زَيْنَهُ اللَّـهُ      ، وَحُسْنِ الْجَبَيْنِ وَالْحَاجِبَيْنِ  
يَتْلَاهُ إِذَا اسْتُحِثَّ لَشَرْبِ      فِى سُكُونٍ ، وَيَمْسَحُ الْعَارِضَيْنِ

خَرَسَنوه — وما دَرَى ما خُراسا ن — بلبسِ القباءِ والمِزَرَيْنِ  
هُمُ يَجُودُونَ في المِزاحِ عليه وهو يَخْكي بِعَدْلِهِ الثَّعْرَيْنِ

والنقاد مجمعون على القول بأن أبا نواس مبدع هذا الباب من الغزل عند العرب ، وإنه كذلك ، أو على الأقل السابق للبرز فيه عندهم . ونقول عند العرب لأن الغزل بالمذكور معروف في الأدب اليوناني والروماني القديم ، ولا تخلو منه الآداب الغربية في التاريخ الحديث سواء في ذلك عهد النهضة الأوروبية والأزمة المتأخرة . فهذا « ميكائيل أنجلو » أكبر مثالي النهضة غير مدافع ، له إلى جانب آثاره الفنية آثار أدبية وقد اشتهرت بينها قصيدته الغرامية المثالية في صديق له مصور من أبناء الأشراف . فإذا تركنا إيطاليا إلى إنجلترا ذكرنا « شكسبير » ومقطوعاته الرائعة المعروفة بالأربعة عشرية « Sonnets » وهي نيف ومائة وخمسون مقطوعة ، قل من قراء الإنجليزية من يجهلها ، وهي غزل بالمذكور صريح لا خفاء به . وكيف يخفى والشاعر في مقطوعاته الأولى يبحثُ فتاه الجميل على الزواج ويدفعه دفعاً أن يأتي حرثه من النساء ، حتى لا تحرم الدنيا المترملة بعده من صور هذا الجمال يوم يذهب عنها المثال . وأما في الأزمة المتأخرة فحسبنا منها مثالان ليس أشيع منهما ذكرأ على كل لسان ، وليس أسرع منهما حضوراً في سائر الأذهان ، لما تعرض له العاشقان من فضيحة عميمة ، وما انتهت به حياتهما من خاتمة أليمة . وكلاهما من أخصب القرائح وأنبع الأقلام . أحدهما القصصى الإيرلندي « أوسكار وِلْد » والآخر الشاعر الفرنسي المجدد « بول فرلين » . ثم هذه القارة الجديدة الأمريكية — مع قصر تاريخها الأدبي — لم تخل من التفتي بهذا العشق على لسان شاعرها « والت هويتمان » .

ومن المشاهدات التي يقررها العلامة « هافلوك إليس » توافر الاستعداد الفنى



وشدة الميل إلى الموسيقى والغناء عند ذوى الانتكاس المتعلمين . ولعل في هذا تعليل ما يُلحظ في الرّعيّل الأول من مشاهير الموسيقى والغناء المحكم عند العرب من كثرة الخنثين ، أمثال طويس المغنى الدّفاف وكان يخضب يديه ، فإذا سرّه أمرٌ خضبهما إلى مرقّيه ، وكان كثير المُلحّ ظريفاً . وابن سُرّيج المغنى العواد وكان سُنّاطاً خفيف العارضين لا لحية له ، يلبس الثياب المصبغة ولا يُغنى إلا مُتَنَقِّباً ، وكان يُرى أحياناً وفي يده جرادةٌ مشدودة الرّجل بحيث يُطيرها ويجذبها كلّما تخلّقت كما يفعل الصغار . وأبو زيد الدّلال ، ولم يكن في الخنثين أحسن منه وجهاً ولا أنظف ثوباً ، وكان ضاحك السنّ أبداً ، نَزَرَ الحديث كثير النّوادر يُضحك الشكالى ، ولم يكن — بعد طويس — أظرف منه ولا أكثر مُلحّاً ، وُسِّمى بالدلال لشكله ورقة ظرفه ودله وحلاوة منطقه وحسن وجهه ، وكان مشغوفاً بمخالطة النساء يُكثر وصفهنّ للرجال ، ويسعى كخطاطبة في تزويج هؤلاء من هؤلاء محتالاً إلى ذلك بأخس الحيل ، وقد بلغ خبره الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك وكان غيوراً شديد الغيرة ، فكتب في هذا الشأن للوالى فخصاه هو وسائر الخنثين بالمدينة ومكة .

ونحن إذا ذكرنا هيئة أولئك الفنانين من الخنثين وقد تنفوا لحام ، واتخذوا الثياب المصبغة المصقولة ، وظهروا كالنساء مُمَدَسِّطِينَ مختَضِينَ ، لم نملك أنفسنا من المقابلة بينهم وبين ما كان يصطنعه الفنانون الأوربيون إلى عهد قريب من إحقاقهم شعرَ وجوههم وإعفاءهم شعرَ رؤوسهم وإرساله كالنساء على عواتقهم ، مع اتّخاذ الأصباغ ، واستطراف الزى وإيثارهم فيه الألوان الزاهية الصارخة . وسواء أكان أهل الفن هؤلاء من الأوربيين مقلدين أم كانوا مبتدعين ، فإن هذه الظاهرة في الحالين تتفق وما يقرّره العلامة المصرى الإنجليزى .



ومما يجب التفطن له والتنبيه عليه أن الانجذاب إلى العلم لا ينطوى دائماً على فعل جنسى . ولكنه — على أية حال من الأحوال — ظاهرة من الميول الجنسية تسترعى النظر .

ولعل أهم ما وقع إلى المتأخرين من الوثائق القديمة في هذا الموضوع ما ورد عنه في مائدة أفلاطون في حديثه عن الحب وعن الحب المثالي خاصة ، وما رواه بعد ذلك عن نفسه وأستاذه سقراط . وهي صفحات لها خطرهما من حيث دلالتها على وجه من وجوه التفكير في المسائل الخلقية والصلات التعليمية في أخصب عصور الحضارة اليونانية ، وهي الحضارة التي لا يرتضى الغرب أن يرجع أصلاً من أصول حضارته إلى غيرها ازدراءً منه بالحضارات الشرقية .

ولقد بلغ من شيوع هذا المثل المقرون بالمثالية عند الإغريق الأقدمين أن شاع في اللغات الحديثة للكناية عنه قولهم « الحب الإغريقي » . ويعلم كل من له إلمام بالخرافات اليونانية أن « زوس » كبير آلهتهم قد وقع في قلبه حبُّ الأمير الشاب « جانميد » من أمراء طروادة ، فاتخذ هيئة النسر واختطف الشاب الجميل وحمله إلى مقام الآلهة على جبل الأولم ليكون ساقهم .

ولقد عرفت الأمم القديمة هذا الميل من غير أن تكون له هذه المثالية الفكرية الفنية التي يخلعها على كل شيء رفيع أو ضيع أبناء يونان . ومن هذه الأمم أهل قرطاجنة الأولون ، والأسبارطيون وأبناء جنسهم الدوريون ، ثم الميديون في الهضبة الإيرانية ، ثم السكيثيون أسلاف المغول والترك ، وبعد ذلك الشماليون النورمان . وجميعهم أهل حروب . وقد ظهر هذا الميل كذلك عند الرومان ، وقد صور فضائحه عندهم المؤرخ الروماني « سويتون » في كتابه عن « الأباطرة الاثني عشر » . وأخيراً أستفاضت تعاليم المسيحية في الدولة الرومانية

ورسخت أصولها في أوربة ، فلم يلبث هذا الشذوذ الجنسي أن صار وصمة نكراء ، وجريمة تعاقب عليها السلطة الزمنية والسلطة الدينية أشد العقاب ، ومن ذلك الحرق أحياناً حتى قيام الثورة الفرنسية .

ومع ذلك جميعه بقيت هذه الرذيلة فاشية في الجماعات التي تطول غيبة النساء عنها .

وفي القرون الوسطى لم يكن هذا الارتكاس الجنسي فاشياً في المعسكرات وحدها بل يُرَجَّح أنه تعدّاها إلى الأديرة — كما يقول العلامة هاتلوك إليس وغيره — وليس يخلو من الإشارة إلى هذا الإنهم كتاب من كتب القوم في التوبة والتكفير . وبديهي أن أصحاب الأمر الديوى والدينى لم يطلّ سكوتهم على هذه الحال ولم يقعدوا عن إصلاحها . فلما أظل عصر النهضة في أوربة بما كان من بعث الآداب الإغريقية واللاتينية القديمة عاد « الحب الإغريقى » سيرته الأولى في أوربة الناهضة . ولكن هذا الحب الإغريقى المقتبس لم تواته الملابس الاجتماعية الدينية السياسية ، فانقطعت مادته وخَبَتْ شعلته ، وارتد إلى الشذوذ الجنسي ميسم عاره وطابع شُنعته . وتعاقبت سنون وسنون ، وأهل الشذوذ في كل قطر وفي كل عصر لا يزالون كما كانوا ، ولكنهم متوارون بمقدار النكير عليهم وهذا علة ما يعترض الباحثين المحققين من صعوبة في إحصاء عدتهم ، وإلى هذا يرجع السبب في تأخر دراستهم . وهكذا ظل الشذوذ الجنسي بعيداً عن دائرة التحقيق العلمى فلم تتناوله دراسة علمية إلا منذ القرن الماضى تبعاً للتوسع في دراسة الحياة الجنسية توسعاً يلمس القارئ العصرى مظهره فيما ظهر في موضوعها من موسوعات خاصة بها مقصورة عليها .

وليست الدراسة العلمية المفصلة مرادنا في هذا الموضع ولا هنا مجال الكلام

فيها . وكل ما نقصد إليه هو أن نحدد موضع شاعرنا أبي نواس في طبقات أصحاب  
الشذوذ الجنسي . ونكتفي في ذلك بالتقسيم المبدئي البسيط للعلاقة الجنسية لغنائه  
ووفائه بالفرض . فتمّة فرق ثلاثة ، فريق ينجذبون إلى الجنس المقابل دون  
سواه ، وفريق ينجذبون إلى جنسهم لا يشركون فيه من عداه ، وفريق  
ينجذبون إلى الجنسين .

والناظر في أشعار أبي نواس وأخباره يباعد بينه وبين الفريق الأول لأول  
وهلة ، فالأمر فيها جميعاً أوضح وأصرح من أن يحتمل التوقف لحظة للتأمل  
والمراجعة .

ويبقى أمامنا بعد ذلك الفريقان الآخران ننظر في أيهما نسلك شاعرنا النواصي .  
وهنا يعرض لنا ما يُروى من أخبار وأشعار تشهد على صاحبنا بنفوره الشديد  
من الزواج وصدوفه العنيد عنه ، ومن ذلك أن أهله قدموا عليه من البصرة  
يعذلونه على سيرته ويقولون له : « يا هذا ، إنه قد تقدّمرك وساء عملك . فلو  
تزوجت امرأة من أهل بيتك رجونا أن تُقصر عن بعض ما أنت فيه » . فأبى  
عليهم ، فما زالوا به حتى زوّجوه جارية جميلة من أهل بيته ، فلما دخل بها عرض  
عنها ، وخرج إلى غلمان كانوا يأتونه ، فجمعهم وألبسهم الأزر المعصورة ، وخلا  
معهم يومه . فلما أمسى طلقها ، وأنشأ يقول فيها :

صاحبة القرقر لا تشغبي	تحمل طليقة واذهي
مررى فكم مثلك من حرّة	رائعة لم تك من مطلبي
لا أشتهى الحيض ولا أهله	غيرك أشتهى منك في المركب
أولاً ، فإن كنت غلامية	من شرط مثلي فردي مشربي



لا أدخِل الجُحْرَ يدي طائِعاً أُخْشِي من الحَيَّة والعقَرَب  
وروى أنه لم يتزوجها ، وأنهم دسّوا إليه امرأة ، وقالوا لها : « كليه » ، فجعلت  
تقول له : « وقد وجدتُ لك امرأة جميلة موسرة ، ولها دار سرّية كبيرة تجعلها  
لك » . فقال لها : « ويحك ! لست أنت أدعى إلى الرشد من الله عز وجل ،  
وقد دعاني إليه وأبّيت ، وليست المرأة التي تصفيتها بأحسن من الحور العين ،  
ولا الدار التي تذكرينها بأحسن من الجنة ، وكل هذا قد بذله لي من هو أصدق  
منك ، إذا ارعويتُ ، فلم أقبل ، فكيف أقبل منك أنت ؟ » ، ثم قال :

أقولُ لها — لَمَّا أَتَنِي تَدُلُّنِي عَلَى امْرَأَةٍ مَوْصُوفَةٍ بِجَمَالٍ :  
« أَصَبْتُ لَهَا — يَا أُخْتِ — فَلَاحَا كَمَا اشْتَهَيْتُ إِذَا اغْتَفَرْتُ مِنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ  
فَنَهْنُ فِسْقٌ لَا يُنَادِي وَلِيدُهُ <sup>(١)</sup> وَرَقَّةٌ إِسْلَامٍ ، وَقَلَّةٌ مَالٍ  
وَلَوْ أَنَّهَا فِي الْحُسْنِ كَانَتْ كَيُوسُفَ وَبَلْقِيسَ ، أَوْ كَانَتْ كَخَطِّ مِثَالٍ  
وَقَالَتْ تَزَوَّجْنِي عَلَى مَهْرٍ دِرْهَمٍ أَقَلْتُ اغْرُبِي عَنِّي فَهْرُكُ غَالِي ! »

فقال أهله : « والله لا أفلح هذا أبداً ! » ويتسوا منه .  
ولعل القارىء يحس فتور هذا الرجل نحو المرأة ، وبرد طبعه من ناحيتها ،  
وأنها لا تنبه فيه شهوة ولا تحرك به ساكناً ، في تكراره لفظ « أُخت » في خطابها ،  
كما هو بين في المقطوعة السابقة ، وكما هو أبين في قوله :

خُيِّبْتُ فِي خَوْدَةٍ رَبِّ رَاجٍ مُخَيَّبٍ <sup>(٢)</sup>  
قُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا إِذْ هَبِي — أُخْتِ — وَاعْزُبِي  
إِنَّمَا هَمَّتِي غُلَامٌ ، وَسُؤْلِي وَمَطْلَبِي «

(١) فسق شاذ لا يشر ولدأ . (٢) الخودة : المرأة الشابة الناعمة .



وتكرر الشواهد على إثبات الغلمان في معظم شعر أبي نواس ، وله في ذلك  
مطارحات مع مواطنه عمرو بن عبد الملك الوراق الشاعر ، وكان خليطه وعشيرته ،  
ومن أحب الناس إلى قلبه وأحظاهم بأنسه وأخلطهم بنفسه . ولا عجب أن يكون  
ذلك كذلك فإنه ما جن خليع من جنسه ، منهمك مثله في اللهو والتطرح في  
الديارات ، وإن يكن أقل منه استكراهاً للغانيات :

إسقني بالله يا عمّ      رو      ثلاثاً وثلاثاً  
حبذا الأكوّس في الدّ      ير      إذا كنّ حثاثاً  
حبذا يا عمرو تبكي الـ      مُردّ      لا تبكِ الإناثا

وأبو نواس في إثارة الشاذ للغلام على المرأة يتعمد شينها وتقييحها والتنفير  
منها بذكر الحيض كلما ذكرها :

ألا قل لمن يلحى على حُبٍّ شاطرٍ      ويحكمُ في الأشياء حُكماً بظاهرٍ  
أتجعلُ ذاتَ الحيضِ والطمثِ نجسةً      تظلّ — طوالَ الدّهرِ — ليستَ بظاهرٍ  
إلى طاهرٍ من كلِّ عيبٍ كأنما      ترَدّى على غُصنٍ من البانِ ناضرٍ

وأسمع من ذلك هذه المقابلة التي لا يمل تكرارها بين ما يزعمه سفيراً في عرض  
البحر وما يزعمه سفيراً على ظهر البر ، وأيهما أكثر أمناً وأقل خطراً :

لستُ بولّاجٍ على جارّتي      لكنّ على ابنِ الجارِ ولّاجُ  
لا أركبُ البحرَ حذارَ الرّدى      للبحرِ أهوالٌ وأمواج  
والبرُّ لا زلتُ له سالِكاً      لي فيه — لافي البحرِ — منهاج

والظاهر مما تقدم جميعه أن الرجل في حبه متعصبٌ لجنسه تعصباً لا اعتدال  
فيه ولا هوادة ، بل إنه ليعترف لنا بذلك في لفظ صريح :

أَعَزُّ الْعِيشِ وَصَلُ الثَّرْدِ دَهْرِي وَبُؤْسُ الْعِيشِ وَصَلِي لِلْغَوَانِي  
 مَنْ كَانَ تُعْجِبُهُ الْأُنْثَى وَيُعْجِبُهَا مَنْ الرِّجَالِ ، فَإِنِّي شَفَنِي الذَّكْرُ  
 إِنِّي أَمْرُوهُ أُبْغِضُ النَّعَاجَ وَقَدْ يُعْجِبُنِي مِنْ نَتَاجِهَا الْحَمَلُ  
 مَنْ عَذَّبَ اللَّهُ بِالزَّيْنَاءِ فَأَنَا لَا نَاقَةَ لِي فِيهِ وَلَا جَمَلَ

وقد يجد القارىء لنفور هذا الرجل من النساء أسباباً جاء ذكرها في ديوانه ،  
 ومدارها جميعاً الخوف ، فهو مع الجارية لا يأمن حملها إذا اتصل بها ، بل إنه  
 ليضطرب إلى مراقبة الناس ومحاذرتهم لمجرد السلام عليها وخطابها ، أما مع الغلام  
 فهو من جميع ذلك آمن الروع ، مطمئن النفس ، قرير العين :

وَشَاطِرٍ مَاجِنٍ أَخِي خَنْثٍ مُسْتَعْطَفٍ كَالْقَضِيبِ فِي مَيْلَةٍ  
 أَيْسَرُ مَا فِيهِ مِنْ فُضَائِلِهِ أَمْنُكَ مِنْ طَمَئِهِ وَمِنْ حَبْلِهِ

أَيَا «عَمْرُو» فَدَيْتُكَ يَا خَلِيلِي وَغَايَةَ مُنْبَتِي دُونَ الْأُنَامِ  
 أَنْجَعُ مَنْ يَحْمِضُ بِكُلِّ شَهْرِ وَيَنْبِغُ جَرُّهُ فِي كُلِّ عَامٍ  
 كَأَمْرَدٍ وَاضِحِ الْخَلْدَيْنِ حُلُوٍ يُزَيْنُ لِلْقُعُودِ وَالْقِيَامِ  
 وَمَنْ أَلْقَاهُ فِي سِرٍّ وَجَهْرٍ وَأَطْمَعُ مِنْهُ فِي رَدِّ السَّلَامِ  
 أَكَلَّمَهُ بِمَا أَهْوَى صَرِيحاً بِلَا خَوْفٍ الْمُؤَذَّنِ وَالْإِمَامِ

بل إنه — فيما يصوره له نفوره ويهول به عليه — ليتوجس من النساء أحاييلهن ،  
 وبما اشتهر من ألعيبهن ، ولا يملك أن يستوحش منهن لعله بغدرهن :

إِنِّي لِأَهْوَاكِ وَإِنِّي جَبَانٌ أَفْرَقُ مِنْ عِلْمِي بِفَدْرِ الْقِيَانِ

فإذا قابلنا بين موقفه تجاه القيان ، ومجلسه هذا الذي بصفه مع نداماه من

الغلمان ، تماظمنا ولا ريب فرّق ما بين إحساس وإحساس . هناك توجّس واستيحاش ، وهنا استئناس أى استئناس :

ما استكمل اللذاتِ إلّا فتى يشربُ والمرْدُ ندّاماهُ  
هذا يُفدّيه ، وهذا إذا ناولهُ القهّوة حيّاه  
وكلّما اشتاقَ إلى قُبلةٍ من واحدٍ أثنه فاه  
سقياً لدهرٍ كنتُ فيه لهم مُعاشِراً ، ما كان أخلاه

ونحن بعد ما بسطناه من معاذير أبى نواس فى النفور من المرأة ، نعتقد أن هذا النفور له أصول أصدق مما زعمه وأعمق ، تقتضى الباحث أن يستقرى منابها ويتقصى علّتها . وسبيلنا إلى ذلك أن نرجع إلى طفولته وحدثاته الأولى . وأول ما استوقفنا فى هذه المراجعة أنه عدم أباه الجندى العربى ولما يزل طفلاً ، فعدم كفالاته وحمايته . ولا نعلم فيما وقع لنا أن أحداً تقدم لكفالاته من ذوى قرابته . فكانت نشأة «الحسن» فى حجر أمّه الفارسية . ولا شك فى أنها تحوّلت إليه بجملة حبّها بعد أن مات شريكه ومُنافسه فى قلبها . وكلّنا نعرف سيرة الأمّهات مع واحدهنّ أو أصغر أولادهنّ لا سيما إذا مات عن الصغير أبوه ، ونعرف إسرافهنّ فى تدليل الصغير وإظهار التحنن والحدب عليه ، والحرص على استرضائه ، واصطناع كل مامن شأنه الاستزادة من حبه لهنّ وتعلقه بهنّ . ولا شك عندنا فى أن حال أبى نواس اليتيم مع أمّه الأرملة لم يكن ليختلف عن سواه ، إن لم يزد لتوحدّها وتخلّى الأهل عنهما ، فهو لا محالة كان مشوب العاطفة نحوها شديد التعلق بها . ولكن سعادة الطفل كانت غير خالصة . فقد كان يعذب نفسه الصغيرة ويهيّج ثورتها أن أمّه لم تكن منصرفةً إليه بكليتها من جراء اشتغالها بصنع الجوارب والأخراج والاتجار بها سعيّاً لمعاشه



ومعاشها . فلما أن بلغ « الحسن » السادسة أو نحوها من عمره دفعت به أمه إلى الكتاب . وكان الطفل إذا آب من الكتاب إلى تلك الدار من الآجر والجص التي انتقلت إليها أمه فأيسرت حالها ورخا عيشها ، أنكر اجتماع الغواني والرجال عندها ، ولم يفهم السر في هذه الخلوات بين الواحد والواحدة من هؤلاء ، واستراب فيما حوله من التكم والخفاء . إنه لا يحق شيئاً مما يجري ، ولكن شيئاً يحك في صدره منه . فهو غير مرتاح النفس ، وقد استوحش من ناحية أمه وفترت عاطفته المشبوبة نحوها ، وزاده فتوراً زيادة اشتغالها عنه . على أن هذا الذي كان يبدو في ظاهر الوعي فتوراً ، كان في باطنه غير مكبوتة ونقمة مكظومة ؛ فلم يبق شيء أحب إلى الغلام من قضاء معظم الوقت بعيداً عن بيت أمه ، وكان هذا التصرف من الغلام — مع ما كان يداخلها من القلق عليه — لا يخلو من وجه لرضاها وارتياحها ، لما فيه من خلو الجو للمجتبعين والمجتمعات تحت سقف بيتها . ثم لم تلبث هذه الأرملة الطروب الدعوب أن اجتذبت إليها رجلاً يدعى « العباس » شغل بها ، فتزوجت منه وشغلت به عن ابنها وفلذة كبدها .

وانصرف الحسن عن التعلق بأمه إلى صحبة الفلمان من لداته ، وطابت له معهم حلقات المذاكرة والدرس على المشايخ المستبحرين في كل علم وفن . وكان المسجد الجامع بالبصرة — مثله في سائر أقطار المملكة الإسلامية — مُتَعَبِّداً وجامعةً ، بل لعله كان أحفل ما يكون حركة ونشاطاً وأشد ما يكون جلبة وزياًطاً بالحياة الجامعية . وكانت تدور فيه من الدعابات والمعاينات بين الطلاب والطلاب وبينهم وبين أساتذهم مثل ما يجري في دور الدراسة عامة . ولقد انبسطت لهذه الحياة نفسُ الفتى وتكشفت طبيعته الممّراح ، فكان أكثر أقرانه ملازمةً لحلقات الدرس وتوفراً على تحصيل علوم الأدب ، كما كان أكثرهم دُعابة ومجانة



حتى لم يسلم من عبثه شيخ من شيوخه مهما جل موضعه في نفسه .  
وأيسر ما يروى من عبثه بأستاذه أبي عبيدة معمر بن المثنى أنه جاء في يوم  
شديد الحر بناطف فألقاه على سارية أبي عبيدة . وجاء أبو عبيدة ، فاتكأ على  
قفاه إلى السارية . فلما انتصف النهار واشتد الحر ، ذاب الناطف ، فسال على  
وجه أبي عبيدة وعينه ولحيته وثيابه . فقال : « قبح الله الماكن الخبيث  
أبا نواس ! فإن هذا من عمله » . والماكن الخبيث مع هذا كله كان من أعلم  
الناس بقدر أستاذه ، وفيه قولته المأثورة حين سئل عنه : « ذاك أديم طوى  
على علم » . وقد جاء في « وفيات الأعيان » لابن خلكان في ترجمة أبي عبيدة  
أنه كان لا يقبل شهادته أحد من الحكماء لأنه كان يُتهم بالميل إلى الغلمان .  
وقد روى محمد بن هشام : [ كنا عند أبي عبيدة في المسجد الجامع ، ونحن  
نتحدث ، ومعنا أبو نواس ، إذ كتب إنسان على دفتري شيئاً وقد لحظ الأسطوانة .  
فقال له أبو عبيدة : « ما هذا الذي تكتب ؟ » . فنظرنا فإذا بيت قد قاله  
أبو نواس وهو :

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى لُوطٍ وَشِيعَتِهِ    أَبَا عُبَيْدَةَ قُلْ بِاللَّهِ : آمِينَ

فقال أبو عبيدة : « هذا عمل الخبيث » . يعني أبا نواس ، وكنا أربعة  
أو خمسة . فقال أبو عبيدة لكيسان : « أيما أحب إليك ؛ أن تُجَبِّي<sup>(١)</sup> لى  
فأنحوه ، أو أُجَبِّي لك فتمحوه أنت ؟ » قال : « جَبِّ لى أنت » . فأنحنى أبو عبيدة  
وحمل كيسان على ظهره ، وقال له : « حُكِّه » . قال كيسان : فجعلت أحكه وهو  
يقول لى : « ويحك ، عَجِّل ، لا نفتضح عند الناس » . ثم قال لى بعد أن أثقلته  
(١) يقال جَبَّى فلان أى وضع يديه على ركبتيه منحنيًا وهو قائم .

« أنقلتنى وقطعت ظهري . قد فرغت ؟ » . قلت : « قد بقي لوط وحده » .  
فقال لى أبو عبيدة : « وهل نهرب إلا من لوط ! حكّه » [ .

والذى يستدل عليه من هذه « النادرة » التى يكثر التندر بها وبأمثالها فى كتب الأدب القديم هو أن ذلك الانحراف الجنسى الذى شهر به أبو نواس كان فاشياً فى بعض الأوساط الأدبية الفنية فى عصره ، وقد كان من تمام البلية أن التقى النواصى عند العطار الذى كان يعمل له — وهو إذ ذاك فتى غرير يعالج نظم الشعر — برجل من مشاهير الشعراء كان يشيع فى هذه البيئة ذكره وتتناقل الألسنة شعره ، ولم يكن ذلك للإجادة والإحسان بقدر ما كان لخروجه عن الحد فى غزله الماجن واجترائه على العرف فى سيرته .

وهكذا اثمرت ملابسات طفولته وظروف حدائته على قطع الرحم الواشجة بينه وبين أمه ، وعلى تهجين المرأة عامة فى قرارة نفسه ، ووقفت صلته بالنساء عند الإهاب ومباشرة الجسد للجسد ، وأما الصلة التى تعودها مع أفراد جنسه ، فكان يدخلها فى حدائته الإعجاب بذوى الغلبة والتفوق ، والتعبد لهم والسكون إليهم والفناء فيهم ، ثم صارت — بعد بلوغه مبالغ الرجال — يدخلها ميل نفسى أشبه ما يكون بالصدقة .

ولقد كادت حال أبى نواس تنصلح حين عرضت له الجارية الأدبية الظريفة العاقلة « جنان » جارية آل عبد الوهاب الثقفى ، وما ذاك — فى اعتقادنا — إلا أنه توسم فيها النمط الذى يصبو له بهواه ، ويحنج إليه بطبيعة مزاجه ومقتضى نزعتة ، ونعنى به « المرأة الصديق » . وقليل ما هنّ . ومصدق ذلك ما قيل من أنه لم يصدق فى حب امرأة غيرها . ولكنها بعد أن عطفت عليه ، لم تلبث

أن أعرضت عنه وكرهته . ثم ضرب الدهر بينهما ضربة من ضرباته العسراء .  
فافترقا إلى غير لقاء .

ولم يزل ذلك حظ المسكين في طلبه للصدقة عند النساء ، حتى قال ابن منظور متعجباً : « وكان أبو نواس يحب أيضاً جارية لجعفر بن سليمان اسمها حسن ، وحُرِّم صحبتها ، كما حرم صحبة جنان وعنان ، كأنه لم يكن مجدوداً منهن كما كان من الغلمان ! » .

ومع هذا فقد ظل أبو نواس إلى آخر العمر يخطب ودّهن ، كما هو ظاهر من كثرة الجوارى اللواتي تغزل بهن في شعره . على أن الذي يلحظ في معظم هؤلاء أنهن كن من الغلاميات ممن يصطنعن المشاركة في أفعال الرجال ، والمشاكلة لهم في طبائع الأمزجة والخصال ، مع إظهار الرغبة عن الزواج إلى المصادقة .

### الساقية

ولم يكن السقاة كلهم في مجالس الشراب من الغلمان ، بل كان منهم الجوارى الحسان . وقد ترك النواصي للقوم صورة « للساقية المثلى » حتى صار ذلك الوصف المنطبع في أذهانهم المائل في خيالهم هو المثال الذي كان يُطلب لمن يُبعث في الارتياح لها أن يمثله . روى كاتب الرشيد إسماعيل بن صبيح : [ قال لي الرشيد : « يا إسماعيل ؛ ابغنى وصيفة مليحة ، مقدودة شكلة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عالمة ، تسقينى ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها » . فقلت : « يا سيدى ، على الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هذا العيَّار — يريد أبا نواس — وامثل فيها ما حدّ في مثلهالك » . قلت : « يا سيدى ، فما قوله ؟ » . فقال الرشيد :



من كَفَّ ساقية ناهيك ساقية  
كانت لرب قيان ذى مغالبة  
فقد روت ووعت عنهن ، واختلفت  
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها  
وجمشت بخفى اللحظ فانجمشت  
تمت فلم ير إنسان لها شهابا  
تلك التى لو خلت من عين قيمها  
فى حُسن قدّ فى ظرفٍ وفى أدبٍ  
بالكشخ مُحترفٍ ، بالكشخ مُكتسبٍ  
ما بينهن ومن يهوين بالكتب  
وأفعمت فى تمام الجسم والقصب  
وجرت الوغد بين الصدق والكذب<sup>(٢)</sup>  
فيمن برا الله من عجم ومن عرب  
لم أقض منها ولا من حبها أربى

فهذه الساقية المثالية كانت تنشئها الأولى — وهى صبية حدثه السن لم تبلغ الحلم — فى بيت كشخان يتجر بالريق الأبيض ويكتسب من الجمع بين قيانه ومن يجتذب من الرجال ، وكانت تختلف بين هؤلاء وهؤلاء بالرسائل الغرامية ، فهى راوية لما يدور حولها واعية له ، حتى بلغت سن المراهقة وغلى ماء الشباب بها ونضج جسمها وأدرك تمامه ، فالتفت إليها رواد هذه الدار المريبة يجمسونها بخفى اللحظ وهى تماشهم فى الخفاء وتضرب لهم المواعيد ، وقد حذقت الصناعة ، وإن لم تزاوها بعد .

ونحن نرى من إعجاب المعجبين بهذه الأبيات مبلغ اشتها القوم لهذه الثمرة الجنية الناضجة التى لم تبتذلها الأكف ، لاسيما وقد اجتمع حذق الأدب والتخرج فى الفن للجارية المراهقة ، فى هذه السن المتطلعة التى تكون فيها الأنثى أتم ما تكون حيوية ، لأنها حيوية لم ينل بعد منها طول الكبت ولا السرف .

وقد عرض أبو نواس فى أكثر من قصيدة لوصف أولئك الساقيات . والذى

(١) الكشخ : الجمع بين الرجال والنساء لريبة . (٢) جمش : قارصه ولاعبه



يغلب على صفتهم استواء جسمهم وضمور الحشى وعدم الاسترخاء ، مع الفطنة ودقة الفهم وحدة الذكاء :

قد سَقَتْنِي — والصُّبْحُ قد فَتَّقَ اللَّيْلَ لَ — بكَاسَيْنِ ، ظَبِيَّةٌ حَوْرَاءُ  
عن بَنَانٍ كَأَنَّهُ قُضِبُ الْفِضِّ قَمْرٌ ، قَتْنِي أَطْرَافُهَا الْحِنَاءُ  
ذَاتُ حَسَنِ تُسَجِّى بِأَرْدَافِهَا الْأَزْرُ ، وَتُطَوِّى فِي قُمْصِهَا الْأَحْشَاءُ  
قد طَوَّى بَطْنَهَا — على سَعَةِ الْعَيْدِ ش — ضَمُورٌ فِي حَقْوِهَا وَأَنْطَوَاءُ <sup>(١)</sup>

قِفْ ، لَا تَحْلَحَلْ عَنِ الرِّيحَانِ وَالرَّاحِ وَعَنْ تَرْتَمِ أَوْتَارٍ يَافُصَاحِ  
مَنْ كَفَّ سَاقِيَةً يَسْتَلُّ نَظَرُهَا — لِدِقَّةِ الْفَهْمِ — مَا أَوْحَى بِهِ الْوَاحِي

وكان أ كثر الساقيات ممن يحسن الغناء ، ومنهن هذه الساقية المغنية واسمها  
« قُبَل » على نحو ما ذكر النواصي في قصته مع صديقه :

فَقُلْتُ « هَلْ لَكَ فِي الصَّهْبَاءِ تَأْخُذُهَا مِنْ كَفِّ ذَاتِ هَيْنٍ ، فَالْعَيْشُ مُقْتَبِلُ  
حَبْرِيَّةٍ كَشْعَاعِ الشَّمْسِ صَافِيَةٍ يُحِيطُ بِالسَّكَّاسِ مِنْ لَأَلِهَا شُعْلُ »  
فَقَالَ « هَاتِي ، وَغَنِّينَا عَلَى طَرَبٍ » وَدَّعَ هُرَيْرَةَ إِنْ الرِّكْبَ مَرَّتْ بِحِلِّ  
فَأَحْسَنْتُ فِيهِ ، لَمْ تَخْرُمْ مَوَاقِعَهُ وَالسَّكَّاسُ فِي يَدِهَا فِي جَوْفِهَا حُلَلُ  
ثُمَّ اسْتَهْشَتْ إِلَى صَوْتٍ تُمَلِّكُهُ « إِنَّا مَحْيُوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ »  
فَمَا تَمَالَكْتُ عَيْنِي أَنْ تَبَادَرَهَا دَمْعِي وَعَاوَدَهَا مِنْ دَلِّهَا خَبَلُ  
فَقَالَ « أَحْسَنْتِ . مَا تَدْعَيْنِ ؟ » قُلْتُ لَهُ : « مَنَكُوسُهُ ( لَبِقُ ) . هَذَا هُوَ الْمَثَلُ »  
فَطَارَ وَجَدًا بِهَا ، وَالْخَمْرُ تَأْخُذُهُ وَقَالَ « هَاتِي ! فَأَنْتِ الْعَيْشُ وَالْأَمَلُ »

إن العيون التي في طرفيها مَرَضٌ « فرجعتُ بلحني وقمعه شكل  
فَرَّ مُتَجِيزاً مما ترادفه منها، وقلتُ لها « أحسنتِ يا قُبَل ! »  
فاستخجلتُ، فتبدَّى الوردُ بضحك في خَدَّ أنيق لها يا حَبْذا الخَجَل

## عصر الجوارى

وكانت المدن الكبيرة في الإمبراطورية العربية تفص بالجوارى حتى كن في بعضها يزحم الرجال في الطريق . وكثيراً ما كان يجري على ألسن الرجال من زحمتهم لهم أقوال شبيهة بما رواه أهل الأخبار عن هذا الذي زحمته جارية منهم فقال متغضباً شاكية : « المستعان بالله منكن . ما أكثركن ! » .

ولا عجب ، فقد كان للملوك والأشراف ولسائر الناس من الإماء على قدر ما كانوا عليه من الجاه والثراء ، وكن يختلفن لمواليهن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ويجلسن للناس ، وكن في جميع هذا يبرزن أحسن ما كن وفي أجمل ما به يتزين .

وكانت هذه الجوارى من مختلف الأجناس والأديان والألوان ، يجلبهن النخاسون أكثر ما يجلبونهن إلى حاضرة الإمبراطورية في بغداد ، ويتكلف عاملهم مشاق الأسفار والطواف في الآفاق في طلبهن . فقد كانت سوقهن نافقة ، وتجارتهن من المتاجر الدارة الرابعة ، لإقبال الكافة على اقتنائهن ، وتنافس الخاصة في الاستكثار منهن والمغالاة بأثمانهن .

ومن ظريف ما يذكره الرواة عن الخلفاء ما كان يرى في قصورهم من الجوارى الروميات وهن في الديباج الرومي ، لا يحسن اللسان العربي ، فإذا تكلمن سمعت لهن رطانة ، وكانت صلبان الذهب على صدورهن ، فإذا حل-

من أعياد النصرانية عيد احتفلن بدينهن . ولم ينكر أحد من ذلك شيئاً بل كانوا يستطرفونه . وقد جاء في كلام الطبرى عن الخليفة المهدي ، أنه دخل في بعض دوره يوماً ، فإذا جارية له نصرانية ، وإذا جيبها<sup>(١)</sup> واسع وقد انكشف عما بين ثديها ، وإذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع فمد يده إليه فجذبه وأخذه ، فولت الجارية الحسنة على صليبها . وسرّ الخليفة من المنظر ولم يلبث أن قال فيه : يومَ نازَعْتُهَا الصَّليبَ ، فقالتُ : « وَيَحَ نَفْسِي ! أَمَا تُخَلِّي الصَّليبَا » وأرسل إلى بعض الشعراء فأجاز البيت ، وأمر بالشعر فغنّى فيه صوت ، ولم يزل معجباً بهذا الصوت .

ومن هذا وما تقدم قبله في الأديرة تظهر جلياً روح التسامح الديني التي كان عليها الخلفاء وعامة الناس . على أن الأمر لم يقتصر على مجرد التسامح ، بل كان فيه — كما شهدنا — الكثير من الاستطراف والاستطراف لما في الديانات المخالفة من عادات جرت عادة المسلمين باستهجانها ، وإظهار المقت لها ، كاتخاذ الصليبان والتعبد للصور والأيقونات . ولا ريب في أن هذه الحال يرجع فضلها إلى أولئك الجوارى النصرانيات الحسان ، وما كان من ملابس القوم لهن ملابس عشق وافتتان ، مما أعان على البلوغ بالتسامح هذا المبلغ الذي رأيناه عند الخلفاء ، والذي ذهب — ولا عجب — إلى أبعد من ذلك عند المجان والخلفاء ، كما نرى في قول شاعرنا متغزلاً في الجارية الرومية النصرانية : « در » :

لو كنتَ تعشقُ « درّاً » ما سألتهمُ	هل عندكم فضلَ زُنارٍ تُعيرُوني
ولستُ أسألُ « درّاً » غيرَ قُبَلَتِها	فإنَّ فيها شِفائي لو تَوَاتَبَتِني
مَزَجْتُ ديني بدينِ الرُّومِ فامتزَجَا	كلّما يُمزَجُ بالصِّرفِ الرِّسَّاطون
فلستُ أبغى بها يا عاذلي بَدَلًا	إذ صارَ لي بهمُ دينانِ في دين



ولقد بلغ من افتتان الخلفاء ببعض جواريهن نصرانيات وغير نصرانيات أن صار منهم شعراء ينظمون الشعر فيهن ويشبون بمحاسنهن . ولا نظن للخلفاء شعراً أسيرَ وأجرى على الألسن من هذه الأبيات التي يروونها للخليفة هارون الرشيد في « الثلاث الأنسات » وهن جواريه ( سحر ، وضياء ، وخنث ذات الخال ) . وقد جاء في الأغاني أن الرشيد كان يهواهن ويقول الشعر فيهن . وهذه الأبيات خطيرة الشأن من عاهل مطلق السلطان كهارون الرشيد ، وليس يقلل من خطرها أن يقال إن الشعر للعباس بن الأحنف أو لسواه ، فالنقطوع به في كل حال أنه قيل على لسان الخليفة وارتضاه :

مَلَكُ الثَّلَاثِ الْآنَسَاتُ عِنَانِي      وَحَلَلَنْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ  
مَالِي تُطَاوَعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا      وَأُطِيعُهُنَّ وَهَنٌ فِي عِصْيَانِي  
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ سُلْطَانَ الْهَوَى      - وَبِهِ قَوَيْنَ - أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

وجاء في العقد الفريد منسوباً إليه قوله في قينة له :

تُبْدِي صَدُوداً ، وَتُخْفِي تَحْتَهُ مِقَّةً      فَالْنَفْسُ رَاضِيَةٌ وَالطَّرْفُ غَضْبَانٌ<sup>(١)</sup>  
يَا مَنْ وَضَعْتُ لَهُ خَدَيَّ فَذَلَّلَهُ      وَلَيْسَ فَوْقِي - سِوَى الرَّحْمَنِ - سُلْطَانٌ

والخليفة إلى ذلك أبيات أقل من هذه شيوعاً في « هيلانة » ، وهي جارية كانت ليحيى البرمكي ، فاستهداه إياها فوهبها له . وكان الرشيد شديد الحب لها حتى غلبت عليه . وقد أقامت عنده ثلاث سنين ثم ماتت ، فوجد عليها وجداً شديداً ، ورثاها في شعر أوردته ابن الخطيب في تاريخ بغداد .

وندع الأمين لاشتغاله عن الجوارى بالخصيان من الغلمان كما تقدم . وننتقل إلى خلافة المأمون ، فنرى الخليفة وقد دخل عليه أحمد بن صدقة الطنبوري في



بعض الأيام ، وكان يوم السعانيين من أعياد النصارى ، فإذا الخليفة بين يديه عشرون وصيفة جُلُبَ روميات ، تزيّن بالديباج الرومى ، مَزْنَرَات الأوساط ، وقد علقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن جميعاً سعفات الخوص وأغصان الزيتون ، احتفالاً منهن بذكرى يوم دخول المسيح أورشليم واحتفاء الشعب به على هذه الصفة كما هو المأثور فى دينهن . فما وقع نظر المأمون على الطنبورى حتى قال : « ويلك يا أحد ! قد قلت فى هؤلاء أبياتاً فغَنَنى فيها » ثم أنشد الأبيات :

ظِيَاءٌ كَالذَّنَائِرِ      مِلَاحٌ فى المَقَاصِيرِ  
جَلاهُنَّ السَّعَانِينُ      عَلَيْنَا فى الزَّنَائِرِ<sup>(١)</sup>  
وقد زَرَفْنَ أَصْدَاغاً      كأَذْنَابِ الزَّرَازِيرِ<sup>(٢)</sup>  
وأَقْبَلْنَ بِأَوْسَاطٍ      كأَوْسَاطِ الزَّنَائِرِ

فغناه الطنبورى بها ، فلم يزل الخليفة يشرب ، وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص من الدَّسْتَبَنْد إلى الإيلا .

### دليل الشارى

وهكذا كثرت الجوارى على اختلاف أجناسهن فى بغداد وغير بغداد ، وشاع اتخاذهن بين العامة والخاصة . ولقد طال عهد القوم بملاستهن ، وكثرت ما احتقبوه من الخبرة بهن ، حتى استقرّ لهم فى هذا الشأن مُقَرَّرَات لم تلبث أن اتخذت سمة العلم ، ووجدت بعد ذلك من يكتب فيها الرسائل المطولة لتكون بمثابة الدليل

( ١ ) الزَّنَائِر : جمع زنار ، حزام يشد على الوسط . ( ٢ ) زرفنت شعرها : جمّله

كالزرافين وهى الحلقى الصغيرة . الزرازير جمع زرزور : طائر أكبر من المصفور .

المادى والمرجع المفيد فى أمر الجوارى والعبيد : فالهنديات « لهن حُسنُ القوام  
وسمرة الألوان ، وحظ وافر من الجمال ، على صفرة وصفاء بشرّة ، وطيب نكهة  
ولين نعمة ، وهن للولد . . . ولكن الشيخوخة تسرع إليهن » والسنديات  
« ينفردن بدقة الخصور ، وطول الشعور » . ثم الزنجيات « أنقى الناس ثغوراً ،  
وليس فى خلُقهن الغمّ ، والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن » . وأما  
الحبشيات « فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها » . والنوبيات « ذوات  
ترف ولطف ، وأبدانهن يابسة مع لين ملمس » . والبجاويات « مذهبات الألوان  
حسان الوجوه ، ملمس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى متعة » . ثم التركيات  
« قد جعلن الحسن والبياض والنعمة ، وعيونهن مع صفرها ذات حلاوة ،  
وقدودهن ما بين الربع<sup>(١)</sup> والقصير ، والطول فيهن قليل ، وهن كنوز الأولاد  
ومعادن النسل ، قل ما يتفق فى أولادهن القبيح ولا ردىء التركيب » . وأما  
الأرمنيات « فالملاحة فيهن ، لولا ما خُصصن به من قبح الأرجل مع صحة بنية  
وشدة أسر ، وفيهن غَلَطُ طبع ولفظ ، ولا يصلحن لمتعة » . والروميات « بيضُ  
شُقر ، سِباط<sup>(٢)</sup> الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة  
ووفاء » . ثم الجوارى العربيات ، وهن عند القوم أنواع ، فالطائفيات « سمر  
مذهبات مجدولات ، أجف خلق الله أرواحاً ، وأحسنهم فكاهة ومزاحاً ، لسن  
بأمهات أولاد . يَكْسَلَن فى الحبل ويهلكن عند الولادة » ، والمكيات « خَنَثات  
مؤنثات ، لينات الأرساغ<sup>(٣)</sup> ، ألوانهن البياض المشرب بسمرة ، قدودهن  
حسنة ، وأجسامهن ملتفة ، وثغورهن نقية باردة ، وشعورهن جَعْدَة ، وعيونهن

(١) الربع : الوسيط القامة . (٢) السبط المسترسل من الشعر ، ضد الجعد .

(٣) الرنغ : المفصل ما بين الساعد والكف .

مراض فآرة» ، والمدنيات « سمر الألوان معتدلات القوام ، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم ، وملاحة دلّ وحسن شكل وبشر ، لا غيرة فيهن على الرجال ، قنوعات بالقليل لا يفضن ولا يصخبن ، ويصلحن للقيان . . . » إلى آخر ما صح في الأوهام وتقرر في الأذهان عن الجوارى وخصائصهن ، ظاهرهن وباطنهن .

وليس أدل على ما استحدثت القوم من أوصاف في ظاهر العيان وما خبروه من أصناف في صميم المتعة وسط هذا الحفل من الجوارى الجلائب من المشارق والمغرب من كل لون وسحنة ، من هذه الصورة للحسناء الرومية ، وقد أبى أبو نواس في إعجابه بها إلا أن يكون في تركيبها أجزاء من جميع النساء :

أبصرتُ في بغدادَ رُومِيَّةً	تَقْصُرُ عنها كلُّ أُمْنِيَّةٍ
قَصْرِيَّةَ الطَّرَفِ ، شَمَامِيَّةُ ۥ	خُلُوءَةً ، في نَكْهَةِ زَنْجِيهِ
صُفْدِيَّةَ السَّاقَيْنِ ، تُرْكِيَّةُ ۥ	سَّاعِدَ ، في قَدِّ طَخَارِيهِ
بَنْدِيَّةَ الحَاجِبِ نُوبِيَّةُ ۥ	فَخْذَيْنِ ، في زَهْوِ عِبَادِيهِ
حَبْرِيَّةَ الحُسْنِ ، كِيَانِيَّةُ ۥ	أَرْدافَ ، في أَلْيَةِ عَاجِيهِ

### الغلاميات

على أن الجوارى اللواتي يُعرف بهن ذلك العصر ، هن في حقيقة الواقع ظاهرة جديرة بالدرس . فلقد كن في شكلهن وزيهن وفعلن أقرب إلى بنت اليوم « الرياضية » كما نسميها . فهن شاطرات ، فارهات ، مطمومات الشعر<sup>(١)</sup> ، عاطلات من الحلى ، وفي أرجلهن النعال كأحذية الرجال . يلبسن القرطق وعليه

(١) طم الشعر : قصه .

قبا، ومنطقة ، وهو زى يلتزم الجسد من ضيقه التزاماً حتى يرسم للعين تقاطيعه  
المكورة<sup>(١)</sup> ، وينحسر من قصره عن السيقان ويبدى ربالاتها<sup>(٢)</sup> المنسوقة ،  
فلا تسحب له صاحبتة ذيلاً ، ولا تنازعها الريح من بنائقه فضلاً :

مُقَرَّطَةً لَمْ يَحْنِهَا سَحْبُ ذِيلِهَا وَلَا نَارَعَهَا رِيحُ فَضْلِ الْبَنَائِقِ<sup>(٣)</sup>  
تُشَارِكُ فِي الصُّنْعِ النِّسَاءَ ، وَسَلَّمَتْ لَهُنَّ صَنُوفَ الْحَلِيِّ غَيْرَ الْمَنَاطِقِ  
ولا شك في أن هذه الأوصاف التي نجد لها للجوارى كما تتمثلن في أخبار  
أبي نواس وأشعاره ، تصلح في جملتها مثلاً سابقاً للفتاة الغربية التي عرفها الفرنجة  
في أوائل القرن العشرين باسم « الغلامنة La Garçonne » ، والتي هي أثر  
من آثار تطوّر الأخلاق والآداب بعد الحرب العظمى الأولى . وإنه لمن التوافق  
العجيب أيضاً أن يكون هذا الاسم بعينه هو الذى يوسم به أولئك الجوارى في  
عصر أبي نواس . فلنسمع إليه يصفهن :

عَذَّبَنِي حُبُّ « غَلَامِيَّاتِ » ذَوَاتِ أَصْدَاغٍ مُقَرَّبَاتِ  
مُقَوَّمَاتِ الْقَدِّ مَهْضُومَاتِ يَمْشِينَ فِي قُمَصٍ مُزَرَّرَاتِ

مَطْمُومَةِ الشَّعْرِ ، فِي قُمَصٍ مُزَرَّرَةٍ فِي زِيٍّ ذِي ذَكْرِ ، سِيَاهُ سِيَاهَا

صُورٌ إِلَيْكَ مُؤَنَّثَاتِ الدَّلَّ فِي زِيٍّ الذُّكُورِ<sup>(٤)</sup>

عُطِّلُ الشَّوَى وَمَوَاضِعُ الْأُ زَرَارِ مِنْهَا وَالنُّجُورِ<sup>(٥)</sup>

أُرْهَفْنَ إِرْهَافَ الْأَعْنَةِ وَالْحَائِلِ وَالسَّيُورِ

وَمُوقَرَاتِ فِي الْقَرَا طِقِ وَالْخَنَاجِرُ فِي الْخُصُورِ

(١) المكورة : المطوية المدبجة . (٢) الربلات : أصول الأنفاذ (سمانة الساق) .

(٣) البنيقة : لبنة التمييز وهي الرقعة تزد في نحره .

(٤) صور إليك أى مائلات إليك . (٥) الشوى : الأطراف كاليدن والرجلين .



أَصْدَاغُهُنَّ مُعْقَرَبَاتُ الشَّوَارِبِ مِنْ عَبِيرٍ  
مِثْلَ الظُّبَاءِ سَمَتْ إِلَى رَوْضِ صَوَادِرَ مِنْ غَدِيرٍ

وَحُذِّ مِنْ كَفٍّ جَارِيَةٍ وَصَيْفٍ رَجِيمٍ الدَّلَّ، مَلْتَوِغِ الْكَلَامِ  
لَهَا شَكْلُ الْإِنَاثِ، وَبَيْنَ بَيْنَا تَرَى فِيهَا تَكَارِيهَ الْغَلَامِ  
فَاحْيَانًا تُقَطِّبُ حَاجِبَيْهَا وَأَحْيَانًا تَتَنَّى كَالْحَسَامِ

رَأَتْ زِيَّ الْغَلَامِ أَنْتَمَ حُسْنًا وَأَدْنَى لِلْفُسُوقِ وَلِلْأَنَامِ  
فَمَا زَالَتْ تَصَرَّفُ فِيهِ حَتَّى حَاكَّتُهُ فِي الْفِعَالِ وَفِي الْكَلَامِ  
تُرَجِّلُ شَعْرَهَا وَتُطِيلُ صُدْغًا وَتَلْوِي كَتَمَهَا فِعْلَ الْغَلَامِ  
وَرَا حَتَّ تَسْتَطِيلُ عَلَى الْجَوَارِي بِفَضْلِ فِي الشَّطَارَةِ وَالْغَرَامِ  
تَمَافُ الدُّفَّ تَكَرِّيَهَا وَفَتْكَهَا وَتَلْعَبُ - الْمَجَانَّةُ - بِالْحَمَامِ  
وَيَدْعُوهَا إِلَى الطُّنْبُورِ حِذْقٌ إِذَا دَارَتْ مُعْتَقَةُ الْمُدَامِ  
وَتَغْدُو لِلصَّوَالِجِ كُلِّ يَوْمٍ وَتَرْمِي بِالتَّبْنَادِقِ وَالسَّهَامِ

ولشاعراً أبي نواس وقائع عدة مع جوارى القصور الغلاميات نجتزئ منها  
بواقعة له مع « معشوق » جارية أسماء بنت المهدي . وكانت الشعراء تجتمع في  
كل يوم بباب الأميرة العباسية ؛ وكان لهم مجلس يجتمع عليهم فيه أهل الأدب .  
فكان يحضر ذلك المجلس أبو نواس . فنظر يوماً وقد خرجت من القصر وصيفة  
ناهدة غلامية ، فاشتد عجبها ومازحها ، ولم يزل ذلك دهرًا ، إذا خرجت لحاجة  
إلى ما يلي باب القصر ، عبث بها وداعبها ، وأنشدها أشعاراً في حبه لها ، ولا ينكر  
ذلك عليه أحد لما كان منه من العبث بالناس والمجون ، ولأنه لم يكن يعتد

بالفساء . فقال يوماً ليوسف بن الداية النخاس : « إمض بنا إلى باب أسماء ،  
لننظر إلى من يحضر اليوم من الشعراء ، وتعرف خبراً إن كان حدث » . فمضيا ،  
فبينما هما على باب أسماء ، إذا بالجارية قد خرجت ، وعليها قباء وشى منسوج  
بالذهب ، وسراويل وشى أخضر منسوج بالذهب ، وعلى رأسها محبة  
إبريسمية<sup>(١)</sup> مذكوجة بالذهب ، وفي رجليها نعل مفشاة بـ «يباج» ، وتشد خصرها  
منطقة ذهب مفرقة على زرياب حرير عريض وقد غابت في خصرها من انهضامه  
فما تكاد تبين ، وفي يدها قضيب خيزران تعبت به ، فدهش كل من حضر  
وبهتوا إلى براعة جمالها وحلاوتها وحسن زيها . فقال أبو نواس لزميله : « فمثل  
هذه يا نخاس فاشتر ، لا مثل رقيقك » . فقال : « دعني ، فما رأيت مثل هذه قط ،  
على كثرة ما يمر على يدي ، وما تصلح هذه إلا للخليفة » . فأقبلت الجارية ،  
تخرج وتغيب ، وتهادى وتتنشئ في مشيتها ، حتى وقفت حيالهما ، ونظرت إليه  
نظراً دل على أن في قلبها منه شيئاً ، فأنشأ يقول وهي تسمعه شعراً مطلعته :

لقد صُبَّحتُ بالخير عينٌ تَصَبَّحتُ    بوجهك يا «مَعْشُوقُ» في كلِّ شارقٍ

فلما فرغ من إنشاد الشعر ضحكت وولت راجعة ، فإذا أحسن الناس قدأ  
وأعطافاً وحلاوة . فانصرف الزميلان وقد أخذت بمجامع قلبهما . وانقضت أيام .  
وفي ذات يوم ، وأبو نواس كسلان لا ينشط للشرب ، والوقت ظهر ، إذ دخلت  
عليه الوصيفة بغير إذن ولا سابقة علم ، فقالت : « تَقَبَّلِ الطُفَيْلِيَّةَ ؟ » . فوثب  
المشاعر فقبل رأسها وعينيها ، ويديها ورجليها . وقال : « ياسيدتي ، الحمد لله  
الذي ألان لي قلبك ، وسخرك لعبدك ، ومتعني بقربك ، فأعلميني كيف  
تخلصت ؟ » . قالت : « خرجت لأداء رسالة ، فكنت أهتم إلى في نفسي » .

ثم كان ما يرويه لنا الشاعر في قصيدة له ماجنة يدفعنا على نشر بعضها ما تنطوى عليه من روح ساخرة :

وناهدة الثديين من خدام القصر  
غلامية في زيها برمكية  
كلفت بما أبصرت من حسن وجهها  
فما زلت بالأشعار في كل مشهد  
إلى أن أجابت للوصال وأقبلت  
فقلت لها أهلاً ، ودارت كؤوسنا  
ف قالت : « عساها الخمر ! إني بريئة »  
فقلت : « اشربي ، إن كان هذا محرماً  
فطالبتها شيئاً فقالت بمبرة :  
فما زلت في رفيق ونفسي تقول لي :  
فلما تواصلنا توسطت لجة ،  
سبنتي بحسن الجيد والوجه والنحر  
مزوقة الأصداع مطومة الشعر  
زماناً ، وما حب الكواكب من أمرى  
السينها ، والشعر من عقد السحر  
على غير ميعاد إلى مع العصر  
بشمولة كالورس أو شعل الجمر  
إلى الله من وصل الرجال مع الخمر »  
ففي عنق ياريم وزرك مع وزري<sup>(١)</sup>  
« أموت إذن منه » ودمعتها تجري  
جويرية بكر ! وذا جزع البكر  
غرقت بها يا قوم ، من لجج البحر

### الهوس بالشذوذ

وليس أدل على الهوس بالشذوذ من هذا الخلط الذي طرأ على ذوق القوم ومن هذا القلب في الأوضاع . فهم يطلبون في الغلام الساق أن يكون شبيهاً بالجارية في الدل والتغنج والتأنث ، وقد يريدونه أحياناً على أن يتزين زينتها ويتزي زيها :

من كف ذي غنج ، حلو شمائله  
كأنه عند رأى المين عذراه

(١) الریم : الفلج الخالص البياض .

وَمَوْحِدٍ فِي الْحَسَنِ جَلَّاهُ بِرَدَائِهِ ذُو الطَّلَوِ وَالْقُدْسِ  
إِنْ شئتَ قَلْتَ خَرِيدَةً جُلَيْتَ لِلشَّرْبِ يَوْمَ صَبِيحَةِ الْعُرْسِ

يَسْمَى بِهَا خَنْثٌ؛ فِي زِيٍّ جَارِيَةٍ مُطَيَّبٌ صُدْغُهُ فِي طَيْبِ أَلْبَانٍ  
يَتِيهِ عَلَى الْعَبَادِ بِحُسْنِ وَجْهِهِ وَشَعْرٍ قَدْ أَطِيلَ عَلَى قَفَاهُ  
بَكْفٍ أَغْنَى مُخْتَضِبٍ بِنَانًا مُدَالِ الصَّدْغِ مَضْفُورِ الْقُرُونِ (١)  
وَمَشْتَرِكٍ فِيهِ — إِذَا الْوَهْمُ نَالَهُ — تَخَنَّثُ أَنْثَى وَاعْتَدَالُ غَلَامٍ  
فَأَيْنَ لِي أَكْعَابٌ أَنْتَ، أَمْ أَنْتَ غَلَامٌ؟

وهم يستحبون في الجارية الكعاب أن تكون أشبه بالغلام في جميع أمره ؛  
كالساقية التي يقول فيها النواصي : « من كف ذات حِرٍّ في زى ذى ذكر »  
وفي الكثرة من شعره الذي عرض فيه لوصف الجوارى :

مُذَكَّرَةٌ ، مُؤَنَّثَةٌ ، مَهَاءٌ إِذَا بَرَزَتْ تُشَبِّهُهَا الْغُلَامَا

غُلَامٌ ، وَإِلَّا فَالْغُلَامُ شَبِيهٌ وَرَيْنَحَانُ دُنْيَا ، لَذَّةٌ لِلْعَانِقِ  
تَجْمَعُ فِيهَا الشَّكْلُ وَالزِّيُّ كُلُّهُ فَلَيْسَ يُؤَوَّى وَصَفَهَا كُلُّ نَاطِقٍ

ولقد كان لشباب بغداد في ذلك العهد بدعة في تسوية شعرهم . فكان الشاب  
منهم يحرق شعره على جبينه دون أن يبلغ جبهته ، وبسويته مع حاجبيه ، ثم  
يدوره إلى أذنيه بعد مسح الغنبر أو تئذيته بماء المسك ، ثم يسدله  
إلى صدغيه :

صُدْغَاهُ قَدْ سَالَ عَلَى خَدَّهِ مِثْلَ عَنَاقِيدَ عَلَى وَرْدٍ

(١) مدال الصدغ : منسدة .



فَصَوَّلَ الْجَانُ الصُّدْغَ مُسْتَمَكِنٌ — للضَرْبِ — مِنْ تُفَاحَةِ الْخَدِّ

فكان أن اصطنعت الغلامياتُ من الجوارى هذا الطراز ، فبعد أن كنَّ يباهين بطول شعورهن ، ويصلنَّها بالصفائر يرسلنها إلى أسفل ظهورهن ، وقد يزدن فيضعن فوق مفارقهن تاجاً مرصعاً ؛ عمدن إلى تقصير شعورهن ، واصطناع الطرر والأصداغ كالغلمان :

وَمَطْمُومَةٌ لَمْ تَتَّصِلْ بِذُوَابَةٍ      وَلَمْ تَعْتَقِدْ بِالتَّاجِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ  
كَأَنَّ مَحْطَّ الصُّدْغِ فَوْقَ خُدُودِهَا      بَقِيَّةُ أَنْفَاسٍ بِأَصْبَعٍ لَانَتْ<sup>(١)</sup>  
نَدَّتْهُ بِمَاءِ الْمِسْكِ ، حَتَّى جَرَى لَهَا      إِلَى مُسْتَقَرٍّ بَيْنَ أُذُنٍ وَعَاتِقٍ

وكان زى الصبيان يُتخذ — فى القليل النادر — للبنات فى سن الحداثة على سبيل الطرافة كما يقع عندنا اليوم . وقد روى لنا التاريخ فى أخبار الخليفة المهدي أنه رُئى حين دخل البصرة يسير فى سِكَّةٍ قريش ، وصاحب الشرطة يسير أمامه فى يده الحربة ، وابنته « البانوقة » — وهى سمراء حسنة القد حلوة — تسير بين يديه ، بينه وبين صاحب الشرطة ، فى هيئة الفتیان ، عليها قبالة أسود ، وشاشية ( عمامة ) ، ومنطقة ، متقلدة سيفاً ، وفى الصدر شىء من ثدييها وقد رفعها القباء ليهودها . ولكن هذا القليل النادر فى عهد المهدي تعذى الصبايا الصغيرات ، وصار بعده سيان زى الجوارى وزى الغلمان . ويقال فى علة شيوع ذلك ما رآته الملكة زبيدة من شدة شغف ابنها الأمين بالغلمان من خدَمه ، واشتغله بهم ورفعهم لمنازلهم ، فكان منها أن اتخذت الجوارى المقدودات ، الحسان الوجوه ، وعُصمت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستن الأقبية والقراطين

(١) المخط : المنبت . الأنقاس : جمع نقس ، المداد . اللانق : من لاق النواة أى أصلح مدادها .

والمناطق ، فبانت قدودهن ، وبرزت أردافهن . وبعثت بهن إليه ، فاختلن بين يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن ، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة . فحذا الناس من الخاصة والعامة حذوه ، واتخذوا الجوارى المطمومات والبسوهم الأقيبة والمناطق ، وسموهن الغلاميات .

## أم الخبائث

وكانت أساليب أبي نواس وأمثاله مع عامة الجوارى ، غلامياتٍ وغير غلاميات ، عينَ الأساليب المعروفة عند الشبان الخلقاء حتى اليوم في المغازلة والمعاكسة . فهو لا يزال يترصد الجارية منهن ، يرقبها في حركاتها وسكناتها ، ويجلس لها في الطريق يلتبس اجتيازها ، فإذا أقبلت أو أدبرت أعمل الطرف نحوها ، ولهج بإطرائها ، ثم سعى خلفها وجدّ في إثرها ، يلاحقها ويبرمها ويضايقها ، على حدّ قوله :

أَمْشَى إِلَى جَنْبِهَا أَزَاحُهَا عَمْدًا ، وَمَا فِي الطَّرِيقِ مِنْ ضَيْقٍ  
يَضْرَعُ إِلَيْهَا تَارَةً ، وَتَارَةً يَضْحَكُهَا ، مَتَعَرِّضًا لَهَا بِالْكَلَامِ جَادًّا وَهَازِلًا ،  
لَا يَرَعَى مِمَّا انْتَهَرَتْهُ ، وَلَا يَرْجِعُ مِمَّا سَبَّتَهُ ، عَمَلًا بِقَوْلِ سَلَفِهِ بَشَارَ :

لَا يَمْنَعُكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلُ تَغْلُظُهُ وَإِنْ جَرَّحَا  
عُسْرُ النَّسَاءِ إِلَى مُيَامَرَةٍ وَالصَّغْبُ يُمَسِّكُنِ بَعْدَ مَا جَمَعَا

فإذا ظفر منها بعد العناء بموعد لقاء ، هتأ لاجتماعهما مجلساً طيباً . ولا يزال بها يتملقها ويطلب في صفة حسننها ، ويبالغ في إظهار حبه لها ، وقد وضع الشراب بينهما وجعل يصانعهما ويداريها ، ويحمل عليها في الشراب ويدنو بها من حدّ السكر ، حتى تنبسط نفسها ، ويسترسل أيّتها ، ويلين عاصيها .

ولأبى نواس أشعار كثيرة يذكّر فيها ما للخمر على الفساق أمثاله من فضل  
في تقريب البعيد وتيسير العسير . ويذهب في قصصه إلى أبعد حدود التفصيل ،  
حتى إذا بلغ الغاية وانتهى إلى النهاية انطلق يمتدح للخمر أياديها عليه ، وحسن  
صنيعها إليه :

صَنَائِعُ الخمرِ عِنْدِي غَيْرُ ضَائِعَةٍ حَتَّى يَقُومَ بِهَا شُكْرِي فَيَجْزِيهَا  
ولا مندوحة من أن نرعى لشاعرنا عنان القول قليلاً ، لنسمع إلى جنب  
قصته مع « معشوق » أمثلةً أخرى على صنائع الخمر في لياليها ، مع اصطناع  
الحرص من جانبنا على إجمال ما يفصل حكايته مما يجري فيها :

يا لَيْلَةً بَتُّ فِي دِيَا جِيهَا	أُسْقَى مِنَ الرَّاحِ صَفْوَ صَافِيهَا
تَدُورُ بِالسَّعْدِ كَأُسْنَا عَجَلًا	قَدْ فَتَقَ الْمِسْكَ فِي نَوَاحِيهَا
مَا شَتَّهِيَ الْعَيْنُ أَنْ تَرَى حَسَنًا	إِلَّا رَأَتْهُ فِي كَفِّ سَاقِيهَا
وَصِيفَةٌ كَالْغُلَامِ تَصْلُحُ لِلْعِشِّ	قَمِينَ ، كَالْغُضَنِ فِي تَنَنِّيهَا
فِي قُرْطُقٍ زَانَهُ تَجَرَّسْنَهَا	قَدْ عَقَرَبَتْ صُدْغَهَا مَدَارِيهَا (١)
كَمَلَهَا اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لَهَا	لَمَّا اسْتَمْتَمَتْ فِي حُسْنِهَا «إِيهَا !»
لَوْ قِيلَ لِلْحُسْنِ «صِفْ مُحَاسِنَهَا»	مَا اسْطَاعَ - ضَعْفًا بِذَلِكَ - يَحْكِيهَا
أَشْرَبُ كَأْسًا مِنْ كَفِّهَا ، وَلَهَا	كَأْسُ سِقَامٍ فِي النَّفْسِ تُجْرِيهَا
حَتَّى إِذَا السُّكْرُ كَفَّ نَخْوَتَهَا	وَلَانَ - مِنْ بَعْدِهَا - حَوَاشِيهَا
وَأَمَكَنْتَنِي مِنْهَا مُخَا تَلَةٌ	مَدَدَتْ رِفْقًا تُغْرِي إِلَى فِيهَا
فَأَعْرَضَتْ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَارْتَعَدَتْ	ثُمَّ تَنَاوَلَتْهَا لِأَرْضِيهَا

(١) المدارى : جمع مدراة ، المشط .

قالت: «لِذَا زُرْتَنَا؟» فقلتُ لها  
 لولا بِلَائِي لَمَا تَجَاسَرْتُ أَهْ  
 وَلَا تَعَرَّضْتُ لِلْحُتُوفِ بِنَفْسِي  
 قَالَتْ: «أَهْلًا بِمَنْ تَتَّبَعُهُ»  
 فَبِتُّ فِي لَيْلَةٍ نَعِمْتُ بِهَا  
 وَأُجْتَنِيَ الطَّيِّبُ مِنْ أَطْيَابِهَا  
 «يَا أَحْسَنَ النَّاسِ كُلُّهُمْ نَبِيهَا  
 وَالْأَلَا يُرَى الْمَوْتُ فِي أَدَانِهَا  
 مَنْ كَانَ بَعْضُ الْغَرَامِ يُسْلِيهَا»  
 نَفْسِي، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَمَانِهَا  
 الثَّمُهَا تَارَةً وَأُسْفِيهَا  
 وَأُمَكِّنُ النَّفْسَ مِنْ أَمَانِهَا

ومن نظائرها في غزله بالمدكر:

وَلَيْلَةٍ قَصَّرَ لِي طَوْلَهَا  
 فِي مَجْلَسٍ يَضْحَكُ تَفَاحُهُ  
 مَا إِنْ يَرَى خُلُوتَنَا ثَالِثُ  
 خَمْرُهُ فِي الْكَأْسِ مَمْزُوجَةٌ  
 فَتَارَةً أَشْرَبُ مِنْ رِيْقِهِ  
 وَكُلَّمَا عَضَّضَ تَفَاحُهُ  
 حَتَّى إِذَا أَلْقَى قِنَاعَ الْحَيَا  
 سَرَّتْ مُحَيَّا الْكَأْسِ فِي رَأْسِهِ  
 فَصَارَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ  
 بِالْكَرْخِ أَنْ مُتَعْتُ مِنْ رُؤْيَيْهِ  
 بَيْنَ الرِّيَّاحِينَ إِلَى خُضْرَتِهِ  
 إِلَّا الَّذِي نَشْرَبُ مِنْ خَمْرَتِهِ  
 كَالذَّهَبِ الْجَارِي عَلَى فِضَّتِهِ  
 وَتَارَةً أَشْرَبُ مِنْ فَضْلَتِهِ  
 قَبْلْتُ مَا يَفْضُلُ مِنْ عَضَّتِهِ  
 وَدَارَ كَسْرُ النَّوْمِ فِي مُقْلَتِهِ  
 وَدَبَّتِ الْخَمْرُ فِي وَجْنَتِهِ  
 وَكَانَ لَا يَأْذُنُ فِي قُبْلَتِهِ

وأبو نواس لم يختص بهذا العلم وحده . فقد كان فعل الخمر في تحريك الفرائز الجنسية وتوهين مقاومة النفس لها ، شائعاً معروفاً . ولقد روى لنا معاصره الأصمعي في ذلك رواية من طرائف أخباره ، وإن شئت فقل من بنات أفكاره ، وهي على



كل حال من الحق في الصميم الذي لا سبيل إلى إنكاره . زعم الأصمعي أن عجوزاً من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذاً لهم ، فدَعَوْها وسقوها قدحاً ، فطابت نفسها وتبسمت ، ثم سقوها قدحاً آخر فاحمر وجهها وضحكت ، ثم سقوها قدحاً ثالثاً ، فقالت : « خبروني عن نسائك بالعراق ، أَيَشْرَبَنَّ من هذا الشراب » . قالوا : « نعم » . قالت : « زَيْنَ ورب الكعبة »

### الجوارى والروح الإباحية

وقد كان من أثر الجوارى في الحياة الاجتماعية أن شاعت الروح الإباحية فلم يسلم منها حتى الأعرايات ، إن لم يكن بالفعل الشائن فبالقول الماجن . ومن ذلك ما رواه أحد رواة أبي نواس — سلمان سخطة — عن حيٍّ من أحياء العرب قدموا بادية البصرة ليمتاروا ويرجعوا ، وخيموا ظاهر البصرة . فقال أبو نواس يوماً لراوته : « أخرج بنا إلى الأبيات » . فخرجا ، فاستقرياها ، فلما صارا إلى آخرها إذا هما بامرأة شديدة الأذمة<sup>(١)</sup> ، إلا أنها مع تلك الأذمة أحسن الناس وجهاً وأحلاماً وأغزلهم ، وأنقاهم ثغراً ، وأحورهم عيناً . فوقفا ينظران إليها . وداعبها أبو نواس ، وداعبته . فإذا هي ظريفة آنسة ضاحكة ماجنة من الأعراب . فقال لها أبو نواس :

هل عندك اليوم من خمر فنشربها      أم هل سبيلٌ إلى تقبيل عَيْنِكَ  
فلستُ أبغى سوى عَيْنِكَ منزلةً      إن لم تجُودِي لنا عَفْواً بِجَدِّكَ  
أو بادِرِي نِي بِرِيقِ مَنْكِ أَرْضُفُهُ ،      أو لَمَسِ صَدْرِكَ ، أو تَغْمِيزِ عِطْفِكَ .

فأجابته على المكان :

أنتَ امرؤٌ ليس يَجْزِيهِ مُقَبِّلُنَا      وإن لَهَجْتَ بِعَيْتِكَ وَخَدَّيْكَ  
فَلِمَ تُجْمِجُ فِيمَا لَسْتَ تُوضِحُهُ      أوْضَحْ وَقْلُ بُنْيَتِي مَا تَحْتَ بُرْدَيْكَ  
إِنِّي فَتَاةٌ بَبْذُلِ الْوَدِّ سَاحِحَةٌ      أُجِيبُ مِنْ رَامَنِ يَوْمًا بَلْبَيْكَ

فاستظرفها أبو نواس . فكان الشاعر وراويته يحملان في كل وقت شراباً ؛  
ويجيئان فيشربان عندها ومع زوجها ، وكانت وزوجها يشربان . ولم يزالا كذلك  
حتى رحلوا .

ولم يكن العرب ممن يحسنون الظن بالمرأة ، وأشعارهم في ذلك مذكورة مشهورة  
إلا أنهم في العصر الذي نحن بسبيله قد بلغوا من سوء الظن بها الحد الذي لا مزيد  
عليه ولا مذهب وراءه . ونحن نجد صدى ذلك في الأدب الشعبي ، وآيته « ألف  
ليلة وليلة » . فالأصل في حكاياتها ما تعرض له الملك الفارسي شهريار الحاكم على  
جزائر الهند والصين وأخوه الأصغر ملك سمرقند من خيانة زوجة كل منهما له ،  
وما شهداه في سياحتهما عقب ذلك من أمر الجارية الحسناء التي أظهرتهما على عقد  
معها فيه سبعون وخمسة خاتم تذكاراً لخياناتها للجنى المارد الذي هي في حوزته ،  
وهي خيانات احتالت لها على الرغم من أن الجنى المارد منذ اختطفها ليلة عرسها قد  
بالغ في التحفظ عليها فوضعها في علبة ، وجعل العلبة داخل صندوق ، وجعل على  
الصندوق سبعة أقفال ، وجعل الصندوق في قاع البحر العجاج المتلاطم الأمواج .

فإذا تركنا الحكايات الموضوعة إلى الأخبار المروية الصحيحة ، فإننا نجد  
الكفاية وفوق الكفاية فيما يروونه . من ذلك أن مطيع بن إبّاس مرّ يوماً بيهي بن  
زياد وحماد الراوية وهما يتحادثان ، فقال لهما : « فيم أتما ؟ » قالا : « في

قذف المَحْصَنَاتِ . قال : « أَوْ فِي الْأَرْضِ مَحْصَنَةٌ تَقْذِفَانِهَا !؟ » . وهو حكم قاسٍ قد كان فيه القضاء على أخلاق العصر كله لولا اعتراض يقوم دون التسليم به على إطلاقه . وذلك أن مطيعاً وصاحبيه من الخلفاء لم يعرفوا المحصنات حتى يقبل لهم كلام فيهن .

### التغزل والحب

والناظر في مقطوعات الغزل في خمریات أبي نواس وفي شعره عامةً يجزم بأن الرجل لم يعرف الحب إلا ما كان من أمره مع جنان ، وأما ما سواه فهو صبوةٌ عابرة لكل من عليه سمةٌ للحسن ظاهرة . وذلك على الرغم من قوله في الحب :  
فِي الْحَبِّ رَوْعَاتٌ وَتَعْذِيبٌ      وَفِيهِ يَا قَوْمُ الْأَعْجَابُ  
مَنْ لَمْ يَذُقْ حَبًّا فَإِنَّ أَمْرَهُ      عِنْدِي مِنَ الْحَبِّ تَجَارِيبُ

والحب الذي نقول إن أبا نواس لم يعرفه ، هو ذلك الاستغراق في المحبوب حتى لا يملك الحب من نفسه شيئاً ، مثل ابن الملوّح قيس لبلبى ، وابن ذريح قيس لبنى ، وغيرها من التيمين . فكل واحد من هؤلاء اختص بامرأة واحدة أحبها ، وكان من استغراقه فيها أن كان لا يرى إلا بعينها ، ولا يسمع إلا بأذنها ولا يعرف الناس والدنيا إلا فيها ، فهي من الوجود مركزه ، فإن مالت يوماً عنه أحسن الحب كأنما مادت الأرض تحت قدميه ، وزلزلت العوالم من حواليه .

هذا الحب لم يكده يعرفه أبو نواس غير مرة ، وإنما كان شاعرنا يصبو إلى الحسان ، صبوة الفنان الذى يتطلع إلى الحسن حينما كان . ولا نريد هنا مطلق الفنان ، بل نعنى به المعنى قبل كل شيء بجمال الأجسام وكمال التكوين على نحو أصحاب التماثيل ومبدعى الأوثان من أبناء يونان . ولقد ثبت الفنان من هؤلاء



وغير هؤلاء على حب هذا أو ذاك من أنماط الجمال . ولكن شاعرنا كان يستجيب لأنماط الجمال جميعها . والمتتبع لأخباره يقع لا محالة على أشياء تحرك من استنكاره ، إذ يراه في الخبر بعد الخبر يكذب ما يكذب وراء الحسنة ، ليظفر منها بموعد لقاء ، فإذا المعشوقة أرسلت إليه بكتابها المنتظر مع رسول من جواربها ، لم تسلم الجارية من تجميشه لها وتصيبها . وأمثال ذلك من مبادرة الذات والانطلاق مع الشهوات ، كيفما كانت وحيثما سنحت ، من غير حرج ولا مبالاة ، بل مع التوخي للمجاهرة وإظهار المباهاة ، كانوا يسمونه في اصطلاح العصر فتكاً ، ويسمون صاحبه فاتكاً . والذي نراه أن أبا نواس لم يكن مدفوعاً إلى ما يروى عنه بدافع من منازعة الشهوة له وغلبتها عليه ، فما نحسبه موصوفاً بالقوة على النساء ، بل أكبر الظن أنه كان في ذلك مدفوعاً بحبه للمجون .

ومن الإنصاف أن نسلم بأن النزعة الحسية غالبية على الغزل في الشعر العربي حتى في الأغاني الصوفية . إلا أن ما نراه في شعر أبي نواس من هذه النزعة يتعدى حال الصحة إلى الظاهرة المرضية . فهو لا يبرح في شهوة مسعورة عقيمة سواء كان بسبيل الوصف لتقاطيع الجسم أو حركة المشية أو حلاوة اللحظ ، حتى الكلام يشير إليه بقوله « لولا فتور في كلامك يشتهى » . ومن شأن هذا جميعه أن يزيد في اعتقادنا بأن الشهوة عنده لم تكن من فضل القوة وفيض الحيوية ، بل هي هاجس ذهني واضطراب عصبي .

ولقد ذهب ابن المعتز إلى أن في غزل أبي نواس برداً كثيراً . ولعله كذلك في معظم غزله المؤنث إلا ما قاله في « جنان » . ثم إن غزله بالمذكر أحى وقدة وأقوى نبرة بوجه عام . وهذا مثال من أول قصيدة له في هذا الباب الخالص من الديوان :

أفنتُ فيكَ معاني الشَّكوى      وصفاتٍ ما ألتقى من البلوى



قَلْبْتُ آفَاقَ الْكَلَامِ ، فَمَا أَبْصَرْتُني أَعْغَلْتُ عَنْ مَعْنَى  
وَأَعْدْتُ مَا لَا أَشْتَكِي غَبْنًا فَأَعُودُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى  
فَلَوْ أَنَّنِي أَشْكُو إِلَى بَشَرٍ لِأَرَاخَنِي بِشَرٍّ مِنَ الشَّكْوَى  
لَكِنَّمَا أَشْكُو إِلَى حَجَرٍ — تَنْبُوُ الْمَعَاوِلُ مِنْهُ — أَوْ أَقْسَى

وإذا كانت نسبة هذه القصيدة إلى أبي نواس قد يكون فيها موضع خلاف  
لورودها في ديوان أبي تمام مع ما ورد من النص على أن الصولي لم يروها له ، فإن  
في ديوان شاعرنا غير هذا المثال مقطعات غير قليلة تجرى على هذا الأسلوب  
ولا تنحط عن طبقته :

قَلْبِي — عَلَى مَا كَانَ مِنْ شِقْوَتِهِ — صَبُّ بَيْنَ يَهْوَى عَلَى جَفْوَتِهِ  
أَكَلَّمَا جَدَّدَ لِي مَوْعِدًا أَخْلَفَهُ التَّنْغِيصُ مِنْ عِلَّتِهِ  
يَخْتَلِقُ السَّخْطَةَ لِي ظَالِمًا أَحْوَجَ مَا كُنْتُ إِلَى رَحْمَتِهِ  
أُضْمِرُ فِي الْبُعْدِ عِتَابًا لَهُ فَإِنْ دَنَا أُنْسِيَتْ مِنْ هَيْبَتِهِ

وقد بلغ من تمكن هذا العشق الشاذ في نفسه ، واستيلائه على هواه ، أن صار  
كل ما سواه عنده ناقص الروعة فاطر اللوعة ، وصار في وصفه تباريحه ولواجه  
يتحدى أعلام العشاق من أهل العشق الطبيعي ممن اشتهروا به وفشت أشعارهم  
فيه بين الناس :

وَاللَّهِ مَا بَلَغَ الْحَسْبُ مِنْ جَمِيلِ بْنِ مَعْمَرٍ  
وَلَا مِنْ ابْنِ ذَرِيحٍ قَيْسٍ ، وَمَا كَانَ قَصَرُ  
بُلُوغِهِ مِنْ فَوَادِي لَمَّا غَدَا يَتَخَطَّرُ

وغزل شاعرنا في العادة كالغزل عند معظم شعراء العرب ، يدور أكثره على القد

النحيل والردف الثقيل ، على حد قوله :

يَا مَنْ تَأَنَّقَ بَارِيَهُ وَصُورَهُ دَعَصَا مِنْ الرَّمْلِ فِي غَضَنِ مِنَ الْبَانِ  
فَلَا يَكَادِ يَخْتَلِفُ شَاعِرٌ عَنْ شَاعِرٍ فِي ذَلِكَ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْأَسْلُوبِ ، فَعَلَيْهِ أَكْثَرُ  
الْمَعُولِ عِنْدَ نَقَادِهِمْ فِي الْمَوَازَنَةِ وَالتَّفْضِيلِ . وَالْأَسْلُوبُ صُورَةٌ صَاحِبُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ،  
وَمَا بَرِحَ عِنْدَ نَقَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ أَصْلًا مِنْ أَهَمِّ أَصُولِ الْاسْتِدْلَالِ عَلَى مَزَاجِ الشَّاعِرِ وَطَبِيعَةِ  
مَلَكَتِهِ . وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ نَعْرُضُ هَذِهِ الْأَيَّاتِ مِنْ غَزَلِ أَبِي نَوَاسٍ :

يَا ذَا الَّذِي يَخْطُرُ فِي مِشْيَتِهِ قَدْ صَفَّفَ الشَّعْرَ عَلَى جَبْهَتِهِ  
وَسَرَّحَ الْمِزَرَ مِنْ خَلْفِهِ وَدَقَّقَ الْبَانَ عَلَى وَفْرَتِهِ  
مُبْتَلً تَثْنِيهِ أَعْطَافُهُ أُمَيْسُ خَلَقَ اللَّهُ فِي خَطَرَتِهِ  
مُهَفِّفٌ تَرْتِجُ أَرَادْفُهُ يَتْبَهُ بِالْحُسْنِ عَلَى جِيرَتِهِ  
يَنْتَسِبُ الْحُسْنَ إِلَى حَسَنِهِ وَالطَّيِّبُ يَحْتَاجُ إِلَى نَكَمَتِهِ  
يَحَارُ رَجْعُ الطَّرْفِ فِي وَجْهِهِ وَصُورَةُ الشَّمْسِ عَلَى صُورَتِهِ

وقد ينزه شاعرنا غزله أحياناً عن ذكر القد النحيل والردف الثقيل ، فيرتفع  
بموصوفه في بعض المقطعات عن الماديات عارجاً بتشبيهاته من عالم الصورة الجسماني  
إلى عالم النور الشعشعاني :

وَمُسْتَبَرٌّ عَنِّي بَضْوُهُ جَبِينُهُ يُخَيِّلُ فِي وَهْمِي كَخَطَرَةِ خَاطِرِ  
أَتَرَاهُ يَدِيقَ عَنْ كُلِّ لَمَسٍ لُطْفُ جُسَامِنِكَ الْمَكُونِ نُورًا  
مَا رَأَيْنَا مِثَالَ وَجْهِكَ مَوْجُو دَا ، وَلَا مُشَبَّهًا لَهُ تَصْوِيرًا

ويظهر في غزل شاعرنا المولد ، سواء أكان غزله بالمدح أم بالموثق ، ظاهرة غير  
مألوفة في شعر الأقدمين ، وهي كثرة ما يصطنع فيه من مراسم التأدب في المخاطبة .

ولعل ذلك من أثر ما تقررت أصوله في عهد الرشيد — بما عرف من جلالته وأبهته — من رسوم الخلافة واصطلاح الأدب في خطاب الملوك . ونذكر من مشاهير ذلك العصر أبا العتاهية من شعراء القصر وكان يصطنع هذه اللغة في غزله كلما أدركه ضرع الحب وأبدى له الحبيب صفحة الهجر :

الله بينى وبين مَوْلَانِي أَبَدْتَ لِي الصَّدَّ وَالْمَلَالَاتِ

أَلَا مَا لِسَيِّدِي مَا هَا أَدَلُّ ، فَأَحِلْ إِدْلَالَهَا

فلا جرم يتكرر في غزل النواصي قوله للجارية الحبيبة « سيدتي ، مولاتي ، مالكتي » ، وقوله للغلام الحبيب « سيدي ، مولاي ، أميري » :

مَالِي وَلِلْعَازِلَاتِ زَوَّقَنِي لِي ثُرَاهَاتِ

سَعَيْنَ مِنْ كُلِّ فَنَجٍّ يَلْمُنُ فِي مَوْلَانِي

مَا لِلْعُدَاةِ إِذَا مَارُتْ مَالِكْتِي كَأَنَّ أَوْجُهُنَّ تُطَلِّي بِأَنْفَاسِ

قَدْ مَلَّنِي أَهْلُكَ يَا سَيِّدِي وَنَفَّرُوا عَنِّي مَوْلَانِي

فديتكَ ، جسمي كان أحمل للشكوى وكان عليها منك — يا سيدي — أقوى

يَا صَغِيرَ السِّنِّ وَالْمَوِّ لَدِي فِي عَقْلِ الْكَبِيرِ

لِمَ تَفَضَّيْتَ عَلَيَّ عِبْءَ دِيكَ فِي خَطْبِ يَسِيرِ

فَارْضَ عَنِّي بِحَيَاتِي يَا حَيَاتِي ، يَا أَمِيرِي

ولما كان أبو نواس مطبوعاً على القصص ، فله في غزلياته — مثل ما تقدم بنا في خرياته — وقائع يقصها ، وفيها ما عرفنا عنه من نظرف ودعابة ، يتجاوزها

أحياناً إلى المجون ، ويقف بهما أحياناً بينَ بينَ ، ومن هذا اللون الأخير ما يقصه من وقائع العيد :

يا فرحةً جاءت مع العيدِ	وفى الذى أهوى بموعدِ
جاء من الأعينِ مُستخفياً	من بعد إخلافٍ وتأكيد
حتى إذا الرّاحُ جرت بيننا	أمنتُ من خلفٍ وترديد
ظلّ ولّى العهد في خطبةٍ	وظلّتُ بين الرّاح والعود
صار مُصلّانا أباريقنا	ونحرنّا بنتَ العنايد
للناس عيدَ عمّهم واحد	وصار لى عيدانٍ في عيد

ومن هذا القصص كذلك ما يصدر عن ملكة الفكاهة عنده وحبّه للنادرة المضحكة ولو كانت منصبة عليه ، مثل هذا الحوار المشهور بينه وبين جاريةٍ من جوارى القصور :

وقضريّة أبصرتها فهويتها	هوى عُروّة العذرى والماشق النجدي
فلما تمادى هجرها ، قلتُ « واصلى »	فقلتُ « بهذا الوجهِ ترجوا لهوى عندي ؟ »
فقلتُ لها « لو كان فى الشوق أوجهٌ »	تُباع بنقدٍ حاضرٍ وسوى نقد
لغيرتُ وجهى واشتريتُ مكانه	لعلّك أن تهوى وصالى من بعد
وإن كنتُ ذا قبحٍ ، فإنّى شاعرٌ »	فقلتُ « ولو أصبحتُ نابغة الجمدى »

ومثله :

وقالته لها فى وجه نصيح :	« علامَ قتلتِ هذا المستهما ؟ »
فكان جوابها فى حُسن سرّ	« أأجمع وجهَ هذا والحراما ! »

ولا يخلو قصصه كذلك من عنصر الحوار الذى برع شاعرنا فى مناقلته وحسن



مساقه وإدارته ، مع القدرة على حكاية المتحدثين والمتحدثات في خلافتهم وطريقة كلامهم ، مما له فائدته وغناؤه في الإبانة عن روح العصر :

وميراثية تمشى اختيالاً من التكريه فاترة الكلام  
أقول لها : « بَخِلْتُ عَلَى يَقْظَى فَجُودَى فِي الْمَنَامِ لِمُسْتَهَامِ »  
فقال لي : « وصرتَ تنامُ أيضاً ؟ ! » وتطمع أن أزورك في المنام ؟ ! »

ومثله :

ولقد قلتُ لعمرٍو بعدَ كتمانِي خريفاً  
« مَا يَرَى الظُّيُّ الَّذِي أَحْبَبْتُهُ حُبًّا عَنيفًا  
مَا يَرَى إِخْفَاقَ قَلْبِي فِي هَوَاهِ وَالْوَجِيفَا  
فَلَقَدْ طَالَ تَمَادِي ، وَقَدْ خِفْتُ الْحَتُوفَا ؟ »  
قال : « مَا يَخْفَى عَلَيْهِ ذَاكَ ، إِنْ كَانَ ظَرِيفًا »

وأما رقائق أوصافه للجمال ومواضع الحسن فلا تدخل تحت حصر . وهي غير المألوف من جناس وطباق وسائر ما هنالك من اللعب بالألفاظ ، وإنما هي في المعاني وبراعة التصرف فيها . وقد يكون مسبوقاً إليها ، ولكنه يضفي عليها من رقة حسه ومن ذوقه الفني للجمال ، فإذا هي غاية ما يُبْلَغُ إليه في هذا الباب :

دَمْعَةٌ كَاللُّوْلُو الرِّطِّ بِ عَلَى الْخُلْدِ الْأَسِيلِ  
قَطَرَتْ فِي سَاعَةِ الْبَيْتِ نَ مِنَ الطَّرَفِ الْكَحِيلِ  
إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْعَا شِقُّ فِي وَقْتِ الرَّحِيلِ

وَقَاتِنِ الْأَلْحَاطِ وَالْخُدِّ مُعْتَدِلِ الْقَامَةِ وَالْقَدِّ  
ظَلَّتْ وَعَيْنِي مِنْهُ فِي خُدِّهِ رَاتِمَةٌ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ  
فَاحْمَرَّ حَتَّى كَدْتُ أَلَا أَرَى وَجَنَّتَهُ مِنْ كَثَرَةِ الْوَرْدِ

## لغة العيون

على أن أبدع إجادات شاعرنا في صفة العيون . فهو يقط الفؤاد متنبه الملاحظة  
لمعانى العيون ودلالة النظرات . وإنه ليصور النظرة المعبرة بلحظة واحدة من لمساته  
فإذا هي معبرة عن حالة النفس وطبيعة الموقف واتجاه مجرياته ومعقباته جميعاً ،  
وإذا كل كلام بعدها إنما يحىء مصداقاً لها . ونذكر من الأمثلة هذا الاستهلال  
في صفة النظرة القاسية المتفضية :

مَرَرْتُ بِهِ فَكَلَمَنِي بِطَرْفٍ يُحَيِّلُ فِيهِ شَيْطَانٌ مَرِيدٌ  
فَقُلْتُ لَهُ « أَتَيْتُكَ مُسْتَجِيرًا بِوَصْلِكَ إِذْ أَضْرَبِي الصُّدُودُ »  
فَقَطَّبَ ثُمَّ قَالَ « تَنَحَّ عَنِّي فَدُونَ وَصَالِي الْأَمْرِ الْبَعِيدُ »

ومثل ذلك قوله في نظرة الخمار مرتابة متوجسة ، أوفى نظرة الساقية ذكية ناقبة :  
فَادْبَرَ كَالْمَزُورِ ، يَقْسِمُ طَرَفَهُ لَأَرْجِلِنَا شَطْرًا وَأَوْجِهِنَا شَطْرًا

من كف ساقية يستل ناظرها لدقة الفهم ما أوحى به الواحى  
ثم هذا الاختلاف بين نظرة القينة الوقاح الفاجرة ، ونظرة الجارية الناعمة  
الفاترة . ونظرة الغلام الحيّ الوجل :

تَجَمَّعَ فِيهَا الشَّكْلُ وَالزَّيُّ كُلُّهُ فَلَيْسَ يُوفَّى وَصْفَهَا قَوْلُ نَاطِقٍ  
فَطَانَةُ زَنْدِيقٍ ، وَلَحْظَةُ قَيْنَةٍ بَعَيْنِ الَّذِي يَهْوَى ، وَمُنِيَّةُ عَاشِقٍ

ضعيفة كَرَّ الطَّرْفَ تَحَسَّبُ أَنَّهَا حَدِيثُهُ عَهْدٍ بِالْإِفَاقَةِ مِنْ سَقَمٍ  
فَدَبْتُ مَنْ كَلَمَنِي لَحْظُهُ سِرًّا مِنَ النَّاسِ وَمَا يَنْطِقُ

أَوْ مَأَ بَعَيْنَيْهِ بِتَسْلِيمَةٍ وَقَلْبُهُ مِنْ وَجَلٍ يَخْفِقُ

وهذا الخطاب الصارخ الضارع يتوجه به الشاعر إلى صاحب هذه النظرة الساحرة التي تغلب عشاقها على أمرهم ، وتفضح ما يكتمونها من سرهم :

يَاسَاحِرَ الطَّرْفِ ! أَنْتِ الدَّهْرُ وَسُنَانُ سِرِّ الْقُلُوبِ لَدَى عَيْنَيْكَ إِعْلَانُ  
إِذَا امْتَحَنْتِ بَطْرَفَ الْعَيْنِ مُكْتَتِمًا نَادَاكَ مِنْ طَرَفِهِ بِالسَّرِّ تَبْيَانُ  
تَبْدُو السَّرَائِرُ إِنْ عَيْنَاكَ رَنَقَتَا كَأَنَّمَا لَكَ فِي الْأَوْهَامِ سُلْطَانُ  
مَالِي وَمَالِكَ ، قَدْ جَزَّأَتْنِي شَيْعَا وَأَنْتِ مِمَّا كَسَانِي الْحُبُّ عُرْيَانُ  
أَرَاكَ تَعْمَلُ فِي قَتْلِي بِلَا تَرَةٍ كَأَنَّ قَتْلِي عِنْدَ اللَّهِ قُرْبَانُ

وقد يكرر الشاعر هذا المعنى في صفة نظرة كهذه النظرة ، ولكنه لا يغفل عن مواضع الاختلاف التي تكون بين كل متشابهين مهما تقارب ما بينهما من المشابهة ، شأنه في ذلك شأن أهل التدقيق والتحقيق :

مُسْتَقِظُ الْأَحْظِ فِي أَجْفَانِ وَسُنَانِ قَبْلَتْ فَاهُ خِيَانِي بِرَيْحَانِ  
مُسْتَعْبِدُ الْأُمَانِي حَسَنُ مَنْظَرِهِ عَفُّ الضَّمِيرِ وَأَمَّا لَحْظُهُ زَانِ  
لَمْ تَتَّصِلْ بِعَيُونِ النَّاسِ لَحْظُهُ إِلَّا اسْتَوَى كُلُّ إِسْرَارٍ وَإِعْلَانِ

والمستقصى لما قاله هذا المتيّم العاشق للعيون في صفة العيون ، لا شك تجتمع عنده مجموعة منها كلها فأتى ساحر على حد قوله « رشاً صناعة عينه السحر » .  
إلا أن هذه العمومية لا تلبث من دقة الوصف أن تستبان فروقها فتتميز كل عينين ساحرتين بصفة من صفات الخصوصية ، وإذا نحن — آخر الأمر — في معرض من معارض الجمال فيه من صنوف العيون الجميلة ما لعله لم ينهيا للأكثرين الالتفات إلى خصائصه ومزاياه ، والبلوغ إلى كنهه ومعناه .

وغيرِ الشَّبابِ ، مُحْتَنِكِ السُّنِّ عَلَى جِيدِهِ مَنَاطُ التَّمِيمِ<sup>(١)</sup>  
وَهُوَ عَفَّ الْجُفُونِ فِي النَّظَرِ الْعَمْدِ حِذَاراً عَلَى فُؤَادِ النَّدِيمِ

يَا عَارِمَ الطَّرَفِ حَيْثُمَا نَظَرَا أَثَرٌ فِيهِ ، وَإِنْ رَأَى حَجَرَا

فَهَلْ عَلَى مَنْ قَتَلْتَ مِنْ حَرَجٍ أَمْ لَيْسَتْ تَدْرِي فُتُخِبَ الْخَبْرَا

يَا مَنْ لَهُ فِي عَيْنِهِ عَقْرَبُ فُكْلٍ مِنْ مَرٍّ بِهَا تَضْرِبُ

تُدْنِيكَ عَيْنَاهُ لَوْ تُتْلَحِظُهُ إِلَى شَفَا مَيْتَةٍ بَلَا أَجَلِ

وَقَاتِنٍ بِالنَّظَرِ الرَّطْبِ يَضْحَكُ عَنْ ذِي أَشْرٍ عَذْبِ

وَمُعْتَدِلٍ إِلَى بَشْطَرِ عَيْنٍ لَهُ مِنْ كَسْرِ نَازِلِهِ رَسُولُ

يَا حُسْنَهَا مِنْ بَنَانِ ذِي خَنْثٍ تَدْعُوكَ أَجْفَانُهُ إِلَى الرَّيْبِ

ولقد تجتمع هذه الصفات كلها ومعها الكثير غيرها في عينين اثنتين ، فلا يقف  
سحرهما عند معنى واحد من معاني السحر ، وهما من أجل هذا أحق العيون عند  
شاعرنا الخبير بأن يشبهها بالخر :

إِنْ كَانَتْ الْخَمْرُ لِلْأَلْبَابِ مَالِبَةً فَإِنَّ عَيْنَيْكَ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا

فِي مُقْلَتَيْكَ صِفَاتُ السَّحْرِ نَاطِقَةٌ ، بِالْأَلْفِظِ وَاحِدَةٌ ، شَتَّى مَعَانِيهَا

وإذا ذكرنا أن شاعرنا النواصي في خلاعته وانطباعه لإيحاء شهوته محب لكل  
ما فيه تأنت وتخنث ، من تكسر في المشية وترطيب في الكلام ، لم نعجب أن  
تكون أحب للمحافظ إليه ما كان فيه تفتير على حد قوله :

(١) المَنَاطُ : موضع التعليق . التَّمِيمُ جمع تَمِيمَةٍ وهى العوذة .



مُنْقَطِعُ الرَّدْفِ هَاضِمُ الحُشَا أَحْوَرُ فِي عَيْنَيْهِ تَفْتِيرُ  
وذلك ما يعبر عنه الشاعر الكوفي أحسن تعبير في قوله :

من كف ساهرة العينين شاطرة تربي على سحر هاروت وماروت  
لها نماويت الحاظ إذا نظرت فنار قلبك في تلك التماويت

وجملة القول أن شاعرنا في حبه للعيون وإدماحه النظرفيها والتلى بأفانين سحرها واستقراء معانيها ، صار لا تخفى عليه حركة من حركاتها ، ولا تشكل عليه مضامين نظراتها ، حتى لنراه — حين يجمعه والحييب مجلس حافل — مستغنياً عن لغة الكلام ، بما يجري بينهما من مخاطبة رمزية ، وما يتوافقان عليه من عدات خفية ، بلغة لا يعرفها إلا العاشقون ، ونعني بها لغة العيون . وفيها يقول :

وَحَفَحْتُ كَأَمَّهَا مُقَرَّطَةً      لَوْ مَنَى الْحَسَنُ مَا تَعَدَّاهَا  
تَجْمَعُ عَيْنِي وَعَيْنَهَا لُغَةً      مُخَالِفٌ لَفَظُهَا لَمَعْنَاهَا  
إِذَا اقْتَضَاهَا طَرَفِي لَهَا عِدَّةٌ      عَرَفْتُ مَرَدُودَهَا لَفَجْوَاهَا  
ذِي لُغَةٍ تَسْجُدُ الْغَاثُ لَهَا      أَلْفَزَهَا عَاشِقٌ وَعَمَّاهَا

### فتنة جديدة : الموسيقى والغناء

ولقد شاع في عصر التمدن الإسلامي إلى جانب الشعر وسيلة أخرى للتعبير عن الشعور بالجمال ، وهذه الوسيلة هي الموسيقى .

والتأمل في تاريخ الحضارة العربية لا يلبث أن يتبين أن انصراف القوم عن التصوير بانقضاء الوثنية أعقبه اهتمام متزايد بالألحان . فكان القوم كلما ارتقوا في الحضارة وأفادوا من ترف العيش لطافة الحس ، ارتقى تبعاً لذلك ذوقهم الجمالي ، وزاد طلبهم للفنون المعبرة عن الجمال .

وكان الأمر إبان الفتوحات في صدر الإسلام مقصوراً على اللحن الحسن في ترتيل القرآن والأذان وإنشاد الشعر ، فتمدّاه في العصر الأموي فالعباسي إلى إحكام فنون الموسيقى الصوتية والآلية لما كان من اختلاطهم بعد الفتوحات بالفرس والروم . والغناء — كما هو معلوم — قديم فيهما ، على حين لم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحدااء والنشيد . وكانوا يسمون النشيد في اصطلاحهم « النَّصْب » وهو غناء للعرب يشبه الحدااء إلا أنه أرق ، تغنيه الركبان والقداثم من القيان . وهو ثلاثة أقسام : الركباني ، والسناد الثقيل ، والهزج الخفيف . وإذا كان المتقدمون من فحول للغنين العرب وأكابرهم قد تعرفوا ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية<sup>(١)</sup> ، واقتبسوا من الضرب والغناء بالفارسية ، فإنهم كانوا يأخذون محاسن تلك النغم ويلقون منها ما يستقبحونه من النبرات ثم يصوغون على نحو ذلك . ولقد استعانوا فيما استعانوا به في تركيب الأنغام بالمؤلفات النظرية مثل كتاب بطليموس في اللحن الثمانية ترجموه في خلافة أبي جعفر المنصور ، وتقسيات إقليدس التي أَلَمَ بها إسحق الموصلي في رسالته المطولة في الغناء . على أن هذا الذي أفادوه ونقلوه يقوم إلى جانبه الكثير الواسع مما وضعوه وزادوا عليه ، حتى بلغ الفن الجديد أوجه في عصر هارون الرشيد ، فهو بلا مرأى العصر الذهبي للموسيقى العربية . وقد تعددت فيه مذاهب الغناء . فكان منها مدرسة إبراهيم الموصلي وابنه إسحق من أئمة الصناعة ذوى المعرفة الواسعة بها . والإحاطة بأصولها وفروعها ، والاطلاع على أسرارها ، والحذق بأدائها والقدرة عليها ، مع الغيرة الشديدة على صحتها والتزام قواعدها وتأديتها على وجهها . ويقابل هذا المذهب مذهب إبراهيم بن المهدي أخى الرشيد وكان أطبع الناس في الغناء وأحسنهم صوتاً ، كما كان من أعلمهم

(١) الأسطوخوسية معناها الأجرام السماوية . ولعلها إشارة إلى ما يزعمه اليونان من أن للأجرام السماوية في حركة دورانها أنظماً علوية .

بالنغم والوتر والإيقاعات ، إلا أنه مع علمه وطبعه ومعرفته كان يخرج في صناعته عن الغناء القديم ، ويحذف نغم الأغاني الكثيرة العمل حذفاً شديداً ، ويفنى على ما يشتهي ويلتذ . وكانت تساعد على بلوغ مواقع الرضا نداوة صوته وقوته وحلاوته . حتى لقد نسبوا إليه ما نسبته اليونان في أساطيرهم إلى أرفيوس ، فزعموا أنه غنى الخليفة الأمين مرة في موضع من بستان قصره مشرفاً على حَيْر<sup>(١)</sup> الوحش ، فكان إذا ابتداء يغنى صفت الوحوش إليه ومدّت أعناقها ، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رءوسها على الدكان الذي كان عليه . فإذا سكنت نفرت وبعدت حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها .

ونفتنم هنا فرصة الكلام عن إبراهيم ابن الخليفة المهدي لننوه بما كان في العصر العباسي من كثرة من دُونت لهم صناعة في الموسيقى والغناء من الأشراف والأعيان والأمراء ومن أكابر القواد والعلماء ومن أبناء الخلفاء والخلفاء أنفسهم . ونذكر من أبناء الخلفاء عُلَيَّة بنت المهدي ، وقد قيل إنه ما اجتمع في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة ، ويبلغ ما يؤثر لها من الأصوات ثلاثة وسبعين صوتاً . ومنهم أبو عيسى بن الرشيد وكان جيد الصناعة وله أغان منسوبة إليه ومعروفة به . ومنهم عبد الله بن موسى وكان من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء ، وكان له في الغناء صناعة حسنة وله أصوات مذكورة . ومنهم عبد الله ابن محمد الأمين وكان ظريفاً غزلاً يقول شعراً ليناً ، ويصنعه صناعة صالحة . ومنهم أبو عيسى بن المتوكل وقد جمع له صناعة مقدارها أكثر من ثلاثمائة صوت منها الجيد الصناعة ومنها المتوسط . ومنهم عبد الله بن المعتز وكان حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام عن النغم وعللها ، وله أصوات ظريفة الصناعة في شعره . وأما

(١) الحير : الحمى والبستان ، والمراد حظيرة الوحش .



الخلفاء فأكبر الظن أن ما نقل عنهم كان منهم قبل الخلافة، أمثال الواثق بالله وكان أحذق من غنى بضرب العود وكان يغنى في الشعر البليغ من محدث وقديم، وله مائة صوت صنعها ما فيها صوت ساقط. وكان المنتصر بالله حسن العلم بالغناء وكان إذا قال الشعر صنع فيه، وأمر المغنين بإظهاره، فلما ولي الخلافة قطع ذلك وأمر بستر ما تقدم منه، فلذلك لم تظهر أغانيه. ومنهم المعتز بالله وكان يغنى أصواتاً. ومنهم المعتمد على الله وهو ممن له يد في الغناء وصنعة حسنة، وقد قيل إنه جمع النغم العشر في صوت صنعه في شعر للريد بن الصمة وهو من جيد الصنعة ونادرها، وقد صنع ألحاناً في عدة أشعار سبق أن صنع فيها الفحول من القدماء والمحدثين فعارضهم بصنعتهم، فأحسن وشاكل وضاعى فلم يعجز ولا قصر ولا أتى بشيء يعتذر منه، وله أصوات تناهز مائة صوت.

والذى قصدنا إليه من تعداد هؤلاء ممن دُوت لهم صنعة في الغناء من أبناء الخلفاء ومن الخلفاء، هو أن نقرن هذه الحال بما كانت عليه الحال من قبل حين لم يكن يشتغل بهذا الفن غير الموالي والمخنثين، لنعلم مقدار ما ارتفع إليه قدر الغناء وما صار إليه من عظيم المكانة ووافر الحرية.

ولقد كان الغناء يستخف القوم ويهتاج مشاعرهم ويهز كياناتهم ويبلغ عندهم مبلغاً لم نألفه في طبائع غيرهم من أهل الحضارات التي أخذوا عنها. وحسب القارىء أن يتصفح من كتاب الأغاني أجزاء في صفة مجالس الغناء، ليرى كيف كان الطرب يأخذ من القوم مأخذه، وكيف كان يذهب بهم في بعض الأحيان مذاهب التولّ والجنون.

وقبل أن نمثل لهذه المجالس الخاصة، يحسن بنا أن نعرض هذه الصورة العامة التي يتمثل فيها روح الشعب ومبلغ ما كان عليه من الولوع بالغناء والنزوع إلى الطرب.



روى على بن الجهم أن بعضهم واقف عمرو بن أبي الكنات المديني المغني على جسر بغداد أيام الرشيد ، وأخذ يحدثه عن قدرة بعض من تقدم من المغنين على قلوب الناس . وكان ابن أبي الكنات تياهاً معجباً بنفسه ، فاندفع فغنى وهما على جسر بغداد ، وكان إذ ذاك على دجلة ثلاثة جسور معقودة . فانقطعت الطرق ، وامتلأت الجسور بالناس وازدحموا عليها ، واضطربت بهم حتى خيف أن تنقطع لتقل من عليها من الخلق .

ومن كانت حالهم على هذه الصفة في الطرق إذا سمعوا صوتاً ، لا غرو يكونون على ما وصفهم لنا صاحب الأغاني حين يستفزعهم ويغلب على عقولهم الغناء على الشراب من تخريقتهم لثيابهم ، وخروجهم منها أحياناً كما ولدتهم أمهاتهم ، وضربهم الحيطان والأساطين<sup>(١)</sup> برءوسهم ، وإكبابهم على المغني يقبلون رأسه وما بين عينيه ولا يكادون يبقون عضواً من أعضائه إلا قبلوه ، ثم لا يزالون كذلك في غناء وشراب ، وقد أخذ المغني يغني على أشد طبقة يتناهى إليها في العود ، والسامعون النشأوى في طرب شديد يخيل إليهم أنه خرق السقف ، وأن الحيطان تجاوبه ، فيتواجدون ويضجون بالاستحسان ويطلبون الزيادة حتى آخر الليل .

وفي قصور الخلفاء والأمراء لا يملك حتى غلمان الخدمة من الذهول عن أنفسهم إذا أجاد المغني في مجالس الغناء ، فلا يبقى منهم أحد إلا ترك ما في يديه ، وقرب من أقرب موضع يمكنه أن يسمع الغناء ، فلا يزال مصغياً إليه ، لاهياً عما كان فيه ، حتى إذا أمسك المغني ، رجعوا إلى التشاغل بما كانوا فيه .

أما الخلفاء أنفسهم فمنهم من كان يظهر للندماء والمغنين ، ومنهم من كان

ينصب بينه وبين الندماء ستارة فلا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمغنى والتذّه . وقد روى إسحق الموصلى فى كلامه عن خلفاء بنى أمية أنه كان منهم من إذا طرب ينقلب ويمشى ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد ، وذلك كله من خلف الستارة حيث لا يراه إلا خواص جواريه . وكان إذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو نغير طرب أو رقص أو حركة بزفير تجاوز المقدار ، قال صاحب الستارة : « حسبك يا جارية ! كفى ! إنتهى ! أقصرى ! » ، يوم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى .

وكان الخلفاء كلهم — أمويين كانوا أو عباسيين — سواء فى استفزاز الغناء لهم ، ولكنهم كانوا يتفاوتون فى سيطرتهم على أعصابهم وضبطهم لحركات نفوسهم . فكان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور إذا طرب ربما أراد أن يصفق بيديه فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حجر نساءه فيكون ذاك هناك . وكان الهادى فى مجلس الغناء يثب عن فراشه من الطرب ويشرب بالأرطال وهو قائم على قدميه . أما الرشيد فكان يلتزم أبهته ووقاره ، فإذا ملسكه الطرب تحرك حركة بين الحركتين فى القلة والكثرة . ويقول إسحق الموصلى عن الأمين : [ ما كان أعجب أمره كله ! فأما تبدله ، فما كان يبالى أين قعد ومع من قعد . وكان — لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب — خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا . وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أولها . وقد رأيت وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوقر زورق ذهباً . . ]

والموصلى يشير بذلك إلى إبراهيم بن المهدي عم الأمين . ولقد كان إبراهيم بغنى أحياناً فى شعر شاعرنا أبى نواس ، وقد غنى أيلة محمداً الأمين صوتاً فى مقطوعة النواسى التى يقول فيها :

يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِي الدَّمَنِ لَا عَلَيْهَا ، بَلْ عَلَى السَّكَنِ  
 سُنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أُحْيِيَتْ فَاسْتَكِنَ  
 ظَنِّي بِي مَنْ قَدْ كَلِفْتُ بِهِ فَهُوَ يَجْفُونِي عَلَى الظَّنِّ  
 رَشَاءٌ لَوْلَا مَلَاخِئَتُهُ خَلَّتِ الدُّنْيَا مِنَ الْفِتَنِ  
 يَا أَمِينَ اللَّهِ عِشْ أَبَدًا دُمُ عَلَى الْإِيَّامِ وَالزَّمَنِ  
 أَنْتَ تَبْقَى ، وَالْفَنَاءُ لَنَا فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنْ  
 تَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ قَامَ بِالْأَحْكَامِ وَالسُّنَنِ  
 سَنًا لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدُوا فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنْ  
 كَيْفَ تَسْخُو النَّفْسُ عَنْكَ وَقَدْ قُمْتَ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ

فقام إليه الخليفة عن مجلسه فقبل رأسه وأمر له بثلاثمائة ألف دينار . فقال له  
 إبراهيم : « يا أمير المؤمنين ، قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم »  
 فقال : « وهل هي إلا خراج بعض الكور

### الجواري المغنيات

ولما كانت دور الرقيق طالحة بالجوارى ، وقد حط من أثمانهن ما بلغت إليه  
 كثرتهن ، فقد فكر أصحاب المصلحة في الأمر أن يخصصوا صفوة من لديهم من  
 الجوارى — على حسب استعدادهن — بالتعليم وحسن الثقافة ، والتخريج في  
 صناعة من الصنائع المطلوبة أو فن من الفنون المحببة المرغوب فيها ، لترتفع بذلك  
 أقدارهن . ولقد كان من استتباب الدولة للمسلمين ، وتدفق الأموال إلى أيديهم ،  
 أن أفضت أحوالهم إلى الترف والقصف ، ووافق ذلك نهضة الغناء — وكان مهدها  
 في الحجاز في مكة والمدينة — بما دخل عليه من فنون الغناء العجمي والنغم الرومي

كما قدمنا . وبلغ افتتاحان القوم بالغناء العربي المنقول عن الفارسي أن كانوا يسمونه « الغناء المتقن » تمييزاً له عما ألفوه قبل من ساذج الغناء ، من حذاء ونشيد . وأول من اشتهرت من الجوارى بهذا الغناء المتقن « جميلة » . وقد أخذته اجتهداً لا إلهاماً ولا تعلماً . فقد كانت جارة لأبي جعفر سائب خاثر ، وهو أول الناقلين للغناء العجمي من أهل المدينة ، وأصله فارسي . وكانت الجارية تسمعه يغنى بالفارسية وكانت لا تفهم ما يقول . فأخذت تلك النغمات وبنت عليها ، فجاء غناؤها العربي أقرب إلى قلوب القوم . وحينئذ شاع أمرها وظهر ذكرها وقصدها الناس وجلست للتعليم ، فكانت الجوارى المتعاملات يكثرن عندها حتى كسبت لمواليها ما لم يخطر لهم ببال .

ونحب أن نورد هنا وصف خروج جميلة للحج ، لما في تفاصيل الوصف وملابسات حجبها من الدلالة الناطقة على ما كان للجوارى المغنيات من مكانة عند القوم ومبلغ ما كان لهن من أثر في إشاعة الجو الموسيقي وتنشيط الحركة الفنية . خرجت جميلة من المدينة فخرج معها حفل من المغنين والمغنيات والشعراء والأشراف ، منهم طويس والدلال ومعبد وابن عائشة من المغنين ، وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة والزرقاء من المغنيات ، ومن غير المغنين من الأشراف والشعراء ابن أبي عتيق والأحوص وكثير عزة ونصيب . وحجج معها من القيان مشيمات لها ومعظمت لقدرها خمسون قينة وجهن مواليهن معها . وقد تخير من خرجوا معها جميعاً في اتخاذ أنواع اللباس العجيب والهوادج والقباب . فلما قاربوا مكة تلقاهم من أهلها سعيد بن مسحج وابن سريج والغريص وابن محرز من المغنين ، وقيان كثيرة لم يسمين ، ومن غير المغنين من الشعراء والأشراف عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي والعرجي ، وخرج معهم أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم . فلما قضت حجبها سألها



المسكينون أن تجعل لهم مجلس غناء ، فاعتذرت فأقسم عمر بن أبي ربيعة على كل من كان في قلبه حب لسماع غناء « جميلة » إلا خرج معها إلى المدينة . فخرج معها جمع كثير . فلما قدمت المدينة تلقاها الناس والأشراف من الرجال والنساء فدخلت بأحسن مما خرجت . وخرج الرجال والنساء فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها ، وتوافد إلى منزلها الناس مسلمين . فلما مضى لمقدمها عشرة أيام ، جلست للغناء لمن قدم من أهل مكة وللناس مجلساً عاماً ، وقد غصت الدار . ودام المجلس أياماً ثلاثة فكانت تبتدىء ، ثم تدعو للغناء من كان حاضراً من المغنين والمغنيات وكلهم من المتقدمين المحسنين ، وكانت أحياناً تجلس للغناء والجواري جميعاً معها ، فتغنى على عودها وهن يضربن على ضربها ، فيضج السامعون من الطرب ، وتدمع أعين كثير منهم حتى يبلوا ثيابهم وتسمع زفراتهم .

ولقد نبغ من الجواري غير جميلة ومن ذكرنا معها خلق كثير فيما توالى من العصور . ولقد كان أصحاب الجواري في أول الأمر يعمدون إلى الصفر والسود ممن يقعد بهن قلة نصيبهن من إشراق الحسن وبياض البشرة ، فيدفعونهن إلى من يعلمهن ويخرجهن في الضرب بالعود والغناء ليكون ذلك أنفق لسوقهن . ويروى في ذلك أنه عرضت على الوليد بن يزيد جارية صفراء كوفية مولدة يقال لها سعاد ، فقال لها الخليفة : « أى شئ تحسنين ؟ » فقالت : « أنا مغنية » . فقال : « غنّينى » . فغنت ، فطرب الخليفة طرباً شديداً وقال : « يا غلام ، اسقنى » فسقاه عشرين قدحاً وهو يستعيدها . ثم قال لها : « ممن أخذت الغناء ؟ » . فقالت : « ربيت بالعراق فكان أهلى يحيثوننى بحنين قيطارحنى » . فدعا الخليفة تابعا له فقال : « اذهب فابتها بما بلغت ، ولا تراجعنى فى ثمنها » .

ولقد اشتهر بالغناء من الجواري المولّدات الصفر كثيرات منهن متيم الهاشمية

وقلم الصالحية وبذل ودنانير البرمكية وفيها يقول النواصي :  
 اللهُ مَوْلى دنانير ومَوْلأى بعينه مُضَبَّحى فيها ومُنْسأى  
 لقد كَحَيْتُ لَسَانى أَنْ أُبَيِّنَ بِهِ ، فما يُعَبِّرُ عَنِ غَيْرِ إِيْمَانى  
 لو كان زُهْدُكَ فى الدنْيا كزُهْدِكَ فى وَصْلِ مَسْثِيَةٍ بِلا شَكِّ على الماءِ  
 أما المغنيات الجوارى السود فأشهرهن خليدة المكية ، وقد أخذت الغناء عن  
 ابن مريج ومالك ومعبد ، وفيها يقول الشاعر :

فَتَنَّتْ كاتِبَ الأميرِ رباحٍ — يا لقومى — خُلَيْدَةُ المَكِّيَّةُ  
 ولم يلبث أصحاب التجارة فى الجوارى أن التفتوا إلى ما يكون فى الجمع بين حسن  
 الصوت وحسن الصورة مع الصنعة المحككة من فتنة لا تغالب . وهذه الفتنة التى  
 لا تغالب هى التى أنطقت النواصي بهذه المقطوعة فى صفة الجارية المغنية « حسن » :

طَمَلَةٌ خَوْذُ رَدَاحٍ هَامَ قَلْبى بِهَوَاها  
 قَدَّها أَحْسَنُ قَدَرٍ فَاسْأَلُوا مِنْ قَدِ رَأَها  
 ما بَرَّها اللهُ إِلَّا فِتْنَةً حِينَ بَرَّها  
 تَنثُرُ الدَّرَّ — إِذَا غَدَّ تْ عَلَيْنَا — شَقَّتْها  
 وأرى للعودِ زَهْواً حِينَ تَحْوِيهِ يَدَها  
 رَبَّما أَغْضَيْتُ عَنْها بَصَرى خَوْفِ سَناها  
 هِىَ هَمِّى وَمُنْأى لَيْتَنِى كُنْتُ مُناها

فكان ما كان من إقبال أصحاب هذه التجارة على الجوارى الحسان المثلثات  
 يدفعونهن إلى المعلمين من أهل الصناعة يتولونهن بالتعليم والتلقين وحسن التخريج ،  
 وقد وجدوا أنهم بهن أقدر ما يكونون على فتنة الشارين ، واستنزاف الأموال  
 الجسام من أهل الثراء منهم والمترفين .

ولقد كان لرجال الفن من هذه الحال فرصة مواتية ، فلم يقنعوا بما يكون للمعلم

من جمالة بل جعلوا إلى أنفسهم كذلك أمر التجارة . فكان منهم من يشتري بالثمن الذي لا حيف فيه ، مائتين من الدنانير أو ثلاثمائة ، ثم لا يزال بالجارية يعلمها حتى تخرج على يديه من المتقدّمات المحسنات ، فيتطلب فيها الألوف . وقد شاع ذلك وعظم الربح منه ، حتى كانت تعقد الشركة فيه كالذي كان بين يزيد حوراء وإبراهيم الموصلي ومما كان يذكر به إسحق الموصلي أباه مفاخرأ أنه أول من علم الجوارى الثمنات وأنه بلغ بالقيان كل مبالغ ورفع من أقدارهن . وفي الشكوى من ذلك يقول ابن عيَّينية الشاعر :

لا جزى الله الموصليّ أباً إلا      حاقّ عتّاً خيراً ولا إحسانا  
جاءنا مرسلًا بوحي من الشّي      طانٍ ، أغلى به علّينا القيانا  
من غناء كأنّه سكراتُ ال      حُبُّ يصبّي القلوب والآذانا

وكان الخلفاء والأمراء وسائر وجوه الدولة وأهل اليسار يتنافسون في اقتناء هؤلاء الجوارى مع ما كان من اشتطاط أصحابهن في سومهن . وكان الخليفة وإن امتلأت خزائنه يتعاضمه أحياناً الثمن المطلوب ، فيطلب حظه أو ينصرف عن شراء الجارية مع ما هو عليه من شدة الرغبة فيها .

ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء العدد العديد من المغنيات . إلا أن الغناء لم يكن مقصوراً على النوابع المشهورات ، بل كان شائعاً بين عامة الجوارى ، وكان منهن في قصور الخلفاء ما لا يحصى كثرة وخاصة في مقاصير هارون الرشيد . فقد ورد فيما ورد من أخبار الرشيد أن أهديت إليه جارية في غاية الجمال ، فأراد الاحتفال بذلك فأخرج كل قينة في داره واصطبج ، فكان من حضر من جواريه المغنيات والخدمة في الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر ، واتصل الخبر بالملسكة زبيدة أم جعفر فعظم عليها ذلك كله ، فأرسلت



إلى عُلَيَّة تشكو إليها . فردّت أخت الخليفة على رسالتها : « لا يهولنك هذا ،  
فوالله لأردنه إليك . وقد عزمتُ أن أضع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على  
جوارى فلا تبقى عندك جارية إلا بعثت بها إلىّ ، وألبسين أنواع الثياب ليأخذن  
الصوت مع جوارى » ففعلت الملكة ما أشارت به . فلما جاء وقت صلاة العصر  
لم يشعر الخليفة إلاّ وعُلَيَّة أخته وزبيدة زوجه قد خرجتا إليه من مقاصيرهما معهما  
زهة ألفى جارية من جواريهما وسائر جوارى القصر عليهن غرائب اللباس  
وكلهن فى لحن واحد هزج صنعته عُلَيَّة :

مُنْفَصِلٌ عَنِّي وَمَا قَلْبِي عَنْهُ مُنْفَصِلٌ

يَا هَاجِرِي الْيَوْمَ : لِمَنْ نَوَيْتَ بَعْدِي أَنْ تَصِلَ

فطرب الرشيد ، وقام على رجله حتى استقبل الملكة ومعها أخته وهو على  
غاية السرور يقول : « لم أر كاليوم قط » . ثم التفت إلى خادمه مسرور :  
« يا مسرور ، لا تبقيين فى بيت المال اليوم درهماً إلا نثرته » فكان ما نثر يومئذ  
سنة آلاف ألف درهم . وما سمع بمثل ذلك اليوم .

### بيوت القيان

و يجدر بنا التنبيه إلى أن الجوارى المغنيات فريقان ، خاص وعام ؛ فكان الكبراء  
وأهل النعمة والثناء قلما يوجد أحد منهم إلا وهو يقتنى لنفسه جارية أو أكثر  
من الجوارى المغنيات تغنيه على الشراب حين يخلو فى حريمه . وقد ذكروا من  
جوارى الخليفة يزيد بن الوليد حباة وسلامة . وذكروا أنه أدخل الرجال عليهما  
السماع . وكان يزيد إذا طرب شق بُرْده ثم يقول : « أطير ! » فتقول حباة :  
« لا نظر ، فإن بنا إليك حاجة » . على أن الغالب عند الدعوة أن تغنى الجارية  
المدعوين من وراء ستارة .



وإلى جانب هذه المغنية الخاصة قامت مغنيات شائعات ، فانتشرت في المدن الكبرى دوراً عامة للسمع يسمونها « بيوت القيان » . وكان الذين يقومون على أمر هذه البيوت نخاسين ، وغير نخاسين ، والقيان على كل حال قيانهم ، ومرجع ما يدرّ عليهن من مال إليهم .

وذكر صاحب الأغاني من بيوت القيان في بغداد بيت « حرب بن عمرو الثقفي » النخاس ، وكانت له جارية مغنية ، وكان الشعراء والكتّاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون إليها يسمعونها وينفقون في منزله النفقات الواسعة ويبرّونه ويهدون إليه . وكان بالكرخ نخاس يكنى أبا عمير ، وكان له جوار قيان لهن ظرف وأدب . وكان عبد الله بن محمد البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها « عبادة » ويكثر غشيان منزل أبي عمير من أجلها ، فضاق ضيقة شديدة ، وكره أن يقصر عما كان يستعمله من برّهم فتعلم الجارية بضيقته ، فانقطع عن منزل أبي عمير ونفسه تنازعه إلى زيارتها . وقد ذكر في شعره ما كان يتمناه وقتئذ لكي تمكن الزيارة المرموقة من غير هدية للجارية المعشوقة :

لو تشكّى أبو عمير قليلاً لأتيناك من طريق العيادة  
ففضينا من العيادة حقاً ونظرنا في مقلتي « عبّاده »

وأجلّ من اشتهر من هؤلاء المقينين عبد الملك بن رامين في الكوفة ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيعة ، وكان يغشى بيته الكثيرون من أصحاب الإمارة وفتيان أهل الكوفة وظرفائهم وأدبائهم . وينافس جوارى ابن رامين في الكوفة جوارى زريق بن منيع مولى عيسى بن موسى ، وكان شيخاً كريماً يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حي .

ولقد ذاع في الكوفة وغيرها ما كان يقوله ويتغنّى فيه محمد بن الأشعث في

جوارى ابن رامين . وكان ملازماً لابن رامين ولجاريته سلافة الزرقاء فشهّر بذلك ، وكان رجلاً قصافاً ، فلامه قومه في فعله فلم يحفل بمقاتلهم . وطال ذلك منه ، حتى رأى بعض ما كره في منزل ابن رامين ، فمال إلى سحيفة جارية زريق بن منيع ولازم بيته ، وقال في ذلك شعراً تناقله الناس جاء في معالمة :

با ابن رامين بحثُ بالتصريح في هوائى سحيفة ابن منيع  
قينة عفة ، ومولى كريم ونديم من الباب الصحيح  
ربعى ، مهذب ، أريحى يشتري الحد بالفعال الرّيح  
نحن منه في كل ما نشتهى الأنفُس من لذة وعيش نجيح  
عند قوم من هاشم في ذراها وغناء من الغزال المايح  
في سرور وفي نعيم مُقيم قد أمنا من كل أمر قبيح

فلم يدع ابن رامين شريفاً بالكوفة إلا تحمّل به على ابن الأشعث أن يرضى عنه ويعاود زيارته ، فلم يفعل ، حتى تحمّل عليه بمحمد بن بشر الجحواني وكان يومئذ على الكوفة ، فكلّمه فرضى الشاعر عن ابن رامين ورجع إلى زيارته ، ولم يقطع منزل زريق .

وهذا الحرص على ترضى الشعراء وذوى اللسن شاهد على دراية أصحاب هذه المنازل بفن الدعاية . فلم يكن شيء أفعل في لفت الأنظار إلى المنزل من منازل القيان ، وادعى إلى كثرة من يغشونه ، من تغزل الشعراء بقيانه وإشاعة الفتنة بهن . والكساد رهين بإغفال الشعراء لهن أو اشتغالهم بغيرهن . وأما البلاء كل البلاء ففي تعرضهن لقييح الهجاء مثل قول شاعرنا النواسى في قيان موسى النخاس :

إذا ما كنت عند قيان موسى فعند الله فاحتسب السرورا

خَنَافِسُ حَوْلَ عِيدَانِ قُعُودٍ يُطَوَّلُ قُرْبُهَا الْيَوْمَ الْقَصِيرَا  
 إِذَا غَنَيْنَ صَوْتًا قِيلَ مَوْتًا وَهَجَنَ بِهِ عَلَيْكَ الزَّمْهَرِيرَا  
 وليس أدل على ما كان عليه بعض « أصحاب القيان » في ذلك العهد من سعة  
 الثروة وشرف الجاه من وصف الجاحظ لهم على هذه الصفة :

[ ومن فضائل الرجل منهم أن الناس يقصدونه في رحلة بالرغبة كما يقصد بها  
 للخلفاء والعظماء . فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يُحْمَل على الصلة ، ويهدى  
 له ولا تُتَقَضَى منه الهدية ، وتبيت العيون ساهرة والدموع ساجدة ، والقلوب واجفة  
 والأكباد منصدعة ، والأمانى واقفة على ما يحويه ملكه وتضمه يده مما ليس في  
 جميع ما يباع ويشترى ويستفاد ويقتنى بعد العُقْد النفيسة . فمن يبلغ شيئاً من  
 الثمن ما بلغت « حبشية » جارية عَوْن مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .  
 وهم يرسلون إلى بيت مالسكها بصنوف الهدايا من الأطعمة والأشربة ، فإذا جاءوا  
 حصلوا على النظر ، وانصرفوا بالحسرة ؛ ويجتنى مولاها ثمرة ما غرسوا ، ويتملى  
 به دونهم ، ويكفى مؤنة جواريه .

فالذى يقاسيه الناس من عَيْلَةِ العيال ويفكرون فيه من كثرة عددهم وعظيم  
 مؤنتهم وصعوبة خدمتهم ، هو عنه بمعزل ، لا يهتم بغلاء الدقيق ولا عوز السويق  
 ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ ، قد كُفِيَ حسرته إذا نزر ، والمصيبة فيه إذا  
 حمض ، والفجعة به إذا انكسر . ثم هو يستقرض إذا أعسر ولا يرد ، ويسأل  
 الخواج فلا يُمنع ، ويُلقَى أبدأ بالإعظام . يُكْنَى إذا نودى ، ويُفَدَّى إذا دعى ،  
 ويحجى بطريف الأخبار ، ويطلع على مكنون الأسرار ، ويتفاير الرباطاء عليه ،  
 ويتبارون في بره ، ويتناجون في وده ، ويتفاخرون بإيثاره .

ولا نعلم هذه الصفة إلا للخلفاء ، وهم مع ذلك يعطون فوق ما يأخذون ،  
 وتحصل بهم الرغائب ، ويدرك منهم الغنى . والمقنن يأخذ الجواهر ويعطى العراض



ويفوز بالعين ويعطى الأثر ، ويبيع الريح الهابة بالذهب الجامد وفلذ اللجين  
والمسجد . وبين المرابطين وبين ما يريدون منه خرطُ القتاد ؛ لأن صاحب  
القيان لو لم يترك إعطاء المربوط سؤله عفةً ونزاهة لتركه حذقاً واختباراً ، وشحاً  
على صناعته ودفعاً عن حريم ضيعته ، لأن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة  
نقص تسعة أعشار عشقه ، ونقص من برّه ورفده بقدر ما نقص من عشقه .

فما الذى يحمل المقيّن على أن يهبك جاريته ، ويكسر وجهه ، وبصرف  
الرغبة عنه ؟ ولولا أنه مثرٍ فى هذه الصناعة الكريمة الشريفة لم يسقط الغيرة عن  
جواريه ، ويعنى بأخبار الرقباء ، يأخذ أجرة البيت ، ويتناوم قبل العشاء ،  
ويعرض عن الغمرة ، ويغفر القبلة ، ويتغافل عن الإشارة ، ويتعامى عن المكاتبة  
ويتناسى الجارية يوم الزيارة ، ولا يعاتبها عن المبيت ، ولا يفض ختام سرها ، ولا  
يسألها عن خبرها فى ليلها ، ولا يعبأ بأن تقفل الأبواب وتسدل الحجاب ، وبعد  
لكل مربوط عِدَّةً على حدة ، ويعرف ما يصلح كل واحد منهم كما يميز التاجر  
الخضرة والحنطة والشعير . فمن كان ذا جاه من الربطاء اعتمد على جاهه ، وسأله  
الحوائج ، ومن كان ذا مال ولا جاه له استقرض منه بلا عِينة<sup>(١)</sup> ، ومن كان من  
السلطان بسبب كُفَيْتٍ به عادية الشُّرط والأعوان ؛ وأُعلنت فى زيارته الطبول  
والسراني<sup>(٢)</sup> .

فأى صناعة على وجه الأرض أشرف منها [ .

ومما يدلّ على كثرة المختلفين إلى بيوت القيان ، وشيوع تعشق الفتيان لهن ،  
ووقوعهم فى حبائلهن ، حتى صار ذلك آفة العصر ، ما نجده كذلك فى حديث  
الجاحظ عنهن ، قال : [ ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون

(١) العينة : القرض بفائدة .

(٢) السرائى : جمع سرائى ، آلة من الملامى ينفخ فيها .



النفوس إليهن ، لأنهن يجتمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض . فإن رَفَمَت القينة عقيرة حلقها تغنَّى حدَّق إليها الطرف ، وأصغى نحوها السمع . فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي للقلب ما أفاد منها قبل صاحبه . فيتوافيان عند حبة القلب ، فيُفرغان ما وعياه . فيتولد مع السرور حاسة اللمس . فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قط ولم تؤدَّ إليه الحواس مثلها . فيكون في مجالسته للقينة أعظم الفتنة [ .

ونحن لا نجد بين من قرأنا لهم من كُتَّاب ذلك العصر الحافل بطوائف الناس وأنواع المشاهدات وأحوال المعاش ، دارساً لطبائع المجتمع أصدق من الجاحظ فِرَاسة ، وأوسع خبرة ، وأبلغ تصويراً . فمن التقصير في حقه وحق القراء ألا نتخذ هادياً ودليلاً طوال بحثنا في طبيعة القيان ، فإننا ولا شك بعد تحليله لخالهن وإيضاحه القول فيهن ، أفهم لما ورد لأبي نواس من أشعار فيهن وأخبار معهن . قال الجاحظ : [ إن القينة لا تكاد تخلص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ، لأنها مكتسبة ومحبولة على نَضْب الحباله والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتها . فإذا شاهدها المشاهد — في مجلس السماع في بيت المقيّن — رامته بالاحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الفناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصَّبابَة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست بأن سحرها قد تقلب فيه ، وأنه قد تغفل في الشرك ، تزيّدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمت أن الذي بها أكثر مما به منها . ثم كاتبت تشكو إليه هواها ، وتقسم له أنها مدّت الدواة بدمعها وبلت السَّحَاء <sup>(١)</sup> بريقها ، وأنه سَبَحَهَا وشجوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها . وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه ، ولا تنوى انحرافاً

(١) السَّحَاء : ما يشد به الكتاب .

عنه ، ولا تريده لماله بل لنفسه ، ثم جعلت الكتاب في سدس طومار<sup>(١)</sup> ،  
 وختمته بزعفران ، وشدته بقطعة زير<sup>(٢)</sup> ، وأظهرت سره عند مواليها ليكون  
 المغرور أوثق بها ، وألحت في اقتضاء جوابه . فإن أجيبته عنه ادّعت أنها قد  
 صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته . ثم تجنّبت عليه الذنوب  
 وتغايّرت على أهله ، ووصمته النظر إلى صواحبها ، وسقته أنصاف أقداحها ،  
 وجمّسته بعضوض تفاحها ، ومنحته من ريحانها ، وزوّدته عند انصرافه خصلة من  
 شعرها ، وقطعة من مرطها ، وشظية من مضربها<sup>(٣)</sup> ، وأهدت إليه في النيروز  
 نكة وسكرأ ، وفي المهرجان خاتماً وتفاحاً ، ونقشت على خاتمها اسمه ، وأبدت  
 عند العثرة اسمه . ثم أخبرته أنها لا تنام شوقاً إليه ، ولا تنهأ بالطعام وجداً به ،  
 ولا تمل - إذا غاب - الدموع فيه ، ولا ذكّرت إلا تنفصت ، ولا هتفت باسمه  
 إلا ارتاعت ، وأنها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه . وربما قادها  
 هذا التمويه إلى التصحيح ، وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تآتى إلى بيته  
 فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها إن استحل ذلك منها . وربما جعلت  
 الصناعة لترخص عليه ؛ وأظهرت العلة والتألب على الموالى ، واستباعت من  
 السادة ، وادّعت الحرية احتيالاً لأن يملكها ، وإشفاقاً عليه أن يجتاحه كثرة  
 ثمنها ، ولا سيما إذا صادفته حلو الشائل ، رشيق الإشارة ، عذب اللفظ ، دقيق  
 الفهم ، لطيف الحس ، خفيف الروح . فإن كان يقول الشعر ويتمثل به أو يترنم  
 كان أحظى له عندها .

على أن أكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف ما يحويه  
 المربوط والانتقال عنه . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على  
 أنهم يتحامون الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك

(١) الطومار : الصحيفة . (٢) الزير : الكتان . (٣) المضرب : ريشة العواد ونحوها .

للآخر بالأخرى ، وتتميز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سرّها والآخر علانيتهما ،  
وتوهمه أنها له دون الآخر ، وأن الذى تُظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لم عند  
الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرّعها بالباقيين ،  
وحرصها على الخلوة به دونهم .

وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكتسب  
الأهواء وتُتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لذن مولدها إلى أوان  
وفاتها بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين  
الخلعاء والمجان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جد ، ولا يُرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا  
صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت  
فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضرب  
بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكرُ الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب  
عن عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق  
والصبوة والشوق والغُلمة . ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبةً عليها تأخذ  
من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش ، وإنشادهم مراودة ، وهى مضطرة إلى  
ذلك فى صناعتها .

فلو لم يكن لإبليس شركٌ يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوى  
بها ، إلا القيان ، لكفاه [ .

وللقارىء فيما قدّمناه من كلام الجاحظ فى الجوارى والقيان أبلغ المقدمات  
وأوفى الشروح لما نقرأ فيهن من تغزلٍ ماجن وغير ماجن ، فى مجاميع الأدب  
ودواوين الشعر . ونكتفى هنا ببعض الشواهد من ديوان أبى نواس .

فنبداً بهذه القطوعة ، وهى بدعة من بدائع التصوّر ، وزخارف الخيال ، زعم



فيها الشاعر أنهم كشفوا الخدر في جنح الليل عن وجه القينة التي كانت معهم  
فتبجح حسناتها في الظلام كالصبح المنير ، فإذا الليل يُدبر قبل انتصافه ، وعلى إثر  
إدباره أقبل الصبح قبل وقت مجيئه فالنبي ضياء الحسن شاعراً فأدبر كذلك .  
وكانت من ذلك فترة لا تحسب من الليل ولا تحسب من النهار ، كما خيلت  
لشاعرنا وقتئذ سمادير الشكر والخمار<sup>(١)</sup> :

وليل لنا قد جاز في طوله القدر      كشفنا له عن وجه قينتنا الخدرا  
فولّى برُعبٍ قبل وقت انتصافه      كأنّا ألحنا عند ذاك له الفجرا  
وأقبل صبحٌ قبل وقت مجيئه      فأدبر مرعوباً وقد كسى الدعرا  
وظنّ بأن الله أحدث بعده      ضياء منيراً أوقضى بعده أمرا  
فبتنا بلا ليلٍ ، وقمنا بلا ضحى      كأنّا نصبناها لذاك وذا سحرا

ثم نسوق قوله في الجارية « رحمة » وما يظهره مولاها من غيرة :

حسبي جوى إن ضاق بي أمرى      ذكرى لرحمٍ وهى لا تدرى  
وأخاف أن أبدى مودتها      فيغار مولاها ويستشري<sup>(٢)</sup>

وأما ما كان يختلف بين القيان وعشاقهم من الرسل والرسائل ؛ وما كانوا  
يتهادون به من الخواتم عربوناً على الهوى وميثاقاً على حفظ المودة ، فنه الشيء  
الكثير في شعر أبي نواس :

رسولى قال : « أوصلت الكتابا      ولكن ليس يعطون الجوابا »  
فقلت : « أليس قد قرعوا كتابي ؟ »      فقال : « بلى » فقلت : « الآن طابا  
فارجو أن يكونوا هم جوابي      بلا شك إذا قرعوا الكتابا »  
أجد لك المنى يا قلب كيلا      تموت على غماء واكتتابا

(١) السادير : ما يتراعى للإنسان عن السكر وغشى الدوار وما أشبه ذلك .

(٢) يستشري : يلج في الغضب .



« أين الجواب وأين ردُّ رسائلِي ؟ » قالت : « ستنظرُ ردَّها من قابلٍ »  
 فمدتُ كَفِّيَ ثم قلتُ : « تصدَّقوا » قالت : « نعم ، بجاريةٍ وجنادِلٍ »  
 ومعلوم أن الكتب كانت تحتم على طرفيها بمدَّ طيِّها ، فكان يُداف الطين  
 أو المداد ويطبع على صفح القرطاس أو على جسم لبن كالشمع حتى ترسم صورة  
 الختم عليه . ومن ثمة كثرت لشاعرنا أمثال هذه الأبيات :

يَا لَيْتَ زَجَرَ العانِفِيَّةِ حاضِرِ      إِذْ حِرْتُ بَيْنَ كِتَابِهَا وَالطَّابِعِ  
 خَتَمْتُ عَلَى الشَّكْوَى إِلَى بَخَاتِمِ      نَقَشْتُ عَلَيْهِ « رَبِّ هَجْرٍ نَافِعِي »

زَجَرْتُ كِتَابَكُمْ لَمَّا أَنَا      بِزَجْرِ سَوَائِحِ الطَّيْرِ الْجَوَارِي  
 نَظَرْتُ إِلَيْهِ مَخْزُومًا بِزِيرٍ      عَلَى ظَهْرِ وَمَخْتُومًا بِقَارِ  
 قُلْتُ الظَّهْرُ أَحُورُ قُرْطُقُ      يَشَابُهُ شَكْلُهُ شَكْلَ الْجَوَارِي  
 وَقُلْتُ الزَّيْرُ مَلْهَاءُ لُمْلُهُ      وَطِينُ الْخَتَمِ مِنْ زِقِّ الْعَقَارِ  
 فَجِئْتُ إِلَيْكُمْ طَرَبًا وَشَوْقًا      فَمَا أَخْطَأْتُ دَارَكُمْ بَدَارِ  
 فَكَيْفَ تَرَوْنَ زَجْرِي وَاعْتِيَافِي ؟      أَلَسْتُ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْكِبَارِ (١)

وكان من شيوع المراسلة واتصال الرقاع الغرامية بين القيان وعشاقهن ، أنه  
 حين توفي محمد بن حماد عشيق عريب المغنية وصار أبوه إلى منزله ينظر إلى  
 تَرِكَتِهِ ، أخرج إليه فيما أخرج سَقَطَ مَخْتُومٍ ، فلما فُضَّ الخاتم وفتحته إذا فيه رقاع  
 من المغنية إليه ، وقد رُئِيَ الوالد يتصفحها ولا يملك أن يبتسم .

ومما يروونه في الرسول وتجميئه أن جارية ممن أحبهن أبو نواس بعثت برسول  
 إليه فعادت الرسول وبوجهها أثرُ ريبة . فسألها الجارية ، فزعمت أن أبا نواس  
 جَسَّهَا ، فعاتبته الجارية فأرسل إليها يقول :

(١) الزجر والاعتياف : التكهن .

زَعَمَ الرَّسُولُ بَأَنِّي جَمَشْتُهُ كَذَبَ الرَّسُولُ وَقَالِقِ الْأَصْبَاحِ  
شَغَلِي بِحَبِّكَ عَنْ سَوَالِكٍ، وَلَيْسَ لِي قَلْبَانِ : مُشْتَغِلٌ وَآخِرُ صَاحِ  
وَأَمَاتِهِادِي الْخَوَاتِمِ وَالنَّقْشِ عَلَيْهَا وَالتَّرَاسُلِ بِهَا فَمِنْ الْأَمْثَلَةِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ :  
وَوَدَّعْتُهَا صُبْحًا وَلَمْ أُنْسَ صَدَّهَا وَقَدْ بَادَلْتَنِي خَاتَمًا بِسَوَارِ

كُتِبَتْ عَلَى فَصِّ خَاتَمِهَا « مَنْ مَلَّ مَحْبُوبًا فَلَا رَقْدًا ! »  
فَكُتِبَتْ فِي فَصِّ لِيْلُغِهَا « مَنْ نَامَ لَمْ يَعْقِلْ كَمَنْ سَهَدَا »  
ثم هذه المقطوعة التي يرجو فيها صديقه أبا جعفر أن يرد إليه خاتمه ، لأن  
الجارية المشوقة ألفتة في رسالاته إليها واهتمته حين اتخذ إليها خاتماً غيره :

فَدَتِكَ نَفْسِي يَا أَبَا جَعْفَرٍ جَارِيَةٌ كَالْقَمَرِ الْأَزْهَرِ  
تَعَلَّقَتْنِي وَتَعَلَّقَتْهُنَّ طِفْلَيْنِ فِي الْمَهْدِ إِلَى الْحَشْرِ  
كُنْتُ وَكَانَتْ نَهَادِي الْهَوَى بِخَاتَمَيْنَا غَيْرَ مُسْتَنَكِرِ  
حَبَسَتْ لِي الْخَاتَمُ مِنِّي وَقَدْ سَلَبَتْنِي إِيَّاهُ مُذْ أَشْهَرِ  
فَأَرْسَلْتُ فِيهِ فَعَالَطَتْهَا بِخَاتَمٍ مِنْ فَضَّةٍ أَخْضَرَ  
قَالَتْ : « لَقَدْ كَانَ لَنَا خَاتَمٌ أَحْمَرُ يُهْدِيهِ إِلَيْنَا سَرِي  
لَكِنَّهُ عُلِقَ غَيْرِي فَقَدْ أَهْدَى لَهَا الْخَاتَمَ لَا أَمْتَرِي  
كَفَرْتُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ إِنَّ أَنَا لَمْ أَهْجُرْهُ فَلْيُنْبِرْ  
أَوْ بَاتَ بِالْخُرْجِ مِنْ تَهْمَتِي إِيَّاهُ فِي خَاتَمِهِ الْأَحْمَرِ »  
فَارْدُدْهُ ، تَرُدُّ وَصَلَهَا إِلَيْهَا قُوَّةُ عَيْنِي يَا أَبَا جَعْفَرِ  
فَأَنَّنِي مُتَّهَمٌ عَنْدهَا وَأَنْتَ قَدْ تَعْلَمُ أَنِّي بَرِي

ويبقى بعد هذا جميعه أن نعرض لما وقع الاتفاق عليه من أن القينة لا تُخلص  
لأحد ولا تُؤتى إلا من باب طمع . فَمَا يَتَّصِلُ بِهِ بِأَبِي نَوَاسٍ فِي هَذَا الصَّدَدِ ،

والأمثلة عليه صنوف وافرة العدد ، ما يروونه عن قينة من قيان العراق كان قد هويها الشاعر وعلق بقلبه حبها ، فكان يختلف إليها فتُظهر له أنها لا تحب غيره ، وكان مع ذلك كلما جاءها وجد عندها فتى جديداً يجلس إليها . فقال الشاعر أحياناً في ذلك مطلعها :

ومُظهرةٍ لخلقِ الله نُسكاً وتلقاني بدَلٍ وابتدامِ  
أتيتُ لبابها أشكو إليها فلم أخلصُ إليه من الزحامِ

## فن الرقص

ولقد استتبع التقدم في الفناء والموسيقى تقدماً مثله في الرقص حتى صار من الفنون التي وضعت لها القواعد وشرعت لها الأصول وحتى اتفق على مستلزماته جميعاً من حيث خلقة الراقص أو الراقصة وتركيب بنيته ، إلى روح الرقص ولطافة معناه وخفة حركته ، ومن أولى مبادئه إلى أدق أسرار صناعته . ومن ذلك قولهم إن الرقاص يحتاج في خلقة إلى طول العنق والسوالف ، والتماثل في الأعطاف ولينها ، ورقة الخصر وحسن أقسام الخلق ، ولدونة المفاصل ، ولطافة الأقدام ولين الأصابع وإمكان ثنيها في نقلها ، وسرعة الانتقال في الدوران ، مع سهولة مخرج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية . ويراعى في الثياب عند الرقص انتفاخها واستدارتها ، وفي المناطق تدليها وتهدها . وأما ما يُحتاج إليه في طباع الرقص فخفة الروح : وحسن الانطباع على الإيقاع ، وأن يكون في طالبه مرح إلى التدبير في رقصه والتصرف فيه . وأما ما يُحتاج إليه في عمل الرقص فحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما ، واستواء ما تعمل يمين الرجل ويسراها حتى تكون في ذلك واحداً . ولما كان لوضع الأقدام ورفعها وجهان ؛ أحدهما أن يوافق بذلك الإيقاع ، والآخر أن يتنبط



به ويتباطأ ، فأكثر ما يكون الراقص فيه أمكن وأحسن أن يكون مترافعاً برجله فيما يوافق الإيقاع ، ومتسافلاً بها عند التباطؤ والتثبط .

وقد كانت للخليفة الأمين حفلات للرقص كان يديرها بنفسه في أبيهاء القصر الملكي ، فإذا الصحن مملوء شمعاً من الشمع الكبار حتى كأن الصحن من ذلك في نهار ، وإذا الدار مملوءة غلماناً ووصائف بحلل الوشى والجوهر ، وإذا الجوارى والمختشون يزمرون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول والسرنايات ، والجميع في شيء واحد . وقد اتخذ بعض الجوارى والغلمان أقبيةً تعلقت بأطرافها تماثيلٌ خيل مسرجة صفارٍ من خشب وهم يحاكون بها امتطاء الخيل ، وكانوا يكرون ويفرون ويتثاقفون ، ومحمد في وسطهم يرتكض رقصاً في الكرج<sup>(١)</sup> ، ولقد شهد مخارق وإبراهيم بن المهدي إحدى هذه الحفلات . وكان الخليفة وجه من جاء بهما ركضاً . وقد جاء في وصفهما لما مرّ بهما في تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءهما رسول الخليفة فقال : « قوما في هذا الباب مما يلي الصحن ، وارفعاً أصواتكما مع السرناي أين بلغ ، وإياكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه » . فأصغياً للفناء المردّد :

هذي « دنانير » تنساني وأذكرها      وكيف تنسى محبباً ليس ينساها  
والله ، والله ، لو كانت - إذا برزت -      نفس المتيم في كفيه ألقاها<sup>(٢)</sup>

فانطلقا يشاركان ، ومازالا يشقان حلقهما مع السرناي ، ويتبعانه حذراً من أن يخرجوا عن طبقته أو يقصرا عنه . والخليفة الأمين يحول في الكرج ما يسأله ، يدنو إليهما مرة في جولانه ، ويتباعد مرة . ويحول الجوارى بينهما وبينه حتى الغداة . ولم يكن الرقص مقصوراً على المحترفين دون غيرهم فإنه كان فيما يبدو شائعاً

(١) الكرج : معرب كره - بضم الكاف وفتح الراء المشددة - بالفارسية وهو تمثال مهر من خشب يلعب به .

(٢) الأبيات للشاعر المغني عقيد مول صالح بن الرشيد وكان مشغولاً بدنانير مولا يحيى ابن خالد البرمكي وقد خطبها فردته مع استشفاعه إليها وأشعاره فيها .



عند الجميع في حال الطرب مع الفارق في الكم والكيف بين مجاهرة مسرفٍ وخلوة معتدل . كما يستدل مما قصّه جعفر البرمكي على أبيه الشيخ يحيى في بعض ما كان يخبره به من خلوته مع هارون الرشيد ، وذلك في سياق خبره كيف أسمعه الخليفة غناء أخته عُلّية . قال ما خلاصته : [ يا أبت ، أخذ بيدي أمير المؤمنين ، وأقبل في حُجْرِهِ يَخْتَرِقُهَا حتّى انتهى إلى حجرة مغلقة ، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخل بيده ، ثم صرنا إلى رواق ففتحته ، وكان في صدر الرواق مجلس مغلق ، فعد على باب المجلس ونقر الباب بيده نقرات ، فسمعنا حسّاً ثم أعاد النقر ثانية فسمعت صوت عود ، ثم أعاد النقر ثلاثة فغنت جارية ما ظننت — والله — أن الله عز وجل خلق مثلها في حسن الغناء وجوده الضرب . فقال أمير المؤمنين بعد أن غنت أصواتاً : « غنى صوتي » فغنته أبياتاً . فطربت والله طرباً هممت معه أن أنطح براسي الحائط . ثم قال : « غنى . فغنت :

طال تكذّبي وتصدّقي لم أجدْ عَهْداً لمخلوقِ  
 إن ناساً في الهوى غَدَرُوا حَسَنُوا نقض الموائيق  
 لا تراني بَعْدَهُمْ أبداً أَشْتَكِي عشقاً لمعشوق

فرقص الرشيد ورقصت معه ] .

### الجواري الأدبيات

والملاحظ فيما تقدم أن الغناء كان في جيد الشعر ومعظمه لأعيان الشعراء الأقدمين والمحدثين . وقد استوجب هذا تعليم الجواري وتخريجهن في الأدب وما يتصل به من العلوم اللسانية ، حتى كان منهن أدبيات مذكورات ، وكان يغالي بأنماهن مغنيات كنّ أو غير مغنيات . وكان طلبهن منظوراً فيه إلى طيب المجالسة ومتعة الحديث مع الجنس اللطيف .

ومن ذلك ما كان من الرشيد في شأن عنان جارية الناطفي . وكانت عنان صفراء جميلة الوجه شَكَلَة ذكية ماجة مليحة الأدب . وقد شاع صيتها في بغداد بأنها أسرع النساء بديهة في الشعر . وبلغ الخليفة خبرها ، فلهج بذكرها حتى شق ذلك على زبيدة أم جعفر ، وأرسل الرشيد في طلبها من الناطفي ، فأبى أن يبيعها بأقل من مائة ألف دينار . فقليل له على سبيل الموافقة إن الخليفة يعطيه ما يطلب على أن يأخذ الدينار بسبعة دراهم ، فامتنع الناطفي . وغضب الخليفة أشد الغضب من نعتته حتى لقد قال « والله لولا أنني لم أجُر في حكم قط متعمداً ، لجعلت على كل جبل منه قطعة ! ومالي في جاريته من أرب غير الشعر » . ثم لم يلبث الخليفة من لهجه بها ورغبته في سمرها أن أمر بأن تحمل إليه . ويروي الرواة أنها دخلت مجلسه في هيتها ، فقال لها الرشيد : « ويلك ! إن هذا قد اعتاص <sup>(١)</sup> على في أمرك » . فقالت : « ما منعك أن توفيه وترضيه ؟ » فقال : « ليس يقنع بما أعطيه » . وأمرها بالانصراف . وتصدَّق الناطفي حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم . ولم تزل عنان في قلب الرشيد حتى مات مولاه الناطفي . فلما مات بعث الرشيد مسروراً الخادم ، فأخرجها إلى باب الكرخ ، وأقامها على سرير ، وعليها رداء سندی قد جلاها . فنودي عليها فيمن يزيد . وكان الخليفة قد شاور الفقهاء في ذلك إذ كان على مولاه دين ، فأشاروا ببيعها . وكانت تقول وهي على المصطبة « أهان الله من أهانتني ، وأرذل من أردلني ! » فوكرها مسرور بيده . وبلغ بها المزايدون مائتين وخمسين ألف درهم أخذت في وفاء الدين .

ومن أجل عنان هذه كانت دار النطاف في حياته حافلة المجلس ، ما بين وامق لها محب ، وناظر إليها متعجب ، ومستفيد متعلم ، وهي في المجلس زينته ؛ معتصبة على رأسها بعصابة ظريفة مكتوب عليها :

(١) اعتاص : اشتد وامتنع .

الكُفْرُ والسحرُ في عيني إذا نظرتُ      فاغْرُبْ بعيْنِكَ - يا مغرُور - عن عيني  
فإنَّ لي سيفَ لحظٍ لستُ أغمده      من صنعة الله ، لا من صنعة القَيْنِ<sup>(١)</sup>  
وكان لا ينشدها أحدٌ شعراً إلا أجازته على الفور ، فيستحسن الحاضرون  
بديعتها ، وسرعان ما يستفيض من ذلك الخبر بعد الخبر ، فيلهج الناس بها حتى لم  
يكن في بغداد أكثر من مريديها . وكان منهم شاعرنا أبو نواس وأبان اللاحق ،  
وأبو نضير الشاعر المغني ، ولهم غزل فيها ومساجلات معها تناقلها الرواة ، ونكتفي  
منها بهذه الأغنية التي قالها فيها أبو النضير :

أنا والله أهْوَكَ      وأهْوَكَ وأهْوَكَ  
وأهْوَى قبلةً منك      على بَرْدِ ثُنَايَاكَ  
وأهْوَى لك ما أهْوَى      لنفسى ، وكفى ذاكِ  
فهل ينفعني ذل      لك يوماً حين ألقاكِ  
أنا والله أهْوَكَ      وما يشعر مولاكِ  
فإياكِ بأنْ يَعْلَمَ ،      إِيَّاكَ وإِيَّاكَ

ولقد روى بكر بن حماد الباهلي الشاعر — وفي رواية أخرى مروان  
ابن أبي حفصة — أنه لما انتهى إليه خبر عنان ، وأنها ذكرت للخليفة ، وما قيل  
من أنها أشعر الناس ، جعل يتحين الفرصة إليها ، فلقيه الناطق وكان يعرفه ،  
فضرب على عضده وقال : « هل لك فيما سنج من طعام وشراب ومجالسة عنان ؟ » .  
فقال الباهلي : « ما بعد عنان مطلب » . فلما أتينا الدار ، سبق صاحب الدار فدخل  
فقال لعنان : « هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم » . فقالت . « لا والله ،  
إني كسلانة » . فحمل عليها بالسوط ، ثم قال للباهلي : « ادخل » . فدخل ودفعها  
يتحدّر كالجمان في خدها ، فطعم الشاعر بها ، فقال أجيزي :



هذى عنانٌ أُسْبِلْتُ دمعَها كالدرِّ إذ يَنْسَلُ من خَيْطِهِ

فقالَت مسرعة :

فليتَ من يضرِبُها ظالماً تَجِفُّ كَفَاهُ على سَوَطِهِ

ثم جعل ينشدها البيت بعد البيت في شتى الأغراض ومن مختلف الأوزان والقوافي فلا تعجز مرة عن الإجازة مع الإجادة .

ولقد كان لعنان مجالس يروون خبرها مع جماعة الشعراء المجان أمثال شاعرنا النواصي ، وداود بن رزين الواسطي ، والحسين بن الضحاك الأشقر الخليع ، والفضل الرقاشي ، وعمرو الوراق ، والحسين الخياط ، وإسماعيل القراطيسي ، ورزين الكاتب أخى دعبل بن علي الخزاعي ، وكانت تمضي معهم أحياناً إلى سوق الكرخ تنادهمهم ، وتشارك في مطارحاتهم الشعرية في صفة ما هم فيه ، فلا يعفون ولا تعف عما يستدعيه الوصف من لفظة فاحشة وكلمة عوراء ولقد كان شرف البدء لأبي نواس في بعض هذه المطارحات المجونية . ولا بأس من إيراد مقطوعته فهي أقولها نكراً وأهونها شراً :

ألا قوموا إلى الكرخِ	إلى منزلِ خمارِ
إلى صهباءِ كالمِسكِ	لدى جُونةِ عَطَّارِ (١)
وَبُسْتانٍ له نهرٌ	لدى نخلٍ وأشجارِ
فأطعمكم به لحماً	من الوحشِ وأطيارِ
فإن أحببتُم لهواً	أتيناكمُ بمِزمارِ
وإن أحببتُم وضلاً	فهذى ربةُ الدَّارِ

وأخبار عنان مع شاعرنا أبي نواس أكثر وأحفش من أن نأتي على ذكرها .  
قال الشاعر الماخن كثيراً ما كان يمضي إليها فتقع بينهما معابشات كلامية يمنع عن

(١) الجُونة : سلة مغطاة بالأدم تكون عند العطارين .



مثلها الحياء لو كان في أحدهما بقية حياء . ولكم حاول - وعندها وجوه أهل بغداد - تحجيلها فلم تحجل عن رد المقال المقذع بأقذع منه ، فقد كانت وقاحاً جريئة لا تبالي ما قالت . وكان إذا وقع بينها وبينه شر ، دسّت إليه سفهاء الكرخ والعيارين فصاحوا به وعططوا عليه . وجملة القول أن أبا نواس لاقى فيها توأمة أو نصفه الثاني المشا كل له .

ولقد تغزل أبو نواس بها ، ولعله رسم في هذا الغزل أصدق صورة لعنان ولغيرها من القيان في ذلك العصر :

قد قلتُ قولاً فاسمعي ذاكمُ	منى ورُدَى مثله يا عِنانُ
إني لأهواك وإني جَبانُ	أفرقُ، من علمي بفذر القيان
يصلن من وأصلنه خُدعةً	بكسرة الطرف ومزح اللسان
لست أرى وصالك أو تحلفي	ألاّ تخُوني ، وتقي بالضمان
أو فذّرني وصلي جاهلاً	يلقي من الغيرة فيك الموان

### صنع الأصوات في شعر الخمریات

وكان الغناء في حضرة الخلفاء والرؤساء يتناول ما نظمه فيهم الشعراء من مديح ، كما كان يتناول غير ذلك من الأغراض حتى ما يستجد من شعر الرثاء ، ومن ذلك ما رواه إسحق الموصلي من دخوله يوماً دار الوراق بالله حفيد الرشيد وسماعه صوت عود من بيت وترنماً لم يسمع أحسن منه . فلما دخل على الوراق وعرف منه الأمير مبلغ إعجابه بما سمع ، قال : « يا غلام ، هات العود . وأعط إسحق رطلا » وضرب الأمير وغنى في شعر لأبي العتاهية بلحن صنعه فيه :  
أضحت قبورهم من بعد عزّتهم تسني عليها الضبا والحرّ جف السيلُ

لا يدفعون هواماً عن وجوههم كأنهم خشبٌ بالقاع مُنجدِل  
 على أن أكثر الغناء كان في شعر الغزل الرقيق للمتقدمين والمتأخرين . وقد  
 كانت مقطعات أبي نواس في الغزل أنفق عند من لهم ولم بالأهزاج من المغنين .  
 وقد غنى سليم بن سلام يوماً بين يدي الرشيد ثلاثة أصوات من المهرج ولأء ، منها  
 صوت في هذه المقطوعة لأبي نواس :

أصبحَ قلبي به نُدوبُ      أُنْدَبُه الشَّادِنُ الرَّيْبُ  
 تمادياً منه في التَّصَابِي      وقد علا رَأْيِي المَشِيبُ  
 أَظُنُّ ذَاتِقاً حِمَامِي      وَأَنَّ إِمَامَه قَرِيبُ  
 إذا فَوَّادَ شَجَاهُ حَبٌّ      فَقَلَمَا يَنْفَعُ الطَّيِّبُ

والشواهد كلها متواترة متناصرة على أن الرشيد كان شديد الإعجاب بما كان  
 بجوده أبو نواس ويحتفل له من عيون الشعر وقلائده المختارة . وهذا الشعر النواصي  
 يتوافر له من حسن السبك وانسجام النظم وحلاوة النغم ما يجعله — غير مدافع  
 ولا منازع — في المرتبة الأولى من الشعر الغنائي . ولكن الواقع أنه لم يغنَّ في  
 شعره بمجلس الرشيد إلا في القليل النادر . ولعل ذلك لما كان من كراهة الوزير  
 جعفر البرمكي له وانحرافه عنه أيام دولته ، ثم ما كان وقتئذ وبعثذ من تعصب  
 إسحق الموصلي إمام المغنين عليه . ولقد كان إسحق ينصر القديم في الموسيقى وفي  
 الشعر . وقد رأينا فيما تقدم إنكاره لما كان يحدثه إبراهيم بن المهدي في الغناء  
 القديم من تغيير في صناعته وتجديد لطريقته . ومثل هذا كان موقفه من شاعرنا  
 الجدد أبي نواس ، فهو لا يرضاه ولا يقول بتقدمه ولا استحسان شعره مهما أنشده  
 القوم من جيد قوله . ولقد جمع إسحق الموصلي إنكاره للتجديد في الموسيقى  
 وإنكاره للتجديد في الشعر في سياق واحد في خبره عن غناء إبراهيم بن المهدي في

أبيات أبي نواس التي يمدح بها الخليفة محمداً الأمين، إذ يقول في سياق خبره مانصه:  
 « غنى إبراهيم بن المهدي محمداً الأمين صوتاً لم أحده ، في شعر لأبي نواس  
 لم أره » . وقد كان إسحق يذهب في تعصبه على أبي نواس ألا يعدّه شيئاً ،  
 لأنه على حدّ احتجاجه « كثير الخطأ ، وليس على طريق الشعراء » . ولقد كان  
 أبو الحسن على بن يحيى يجاذبه في أبي نواس وينازله فلا يحفل بذلك ، وأنشده  
 أبو الحسن قصيدة من أبلغ الشعر النواصي وهي التي مطلعها :

وخيمة ناطورٍ برأس مُنيقةٍ تهمّ يداً من رامها بزليلٍ

فما هس لها ولا قبلها . فقال أبو الحسن : « والله لو كانت لبعض الأعراب  
 المتقدمين لكانت في أعيان الشعر عندك ولجعلتها أفضل شيء سمعته قط » .  
 ثم إن إسحق الموصلي إلى جانب تعصبه للأوائل كان في نفسه شيء من  
 أبي نواس . ونحن إذا ذكرنا أن إسحق كان يقول الشعر وينسبه للعرب  
 ويتغنى فيه كقوله :

لَفَظَ الخَدُورُ إِلَيْكَ حُوراً عَيْنَا      أَنْسَيْنَ مَا جَمَعَ الْكِئَاسُ قَطِينَا  
 فَإِذَا بَسَمْنُ فَعَنْ كَحَبِّ غَمَامَةٍ      أَوْ أَقْحُوَانِ الرَّمْلِ بَاتَ مَعِينَا  
 وَأَصْحٌ مَا رَأَتْ الْعَيُونُ تَحَاجِراً      وَلَهْنٌ أَمْرَضُ مَا رَأَيْتَ عُيُونَا  
 فَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْوُجُوهُ أَهْلَةٌ      أَقْمَرْنَ بَيْنَ الْعَشْرِ وَالْعِشْرِينَا  
 وَكَأَنَّهُنَّ إِذَا نَهَضْنَ لِحَاجَةٍ      يَنْهَضْنَ بِالْعَقَدَاتِ مِنْ يَبْرِينَا

نقول إذا ذكرنا هذا ، وذكرنا معه ما يقال من أن أشعاره كثيرة وكلها في  
 هذا النوع ، فلا نحسبنا نعدّ مبالغين متحاملين إذا زعمنا أنه لم يكن يخلو في تعصبه  
 على أبي نواس من الحسده . ويشهد بذلك مقاله وقد ذكر قومٌ عنده أبا نواس  
 فأفرطوا في مدحه وتقديمه ، فقال محققاً لا يكاد يمسك على ما في نفسه منه : « ما



ظننت أنى أعيش إلى زمان أرى شعراى نواس ينفق فيه هذا النفاق . ولقد رأيت في طبقة هو أخسهم إذا حضروا » . ثم أردف وقد همدت وقدة غيظه وامتلكت زمامه وثاب إليه حلمه : « وإن له على ذلك للشئ بعد الشئ مما يحسن فيه » .

على أن مجالس المنادمة لم تلبث أن أشاع المغنون فيها الغناء بالخمريات ، ومنها خمريات أبى نواس . حكى أبو عكرمة أنه دخل إلى دار أبى عيسى بن المتوكل فلم يكن أحسن منها بناء ولا أظرف فرشاً ولا صباحة وجوه ، فكث حيناً ثم أتوا بطعام لم ير أكثر منه ، ثم حانت منه التفاتة وكان معه المشدود المغنى فإذا هو بزنين وديس ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء . فلما رفع الطعام وجيء بالشراب جلسوا للغناء . فكان يبتدىء أحدهم باللحن فيغنى الثانى ثم الثالث والجميع بلحن واحد وقافية واحدة . وكان مما غنوه من هذا القبيل مقطوعات ثلاث لأبى نواس ، وهذه مطالعها :

يَا دِيرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأُكْبَرِاحِ مِنْ يَضْحُ عَنْكَ فَإِنِّى لَسْتُ بِالصَّاحِى

دَعِ الْبَسَاتِينَ مِنْ آسٍ وَتُقَّاحِ وَأَعْدِلْ هُدَيْتَ إِلَى ذَاتِ الْأُكْبَرِاحِ  
يَا طَيْبَهُ وَعَتِيقُ الرِّاحِ تُخَفِّهُمُ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الطَّاسَاتِ رَخْرَاحِ

لَا تَحْفَلَنَّ بِقَوْلِ اللَّائِمِ اللَّاحِى وَاشْرَبْ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ مَشْمُولَةِ الرِّاحِ  
كَأَمَّا إِذَا انْحَدَرَتْ فِي حَلْقٍ شَارِبَهَا أَغْنَاكَ لِأَلَاؤِهَا عَنْ ضَوْءِ مِصْبَاحِ  
مَا زِلْتُ أَسْقَى حَبِيبِى ثُمَّ أَلِثْمِهِ وَاللَّيْلُ مُلْتَحِفٌ فِي نَوْبِ سَيَّاحِ  
حَتَّى تَفْنَى وَقَدْ مَالَتْ سَوَالِفُهُ « يَا دِيرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأُكْبَرِاحِ »

والظاهر أن الغناء فى « يا دير حنة من ذات الأ كبراح » كان كثير الشيوع .



فقد حكى جعظة في زيارته لدير حنة في حاشية إبراهيم بن المبرأ أنه حين فرغوا من الأكل هناك وجلسوا للشراب غنّاهم بشعر أبي نواس المتقدم .  
 وكان أكثر ما يكون التغنى بخمريات شاعرنا في المجالس الخليعة وفي الحانات على حد قول الثرواني الخليع في حانة دير مارت مريم :

دع الأيام تفعل ما أرادت	إذا جادت بدمان وكاس
بمارت مريم والصحن فيه	حدّ يفتان من ورد وآس
وظبي في لواحظ مقلتيه	نُعاس من فتور لا نُعاس
وخيل لا يحول عن التصابي	ذكور للمودة غير ناس
ومحتضن لطنبور فصيح	يفنّيني بشعر أبي نواس

## آلات الطرب وأنواع الملامى

وكانت آلات الطرب وأنواع الملامى المعروفة للقوم في ذلك العصر كثيرة ، وأكثرها أخذوه عن الفرس والأنباط والروم والهند . فمن المعارف — وهى الملامى الوترية — العود والمزهر والكران والبربط والجُنك والونج والصنج والكنارة والطنبور والدريج والربابة والقيثارة . ومن آلات النفخ المزمار والناى والدّناى وهو الناي المزدوج والشّرناى والصفارة والقصابة والشّبابة والزّمخر والبوق . ومن الملامى ذات التصدية الطبل والدّف والكوبة والكبرّ والكوس والنقارة والصفافات والسّنج<sup>(١)</sup>

(١) السنج : جمع صنجة ويقال صنجة وبالسين أفصح من اتصاد وهى بالفارسية كفة الميزان . وظاهر أن المراد بها الصفيحة المنورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب ، وقد ورد هذا المعنى في المعاجم العربية للصنج . وفى رأينا أن تكون كتابته بالسين لينصرف معنى الصنج إلى النوع المقصود به في العياد بدلا من أن يقال « الصنج من الصغر » و « الصنج ذو الأوتار » لتفرقة ، لاسيما واللفظان معربان وفى التزام أصلهما امتناع اللبس .

وكانوا يزاجون بين أنواع الملاحى على غرار الفرس ، فيتخذون مع العود الناي ، ومع الطنبور الدناى . ومع الطبل السرناى ، ومع الصنج السنج .  
وفى مصاحبة الناي للعود يقول النواسى :

فاشرب- هُديت- وغنَّ القومَ مُبتدئًا على مُساعدة العِبدانِ والنَّاءِ  
وغنَّى ، قد أجابَ العودُ شائقةً . وحركَ النَّاى مُنى بعضَ وشواسى

وكان الغنى يحذق مع الغناء آلة من الملاحى يغنى عليها . فكان سائب خائراً من الأوائل الأقدمين يوقع بالقضيب ، وكان طويس ينقر بشف معه مربع ، ثم غلب أن يضرب المغنون بالعود حين يغنون . وكان منهم من يمارسون هذه الملاحى جميعاً فيضربون بالعود ويوقعون بالقضيب وينقرون بالدف على هوام وكما يتفق لهم .

ولقد يكون الغنى مع جودة غنائه وحسن صنعتته أحد الضراب الموصوفين للتقدمين . بيد أنه لم يلبث أن ظهر التخصص فى أيام الرشيد ، فكان يغنيه إبراهيم الموصلى على ضرب نابغة العوادين منصور زلزل وكان يززل المجلس بحسن نغمة . وكان من المصاحبين له فى مجالس الرشيد برصوم الزامر وكان أبرع الناس زمراً بنأى حتى لكانه فى فيه ينطق بلسان آدمى ، وكان أمر الايقاع إلى جعفر الطبال أحسن من أوقع على الطبل والكوبة . وقد جعل الرشيد للمغنين والملمهين مراتب وطبقات : فكان إبراهيم الموصلى وهو أشدهم تصرفاً فى الغناء ، وإسماعيل ابن جامع وهو أحلام نغمة ، ومنصور زلزل الضارب ، فى الطبقة الأولى . والطبقة الثانية سليم ابن سلام وعمر و الغزال ومن أشبههما ، والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير . ويكثر فى شعر أبى نواس ذكر الملاحى ولا سيما العود . وشاعرنا يذكره ذكر المحتفل به ، المقدم له ، المغالى بقدرة :

فاستنطق العودَ قد طال السُّكوتُ به . ان يَنْطِقَ اللهوُ حتى يَنْطِقَ العودُ  
فالعود عند القوم أجلّ الملاهي خطراً وأبلغها في النفوس أثراً ، وما يزال العود  
إلى هذه الغاية صاحب الشأن الأول في تحت الغناء العربي . وقد جاء في الأساطير  
أن الأصل في اختراعه أن « ملك بن متوشلح » لما مات ابنه وكان يحبه حباً شديداً  
لم يدفنه ، وعلقه بشجرة حياءه ، فتقطعت أوصاله ، ولم يبق منه غير الفخذ والساق  
والقدم والأصابع . فأخذ هذا الوالد الناك كل خشباً فرقّه وألصقه ، فجعل صدر  
العود كالفخذ ، وعنقه كالساق ، ورأسه كالقدم ، والملاوى كالأصابع ، والأوتار  
كالعروق . ثم ضرب به وناح عليه ، فنطق العود . وإلى هذه الأسطورة ترجع  
بعض التشابه في قصيدتي أبي نواس الرائيين :

ومُسْمِعَةٌ جَاءَتْ بِأَخْرَسٍ نَاطِقٍ	بغير لسانٍ ظلَّ يَنْطِقُ بالسَّحَرِ
لُتَبْدَى سِرّاً العاشقين بصوته	كما تنطق الأقلامُ تَجْهَرُ بالسَّرِ
تَرَى فَخِذَ الألواحِ فيها كأنَّها	إلى قَدَمٍ نِيطَتْ ، تَضِجُ إلى الزَّمِ
أصابعُها مخضوبةٌ وهي خمة	تَخْتَمُنَ بالأوتارِ في العسر والبُسْرِ
إذا لَحِقَتْ يوماً لوى إصبعٌ لها	فتحكى أنينَ الصبِّ من حُرقة الهَجْرِ <sup>(١)</sup>

وخادِلٍ من جوارى الحى يُسَعِدُها	أصواتٌ مُخْتَلِفٍ من وَقْعِ أَوْطَارِ <sup>(٢)</sup>
من بين بَمٍّ إلى مَثْنَى ومثلثِ	وما خلا ذاك من أصواتِ أوتارِ
نِيطَتْ إلى بَدَنِ كالخَلْقِ ليس له	رُوحٌ ، ولكنه من تَحْتِ نَجَّارِ
أناهُ في غَيْضَةٍ ، فاخْتارَ جَيْدَهُ	وظلَّ يُنْحَى له قَطْعاً بِمِنْشَارِ <sup>(٣)</sup>
مَعْقَرَبُ الرَّأْسِ كالْمِسْراجِ، صَنَعَتْهُ	سَحَرٌ ، وما مَسَّهُ تَعْقِيدُ سَحَّارِ

(١) لحقت الأوتار : ضمرت . (٢) الخادل : الممتلئة الساق المستديرة .

(٣) الفيضة : الأجمة .



تَمَّتْ مَلَاوِيهِ حَتَّى خَلَتْ خِلْقَتَهَا أَصَابِعاً خُرَّتْ مِنْ مِفْصَلٍ جَارٍ  
يَحْكِي صَدَاهُ مُجِيدَ الْقَوْلِ إِذْ نَطَقَتْ مِنْهُ اللُّغَاتُ عَلَى طَبَلٍ وَمِزْمَارٍ

وقد عرف القوم العידان الفارسية والهندية ، على أن أكثر ما اتخذوه كان على صنعة عیدان الفرس . وكان غناء الفرس بالعيدان والصنوج ، ثم أخذوا عن أهل الری وطبرستان والديلم الطنابير ، وكان غناؤهم بها ، وأخذت الفرس منذ ذلك الحين تقدّم الطنبور على كثير من الملاحی حاشا العود .

ولم يكن شاعرنا من هواة السماع فحسب ، بل كان يمارس الضرب بالعود منذ حداثة سنه . قال أبو القشیر : « قلت الشعر وأنا غلام وأبونواس غلام ، وكنا جميعاً نضرب العود » فلما أن غلبت على أبي نواس الخلاعة وكثر غشيانه لجالسها حُِبِبَ إليه كذلك الضرب بالطنابير . ولقد كان من الأشياء القلائل التي خلفها أبونواس ووجدت في بيته بعد وفاته عود وطنبور . ومعلوم أن الغناء في الأرمال والأهزاج وما جرى مجراها من الأصوات المرقصات من غناء الطنبورين . وقد جاء في أخبار حَكَمِ الوادی أنه كان أهزج الناس ، وقد مضى على عادته يغني الأهزاج في آخر عمره ، فلامه ابنه وقال « أبعد الكبير تغني غناء المخنثين ! » . وهذه صفة مجلس سماع من مجالس الطنابير في شعر أبي نواس :

فَلَمْ نَزَلْ يَوْمَنَا وَلِيلَتَنَا نَقْرَأُ عَلَى السَّطْحِ بِالطَّنَائِيرِ  
حَتَّى رَأَيْنَا السَّوَادَ مُنْحَسِرًا وَدَارَتِ الشَّمْسُ فِي الْمَقَاصِيرِ  
وَحَانَ مِنَّا صَلَاتُنَا لِضَحَى قُمْنَا نُصَلِّيْ بِغَيْرِ تَكْبِيرِ

### المسرحية النواسية

والآن وقد نظرنا في الخمریات واحدة بعد أخرى ، نجدنا في حقيقة الواقع نذكرها حين نذكرها على أنها خمرية واحدة كبرى ، وذلك أنها مع اختلافها



في الوزن والقافية مشتركة أتم المشاركة وأخصها في الروح والمعنى . ثم لا تزال هذه الحرية تلح علينا بما فيها من المناظر المؤثرة القوية ، حتى لتتمثل آخر الأمر في خواطرننا على هيئة مسرحية . والمسرحية التي نحن بصددنا منظومة على الطريقة الإبتاعية المدرسية ، لاتفاقها — من تلقائها دون كد ولا تكلف جهد من واضعها — مع دستور المسرح القديم من حيث وحدة المكان والزمان والحادث . فالمكان لا يعدو « الحانة » . والزمان لا يتجاوز الأربع والعشرين ساعة « من الغبوق إلى الصبح » وأما الحادث فمداره « الشرب حتى السكر » وما يتصل بذلك من ملاسبات وما ينتهي إليه من معقبات .

وهذه المسرحية — واتكن مسرحية غنائية — تتألف من مقدمة وجيزة ، وثلاثة مشاهد أو لوحات ، وخاتمة وجيزة .

فترى في المقدمة أبا نواس على رأس عصابة من الحُجَّان وهم يطرقون باب الحان في ساعة متأخرة من الليل . فيهب الخمار ومسرحته في يده ، فينظر من كوة الباب ويدور بينه وبين أبي نواس حوار كأبرع ما يكون الحوار المسرحي ، تتكشف لنا من خلاله طبائع الأشخاص وخصائص صفاتهم ودخيلة نياتهم . ويمتحن أبو نواس ما عند الرجل من الخمر ويذوقها ، ويسأل عن مبلغ إحكامها وعقبها ، فإذا اطمأن إلى جودة الشراب شأن الحاذق الشريِّب ، انتقل يستعلم عن الشادن الساقى استعمال عاشق مريب .

طَرِبْتُ إِلَى خَمْرِ وَقَصَفِ الدَّسَاكِرِ	ومَنْزِل دَهْقَانٍ بِهَا غَيْرِ دَائِرِ
بَفْتِيَانِ صَدَقٍ مِنْ سَرَاةِ ابْنِ مَالِكٍ	وَأَزْدِ عُثْمَانَ ذِي الْمُلَا وَالْمُفَاخِرِ
فَلَمَّا حَلَلْنَاهَا نَزَلْنَا بِأَشْمَطِ	كَرِيمِ الْمُحْتِمَا ، ظَاهِرِ الشَّرْكَ ، كَافِرِ
لَهُ دِينَ قَسِيْسٍ ، وَتَدْيِيرُ كَاتِبِ	وَإِطْرَاقُ جَبَّارٍ ، وَالْفَافِظُ شَاعِرِ
فَحَيَّا وَبَيَّا ، نَمِ قَالَ لَنَا « ارْبَعُوا	نَزَلْتُمْ بِنَا رَحْبًا بِأَيْمَنِ طَائِرِ »

فقلنا له « إِنَّ الْمُدَامَ غَذَاؤُنَا      وَأَنَا أُولُو عَقْلٍ وَأَهْلُ بَصَائِرٍ »  
 فجاء بها قد أَنَهَكَ الْغَمُ جَسَمَهَا      وَأَوْجَعَهَا فِي الصَّيْفِ حَرُّ الْهَوَاجِرِ <sup>(١)</sup>  
 فقلتُ لها لَمَّا أَضَاءَ سَنَاوُهَا      عَلَى صَخْنٍ كَأْسٍ - قَدْ عَلَا الْكَفَّ - زَاهِرُ:  
 « أَيُّنِي لَنَا - يَا خَيْرُ - كَمْ لَكَ حِجَّةٌ »      فَقَالَتْ « لِحَاكِ اللَّهِ ، لَسْتُ بِذَاكَرِ  
 شَهِدْتُ ثُمُودًا حِينَ حَلَّ بِهَا الْبَلِي      وَأَدْرَكْتُ أَيَّامًا لَعَمْرُؤِ بْنِ عَامِرِ »  
 فقلنا « أَنْسَقَاهَا عَلَى وَجْهِ أَهْيَفٍ      لَهُ تَيْهٌ مَعشُوقٍ وَشَخْرَةٌ شَاطِرُ؟ »  
 ثم يبدأ المشهد الأول في داخل الحانة وقد أوقدت السرج ونصبت منائر  
 الشموع . وثمة الأشخاص أنفسهم . وقد هيا الخمار لهم مجلساً موقفاً معموراً  
 بالرياحين والزهر ، وقد صفت بين أيديهم آلة الشراب على أجمل هيئة والطف  
 نسق . وهم منتشرون في المجلس مشرقة وجوههم متهللة أساريهم كالأنجم الزهر .  
 وإلى ناحية منهم يقوم تمثال حي للجمال بديع المثال ، وفي يمينه إبريق من الجين .  
 وتدب الحركة في المشهد ، فيدور الساقى أو الساقية على القوم ، مرسلاً من  
 إبريقه شؤبوب الراح في الأقداح ، كالشهاب الهاوى اللماح . ويتبادل الندمان  
 التحايا من الريحان ويأخذون في أعذب الكلام :

في مجلسٍ ماله شبهُ      حلٌّ به الحسنُ والجمالُ  
 يَمَطُرُ فيه الشُّرُورُ سَحًّا      بديمةٌ مالها انتقالُ  
 شَهِدَتْهُ فِي شَبَابٍ صَدَقِ      مَا إِنْ يُوَازِي لَهُمُ فَعَالُ  
 نَاخِذُ صُهْبَاءَ بِنْتِ كَرَمٍ      عِذْرَاءُ لَمْ يُؤْوِهَا الْحِجَالُ  
 نَشْرِبُهَا فِي الْكِبَارِ صَرْفًا      وَلَيْسَ فِي شُرْبِنَا مِطَالُ  
 يَسْعَى بِهَا مُحْطَفٌ غَرِيرٌ      كَأَنَّهُ الْبَدْرُ أَوْ مِثَالُ

قامت بإبريقها - واللَّيلُ مُعْتَكِرَةٌ - فلاحَ من وجهها في البيت لآلاء

دارت على فنيةٍ دان الزَّمانُ لهم فما يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا

فأرسلت من فم الإبريقِ صافيةً كأنما أخذها للعين إغفاء

نازعُها سادةً غطارِفةً كأنهم من شقيقةٍ شَقِقُوا

في مجلسٍ ليس فيه فاحِشةٌ إِلَّا حَدِيثٌ ومنطقٌ أُنِيقُ

في مجلسٍ لا ترى فيما تَضَمَّنَه إن أنتَ فَتَشْتَه - في خلقه بَرِّمَا

يا مجلساً ضمَّ فتیاناً غطارِفةً حازوا البشاشةَ والإِنعامَ والكَرَمَا

وجوههم فيه ریحانٌ لمجلسهم ولفظهم لؤلؤٌ في سلكه نُظْمَا

وفي المشهد الثاني يشترك أصحاب الملاهي وأهل الغناء ، فيضربون ألوان الضرب

ويغنون في أنواع الشعر ومنه شعر أبي نواس ، فيصيبون الإيقاعات المطربة ،

ويختلسون مواضع التبرات ، ويتحرون ما يشاكلها من النقرات . ويملاون

مساخرهم بالأنفاس فيشبعون الألحان ، ويستوفون النغم الطوال ويحسنون مقاطع

النغم القصار . ويقترن صوت العيدان المطرب الشجى وصوت الإنسان المعبر

الحى ، فيكون من سحر هذا القران ؛ ما يرتفع بالسامعين إلى شرف الجنان :

وجدتُ أَلَدَّ عَارِيَةٍ اللَّيَالِي قِرَانَ اللَّحَنِ بِالْوَتَرِ الْفَصِيحِ

بِمُسْمَعَةٍ إِذَا غَنَّتْ بِصَوْتٍ أَجَابَتْهَا الْمَثَلُ وَالْمَثَانِي

وغادةٍ هاروتُ في طَرْفِهَا وَالشَّمْسُ فِي مَفْرِقِهَا جَانِحَةٌ

تَسْتَقْدِحُ الْعُودَ بِأَطْرَاقِهَا وَنَفْعُهُ فِي كِبْدِي قَادِحُهُ

ما زالَ تاجِرُهَا يَسْقِي وَأَشْرَبَهَا وَعِنْدَنَا كَاعِبٌ بَيْضَاهُ حَسَنَاهُ

كَمْ قَدْ تَغَنَّتْ وَلَا لَوْمٌ يُلْمُ بِنَا «دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ الْيَوْمَ إِبْغَاءُ»



وَهَاتِ فَعْنِي بَيْتِي « نُصِيبِ » فَقَدْ وَافَانِي الْقَدَحُ الْمُدَارُ  
 ( ولولا أن يُقالَ صَبَا نُصِيبُ لَقَلْتُ بِنَفْسِي النَّشَأَ الصَّفَارِ )  
 ( بِنَفْسِي كُلِّ مَهْضُومٍ حَشَاها إِذَا ظَلَمْتُ فَلَيْسَ لَهَا انْتِصَارِ )

يُدِيرُهَا قَمَرٌ فِي طَرْفِهِ حَوَرٌ كَأَنَّمَا اشْتَقَّ مِنْهُ سَحَرُ هَارُوتِ  
 وَعِنْدَنَا ضَارِبٌ يَشْدُو فَيُطْرِبُنَا « يَا دَارَ هِنْدِ بَذَاتِ الْجَزْعِ حُبَيْتِ »  
 إِلَيْهِ أَلْحَاطُنَا تُذْنِي أَعْنَتُهَا فَلَوْ تَرَانَا إِلَيْهِ كَلِمَا هَيْتِ  
 مِنْ أَهْلِ هَيْتِ سَخِيءِ الْجِرْمِ ذُو أَدَبٍ لَهُ أَقُولُ مِزَاحاً « هَاتِ يَا هَيْتِي »  
 فَيَنْبَرِي بِفَصِيحِ اللَّفْظِ عَنْ نَعَمٍ مُثَقَّفَاتِ فَصِيحَاتِ بَتْنَيْتِ  
 حَتَّى إِذَا فَلَكُ الْأَوْتَارِ دَارَ بِنَا مَعَ الطُّبُولِ ظَلَلْنَا كَالْمَسَايِتِ<sup>(١)</sup>

فيشيع في المجلس السرور ، ويأخذ الندماء الطرب ويستخفهم ويستولي عليهم ، فيشربون على السماع أكثر مما يحتمله حالهم من غير سماع ، ويضعون عند كل نغمة بالاستحسان ، ثم لا يلبثون أن يشاركوها في الألحان . وتزيد الجلبة في المجلس وتعالى الضحكات ، وتلتئم الأعين وتتحرك الشهوات ، وتلتقي عيون الندمان والسقاة بالغمز الخفي ، وتستشرى بين الندمان أنواع الخلاعات ، وترتجل فنون الرقاعات :

فِي مَجْلِسٍ جَعَلَ السَّرُورُ جَنَاحَهُ سِتْرًا لَهُ مِنْ نَاضِرِ الْجِدْثَانِ  
 لَا يَطْرُقُ الْأَسْمَاعَ فِي جَنَابَتِهِ إِلَّا تَرْنَمُ السُّنِّ الْعَيْدَانِ  
 أَوْصُوتُ تَصْفِيقِ الْجَلِيسِ طَرَبًا وَبَكَاءُ خَائِبِيَةٍ وَضَحْكُ قَنَائِي  
 لِعَمْرِ مَا تَهْيِجُ الْكَأْسُ شَوْقِي وَلَكِنْ وَجْهُ سَاقِيهَا شَجَانِي



أَمُوتُ إِذَا أزال الكأس عَنِّي وأحيا من يديه إذا سقاني  
فلي سُكرانٍ منه سُكْرُ طَرْفٍ وسُكْرُ من رَحيق خُسْرَوَانِي

بات يُعاطِني على خَدِّه خمرًا بعَيْنيه ومن كَفَّه

إِنِّي لأشربُ من عَيْنَيْهِ صَافِيَةً صِرْفًا، وأشربُ أخرى مع نَدَامَانِي

تَسْتَمِيتُ مِنْ يَدِهَا خمرًا ، ومن فَمِهَا خمرًا ، فَمَالِكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدٍّ  
لِي نَشْوَتَانِ ، وَلِلنَّدَمَانِ وَاحِدَةٌ شَيْءٌ لَا خُصِيصَتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

وَلَيْلَةٍ سَامَرْتُ لَدَائِهَا بِشَادِنٍ أَحْوَرَ مِياسِ

نَأْخُذُ مِنْ صُهْبَاءِ كَرَّخِيَّةٍ نَكْتَالُهَا وَزَنًّا بِمِقْيَاسِ

أَشْرَبُ مِنْ رِبْقَتِهِ مَرَّةً ، وَمَرَّةً مِنْ فَضْلَةِ الكَاسِ

يَا حَبَّذَا لَيْلَةً نَعَمْتُ بِهَا أَشْرَبُ فَضْلَ الحَيِيبِ فِي القَدَاحِ

تَقُولُ لِي وَالْمَدَامُ مُرْسَلَةٌ تَفِيضُ حَوْلِي نَفُوسُ جُلَامِي

« هَلْ لَكَ أَنْ تَطْرُدَ النُّعَاسَ فَقَدْ طَابَ انْضَوَاهُ الْمُدَامُ وَالْأَسْ؟ »

قُلْتُ لَهَا « فَايْتَدِي ، وَهَاتِي ، فَمَا حَسَوْتُ مِنْهَا فَإِنِّي حَاسٌ »

وَعَايَتِي أَنْ أَنَالَ فَضْلَتَهَا فِي الكَاسِ مِنْ شُرْبِهَا أَوْ الطَّاسِ

إِشْرَبْ واسقِ الحَيِيبَ يَا سَاقِي وَأَسْقِنِي فَضْلَ كَأْسِهِ الْبَاقِي

وَأَسْقِمِ فَضْلَ مَا أُخْلِقُهُ فِي الكَأْسِ عَمْدًا بَغِيرَ إِشْفَاقِ

أَشْرَبُ مِنْ فَضْلِهِ وَبِشْرَبُ مِنْ فَضْلِي ، كَذَا فَعَلُ كُلِّ مُشْتَاقِ

وما جدي في الفرع من هاشم  
 نازعته القهوة في فتية  
 إذا حساها بعضهم لم يدع  
 ما يغمر الذرة في كاسه  
 سنتهم في شربها بينهم : « من ردها ضبت على راسه »

ولا يزال الندمان على تلك الحال من المجامحة في الشراب والمغالة في التطرب  
 وتجاوز الحد في اللهو ، وقد زاد صخب العيدان وارتفعت عقائر القيان . ولم تكن  
 الموسيقى كلها ضرباً واحداً فيمل سماعها ، بل كان إلى جانب المفرح المرقص من  
 الألحان ضروب لها شجاً ورقة وحنان . وهذه الضروب وإن كان يحلو موقعها في  
 الآذان ، كانت تهتاج من أهل الشجون شجونهم . فإذا بالمجلس — إلى جانب  
 المحبورين الذين يمد الطرب بأعطافهم ويكادون يخرجون من جلودهم فرحاً  
 ويطيرون خفة ونشوة — فريق من الندامى استثارت الموسيقى منهم مكنون  
 الصبوات وابتعثت أطيايف الذكريات فإذا هم يسبلون العبرات ويصعدون الزفرات .  
 ومُسَمِّعة جاءت بأخرس ناطق  
 يغير لسان ظل ينطق بالسحر  
 لتبدى سرَّ العاشقين بصوته  
 كما تنطق الأقلام تبهر بالسر  
 تقول — وقد دبَّت عقارُ كأنها  
 دم ودموع فوق خد إذا تجرى —  
 « سلام على شخص إذا ما ذكرته  
 حذرت من الواشين أن يهتكوا سرى »  
 فبعض الندامى في سرور وغبطة  
 وبعض بكى شخصاً ففاضت دموعه  
 فساعدتهم علماً بما يورث الهوى  
 وأن جنون الحب يؤلم بالحر  
 وبعض الندامى في سرور وغبطة  
 وبعض بكى شخصاً ففاضت دموعه  
 فساعدتهم علماً بما يورث الهوى  
 وأن جنون الحب يؤلم بالحر

وأقبل محمود الجلال مقرطق إلى كاسها ، لا عيب فيه ، أريب

فجاء بها تحدو بها ذات مزهر يتوق إليها الناظرون ، ريب  
يَشْمُ الندامى الورد من وجناته وليس بها غير الملاح طيب  
فما زال يسقينا بكأس مجدة تولى ، وأخرى بعد ذلك توب  
وغنى لنا صوتاً بحسن ترجع « سرى البرق غرباً فحن غريب »  
فمن كان منّا عاشقاً فاض دمه وعادده بعد الشرور نجيب  
فمن بين مسرور وبك من الهوى وقد لاح من ثوب الظلام غيوب  
وقد غابت الشعرى العبور ، وأقبلت نجوم الثريا بالصباح تنوب  
ويأتى المشهد الثالث والأخير ، وقد احترقت الشموع وذابت جسومها الناعمة  
وأوشك زيت المصابيح على النفاد ، ولم يبق من شعلها إلا حشاشات تحقق خفقا  
ضعيفاً مؤذنة بأن احتضارها لا يطول ، وأنها عن قريب ستخمد نارها ويطلق  
نورها ولكن القوم فى شغل عن هذه الغاشية ، بل لعالم يرتجونها ويستعجلون  
حلولها . ولقد جرت العادة أن ينتهى المشهد الأخير فى سائر الروايات بإحدى  
النهائيتين الزواج أو الموت . والحال فى المسرحية النواسية لا تختلف عن ذلك كبير  
اختلاف . فالندمان هنا سكارى طافون غلبتهم سورة الخمر ، ولم يبق لهم على  
نفوسهم شيء من الأمر . فإذا بعضهم قد انطلقت فيهم النفس الشهوية وانفلتت  
من عقالها ، وإذا بعضهم هاجت فيهم النفس الغضبية وثارَت ثائرتها . فأسلت  
الأولى من أسلمت إلى حال من الفوضى الجنسية هى أنكر النكر ، وأسلمت الثانية  
من أسلمت إلى التنازع والعربدة ثم إلى صرعة السكر :

فلو شهدت - أخى - يوماً نعمت به وعندنا قمرٌ نجلو به الظلما  
ما زال يئنّيه بذل الكأس فى لطف وذاك يأخذها من ذاك مَبْتَمِّها  
شهدت تفديّة منّا وتحمية وفى تطرّبنا فما يَمَصُّ فما



يا كَيْلَةً طَلَعَتْ بِالسَّعْدِ أَنْجُمُهَا      فَبَاتَ يَفْتِكُ بِالسَّكْرَانِ سَكْرَانُ  
يَبْنَا نَدِينَ لِابْلِيسِ بِطَاعَتِهِ      حَتَّى نَعَى اللَّيْلَ بِالنَّاقُوسِ رُهْبَانُ

وما زال يَسْقِينَا وَيَشْرَبُ لَيْلَنَا      وَعَيْنٌ عَلَى عَيْنٍ ، وَخَذٌ عَلَى خَذٍ  
فَبَدْنَا مِنَ السُّكْرِ الشَّدِيدِ كَأَنَّنا      قَتِيلَانِ لُفًّا فِي الرِّيَّاحِينَ وَالْوَرْدِ

يَدُورُ بِهَا ظِيٌّ أَغْنَى مُؤَنَّثٌ      يُدِيرُ مُحَيَّاهَا عَلَى كُلِّ شَاطِرٍ  
فَمَازَلْتُ أَحْسُوها وَأَسْقِي صَحَابَتِي      إِلَى أَنْ عَضَضْنَا كُلَّنَا بِالْخَوَافِرِ

تَرَى السَّكَّاسَ تَسْعَى بَيْنَنَا ، فَكَأَنَّمَا      تَرَدَّدُ فِيمَا بَيْنَنَا فِي الْأَصَائِلِ  
فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى الصَّبَاحِ يُدِيرُهَا      وَيَجْرِي بِنَا فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلِ  
فَبَيْنَ صَرِيحٍ قَدْ تَجَدَّلَ طَافِخًا      إِلَى ذِي وَسَادٍ مَائِلِ الرَّأْسِ زَائِلِ

وعند هذا الحد يصح الوقوف . إلا أن هناك خاتمة وجيزة جرى القوم على إضافتها ، هي لحظة جد قصيرة في بكرة الصباح ، نشهد فيها شاعرنا أبا نواس ينبه من حوله من صرعى الخمر ولا يزال يهزهم ويهتف بهم ، حتى إذا انتبهوا تناولهم شربة الصبوح لتكون دواءهم من خمارهم في سائر يومهم . وهذه اللحظة — على قصرها — لا يفتأ شاعرنا يرددها في مقطوعاته ويبدع ما شاء له الإبداع في صفتها . وفي ذلك أبلغ الدلالة على شأنها وعلى أن الخمرية ، من المطولات كانت أو من غير المطولات ، لا تكمل إلا بها :

ومائل الرأس نَشْوَانِ شَدَوْتُ لَهُ      ( وَدَّعَ «لَيْسَ» وَدَاعَ الصَّارِمِ اللَّاحِي )  
فَعَالَجَ النَّفْسَ كِي يَحْيَا لِيَفْهَمَهُ      وَقَالَ : « أَحْسَنْتَ » قَوْلًا غَيْرَ إِفْصَاحِ  
فَكَادَ أَوْ لَمْ يَكِدْ أَنْ يَسْتَفِيقَ لَهُ      وَالنَّفْسُ فِي بَحْرِ سُكْرِ عَبِّ طَفَّاحِ  
فَقُلْتُ لِلْعَلِيجِ : « عَلَّلَنِي فَرُبُّ » فَتَى      عَلَّلَتْهُ فَانْتَنَى فِي نَشْوَةِ الرِّيحِ «  
فَافْتَضَ بَكْرًا عَجُوزًا زَانَهَا كَبَرُ      فِي زِيٍّ جَارِيَةٍ فِي الْأَهْوِ مِلْحَاحِ



من بنتِ كرمٍ لها في الكأسِ راحَةٌ  
 حتَّى إذا الليلُ شقَّ الصُّبحُ مجوَلَه  
 تحيكي لمن نال منها ريجَ نَفاح  
 كمُطليعٍ وجهه من بين أشباح<sup>(١)</sup>  
 نَبَّهْتُ نَدْمَايَ الموفى بذِمَّتِهِ  
 من بعد إغرابِ كاساتٍ وأقداح  
 فقال: «هاتِ اسقيني، واشربْ، وغنِّ لنا  
 ( يا دارَ شَعْناءِ بالقاعَيْنِ فالسَّاح )  
 فما حَسًا ثانياً أو بعضَ ثالثةٍ  
 حتَّى استدار ورَدَّ الرِّاح بالراح

حتَّى إذا ما بدا سُهَيْلُ  
 نَبَّهْتُ طُلُقَ اليَدَيْنِ سَمَحاً  
 وحال من ليلنا اِرْتِحالُ  
 يَمَطُرُ من كَفِّهِ النِّوال  
 مُحَمَّدًا خَيْرَ من يُرَجَّى  
 يَقْصُرُ عن وَصْفِهِ المَقال  
 فقلتُ «خُذْهَا - فَذَلِكَ نَفْسِي -  
 فكلُّ شَيْءٍ لَهُ زَوَالُ :  
 فقامَ ، والنَّوْمُ في المآقِ  
 كأعما مَهْ خَبال  
 نَمَّ احْتَبَى مُسْرِعاً وَغْنَى  
 بِخُسْرَاوَيَّ لَهُ دَلال  
 ( عَيْنَاكَ دَمْعَاهَا سِجَالُ  
 كَأَنَّ شَأْنَيْهِمَا وَشال )

قلتُ لَمَّا بَدَتْ تَبَاشِيرُ صُبحٍ  
 « قُمْ بِنَفْسِي أَفْدِيكَ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ  
 هَتَكَتْ فِي دُجَى الظَّلامِ الذُّيُولَا  
 فَاصْطَبَحْهَا مُدَامَةً مَشْمُولَا »  
 فَشكا شِدَّةَ الخُمَارِ عَلَيْهِ  
 وَتَلَكَّا لِأَخْذِ كَأْسٍ قَلِيلَا  
 قلتُ: « خُذْهَا لِكَيِّ يَزُولَ التَّشَكُّي  
 فَهِيَ يُصْبِحُ الخُمَارُ قَبِيلَا »  
 فَاسْتَوَى قَاعِداً ، وَأَبْرَزَ كَفًّا  
 لَمْ تَزَلْ رَاحُهَا رَاحَ حَمُولَا  
 وَتَغْنَى عَلَى المُـدَامِ ثَلَاثًا  
 ( أَرْجِرِ العَيْنَ أَنْ تَبْكِي الطُّلُولَا )

ناديته بعد ما مال النجوم ، وقد  
 قلت والليل يجلوه الصباح كما  
 « يا أحمد المرتجى في كل نائبة  
 وها كها قهوة صباء صافية  
 ألزه بحمياها ، وأزجره  
 حتى أغنى ، وما تم الثلاث له  
 ( ياليت حظي من مالى ومن ولدى  
 صاح الدجاج يشرى الصبح مرات  
 يجلو التبسم عن غر الثنايات  
 قم ، سيدي ، نفض جبار السموات  
 منسوبة لقرى هيت وعانات »  
 باللين طوراً ، وبالتشديد تارات  
 حلوا الشائل ، محمود السجيات  
 أنى أجالس لبنى بالعشيات )

ثم لا يلبث أن يقتحم المجلس فوج من النسوة والصبية وبعض الرجال ، هم  
 أهل هؤلاء السكارى خرجوا يرتادون الحانات في طلبهم حين طال غيابهم ،  
 فيحاول السكارى في حركة ضعيفة سخيصة مواراة آنية الشراب عن أهلهم ،  
 فيشد أهلهم في لحن واحد تخاطب به كل جماعة صاحبها وتشير إليه ناقة  
 زارية متسخطة :

تفتير عيّنك دليل على أنك تشكو سهر البارحة  
 عليك وجه سيء حاله من ليلة بت بها صالحه  
 ونفحة الخمر وأنفاسها والخمر لا تخفى لها رائحة

وبنسدل الستار على هذه المسرحية النواسية ، وهى — لاشك — مأساة  
 من المأسى الخلقية .

في سبيل الخمر

وعلى أمثال هذه المجالس الماجنة وقف أبو نواس معظم أيام عمره ، يضحى بكل

شئ لوجه الشراب العتيق وعلى مذبج آلهة العشق الأثيم ، غير مدّخر لثروة  
ولا مبالٍ بسمعة ، ولا مشفق على صحة .

ومهما يُقَلَّ في منزلة أبي نواس بين الشعراء المدّاحين في زمانه ، وقلة حظوته  
عند البرامكة الأكرمين وما فاتته من سعة نائلهم وفيض جودهم ، فالحق الذي  
لا تعترض فيه شبهة أن شاعرنا لم يعد قط في دولة البرامكة وبعدها من الكبراء غيرهم ،  
من كانوا يظّلونه برعايتهم ويتابعون له إحسانهم ويرادفون عليه صنائعهم ، كما  
ينطق بذلك قوله في الأمير الجليل العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور ،  
فقد جرى فيه الشاعر على خلاف العادة من استنهاض همه الممدوح للمعروف وهز  
أريحيته للعتاء ؛ فإن الأمير أغناه عن ذلك بما كان لا يفتأ يدرّه عليه ، فلم يجد  
الشاعر بدءاً من أن يهتف به يستمهله ويرتجيه ألا يبره بعد ذلك ويواليه ، حتى  
ينهض بأعباء ما وجب من شكره ويقضى حق ما سلف من أياديه :

قد قلتُ للعبّاس مُعتذراً      من ضَعَفِ شُكْرِيهِ ومُعتَرِفاً  
أنتَ امرؤٌ جَلَلْتَنِي نِعْماً      أوْهَت قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفاً  
فإليكَ قبلَ اليومِ تَقْدِمةً      لا قَتَكَ بالتَّصريحِ مُنْكَشفاً  
لا تُسَدِّينَ إلى عارِفَةٍ      حتّى أقومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا<sup>(١)</sup>

ومثل هذا أوزيد عليه ما أصابه شاعرنا من الخصب أمير الخراج في مصر ،  
وما أفاده على يدي الوزير الخطير خصم البرامكة والخالف لهم على الوزارة الفضل  
ابن الربيع وولديه العباس ومحمد ، وهو قد عاش ما عاش ملحوظاً برعايتهم مشمولاً  
بمحبتهم ، ثم هبات الخليفة الأمين لشاعره ونديمه ، وهو من علمنا فرط جوده  
بالمال ، وخطل يديه بالنوال .

(١) العارفة : العطية .

ومع هذا كله لا يفتأ أبو نواس يطالعنا في كل آونة بالقطوعة من الشعر في إثر  
القطوعة يتبرم فيها من سوء حاله وقلة يساره ، ويبالغ حتى ليكشف لنا في شكواه  
عن أقبح الفاقة وأشد الإضاعة :

مَنْ نَظَرَتْ عَيْنُهُ إِلَى فَقْدِ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا حَوَتْ دَارِي  
أَعَاذِلُ إِنْ يَكُنْ بُرْدَايَ رَثًّا فَلَا يَعْدَمُكَ بَيْنَهُمَا كَرِيمُ  
شَقِيقَتُ مِنَ الصَّبَا ، وَاشْتَقَّ مَنِّي كَمَا اشْتَقَّتْ مِنَ الْكَرَمِ الْكَرُومُ  
إِنْ دَامَ إِفْلَامِي عَلَى مَا أَرَى هَجَرْتُ إِخْوَانِي وَأَصْحَابِي  
وَبَعْتُ أَثْوَابِي ، وَإِنْ بَقِيَ بَقِيَّتُ بَيْنَ الدَّارِ وَالْبَابِ

وقد جاء في جملة ما عاتب به الشاعر إخوانه وممدوحيه هذه الكلمة التي رفعها  
إلى الأمير العباس بن الفضل بن الربيع، وفيها وصف لما تعرض له من تدهور حالته  
وانحطاط مستوى معيشته دركا بعد درك . ومهما يكن من تصرف الشاعر فيها على  
طريق الفكاهة ، فما نظنها إلا صدقاً في جوهر معناها وفحوى دلالتها :

عُنِيتُ بِمَرْكَبِ الْبِرْدُونِ ، حَتَّى أَضَرَ الْكِيسَ إِغْلَاةَ الشَّعِيرِ<sup>(١)</sup>  
فَحُلْتُ إِلَى الْبَغَالِ فَأَعْوَزَتْنِي فَحُلْتُ مِنَ الْبَغَالِ إِلَى الْحَمِيرِ  
فَأَعْيَتْنِي الْحَمِيرُ ، فَصَرْتُ أَمْشِي أَرْجِي الرَّجُلَ كَالرَّجُلِ الْكَسِيرِ

ويحتم الشاعر وصفه بأن يزعم لممدوحه أن ذلك من فقدته لعطائه وانقطاع  
رفده وحملاته عنه :

وَمَا بِي - وَالْحَمِيدُ اللَّهُ - كَسْرٌ وَلَكِنْ فَقْدُ حُمْلَانِ الْأَمِيرِ<sup>(٢)</sup>

(١) البردون : نوع من الخيل .

(٢) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة .



وهو قول إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الأمير عوّد صاحبنا أن يُنعم عليه بادئاً ومعقّباً من غير سؤال . ولكن صاحبنا يزداد كل يوم إسرافاً فتتجدد حاجته إلى المال دراكاً ، فهو يقول ما يقول معاودةً للاستجداء وتعجلاً للمطاء . وإن مطالعة الخمرات لا تدع شبهة من الشك في أن صاحبها إذا اشتكى نفاد المال ، فإنما يرجع معظم ذلك إلى تحرققه في النفقة على السكر واللهم وعدم ادخاره شيئاً مما يقع له : فاشرب ، وجدّ بالذي تحوى يداك لها لا تذخر اليوم شيئاً خوفاً فقر غداً فكل ما كان يفيد الشاعر من مال ، مستهلك في يومه مُذال ، ما يُليق درهماً ولا يستفضل لغده كثيراً ولا قليلاً . وشاعرنا شديد اليقين أنه بهذا الفعل يجري على مقتضى العقل ، وأنه مهما بذل في الخمرة فهو الراجح الفائز في الصفقة . وغير مستغرب ممن يجد في الشراب ما هو واجده من نعيم ، أن يجعله من فوق كل سوم وتقويم . ومن ثمة كانت كثرة تعجبه للمشتري بما كس في ثمن خمرته ، وزرأته بالمثري لا يتلف فيها جملة ثروته :

إِنَّ بَذْلِي لَهَا لَبَذْلُ جَوَادٍ      وَاقْتِنَائِي لَهَا اقْتِنَاءُ شَحِيحٍ

تَعَشَّقَهَا قَلْبِي قَبَضَ عِشْقَهَا      إِلَى مِنَ الْأَمْوَالِ كُلِّ نَفِيسٍ

وَصَاحِبِ زَانٍ كُلِّ مُصْطَحِبٍ      يُنَمَى إِذَا مَا انْتَمَى إِلَى الْيَمَنِ  
أَرْوَعُ مَحْمُودَةٍ خَلَاتِقِهِ      يَبْذُلُ فِي الْخَمْرِ أَفْضَلَ الثَّمَنِ

أَمَّا الْمِكَّاسُ فَإِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ      - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي لَهْوٍ وَلَا رَاحٍ <sup>(١)</sup>

أَعَاذِلُ ، مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ لَذَّةٍ      وَلَا قُلْتُ لِلْخَمَارِ كَيْفَ يَبِيعُ

(١) المِكَّاس : انتقاص الثمن وتطفيفه .

أَسَاحُجُهُ ، إِنَّ الْمِكَّاسَ ضَرَاعَةٌ      وَيَرْحَلُ عِرْضِي عَنْهُ وَهُوَ جَمِيعُ

شَرَيْتُ الْفَتَكَ بِالثَّمَنِ الرَّيِّحِ      وَبَعْتُ النَّسْكَ بِالْقَصْفِ النَّجِيحِ

خَلَقْتَ لِلْهَمِّ قَاهِرَةً      وَعَدَوُ الْمَالِ وَالنَّشَبِ

فَمَا بَرَحَ الْقَوْمُ حَتَّى اشْتَرَوْا      وَمَنْ يَشْتَرِ الْخَمْرَ لَمْ يَخْسِرِ

ولو وقف الأمر عند حدّ إتلاف المال ، لقلنا عَرَضُ زَائِل . ولكن أبا نواس في استهتاره بالشراب وإدماسته له ، لم يبال أن يتخطى اعتباره وتسقط حرمة ، حتى كره أهلُ الوقار من الخلفاء والرؤساء منادمتهم لهم ودوام اتصاله بهم ، فكان من ذلك ما كان من تفويت الفرص عليه للبلوغ إلى ما بلغه من هم دونه من الرتبة العالية والأرزاق الجارية :

وَالرَّاحُ أَهْوَاهَا وَإِنْ رَزَأَتْ      بُلْغَ الْمَعَاشِ ، وَقَلَّتْ فَضْلِي

ولقد يعجب القارىء حين يرى النواسى صريحاً هذه الصراحة مع نفسه لا يكتمها جنابة الخمر على ماله وإتيانها على جملة ، ولا يغالطها في انتقاص الخمر من قدره وإسقاطها من حرمة . ولكن القارىء لا شك يزيد عجبهُ أضعافاً حين يسمع للنواسى يصف فوق ذلك أجمع الوصف سوء تأثير الخمر في صحته وتقويض بنيته :

هَاتِ بِالْيُسْرِ ، فَقَدْ عَجَزَتْ      رَاحَتِي الْيُمْنِي عَنْ الْقَدَحِ

أَرْعَشَتْهَا بَعْدَ شِدَّتِهَا      سَطْوَةُ الْإِبْرِيْقِ لِلصُّبْحِ

والنواسى مع هذا جميعه ، وبعد هذا جميعه ، لم يزل — كما تنطق هذه الشواهد نفسها من شعره — ذلك المغرم بالخمر ، المصرّة عليها ، المستهتر بها .

## بين المدافعة والمهاجمة

وطبيعى أن يكون هذا الاستهتار بالشراب والإدمان له من رجل فى مكانة  
أبى نواس وعلمه وملكاته الأدبية موضع لأئمة وعذل .

وكان أبو نواس يتشاغل عن سماع عاذليه فى الخمر بمعاقرة الخمر ، لاهياً عنهم ،  
جاعلاً فى أذنه وقرأ عن كلامهم ، غير مقيم وزناً لملامهم . فاللوم فى الخمر عنده  
أمر مستحيل من فوق تصديقه ، وليس يعقل أن يعيبها إلا جاهل دعى لا يعرفها  
حق معرفتها . ومثل هؤلاء الجهلاء الأدعياء لا موضع معهم للأخذ والعطاء ، وإنما  
الأحجى والأرشد فى جوابهم السكوت والازدراء :

دَعْنِي مِنَ النَّاسِ وَمَنْ لَوْ بِهِمْ      واحسُ ابْنَةَ الْكَرِّمِ مَعَ الْحَاسِي

أُعَذِّلُ مَا عَلَى مِثْلِ سَبِيلُ      وَعَذْلُكَ فِي الْمُدَامَةِ يَسْتَحِيلُ

أُعَذِّلُ لَا تَلْمِنى فِي هَوَاهَا      فَإِنَّ عَتَابَنَا فِيهَا يَطُولُ

كَلَانَا يَدْعَى فِي الْخَمْرِ عِلْمًا      فَدَعْنِي ، لَا أَقُولُ وَلَا تَقُولُ

لَوْ أَنَّ أَبَا مَعْشَرٍ ذَاقَهَا      لَخَرَّ صَرِيحًا أَبُو مَعْشَرٍ

وَكَبُرَ مِنْ طَيِّبِهَا سَاعَةً      وَقَالَ بِهَا ، ثُمَّ لَمْ يَضُرِّ

فَاتَرُكَنْ مِنْ لَامِ فِيهَا      وَأَبَى إِلَّا نِفَارًا

يَشْرَبُ الْمَاءَ مَكَانَ الْ      رَاحِ رَغْمًا وَصَفَارًا

أمكنْتُ عَاذِلْتِى فِي الْخَمْرِ مِنْ أَذْنِ      يُغْنِى صَدَاها جَوَابًا مَنْ يُنَادِيها

ولقد يعمد إلى خطابهم باللين والحسنى ، فيرغب إليهم كالضارع أن يكفوه

وخز التقرير ، فإنه من الأحباء أليم وجميع ، وأن يغفوا أنفسهم من تبصيره  
مواقف رشده وعواقب أمره ، فإنه في عصيانه وطاعته لا يرجع إلى عقل غير عقله .  
ثم يناشدهم في لهجة رفيقة رقيقة أن يدعوه لشأنه حتى يأذن الله بهديه :

أَعَاذِلْ إِنْ اللُّومَ مِنْكَ وَجِيعُ      وَلِي إِمْرَةٌ أَغْصَى بِهَا وَأُطِيعُ  
أَعَاذِلْ خَلْنِي أَرَوْ شَيْبَتِي      فَإِنْ بَانَ لِي رُشْدٌ فَسَوْفَ أَرْبِعُ<sup>(١)</sup>

وكان من عذاله في الخمر من كانوا يمحضون في عييه بها ويقومون ويقعدون  
باغتيابه فيها ، لا يعتريهم الكلل ولا ينالههم الملل ، فكان لا يجد لهذه الرغبة  
الملحة من ناحيتهم في أن يترك الخمر تعليلاً يتفق مع حسن رأيه فيها ، إلا سوء  
قصدهم به وحسد لهم :

عَاذِلِي فِي الْمُدَامِ غَيْرَ نَصِيحٍ      لَا تَلْمَنِي عَلَى شَقِيقَةِ رُوحِي

يَا عَاذِلِي قَدْ أَتَنَى مِنْكَ بَادِرَةٌ      فَإِنْ تَعَمَّدَهَا عَفْوِي فَلَا تَعْدِي  
لَوْ كَانَ لَوْمُكَ نَضْحًا كُنْتُ أَقْبَلُهُ      لَكِنْ لَوْمُكَ مَوْضِعٌ عَلَى الْجَسَدِ

فَلَأَشْرِبَنَّ بِطَارِفٍ وَبِتَالِدٍ      بِنْتَ الْكَرُومِ بَرَّغَمِ أَنْفِ الْحُسَدِ

ولقد يدفع أبو نواس العذل في الخمر ، معتذراً بأنواع من العذر ، أخصها دفعها  
الهم . وقد مرت بنا طائفة من معاذيره التي يكررها على الأسماع ، وعليها طابع من  
قوة الاقتناع . وهو يخرج منها إلى أن الخمر في مثل هذه الأحوال لا يكون شربها  
إنما بل تركها هو الإثم :

أَدِيرْ أَعْلَى الْكَأْسِ يَنْقَشِعِ الْغَمُّ      وَلَا تَحْبِسَا كَأْسِي فِي حَبْسِهَا إِيثْمُ

ثم يزيد على ذلك أنها تذكر المؤمنين بخمر جنات النعيم ، ومن ثمة كان العذل



فيها مؤدياً بالعاذل إلى عذاب الجحيم ، وشرابه فيها من غساق وحميم :

أَعَاذُلُ فِي الْمُدَّامَةِ وَالنَّدِيمِ سَقِيتَ - عَلَى الْمُدَّامَةِ - مِنْ حَمِيمٍ  
أَتَعَاذُلُ فِي مُشْعَشَعَةٍ كُمَيْتٍ تَذَكَّرُ حِينَ تُشْرَبُ بِالنَّعِيمِ

ولم يكن موقف شاعرنا موقفاً دفاعياً على الدوام ، بل كان أحياناً يأنف من طول وقفته وقفة الاتهام ، ويكبر عليه دوام هذا الامتهان ، فتملكه العزة وتعصف في رأسه النخوة وتستولى عليه حمية منكرة ، فإذا هو يدعو أصحاب الخمر أن يتخذوا مع أعدائها خطة التحدى والمهاجمة والمصارعة إلى الشر والمبادرة بالعدوان :  
وَإِذَا شَهِدْتَ عَدُوَّهَا فِي مَحْمَلٍ فَاقْصِدْ إِلَيْهِ بِأَقْبَحِ الذَّمِّ

عاطيتها صاحباً صَبَّأَ بِهَا كَلْفًا حَرَبًا لَعَانِفَهَا ، سَلَمًا لِحَاسِهَا

على أنه كان في أكثر الأحوال يُظهرهم من نفسه على السكير الماكن للمستهر الميؤوس من صلاحه ، ويكرر تنبيههم إلى أنه لو استطاع ترك الخمر لانتهى عنها طاعةً لنهى الله تعالى لا نزولا على كلامهم ، وإن كلامهم في ذلك بعد كلام الله يعدّ فضولاً وسفاهة منهم :

تُعَيِّرُنِي الذُّنُوبَ ، وَأَيُّ حَرٍّ مِنْ الْفَتَيَانِ لَيْسَ لَهُ ذُنُوبٌ  
أَعَاذُلُ أَقْصَرَى عَنْ بَعْضِ لَوْمِي فَرَاغِي تَوْبَتِي عِنْدِي يَحْيَبُ  
غَرِيتِ بِتَوْبَتِي وَلَجَجْتَ فِيهَا فَشَقَّى الْآنَ جَيْبَكَ لَا أَتُوبُ

أَيُّهَا الْعَاتِبُ فِي الْخَمِّ رِ مَتَى كُنْتَ سَقِيهَا  
كُنْتَ عِنْدِي بِسَوَى هَذَا مِنَ النَّصَحِ شَبِيهَا  
لَوْ أَطْعَمْنَا ذَا عِتَابٍ لِأَطْعَمْنَا اللَّهَ فِيهَا

وَإِذَا نَزَعْتَ عَنِ الْغَوَايَةِ فَلْيَكُنْ اللَّهُ ذَاكَ النَّزْعُ لَا لِلنَّاسِ

وقد يضيق أبو نواس ويشتد ضيقه بهذه السفاهة من الناس ، ويبرم ويشتد برمه بهذا الفضول منهم والدخول فيما هو من شأنه وحده ، فيسله الضيق والبرم إلى الحدة ، وتذهب به الحدة إلى الشتم القبيح والسباب المقذع :

إِنْ كُنْتُ لِلنَّارِ فَمَا حِيلَتِي عَذَّبَنِي اللَّهُ وَأَشْقَانِيَّةُ

أَوْ كُنْتُ لِلْجَنَّةِ أَحْيَا بِهَا فَمَا عَلَيْكُمْ يَا بَنِي الزَّانِيَةِ

وموجز القول أن عذل العاذلين لأبي نواس في الخمر كان شيئاً ليس من ورائه طائل ولا فيه غناء . وما كان عذلي في الخمر ليحيك في مثل أبي نواس ويفعل في نفسه . ولقد طال اعتياده له حتى مرن عليه ، بل كان لا يزيده إلا شهوة لها وعناداً فيها :

فَاعْذِرْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرَنْتُ مَسَامَعَهُ عَلَى الْعَذْلِ

دع عنك لومى فإن اللوم إغراه وداوئى بالتي كانت هى الداء

فَاضْطَبِّحْ كَأْسَ عُمْقَارٍ يَا نَدِيمِي وَاسْقِنِيهَا

إِنِّي عِنْدَ مَلَامٍ ۖ نَاسٌ فِيهَا أَشْتَهِيهَا

ولاح لحانى كى بجى ، بيدعة وتلك لعمري خطّة لا أطيقها

لحانى كى لا أشرب الراح إنها تورت وزراً فادحاً من يذوقها

فما زادنى اللاحون إلا الحاجة عليها لأتى - ما حيت - رفيقها

أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

هى الشمس إلا أن الشمس وقدة وقهوتنا فى كل حسن تفوقها

ففتح وإن لم نَسْكُنِ الْخُلْدَ عاجلاً      فما خُلدُنا في الدَّهْرِ إلا رحيقها  
 فيا أيُّها اللَّاحِى اسقِنِي ثم غنَّيْ      — فإني إلى وقت المات شقيقها —  
 « إِذَا مِتُّ فَأَذِفْنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمَةٍ      تَرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُروَقها »

### الأ كفاء وغير الأ كفاء

ولقد بلغ من عصبية شاعرنا للخمر أن كانت عنده الفِصْل بين الناس .  
 فالناس أجمعون عنده لا يَعدُّون أن يكونوا فريقين ، أو — على أصح القولين —  
 مُسكرين : أولياء الخمر ، وأعداء الخمر . وكل رأي لأبي نواس في أيِّ كائناً من  
 كان من الناس ، وكل مَيْل له إليه أو عنه ، فإنما هو رهين بموضعه من هذا  
 المسكر أو ذاك .

وعلى هذا النَّحو كانت نظرة شاعر الخمريات إلى الحياة ، وعلى هذا الوجه  
 كان فهمه للناس .

ولقد رأينا أبا نواس يحمل حملاته الصادقة الشعواء على الحزب المعادي للخمر .  
 ولكن الواقع أنه لفرط هيامه بها ، كان كثيراً ما ينقلب على حزبها فلا يعفيه  
 من بعض الحملات المعروفة عند أصحاب الأحزاب بحركة التطهير . فزاه في تكرمه  
 للخمر وتعظيمه لقدرها يدعو إلى حبسها والضنَّ بها على من ليسوا بأ كفاءها  
 من حزبها .

وَالْخَمْرُ قَدْ يَشْرِبُهَا مَعْشَرٌ لَيْسُوا إِذَا عُدُّوا بِأ كَفَائِهَا

وغير الأ كفاء هؤلاء ، قد أتى الشاعر مرات على ذكرهم في الخمريات فرادى  
 وجماعات . وهم في تعدادهم لهم ، لا يخرجون عن فئتين : البخلاء اللؤماء ،  
 والمربدين السفهاء :

وَاصْرِقْهَا نَحْنُ بِخَيْلٍ      دَانَ بِالْإِمْسَاكِ دِينَا

طَوَّلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ فَبَرَى السَّاعَةَ حِينًا

لَا تُمَكِّنُنِي مِنَ الْعَرِيدِ يَشْرُبُنِي وَلَا اللَّيْمَ الَّذِي إِنْ شَمْنِي قَطْبًا  
وَلَا السَّفَالَ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ وَلَا غِرَّ الشَّبَابِ وَلَا مَنْ يَجْهَلُ الْأَدْبَا  
وَإِنْ الْقَارِءُ لِيَحْسَ مَقْدَارَ إِعْزَازِهِ لِلخَمْرِ ، وَضَنَّهُ بِهَا عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا ،  
وَعَمَقُ غَيْرَتِهِ عَلَيْهَا ، مِنْ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي لَا يَعْدِلُهُ قَوْلٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى مِنْ حَيْثُ  
قُوَّةُ الشُّعُورِ وَصَدَقَ التَّخِيلُ عَلَى غَرَابَتِهِ :

أَجِلُّ عَنْ اللَّثَامِ الرَّاحِ حَتَّى كَأَنَّ الرَّاحَ تُعَصِّرُ مِنْ عِظَامِي

### إِبْلِيسُ وَالشَّاعِرُ

وَالْعَجِيبُ أَنَّ شَاعِرَنَا فِي نَقْمَتِهِ عَلَى خُصُومِهِ فِي الْخَمْرِ يَسْتَعْدِي إِبْلِيسَ . وَأَعْجَبُ مَا فِي الْأَمْرِ ، أَنَّهُ لَا يَسْتَعْدِي عَلَيْهِمُ الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ لِيَزِيَنَ لَهُمْ هَذِهِ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا فِيهَا وَيُعْيِبُونَهَا بِهَا ، حَتَّى لَا يَكُونَ مِنْهُمْ بَعْدَهَا شِنَاعَةٌ عَلَيْهِ وَلَا مَعَابَةٌ ، وَهُمْ فِي الْبَلَاءِ عِنْدُنَا سَوَاءٌ . كَلَّا ثُمَّ كَلَّا ! فَأَبُو نَوَاسٍ أَعَمَّقُ حُبًّا لِلخَمْرِ وَأَصْدَقُ إِكْرَامًا لَهَا وَأَرْسَخَ إِيمَانًا بِفَضْلِهَا مِنْ أَنْ يَتَمَنَّاها لِلْأَعْدَاءِ الْمَذْكُورِينَ وَيَزْعُمُ ذَلِكَ انتِقَامًا ، مَهْمَا يَكُنْ فِي ذَلِكَ مِنْ قَطْعِ أَلْسِنَتِهِمْ عَنِ النِّسْكِيرِ وَالتَّعْيِيرِ . وَإِنَّمَا عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ يَكُونُ التَّيْدِيرُ الَّذِي فِيهِ الْوَفَاءُ بِنَقْمَتِهِ ، وَالشِّفَاءُ لَشَهْوَةِ انتِقَامِهِ وَحِرَازَتِهِ . ذَلِكَ أَلَّا يَزِيَنَهَا إِبْلِيسُ لَهُمْ وَلَا يَعْرِضُهَا عَلَيْهِمْ وَلَا يَحْبِّبُهَا إِلَيْهِمْ ، فَيَطُولُ حِرْمَانُهُمْ مِنْ هَذِهِ التَّلْعَةِ الَّتِي لَا تَعْدُ لَهَا عِنْدَهُ مَتْعَةٌ ، وَتَذْهَبُ حَيَاتُهُمْ بِدُونِهَا ضَيَاعًا . وَالْقَارِءُ لَا شَكَّ بِحَسَرَةٍ مَعْنَى أَنَّ أَبَا نَوَاسٍ النَّاقِمَ يُوَدِّعُ كُلَّ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ بَغْضَاءٍ حِينَ يَدْعُو عَلَى خُصُومِهِ هَذَا الدَّعَاءَ :

دَعَوْتُ إِبْلِيسَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَا تَسْقُ هَذَا الشَّرَابَ عُدَّالِي



وشاعرنا لا يني يذكر إبليس ، وهو لا يذكره كما يذكره سائر الناس باللعنة  
له والاستعاذة منه ، بل يذكره ذكر كرك من تعرف له حسن صنيعه إليك وحق  
نعمته عليك . وأولى هذه الصنائع المشكورة والنعم المذكورة لإبليس عند الشاعر ،  
أنه الموسوس بشرب الخمر الداعي إليها :

يَا حَبَّذَا حَانَةَ الْكَرْخِ تَجْمَعُنَا نَطِيعُ فِيهَا بِشْرِبِ الْخَمْرِ إِبْلِيسَا

ومن كان مثل شاعرنا يلهج بالخمر هذا اللَّهَج ، ويزعم أنه لم يوفها حدًا وصفها  
مهما وصف ، يحسب لا محالة أنه مهما شكر للشيطان الموسوس بها الداعي إليها ،  
لم يؤدّه حق شكره عليها . ثم إننا لا ننزّيد على شاعرنا إذا حسبناه ينسب هذه  
الوسوسة الشيطانية إلى أنها هداية ، فإنه ليدعو بها لمن يحب بصريح العبارة :  
فاشرب - هُديت - وغنّ القوم مُبتدئًا على مُصاحبة العيدان والنَّاءِ  
فالخمر أولى صنائع إبليس عند أبي نواس .

وأما الصنيع الثاني فهو التيسير والمعاونة على العشق الذي يهدف إلى الفسق ،  
بما اجتمع لإبليس من لطف الحيلة وبراعة المدخل ، وقلما يكون ذلك إلا عن  
طريق الخمر ؛ فهي هنا الأصل ، وما يأتي بعدها تبع لها :

وِغْزَالِ زَانَ بِالْقَا مَةِ رِدْفًا بَرَبْرِيًا  
قَدْ سَقَيْنَاهُ عَلَى الْوَرْدِ شَرَابًا ذَهَبِيًا  
قَادَهُ إِبْلِيسُ طَوْعًا بَعْدَ مَا كَانَ عَصِيًا

يُدِيرُهَا أَحْوَرُ بِهِ هَيْفَ مُعْتَدِلُ الْخَلْقِ رَاجِعُ الْكَفَلِ  
تَحْكِي أَنَا الْجُلْنَارَ وَجَنَّتُهُ إِذَا عَلَاهَا تَوَرَّدُ الْخَجَلِ

فإن ترُمَّ عندهُ مُدَاعِبَةً      قال « حَذَارٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ »  
 فحينَ منه خَشِيتُ صَوْلَتَهُ      وصرتُ من حَبِّهِ عَلَى وَجَلِ  
 دعوتُ إبليسَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ      « قَدْ أَعْجَزَتْنِي مَذَاهِبُ الْحَيْلِ »  
 حَبْلِي وَحَبْلُ الَّذِي كَلِّفْتُ بِهِ      — عَلَى تَدَانِيهِ — غَيْرُ مُتَّصِلِ »  
 فَرَدَّهُ الشَّيْخُ عَنْ صُعُوبَتِهِ      وصار قَوَادِنَا ، وَلَمْ يَزَلْ  
 والذي يلاحظ في حديث أبي نواس عن إبليس ، أنه يتحدث عن ذلك  
 الشيطان المرید المفسد كمن يتحدث عن إلفٍ صديق توثقت بينهما المودة وطالت  
 بها المدة . وهو يسميه « إبليس الظريف » ، فإذا أراد الإشارة إلى خبرته وحسنه  
 سَمَّاهُ « الشَّيْخُ » :

فأدارَهَا عِدَدًا ثَلَاثًا فَانْتَنَتْ      مِنَّا النُّفُوسُ وَلَيْسَ مِنْهَا صَادِرٌ  
 حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ بَوَجْنَةٍ صَاحِبِي      وَفَوَادِهِ ، وَبِوَجْنَتِي وَفَوَادِي  
 لَمْ يَرْضَ إبليسُ الظَّرِيفُ فَعَالَنَا      حَتَّى أَعَانَ فَسَادَنَا بِفَسَادِ

مَرَّتْ مُحِيًّا الْكَأْسُ فِي رَأْسِهِ      وَدَبَّتِ الْخَمْرَةُ فِي وَجْنَتِهِ  
 فَصَارَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ      وَكَانَ لَا يَأْذَنُ فِي قُبْلَتِهِ  
 دَبُّ لَهُ إبليسُ فَاقْتَادَهُ      وَالشَّيْخُ نَفَّاعٌ عَلَى لَفْنَتِهِ  
 عَجِبْتُ مِنْ إبليسَ فِي تَيْهِهِ      وَخُبْتُ مَا أَظْهَرَ مِنْ رَيْتِهِ  
 تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ      وَصَارَ قَوَادِمًا لَذُرِّيَّتِهِ

وللشاعر في هذا المعنى أبيات لا يملك القارىء نفسه عند قراءتها من الضحك  
 بقلبه ، لما في الصورة السريعة التي يعرضها من التفاتٍ بارع تتجلى فيه خبائة  
 شاعرنا وفكاهته . فالشاعر في هذه المرة يستحضر إبليس على خلوة ، ويبتدره

بالمقال في تأثر وانفعال ، ثم يعمد وهو المستضعف المسكين إلى التهديد والوعيد .  
أتدري بماذا ؟ إنه يهدد ويتوعد الشيطان المفسد المريد ، إذا لم يُعنه على وصال  
الحبيب ، أن يكف عما ينظم من ماجن الشعر ، ويترك سماع الغناء ومعاقرة الخمر ،  
وأن يكف على الصلاة ، ويلتزم الصوم وطاعة الله :

لَمَّا جَفَانِي الْحَبِيبُ وَامْتَنَعَتْ عَنِّي الرِّسَالَاتُ مِنْهُ وَالْخَبَرُ  
اشْتَدَّ شَوْقِي فَكَادَ يَقْتُلْنِي ذِكْرُ حَبِيبِي وَالْهَمُّ وَالْفِكْرُ  
دَعَوْتُ إِبْلِيسَ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ فِي خُلُوعٍ ، وَاللَّامُوعُ تَنْهَمِرُ  
« أَمَا تَرَى كَيْفَ قَدْ بَلَيْتُ ، وَقَدْ أَقْرَحَ جَفْنِي الْبُكَاءُ وَالسَّهَرُ ؟  
إِنْ أَنْتَ لَمْ تُلْقِ لِي الْمَوَدَّةَ فِي صَدْرِ حَبِيبِي ، وَأَنْتَ مُقْتَدِرٌ  
لَا قُلْتُ شِعْرًا ، وَلَا سَمِعْتُ غِنَاءً وَلَا جَرَى فِي مَفَاصِلِ السَّكْرِ  
وَلَا أَزَالُ الْقُرْآنَ أَدْرُسُهُ أَرْوَحُ فِي دَرْسِهِ وَأُبْتَكِرُ  
وَأَلْزَمُ الصَّوْمَ ، وَالصَّلَاةَ ، وَلَا أَزَالُ - دَهْرِي - بِالْخَيْرِ آتِمِرُ »  
فَمَا مَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ ثَالِثَةٌ حَتَّى أَتَانِي الْحَبِيبُ يَعْتَذِرُ

ولهذه القصيدة حكاية رواها رزين الكاتب ، قال : اجتمعنا يوماً أنا  
وأبو نواس وعلي بن الخليل في سوق السكرخ ، وكنا نجتمع وتتناشد الأشعار  
ونتذاكر الأخبار ونتحدث بها . فقال أبو نواس : « أذبر من كان في نفسي ،  
وكان أسرع الخلق إلى طاعتي ، فما أدري ما أحتال له ؟ » . فقال له علي بن الخليل :  
يمارحه : « يا أبا علي ! سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك » . فقال له أبو نواس :  
« من تعني ؟ » قال : « من أنت في طاعته ليلك ونهارك ( يعني إبليس ) فإن لم  
يقض لك هذه الحاجة ، فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ، ولا أن تقر عينه بمعصية » .  
فقال : « هو أسد لرأيه من أن يُخلّ بي ، أو يخذلني » وانقضى مجلسنا ذلك . فلما  
كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع ، وأخذنا في أحاديثنا ، فضحك أبو نواس



فقلنا له : « ما أضحكك ؟ » فقال : « ذكرت قول علي بن الخليل يومئذ ( سل شيخك يعطفه عليك ) ، حينئذ قد سأله يا أبا الحسن ، ففضى الحاجة ، وما مضت والله ثلاثة حتى أتاني من غير أن أبعث إليه ، ومن غير أن أستزيره ، فعاتبني واسترضاني ، وكان الغضب منه والتجتي ، وأحسب الشيخ (يعني إبليس) كان يتسمع علينا في وقت كلامنا . وقد قلت أبياتاً في ذلك » . فقلنا : « هاتها » فأنشد الأبيات التي أوردناها .

ولما كانت هذه العلاقة بين أبي نواس وإبليس مع ما فيها من الفكاهة تحتمل المزيد من التقصى ، فلا بأس من أن ننبيه القارئ الذي يهمه تأريخ بدنها إلى أنها ترجع إلى حادثة سن الشاعر . فقد زعم أستاذه والبة بن الحباب أنه كان ليلة نائماً وأبو نواس غلامه إلى جانبه نائم ، إذ أتاه آت في منامه فقال له : « أتدري من هذا النائم إلى جانبك ؟ » فقال والبة : « ما شأنه ؟ » قال : « هذا أشعر منك ، وأشعر من الجن والإنس . أما والله ، لأفتنن بشعره الثقلين ولأغرين به أهل المشرق والمغرب » . فعلم والبة أنه إبليس ، فقال له : « فما عندك ؟ » قال : « عصيت ربي في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت » .

ومما يجدر بالذكر أن الشيخ الظريف إبليس فيما يروى الرواة لم يقصر اهتمامه على الشعر ، بل نصب نفسه راعياً للفنون في ذلك العصر ، كما يستدل من انصراف عنايته كذلك إلى فن الموسيقى والغناء .

فلقد ابتدع إبراهيم الموصلي نوعاً من الغناء وهو المعروف بالماخوري ، فافتتن به الناس أشد الفتنة ، وكان إبراهيم يلقيه على الجوارى فتضاعف قيمتهن بسبب ذلك ، ثم جاء إسحق الموصلي يروي عن أبيه إبراهيم أسطورة في شأن هذا الغناء زعم فيها إبراهيم أنه أخذه عن إبليس ، قال : [ استأذنت الرشيد أن يهب لي يوماً



من أيام الجمعة لأنفرد فيه بجوارى وإخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال : « هو يوم أستنقله قاله فيه بما شئت ». فأقمت يوم السبت بمنزلى ، وأخذت فى إصلاح طعامى وشرابى بما احتجت إليه . وأمرت البواب أن يغلّق الأبواب ، وأمرته ألا يأذن لأحد فى الدخول علىّ . فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حَفَقْنَ بى ، إذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خُفَّان قصيران وقيصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقعّة بفضة ، وروايح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق . فدخلنى غيظ عظيم لدخوله علىّ وهمت بطرد بوابى . فلم علىّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس . فجلس وأخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب ، فظننت أن غلمانى تحرّوا مسرتى بإدخال مثله علىّ لأدبه وظرفه . فقلت « هل لك فى الطعام ؟ » . فقال : « لا حاجة لى فيه » . قلت : « فالشراب ؟ » ، قال « ذلك إليك » . فشربت رطلاً وسقيته مثله . فقال : « يا أبا إسحق ، هل لك أن تغنينا شيئاً فنسمع من صنعتك ما قد فُتّت به عند الخاص والعام ؟ » . فغاضنى قوله ، ثم سهّلت الأمر علىّ نفسى فأخذت العود فجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : « أحسنت يا إبراهيم » ، فازددت غيظاً وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير إذن واقتراحه علىّ حتى سمانى باسمى ولم يجعل مخاطبتى . ثم قال : « هل لك أن تزيد ونكافئك ؟ » . فتعجبت من قوله وقلت فى نفسى بم يكافئنى ! ثم أخذت العود فغنيت وتحفّظت بما غنيت وقت به قياماً تاماً لقوله لى أكافئك . فطرب وقال : « أحسنت يا سيدى » . ثم قال : « أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ » فقلت : « شأنك » ، لكن استضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى . فأخذ العود وجسه ، فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده ، واندفع يغنى :

ولى كَبِدٌ مَّزْرُوحَةٌ مِنْ يَبِيعُنِ      بِهَا كَبِدٌ لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ

أبأها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح  
 أنن من الشوق الذي في جوانحي أنين غصيصٍ بالشراب قريح  
 فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل ما في البيت يجيبه  
 ويغني معه من حسن صوته ، حتى خلت والله أني أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه  
 وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي من اللذة التي غيبتني  
 عن الوجود . فلما رأي كذلك أخذ العود ثانية واندفع يغني بقوله :

ألا يا سحامات اللوى عُدنَ عودةً      فإني إلى أصواتكن حزينُ  
 فعدن . فلما عدنَ كدنَ يمتنني      وكدتُ بأسراري لهنَّ أئينُ  
 وعدن بترداد الهدير . كأنما      شرِبْن الحميّا ، أوِهِنَّ جُنونُ  
 فلم ترَ عيني مثلهنَّ سحائمًا      بهكينَّ ولم تدمعْ لهنَّ غيونُ

فكاد عقلي أن يذهب طرباً . ثم غنى ليزيد بن الطثرية هذا .

ألا يا صبا نبجيد ، متى هجبت من نبجيد ؟      لقد زادني مسراكِ وجداً على وجدِ  
 أن هتفت ورّقاء في رونق الضحى      على غصن غصن الثّبات من الرّند  
 بكيت كما يبكي الحزين صبايةً      وذُبت من الوجد المبرح والجهدِ  
 وقد زعموا أن المحب إذا نأى      يملؤ وأن النأي يشفي من الوجدِ  
 بكل تدأويننا ، فلم يُشف ما بيننا      على أن قُرب الدّار خيرٌ من البعدِ

ثم قال : « يا إبراهيم ، هذا الغناء الماخوري خذه وانح نحوّه في غنائك وعلمّه  
 جواريك » . فقلت : « أعدّه علي » . فقال : « لست بمحتاج . قد أخذته  
 وفرغت منه » . ثم غاب من بين عيني . فارتعدت لذلك وقت إلى السيف فجردته  
 ثم غدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجواري : « أي شيء سمعتن  
 عندي ؟ » . فقلن : « سمعنا أحسن غناء لم نسمع قط أحسن منه » . فخرجت

متحيراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً ، فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج ، فقال : « أى شيخ ! والله ما دخل عليك أحد » . فرجعت لأتأمل أمرى ، فإذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت فقال : « لا بأس عليك يا أبا إسحق ، أنا أبو مرّة إبليس ، وقد كنت نديمك اليوم فلا تُرَع ! » . فركبت إلى الرشيد وأخبرته بالحديث ، فقال : « ويحك ، اعتبر الأصوات الـ أخذتها » . فأخذت العود فإذا هى راسخة فى صدرى .

وليس لنا من تعقيب على هذه الأسطورة إلا إظهار التعجب من ذبوعها وتصديق وقوعها فى عالم الحسّ والواقع . وإذا كان لا بد من وقوعها فالأقرب إلى التصديق ما زعموا وقوعه من هذا القبيل فى عالم الرؤيا ، وكان إبراهيم الموصلى صاحب التأويل فى هذه المرة . قال مخارق [ رأيت وأنا حدث كأن شيخاً جالاً على سرير فى روضة حسنة ، فدعانى فقال لى : « غنى يا مخارق » . فقلت : « أصوتاً تقترحه أو ما حضر ؟ » فقال : « ما حضر » . فغنيته :

دَعَى الْقَلْبَ لَا يَزِدُّ خَبَالاً مَعَ الَّذِي بِهِ مِنْكَ أَوْ دَاوَى جَوَاهُ الْمَكْتَمَا  
وَلَيْسَ بِتَزْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوْنِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ خَالَطَ اللَّخْمَ وَالْدِّمَا

فقال لى : « أحسنت يا مخارق » . ثم أخذ وتراً من أوتار العود فلفه على المضراب ودفعه إلىّ ، فجعل المضراب يطول ويغلف ، والوتر ينتشر ويعرض ، حتى صار المضراب كالمرح والوتر كالعذبة عليه وصار فى يدي علماً ، ثم انتهت فحدث برؤياى إبراهيم الموصلى فقال لى : « الشيخ بلا شك إبليس ، وقد عقد لواء صنعتهك فأت ما حيت رئيس أهلها » [ .

ونعود ، بعد شهادة إبليس هذه لمخارق فى الغناء ، إلى ما كنا فيه من شهادته لأبى نواس فى الشعر ، فنقول إننا لا نشك فى أن هذه الشهادة قد اتصل بالشاعر



خبرها وأنه كان مرهواً بها . وقد روى ابن أبي خلسة أنه حضر باب أسماء بنت المهدي وكان يجتمع عنده الشعراء ومنهم أبو نواس . فجاء ابن أبي خلسة فقمعد إلى جانبه فأسمعه الشاعر قصيدة له في المجون . فتعجب الرجل مما يتأتى له من حلاوة الشعر وفتنته في هذا الباب ، وقال له : « إن كان لإبليس خليفة في الإنس فأنت هو » . فقال أبو نواس : « لا تشك ، أنا ذلك » .

وحسب القارئ أن يقرأ له وصاياه في باب المجون ليقن أنه هو « ذلك » من غير شك ، وهذا نموذج من وصاياه أسقطنا منه ما أسقطناه ، وبديهي أن الشاعر ليس يقصد إلى غير المجون ، ولكنه مع ذلك مجنون خبيث لا يلقنه غير إبليس :

إِنِّي قَصَدْتُ إِلَى فَقِيهِ عَالِمٍ مُتَنَسِّكِ حَبْرِ مِنَ الْأَجْبَارِ  
مَتَعَّقٍ فِي دِينِهِ مَتَفَقِّهِ مُتَبَصِّرٍ فِي الْعِلْمِ وَالْأَخْبَارِ  
قُلْتُ: « النَّبِيذُ تَحِلُّهُ؟ » فَأَجَابَ: « لَا إِلَّا عُقَارًا تَرْتَمِي بِشَرَارِ »  
قُلْتُ: « السَّمَاعُ، فَمَا عَلِمْتَ؟ » أَجَابَنِي: « إِلَّا بِخَفَقِ الْعُودِ وَالزَّمَارِ »  
قُلْتُ: « الْمُنَادِمُ مَنْ يَكُونُ؟ » أَجَابَنِي: « لَا تَعْدِلْنِ عَنْ مَا جَنِّ عَيَّارِ »  
قُلْتُ: « الصَّلَاةُ؟ » فَقَالَ: « فَرَضٌ وَاجِبٌ، صَلِّ الصَّلَاةَ وَبِتْ حَلِيفَ عُقَارِ »  
قُلْتُ: « الصَّيَامُ؟ » فَقَالَ لِي: « لَا تَنْوِهِ اجْمَعْ عَلَيْكَ صَلَاةَ حَوْلٍ كَامِلٍ »  
قُلْتُ: « التَّصَدَّقُ وَالزَّكَاةُ؟ » فَقَالَ لِي: « شَيْءٌ يُعَدُّ لَالَةً الشُّطَارِ »  
قُلْتُ: « الْمَنَاسِكُ إِنْ حَجَجْتُ؟ » فَقَالَ لِي: « هَذَا الْفُضُولُ وَغَايَةُ الْإِدْبَارِ »  
قُلْتُ: « لَا تَأْتِيَنَّ بِلَادَ مَكَّةَ مُحَرِّمًا وَلَوْ أَنَّ مَكَّةَ عِنْدَ بَابِ الدَّارِ »



قلت: «الطغاة؟» فقال لى: «لا تغزهم ولو أنهم قرَّبوا من الأنبار  
سالمهم ، واقتصَّ من أولادهم إن كنتَ ذا حَنَقٍ على الكفار»  
قلت: «الأمانة هل تُردُّ؟» فقال لى: «لا تُردُّ القِطْمِيرَ من قِنْطَارٍ  
لأهمَّ إلاَّ أن تكونَ مُضْمَنًا دَيْنًا لصاحبِ حانَةِ خَمَارٍ  
فَارْدُدْ أمانته عليه ودَيْنه واحتلَّ لذك ولو يبيع إزار»  
قلت: «اعتزمتُ. فما ترى فى عازبٍ مُتَغَرَّبٍ مُتَقَارِبِ الأسفار؟»  
فأجابنى: «لَكَ أن تَلَذَّ بِزَنِيَّةٍ من جَارَةٍ مَقْدُودَةٍ أو جَارٍ  
ودنا إلى وقال: «نضحك واجبٌ زَيْنُ خِصَالِكَ هذه بَقَارُ»

ولقد ظل إبليس جميل الرأى فى صاحبه أبى نواس ، راسخ العقيدة فى ولانه  
ووفائه ، وحسن حفاظه على الود ، وإقامته على ما بينهما من العهد ، مهما ينتابه  
فى الحين بعد الحين من ندم ويعرض له من توبة . وما ذلك إلا لما يتيقنه إبليس  
فى أبى نواس ، ويتيقنه أبو نواس فى نفسه ، من أنه مغلوب على عقله بشهوته ،  
وأن الجنون باللهوفى دمه وفى الصميم من طبيعته :

نَمْتُ إِلَى الصُّبْحِ وَإِبْلِيسُ لى فى كُلِّ ما يُؤْتَمُنَى خَصْمُ  
رَأَيْتُهُ فى الْجَوِّ مُسْتَعْلِيًا ثُمَّ هَوَى يَنْبُعُهُ نَجْمُ  
أَرَادَ لِلسَّمْعِ اسْتِرَاقًا فما عَمَّ أَنْ أَهْبَطَهُ الرَّجْمُ  
فَقَالَ لى لَمَّا هَوَى : «مَرْحَبًا بِتَائِبِ تَوْبَتِهِ وَهُمْ  
هل لك فى عَذْرَاءٍ مَمْكُودَةٍ يَزِينُهَا صَدْرُهَا فَخْمُ  
وَوَارِدُ جَنَلٍ على مَتْنِهَا أَسودُ يَحْكى لَوْنَهُ الْكَرْمُ ؟»  
فقلتُ : «لا» . قال : «فَتَى أُمْرَدُ بَرْتِيجٍ مِنْهُ كَفَلُ قَمِ

كَأَنَّهُ عَذْرَاءٌ فِي خَذَرِهَا      وَلَيْسَ فِي لَبَّتِهِ نَظْمٌ ؟ «  
 قُلْتُ : « لا » . قَالَ : « فَتَى مُسْمِعٌ      يَحْسُنُ مِنْهُ النَّقْرُ وَالنَّعْمُ ؟ »  
 قُلْتُ : « لا » . قَالَ : « فَتَى كُلِّ مَا      شَابَهُ مَا قُلْتُ لَكَ الْحَزْمُ  
 مَا أَنَا بِالْأَيْسِ مِنْ عَوْدَةٍ      مِنْكَ عَلَى رَغْمِكَ ، يَا قَدَمُ  
 لَسْتُ أَبَا مُرَّةٍ إِنْ لَمْ تَعُدْ      فغَيْرُ ذَا مِنْ فِعْلِكَ الْغَشْمُ <sup>(١)</sup> »

### نوبات الندم

على أن القارىء يأخذه العجب حين ينتقل في ديوان أبي نواس من الحمريات إلى الزهديات ، ويزيد في عجبه — على قلتها — أنها لا تخلو من إجادات . ولقد شهد بذلك أبو العتاهية وهو أكثر الشعراء قولاً في الزهد ، فكان يقول : « سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبياتٍ وددتُ أنى سبقته إليها بكل ما قلته ، فإنه أشعر الناس فيها » . ثم يعود فيقول : « قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت ، وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات الثلاثة » .

والأبيات هي قول أبي نواس :

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشَفَتْ      لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ مُتَهِمًا      لَمْ يُنْسِ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدِ

يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفْوُ ۖ ۖ      لَهُ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ

وإن شهادة يشهدها أبو العتاهية لأبي نواس لا تعدلها شهادة ، لا لوفرة ما قاله في الزهد وشهرته به فحسب ، بل لما كان بين الشاعرين من تنافس ؛ فقد كان

(١) الغشم : ما يأتيه المرء بلا نظر ولا فكر .

الشاعران — وأولهما كوفي والآخر بصرى — هما الغالبين في عصرهما على سائر الشعراء في بغداد . وقد ورد حديث لأبي مخلد الطائي زعم فيه أن أبا العتاهية جاء عنده فقال له : « إن أبا نواس لا يخالفك . وقد أحبيت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئاً ، فإنني قد تركت له المديح والهجاء والخمر ، والرقيق وما فيه للشعراء ، وللزهد شوقي » . فبعث الطائي إلى أبي نواس ، فجاء إليه وأخذ في شأنهما يشربان النبيذ ، وأبو العتاهية لا يشرب معهما . فقال الطائي لأبي نواس : « إن أبا إسحاق من قد عرفت في جلالته وتقدمه ، وقد أحب أنك لا تقول في الزهد شيئاً » . فوجم أبو نواس عند ذلك وقال : « يا أبا مخلد ، قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع . وقد فعلت ولا أخالف أبا إسحاق فيما رغب إليه » .

وفي هذا الخبر — إذا صح — ما يصح أن يُعمل به قلة ما نجد من الزهديات في ديوان أبي نواس . وعلى كل حال فالأمر غير ذي خطر ؛ فما نحسب شاعرنا كان آتياً في هذا الباب مهما أكثر من القول فيه بما يعجز عنه غيره . فإن أكثر ما تدور عليه الزهديات ذكر الموت ، وهو قولٌ معاد ، وحسب الناس منه هذا الخطاب الذي يجبه أبو العتاهية به جميع الأحياء في قسوة وغلظة كالشامت :

• لِدُوا لِلْمَوْتِ ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ •

والذي يعيننا من الأمر كله هو أن نعرف أن كان أبو نواس ينظم في الزهديات على أنها غرض من أغراض الشعر ينافس فيه أبا العتاهية ويجب أن يبلغ فيه فوق ما بلغه معاصره كما قد يستدل من حديث أبي مخلد ، أم كان في زهدياته معبراً صادق العبارة عن شعوره بالحسرة والندامة على ما فرط من سوء صنيعه ؟

ونحن لا نأخذ بأحد الفرضين دون الآخر ، ونعتقد — من غير أن نقطع

الفرض الأول من حسابنا — أن أبا نواس كانت تنقابه مثل الكثيرين غيره من مرتكبي المعاصي نوباتٌ من الجزع والرغبة من القصاص عند ذكر الموت ، لا سيما بعد أن ضعف وتقدمت به السن وأشعرته الشيخوخة بدنو الأجل :

أَيَا مَنْ بَيْنَ بَاطِيَةٍ وَزِقَةٍ      وَعُودٍ فِي يَدَيَّ غَانٍ مُغْنَى  
إِذَا لَمْ تَنْهَ نَفْسَكَ عَنْ هَوَاهَا      وَتُحْسِنَ صَوْنَهَا فَإِلَيْكَ عَنِي  
فَإِنِّي قَدْ شَبِعْتُ مِنَ الْمَعَاصِي      وَمِنْ إِدْمَانِهَا وَشَبِعَنْ مِنِّي  
وَمَنْ أَسْوَأُ أَقْبَحُ مِنْ لَبِيبٍ      يُرَى مُتَطَرِّبًا فِي مِثْلِ سِنِّي

أَلَمْ تَرَنِي أُنْجِتُ اللَّهُوَ نَفْسِي      وَدِينِي ، وَاعْتَكَفْتُ عَلَى الْمَعَاصِي  
كَأَنِّي لَا أَعُودُ إِلَى مَعَادٍ      وَلَا أَخْشَى هُنَاكَ مِنْ قِصَاصٍ !

لَوْ صَحَّ عَنِّي قَلَّ أَشْبَاهِي      أَجَلٌ ، وَلَمْ أَلَهُ مَعَ اللَّهِ  
أَعُودُ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ      مِنْ عَاجِزِ التَّرَكِيبِ تَيَّاه  
لَا تَتَنَاهَى النَّفْسُ عَنْ غَيْبِهَا      مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا نَاه

يَا مَنْ أَقَامَ عَلَى خَطِيئَتِهِ      سُدَّتْ عَلَيْكَ مَذَاهِبُ الرَّشْدِ  
مَنْتَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَتُوبَ غَدًا      أَوْ مَا تَخَافُ الْمَوْتَ دُونَ غَدِ  
الْمَوْتُ ضَيْفٌ فَاسْتَعِدَّ لَهُ      قَبْلَ التَّزْوُلِ بِأَفْضَلِ الْعُدَدِ  
يَا نَفْسُ مَوْرِدُكَ الصَّرَاطُ غَدًا      فَتَأْهَبِي مِنْ قَبْلِ أَنْ تَرِدِي  
مَا حُجِّتِي يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا      شَهِدْتُ عَلَىَّ بِمَا جَنَيْتُ يَدِي

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَتُّ أَلْهُو بِهَا      لَوْ دَامَ ذَاكَ اللَّهُوَ لِلَّاهِي



حَرَمَهَا اللهُ وَحَلَّتْهَا فَكَيْفَ بِالْعَفْوِ مِنْ اللهِ ؟

وليس ينبغي أن تكون هذه الكلمات المتهذجة التي يرقتها الأنبي وتقطعها الحشرات مما يستغرب صدور من شاعرنا الخليع . فهو قد نشأ في حدائته الأولى في البصرة نشأة دينية ، فقرأ القرآن على العالم الزاهد الناسك الورع يعقوب الحضرمي إمام القراءات ، وقد بلغ الغلام من حذقه القرآن أن رمى إليه الشيخ بخاتمه وقال له : « اذهب ، فأنت أقرأ أهل البصرة » . وكذلك اختلف في طلب الحديث على أئمة المحدثين ، وقد بلغ في ذلك أن جاء ذكره في جملة رواة الحديث . وكلنا نعرف في ذات أنفسنا مما نتعرض له في تجاربنا أن ما نتلقاه في الحداثة يخالط دمننا ويكمن من وراء وعينا ، وأنا نفيد في مُستأنف أيامنا ما نفيد من المعارف ونستحدث ما نستحدث من الآراء ، ونسلك بحياتنا في الطريق التي تزيناها لنا معارفنا المكتسبة وآراؤنا المستحدثة ، ومع ذلك لا نخلص مما نشأنا عليه من تقاليد ومعتقدات .

فالنواصي كانت تنتابه نوبات من الندم حين يفرط به المجنون ، وكان في الحين بعد الحين يعزم على التوبة ويظهرها ، ثم لا يلبث أن يعاود سيرته ويستغرق في لذته ، فينسى الخلد كله في ساعته :

أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ وَالذُّنُوبُ تَزِيدُ      وَالكَاتِبُ الْمُحْصِي عَلَيْكَ شَهِيدُ  
كَمْ قُلْتَ «لَسْتُ بِعَائِدٍ فِي سَوَاءَةٍ»      وَنَذَرْتَ فِيهَا ، ثُمَّ صَرْتَ تَعُودُ

بيد أننا نسمع للشاعر في شيخوخته نعمة أخرى حزينة ، ولعلها أحر من تلك وأصدق . وإنها لتدور أيضاً على الحسرة ، ولكنها من سابقها في القطب المقابل والطرف النقيض . فهي الحسرة المتلهفة على الشباب الغابر وعنفوانه الناضر ، وما كان له من قوة السحر على استفتاح معاقل الجمال ، وما أوتي من الشرّة والقدرة

على المساعفة على الشهوات واستيفاء اللذات . والشاعر الشيخ لا يذكر هذا العهد  
الفاسق الآثم ذكر التائب النادم ، بل ذكر المتحسر الملتف على أنه لم يكن بالدامم :

كان الشَّابُّ مَطِيَّةَ الجَهِلِ      ومُحَسِّنَ الضَّحِكَاتِ والهزلِ  
كان الجليل إذا ارتدَّتْ به      ومَشِيْتُ أخطرُ صَيِّتِ النَّعْلِ  
كان المُشَفَّعُ في مآربه      عند الفتاة ومُدْرِكِ النَّيْلِ  
والباعثي والنَّاسُ قد رَقَدُوا      حتى أبيت خَلِيفَةَ البَعْلِ  
والأمرى حتى إذا عَزَمْتُ      نفسي أعان يَدَيَّ بالفِعلِ  
فالآن صرْتُ إلى مُقَارَبَةٍ      وحَطَّطْتُ عن ظهر الصِّبَا رَحْلِي  
والرَّاحُ أهواها وإن رَزَّاتْ      بُلَغَ المعاشِ وقلَّتْ فَضْلِي

وقد كان في ميسور أبي نواس أن يبرز للناس في ظاهر أهل التوبة والإقامة ،  
ويتراءى في سمت المتقين ، ويندرج في عداد الصالحين ، مع بقائه منغمساً في  
عييه عاكفاً على شينيه ، شأن المرائين في الدين اتقاء لأذى الناس ، وتحرزاً من  
سوء القالة بينهم ، وطلباً للجاه عندهم . وإن شاعرنا ليعلم أنه مهما يكن خبث  
الفاسق الخليع ، ولطافة مداخله ، وفطنته في بث الجبائل ونصب الأشرار ، فإن  
هؤلاء أدنى إلى النِّفاق بالنِّفاق ، وأنفذ حيلة وأسهل فريسة ، لاطمئنان البسطاء  
إليهم وغفلة الرقباء عنهم . وفي الأبيات التالية يشهدنا الشاعر كيف كانت تكون  
حالته من النجس في حاجته وإشباع شهوته ، لو أنه اتخذ من المتنسك ظاهر  
صورته وتخلق في وجه الخلق بخليقته ، وتحلى بخليته مشتملاً بخرقته مستمسكاً  
بسبحته ، أشبه ما يكون بشخصية الشيخ الدجال « ترتيف » في مسرحية مولير :

ألم تر أئى حين أغدُو مُسَبِّحًا      بَسَمْتُ «أبى ذَرٍّ» وقلب «أبى جَهْلٍ»  
وأخشع في نفسي وأخفضُ ناظري      وسجَّادنى في الوجهِ كالدرهم المَطْلَى

وَأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ لَا مِنْ تَقِيَّةٍ      وكيف وقولِي لَا يُصَدِّقُهُ فِعْلِي  
وَمَجْبَرَتِي - رَأْسُ الرِّيَاءِ - وَدَفْتَرِي      ونَعْلِيَّ فِي كَفِّيَّ مِنْ آلَةِ الْخُتْلِ  
أَوْمٌ فَقِيهًا لَيْسَ رَأْيِي لَفِقِهِ      ولكن لِرَبِّ الْمُرْدِ مُجْتَمَعُ الشَّمْلِ  
فَكُمُ أَمْرِدٍ قَدْ قَالَ وَالِدُهُ لَهُ      عَلَيْكَ بِهِذَا ، إِنَّهُ مِنْ أُولَى الْفَضْلِ  
يَفِرُّ بِهِ مِنْ أَنْ يُصَاحِبَ شَاطِرًا      كَمَنْ فَرَّ مِنْ حَرِّ الْجِرَاحِ إِلَى الْقَتْلِ

وهذه الصورة - وإن يكن الشاعر قد تمثلها لنفسه - أبعدُ شيء عن  
مُشابهته . فأبو نواس على كل ما به من رذيلة ، لَا يُنْكَرُ عليه حظه الأوفى من هذه  
الفضيلة ، فضيلة الصراحة والمجاهرة . فقد عاش ما عاش ، علانيته كسريرته ،  
وظهارته كبطائنه ، ولسانه صورة قلبه :

اشْرَبْ ، فُدَيْتَ ، عَلَانِيَةً      أُمُّ التَّسْتَرِ زَانِيَهُ  
وَدَعِ التَّسْتَرَ وَالرِّيَاءَ      فَمَا هُمَا مِنْ شَانِيَهُ

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ      وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمَكُنَ الْجَهْرُ  
وَبُحْ بِاسْمِ مَنْ أَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى      فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ

فأبو نواس كان لا يكره شيئاً كراهته للرياء والتستر ، ويندر في الناس من  
كان له إصراره على أن يُعرف على جلبيته وحقيقته ، فمن فاتهم معرفة أمر من  
أمره عياناً لم يفهم ذلك سماعاً فيما يروى من أخباره ويُذيع من أشعاره .  
ومن كانت هذه جبلته فليس يستغرب منه أن ينفر طبعه ويأبى عليه نسبة  
ماليس فيه إليه ، ولو كان هذا المنحول خصلة يتمناها ويرجو أن يُعطاه . ولعل  
ذلك سر غضبته حين كانت تشيع الشائعة عن توبته .

ولقد عرف إخوان أبي نواس ذلك منه . فكانوا إذا أرادوا العبث به ، لم يجدوا



أذهب وأمن في ذلك من أن يشيعوا عنه التوبة ، وأنه نزع عما كان عليه من  
 الفسوق والخمر . و يروى أنهم حين أشاعوا ذلك عنه ، أقبل الناس يهنتونه ،  
 فجعل يكذب ما قيل ، ويقول : « أنا والله شرٌّ مما كنت » . فلما كثر ذلك عليه ،  
 دعا بخمار يهودى ، وأجلسه إلى جانبه ومعه خمر ، فكان كلما جاء أحد يهنته يقول  
 للغلام قبل أن يتكلم القادم : « صُبَّ لى من خمرك » ، فيشرب قدحاً ثم يقبل  
 الساقى ، ويقول للذى جاء يهنته : « قد رأيت صحة التوبة » .

ولقد نظم النواسى في ذلك شعراً قال :

قالوا « نَزَعْتَ » ، ولمَّا يَعْلَمُوا وَطَرَى	من كلِّ أَغْيَدٍ سَاجِى الطَّرْفِ مَيَّاسٍ
كَيْفَ التُّزُوعُ وَقَلْبِي قَدْ تَقَسَّمَهُ	لَحْظُ الْعَيُونِ ، وَلَوْنُ الرَّاحِ فِي الْكَاسِ
إِذَا عَزَمْتُ عَلَى رُشْدِي ، تَكْتَفَنِي	رَأْيَانٍ قَدْ شَفَلَا يُسْرِى وَإِفْلَاسِي
فَالْيُسْرِ فِي الْقَصْفِ وَالذَّاتِ أَخْلِسْهَا	وَالْعُسْرِ فِي وَضَلٍ مِنْ أَهْوَى مِنَ النَّاسِ
لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا فِي الْمُجُونِ مَعَ الْأَ	كُفَاءٍ ، وَالْحُورِ ، وَالنَّسْرِينِ وَالْآسِ
وَمُسْمِعٍ يَتَغَنَّى ، وَالْكُؤُوسُ لَهَا	حَبٌّ عَلَيْنَا بِأَخْمَاسٍ وَأَسْدَاسِ
( يَا مُورِي الزَّنْدِ قَدْ أَغْيَتِ قَوَادِحُهُ	إِقْبِسْ - إِذَا شِئْتَ - مِنْ قَلْبِي بِمَقْبَاسِ )

## روح الثورة

وكان أبو نواس في معالجته صرّف نفسه عن داعى الندم ، وشدّ قلبه في مخالفة  
 نواهى الدين ، حرصاً منه على مواصلة ما هو فيه من الفسوق والخمر ، بعد أحياناً  
 إلى ترديد أقوال الفلاسفة الماديين ، فيبدر منه في الحين بعد الحين أمثال هذه  
 البوارد التي كانت تحكّ في صدره ، شأن الكثيرين من أهل عصره ، وإن  
 عدلت بهم التقيّة وخفاة العاقبة وإيثار السلامة والعافية إلى اصطناع الرّمز والتلميح



دون الإبانة والتصريح . ومن ذلك هذا القول الهمسُ الذي نفس به الشاعر عن بعض سره في ساعة من ساعات بته :

وَأَيْسَرُ مَا أُبْنُكَ أَنَّ قَلْبِي      بَتَصْدِيقِ الْقِيَامَةِ غَيْرُ صَافٍ

وأصرح منه هذا القول الذي نسبته ابن نوبخت إليه وهو مضطغن عليه . ولا يُستبعد مع هذا أن يكون مما ندّ عن نفسه في ساعة من ساعات يأسه :

بَاحَ لِسَانِي بِمُضْمَرِ السَّرِّ      وَذَاكَ أَنِّي أَقُولُ بِالذَّهْرِ  
وَلَيْسَ بَعْدَ الْمَمَاتِ مُنْقَلَبٌ      وَإِنَّمَا الْمَوْتُ بَيْضَةُ الْعُقْرِ<sup>(١)</sup>

وهذه الأقوال لم تتكرر على كل حال من الشاعر ، وإنما تكررت منه أقوال مستهجنة غيرها من الطراز الذي اختص به والذي يتفق مع طبيعة مزاجه ؛ وقد لا يخلو بعضها من التحدى ، ولكنها جميعاً مما ذهب فيه مذاهب الهزل والجون وإن يكن المقام لا يجيز شيئاً من ذلك :

إِنْ تَكُونَا تَرَكْتُمَا لَذَّةَ الْعَيْدِ      شِ حِذَارَ الْعِقَابِ يَوْمَ الْعِقَابِ  
فَذَرَانِي وَمَا أَلَذُّ وَأَهْوَى      وَاقْذِفَانِي فِي بَحْرِ يَوْمِ الْحِسَابِ

مَنْ أَنَا فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِذَا      نُودِيَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ  
ذَاكَ يَوْمٌ يَجِلُّ عَنْ خَطَرِي      فَمَا لِمِثْلِي هُنَاكَ مِنْ عَمَلٍ  
هُنْتُ عَلَى الْخَالِقِ الْجَلِيلِ فَمَا      يَنْظُرُ فِي قِصَّتِي وَلَا عَمَلِي

الرَّاحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهَا      فَاشْرَبْ وَإِنْ حَمَلَتْكَ الرَّاحُ أَوْ زَارَا  
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى حَمَرَاءٍ صَافِيَةٍ      صِرَ فِي الْجَنَانِ ، وَدَعْنِي أَسْكُنُ النَّارَا

(١) بيضة العقر : هي آخر بيضة للدجاج .

فخذها إن أردتَ لذيةَ عيشٍ ولا تعدلِ خليلي بالمدام  
وإن قالوا « حرامٌ » قل « حرامٌ » ولكن اللذّة في الحرام

على أن أكثر ما يعتمد عليه الشاعر الخليل في جرأته على استباحة المحارم لا يتصل بدعاوى الملاحدة المنكرين ، بل يقوم على قول المرجئة المجتهدين من أصحاب الكلام إنه « لا تضرّ مع الإيمان معصية » ، وإنه لا خوف على المسلم المتترف للكبيرة من الخلود في النار ، وكل شيء دون الشرك يسعه حلم الله تعالى في الآخرة ويتغمده بالمغفرة . ومتى علمنا ذلك ، لم نستغرب ذلك الذي كنا نستغرب به ، حين نرى الشاعر وهو في طريقه إلى الخمار ، يعان في قوة وثقة واستبشار :

وَتَيْتُ بَعْفُو اللَّهِ عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ فَلَسْتُ عَنِ الصَّهْبَاءِ مَاعَشْتُ مُقَصِّرًا

والرجل على الحالين نائرٌ على التزمّت والتشدد لا يطيق حَزّة القيد ولا يصبر على حبسة العنان وإن كان الموجب الدين . فليست تطاوعه نفسه ، وليس يوافقه عقله ، أن يجد اللذة أمامه حاضرة ، في فرصة الحياة النادرة ، فلا يرد شرعتها ولا ينقذ من أشواقه غلتها عشقاً وسكراً :

مَالِي وَلِلنَّاسِ ، كَمْ يَلْحَوْنَ نَتِي سَفَهًا دِينِي لِنَفْسِي ، وَدِينُ النَّاسِ لِلنَّاسِ

والمستول عن نزوع أبي نواس في عقائده الدينية ناحية التحرر الفلسفي حيناً ، وناحية المذهب الكلامي في « الإرجاء » معظم الأحيان ، هو رغبته الشديدة الملحة في تزكية شربه الخمر . ويخطئ من يطيل الوقوف والتأمل لهذه الأقوال من أبي نواس على أنها موقف من مواقف الفكر .

ولقد اشتهر أبو نواس بما أحدثه من ثورة في الشعر العربي . وما من شك في أن الخمرة كانت روح هذه الثورة . فقد جرت عادة الشعراء أن يستهلوا قصائدهم بالنسيب على حدّ قول القائل « إذا كان شعراً فالنسيبُ المقدّم » ، وكان يتعين

في النسيب ذكر الآثار من منازل الحبيب الظاعن ونعتها وتحيتها وما إلى ذلك .  
ولما كانت الخمر أحب شيء إلى شاعرنا فقد أبطل ما جرى عليه الشعراء أجيالاً  
وجعل مطالع قصائده للخمر . وعلى هذا كانت مدائحها للخلفاء والرؤساء . ولقد  
وهم من يظن أن الشاعر يخص بذلك من ينادمهم على الشراب من هؤلاء أو هؤلاء ،  
فإنه قد اصطنع ذلك معهم على السواء ، حتى في مديحه للخليفة هارون الرشيد مع  
شيء من التصرف والتخلص الجميل :

لقد طال في رسم الديار بُكائي	وقد طال تَرَدَّدي بها وعنائِي
كأني مُرِيعٌ في الديار طريدةٌ	أراها أمامي مرَّةً وورائي <sup>(١)</sup>
فلما بدا لي اليأسُ عدَّيتُ ناقتي	عن الدَّار ، واستَوَلَى عليَّ عَزَائِي
إلى يَبْتِ حانٍ لا تَهْرُ كِلابُهُ	على ولا يُنْكَرْنَ طول ثَوَائِي
فإن تكن الصَّهْبَاءُ أودَّتْ بتالدي	فلم تُوقِنِي أَكْرُومتي وَحَيَائِي <sup>(٢)</sup>
فما رُمْتُهُ حتى أتى دونَ ما حَوَّتْ	يَمِينِي حَتَّى رَبَطْتِي وَحِذَائِي
وكأْسٍ كصباح السَّماء شَرِبْتُهَا	على قَبْلَةٍ أو مَوْعِدٍ بِلِقَائِي
أنتِ دونها الأَيَّامُ حَتَّى كَأَنَّهَا	تَسَاقُطُ نُورٍ مِنْ فُتُوقِ سَمَائِي
ترى ضَوْءَهَا مِنْ ظَاهِرِ الكَأْسِ ساطِعاً	عليكَ ولو غَطَّيْتُهَا بِغِطَائِي
تَبَارَكَ مِنْ سَاسِ الْأُمُورَ بَعْلَهُ	وَفَضَّلَ « هَارُونَ » عَلَى الْخُلَفَاءِ
نَعِيشُ بِخَيْرٍ مَا انْطَوَيْنَا عَلَى التَّقَى	وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأَمْنَاءِ
إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّهُ	يُؤْمَلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ
أَشْمُ طُوالُ السَّاعِدِينَ كَأَنَّمَا	يُنَاطُ نِجَادًا سَيِّفُهُ بِلَوَاءِ <sup>(٣)</sup>

(١) أراغه : أرادته وطلبه على وجه المكر .

(٢) أوقن : اصطاد الخمام من محاضنها في رؤوس الجبال . (٣) النجاد : حمائل السيف .



ومما عَقِبَ به المبرّد على هذه القصيدة قوله : « ما علمتُ قائلاً مدح خليفة  
 قسب بمثل هذا النسيب . على أن الشاعر قد جدّ في المدح وبلغ المراد » . ولقد  
 اتفق أصحاب التاريخ ومؤرخو الأدب على أن الرشيد كان ممن يُتَحَامى بحضرته  
 - أو بحيث يبلغه - الإقرارُ بذكر قبلة أو شرب كأسٍ وما أشبه ذلك ، لجلالته ونبل  
 ملكه ، وبُعده من احتمال السخف وما دنا منه . وكان لا يسمع من الشعر ما فيه  
 رَفَث ولا هزل ، وكان لا يُذكر في تشييب مدحه قبلة ولا غمزة ، إلا أن أبا نواس  
 كان ينسب في المدح الجليل بالخر التي هي شأنه وفيها تصرفه وجُلُّ مذهبه . فلما  
 أن أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن واحداً  
 بعد الآخر ، ومثّل شاعرنا فيمن مثل بين يديه من الشعراء ، فأنشده القصيدة  
 التي تقدم بنا ذكرها ، أقبل الخليفة على الشاعر لبلاغة مطلعها في صفة الرسوم  
 والبكاء على الديار ، فلما بلغ وصفه للخمر تغير الخليفة ، فلما قال « وكأس كمصباح  
 السماء شربتها » أراد الخليفة أن يأمر به ، حتى إذا أنشد قوله « تبارك من ساس  
 الأمور بعلمه » أخذت الرشيد هزّة ، فأمر له بعشرين ألف درهم .

وعلى هذا المنوال يمدح شاعرنا الأمير العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر  
 المنصور ، فيقول في مطلع مديحه :

غَرَدَ الدَّيْلُكَ الصَّدُوحُ	فاسقني ، طاب الصُّبُوحُ
واسقني حتى تراني	حسناً عندى القبيح
قهوةً تُذكرُ نوحاً	حين شادَ الفُلكَ نوح
نحنُ نُخفيها ويأبى	طيبُ ربحٍ فتفوح
أنا في دُنْيا من الـ	بأس أغدو وأروح
هاشميٌ عَنـدَلِيٌّ	عنده يَفـلُو المديح



ومثله مطلع قصيدته في مدح الفضل بن الربيع :

مضى أَيْلُولُ وارتفعَ الحرورُ      وأخبتُ نارَهَا الشَّعْرَى العَبُورُ  
فَقُومُوا فَالْقَحَا خَمْرًا بِمَاءِ      فَإِنَّ تَسَاجَ بَيْنَهُمَا الشَّرُورُ  
تَسَاجٌ لَا تَدِرُ عَلَيْهِ أُمٌّ      وَحَمَلٌ لَا تُعَدُّ لَهُ الشُّهُورُ  
إِذَا الطَّاسَاتُ كَرَّتْهَا عَلَيْنَا      تَكُونُ بَيْنَنَا فَلَكٌ يَدُورُ  
تَسِيرُ نَجْمُوهُ عَجَلًا وَرَيْثًا      مُشْرِقَةً وَتَارَاتٍ تَعُورُ  
إِذَا لَمْ يُجْرِهَنَّ الْقُطْبُ مُتْنَا      وَفِي دَوْرَاتِهِنَّ لَنَا نُشُورُ  
رَأَيْتُ الْفَضْلَ يَأْتِي كُلَّ فَضْلٍ      فَقُلَّ لَهُ الْمَشَاكِلُ وَالنَّظِيرُ  
وَمَا اسْتَغْنَى أَبُو الْعَبَّاسِ مَدْحًا      وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ لَهُ كَثِيرُ

وأخيراً مطلع هذه القصيدة يمدح الخصيب بن عبد الحميد أيام ولايته الخراج

على مصر :

يَا مِنَّةً ائْتَنَّا الشُّكْرُ      مَا يَنْتَمِضِي مَنِّي لَكَ الشُّكْرُ  
أَعْطَيْتْكَ فَوْقَ مُنَاكَ مِنْ قَبْلِ      مَنْ قِيلَ إِنَّ مَرَامَهَا وَغُرُ  
يَتْنِي إِلَيْكَ بِهَا سَوَالِفُهُ      رَشًا صِنَاعَةُ عَيْنِهِ السَّحَرُ  
ظَلَّتْ حُمَيَّا الْكَأْسُ تَبْسُطُنَا      حَتَّى تَهْتِكَ بَيْنَنَا السُّتْرُ  
فِي مَجْلِسِ ضَحِكِ الشَّرُورِ بِهِ      عَنْ نَاجِذِيهِ وَحَلَّتِ الْخُمُرُ  
وَلَقَدْ تَجَوَّبُ بِنَا الْفَلَاةَ إِذَا      صَامَ النَّهَارُ وَقَالَتِ الْعُفْرُ<sup>(١)</sup>  
شَدَنِيَّةً رَعَتِ الْحُمَى فَاتَتْ      مِلءَ الْجِبَالِ كَأَنَّمَا قَصُرُ<sup>(٢)</sup>  
يَرْمِي إِلَيْكَ بِهَا بَنُو أَمَلٍ      عَتَبُوا ، فَأَعْتَبَهُمْ بِكَ الدَّهْرُ  
أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مِصْرُ      فَتَدَوَّقْنَا فِكْلًا كَمَا بَحْرُ

(١) صام النهار : أى صار الوقت ظهراً . العفر جمع أغفر نوع من الظباء .

(٢) الشدنية من الإبل : المنوبة إلى موضع باليمن .

والذى يلاحظ فى هذه المدائح أن مطالعها فى نعت الخمر تذهب بمعظمها ، ثم  
هى على كل حال صفوة ما فيها ، مما يدل على أن شاعرنا كان لا يواتيه طبعه  
وتهضب قريحته ويسلس له القريض وترتاض القوافى وتُستفتح أغلاق المعانى  
فيقول على البديهة ويطول نفسه فى الشعر ، إلا إذا كانت الخمر مجاله وعالمها يدور  
مقاله . فإذا تعدّاها إلى سواها فإنه إنما يحمل على نفسه ويقسرها على القول قسراً ،  
فيظهر ذلك فى شعره إما تكلفاً للفظ وإحالة فى المعنى ، وإما تكراراً لما لا كتبه  
الأقواء وطال عرضه فى الأسواق من العبارات المبتذلة والمعانى المطروقة . ويستثنى  
من ذلك شعره فى « الأمين » . ولا غرابة ، فكلاهما من أصحاب العلمان والخمور  
فبينهما مشاكلة فى المزاج ومساجلة فى الشعور ، يظهران فى طابع الطلاقة والصدق  
الذى يطبع قصائده فيه طبعاً كلياً وجزئياً . فأما الجزئى فمثل قوله فى بعض المدائح  
الرسمية التى أنشدها فى حضرته .

البهؤُ مُشْتَمِلٌ بِبَدْرِ خَلَاةٍ      لَيْسَ الشَّبَابُ بِنُورِهِ الْإِسْلَامُ  
مَلِكٌ أَغْرُثُ إِذَا شَرِبْتُ بِوَجْهِهِ      لَمْ يَعْدُكَ التَّجْبِيلُ وَالْإِعْظَامُ

وأما طابع الطلاقة والصدق الكلى ، فيظهر الظهور كله فى مديحه غير الرسمية :  
وَنَدَمَانِ يَرَى غَبْنًا عَلَيْهِ      بَأَنْ يُمَسَى وَلَيْسَ بِهِ انْتِشَاءُ  
إِذَا نَبَهَتْهُ مِنْ نَوْمٍ سُكْرِ      كَفَاهُ مَرَّةً مِنْكَ النَّدَاءُ  
فَلَيْسَ بِقَائِلٍ لَكَ « إِيهِ ، دَعْنِي »      وَلَا مُسْتَخْبِرٍ لَكَ « مَا تَشَاءُ ؟ »  
وَلَكِنْ « يَا اسْقِنِي » وَيَقُولُ أَيْضاً      « عَلَيْكَ الصَّرْفُ إِنْ أَعْيَاكَ مَا »  
إِذَا مَا أَدْرَكَتْهُ الظُّهْرُ صَلَّى      فَلَا عَصْرُ عَلَيْهِ وَلَا عِشَاءُ  
يُصَلِّيْ هَذِهِ فِي وَقْتِ هَذِي      فَكُلُّ صَلَاتِهِ أَبَدًا قَضَاءُ  
فَذَاكَ « مُحَمَّدٌ » تَقْدِيهِ نَفْسِي      وَحَقٌّ لَهُ وَقَلٌّ لَهُ الْفِدَاءُ

وغنى عن البيان أن هذا الطراز الأخير كان المثل الأعلى في الناس عند أبي نواس .  
ولو كان لشاعرنا اختيار ممدوحيه من سراة ورؤساء ، والاقتصار على التنويه بما  
يرتضيه فيهم من الخلائق والعادات ، لألفيناهم أجمعين على تلك الصفة ، سواء  
أكانوا شباباً كالأمين ، أم كانوا شيوخاً كهذا الشيخ اللعين :

شَيْخٌ لَذَاتٍ ، تَقَى عِرْضَهُ تَحْسُنُ الْأَشْعَارُ فِيهِ وَالْمِدَحُ  
لَا تَرَاهُ الدَّهْرُ إِلَّا ثَمَلًا بَيْنَ إِبْرِيْقٍ وَزِقٍ وَقَدَحٍ

ويمحسن قبل المضي فيما نحن بسبيله من بيان أثر الخمر في تجديد الشعر أن نشير  
إلى عامل كان يعتلج معها في نفس أبي نواس .

فقد كان أبو نواس الحكمي بطبيعة كونه من المولدين أبناء الموالى متشبعاً بالروح  
الشعوبية النائرة على العصبية العربية . ولما كانت أمه فارسية فقد كان ميله من  
سائر الشعوب للعجم . وما فتى شاعرنا يحب أن يظهر للناس أنه من « بنى الأحرار »  
ويعنون بهم الفرس ، فيكثر من ذكرهم والتمدح بمناقبهم والإشادة بمفاخرهم .  
وكان يبلغ الميل به أحياناً إلى التزيى بزيهم والتمثل بأمثالهم في مثل قوله :

أَمْشَى إِلَى جَنْبِهَا أَزَاحِمُهَا عَمْدًا ، وَمَا بِالطَّرِيقِ مِنْ ضِيقٍ  
كَقَوْلِ كَسْرَى فِيمَا تَمَثَّلَهُ ( مِنْ فُرْصَةِ اللَّصِّ ضَجَّةُ السُّوقِ )

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً فَفَرَّتْ بِهَا بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ  
فَقُلْتُ : « يَا مُعَذِّبَتِي جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرْبَى »  
فَابْتَسَمَتْ ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلًا يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ  
( لَا تُعْطِيَنَّ الصَّيِّ وَاحِدَةً يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ )

ولم يكن هذا الميل من الشاعر لأن العجم قومه لأمه فحسب ، بل لأنه كان  
بطبعه محباً للترف ورقيق العيش . فهو من أجل ذلك جميعه شديد التعصب



الحضارة الفارسية ، متطرب لتغلغل روحها وتفشيها في الدولة العباسية الجديدة ،  
 قبل بكليته على طرائقها وعاداتها في التألق في المعيشة ، متذوق لأفانيتها في نزهة  
 النفس وتنعيم الحس . وفي مقدمة هذه الملذات جميعاً ما تعودته الفرس من الخروج  
 في الأعياد للتنزه والشرب في الرياض لا سيما أيام الربيع وقد لبست الطبيعة في  
 عيد النيروز أزهى الحلل ، وتبرجت في أبهى زينة ، حتى لتبدو الخائل حين تمايل  
 أغصانها مع أنفاس الربيع كالسكارى تحتي بالطاقات من زهرها جماعات السكارى  
 الشاربين في ظلها :

يُبَاكِرُنَا « النيروز » فِي غَلَسِ الدَّجَى      بَنُورٍ عَلَى الْأَغْصَانِ كَالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ  
 يُلُوحُ كَأَعْلَامِ الْمَطَارِفِ وَشَيْهٍ      مِنْ الصُّفْرِ فَوْقَ الْبَيْضِ وَالْخَضِرِ وَالْحَمْرِ  
 إِذَا قَابَلَتْهُ الرِّيحُ أَوْ مَا بِرَأْسِهِ      إِلَى الشَّرْبِ « أَنْ سُرُوا » وَمَالَ مِنَ الشُّكْرِ  
 ومثل ذلك قوله في « يوم رام » وهو الحادى والعشرون من كل شهر من  
 شهور الفرس ، وبعد من أيام البطالة والنزهة عندهم يلذون فيه ويفرحون :

إِسْقِنَا إِنْ يَوْمَنَا « يَوْمُ رَامِ »      وَلِرَامٍ فَضْلٌ عَلَى الْأَيَّامِ  
 فِي رِيَاضٍ رُبْعِيَّةٍ بَكَرَ النَّوْ      عَلَيْهَا بِمُسْتَهْلٍ النَّهَامِ  
 فَتَوَشَّتْ بِكُلِّ نَوْرِ أَنْيَقٍ      مِنْ فُرَادَى نَبَاتِهِ وَتَوَامِ  
 فَتَرَى الشَّرْبَ كَالْأَهْلَةِ فِيهَا      يَتَحَسَّوْنَ خُسْرَوِيَّ الْمَدَامِ  
 والشاعر ما يزال في شعره يتحدث عن هذه الحياة المترفة الفارسية ، فلا يذكر  
 الترف في ملبس إلا ذكر الفرس :

فَلَوْ رَأَاهَا أَنْوَ شِرْوَانَ صَوَّرَهَا      فَمَا يَحْوُكُ مِنَ الدِّيَابِاجِ وَالسَّرَقِ<sup>(١)</sup>  
 وَلَا يَشْتَهَى الْغَنَاءَ مِثْلَ اشْتِهَائِهِ لَغَنَاءِ الْفَرَسِ :

فَاسْقِنِيهَا وَغَنٍّ صَوٍّ      تَا — لَكَ الْخَيْرُ — أَعْجَمًا

(١) السرقة : جمع سرقة وهى اللقطة من الحرير .



ولا يرى شيئاً من طيبات أرض العراق إلا نسبه إلى الفرس ، منكراً على العرب منذ فتوحهم الأولى أن يكون لهم في عمران العراق أدنى أثر . فليس يكفيه هنا نسبة منابت الكروم المتسعة إلى الفرس حتى يجعل إليهم كذلك مردّ الفضل كله في سائر ما يرى من منابت النخل .

فمن قوله في الكرم :

مَسَارِحُهَا الْغَرْبِيُّ مِنْ نَهْرٍ صَرَصَرٍ      قَطْرُ بُلٍّ ، فَالْصَّالِحِيَّةُ ، فَالْعَقْرُ  
تُرَاثُ أَنْوَشِرَوَانِ كَسْرَى ، وَلَمْ تَكُنْ      مَوَارِيثَ مَا أَبَقَتْ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرُ

ومن قوله في النخيل :

مَسَارِحُهَا الْمَذَارُ ، فَبَطْنُ جَوْخَا      إِلَى شَاطِئِ الْأَبْلَةِ ، فَالْفُرَاتِ  
تُرَاثًا عَنْ أَوَائِلِ أَوْلِينَا      « بَنَى الْأَحْرَارِ » أَهْلِ الْمَكْرُمَاتِ

وشواهد هذه الثورة الشعوبية في شعر أبي نواس أكثر من أن تتسع لها هذه الصفحات . فثمة عشرات العشرات من مطولاته يزرى فيها على العرب حياتهم في البادية ، حتى لينعى عليهم ما لا حيلة لهم فيه من طبيعة أرضهم الضئيلة ، فيذكر بعض الزروع التافهة هنا ليقربها بغنى المملكة النباتية وازدهارها في أرض بابل القديمة بين النهرين ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في المقابلة وإظهار بعد المسافة بين بداوتهم والحضارة الفارسية ، واصفاً خشونة عيشهم في الخيام ، معرضاً بأكلهم لليربوع والضب ، ساخرأ منهم أنكى السخر لشربهم اللبن الرائب كلما أرادوا النشوة والسكر :

أَلَمْ تَرَ مَا بَنَى كَسْرَى      وَسَابُورُ لِمَنْ غَبَا  
مَنَازِرُهُ بَيْنَ دِجْلَةٍ وَالْفُرَاتِ      تَقْيَاتُ شَجَرَا  
بِأَرْضٍ بَاعَدَ الرَّحْمَ      نُ عَنْهَا الطَّلَحَ وَالْعُشْرَا

ولم يجعل مَصَايِدَهَا يَرَايِعًا وَلَا وَحَرًا<sup>(١)</sup>  
 ولكن حُورَ غِزْلَانٍ تُرَاعِي بِالْمَلَا بَقْرًا<sup>(٢)</sup>  
 وإن شئنا حَثْنًا الطَّيْرَ — رَ من حافاتها زُمَرًا  
 وإن قلنا اقْتُلُوا عَنْكُمْ يَبَا كِرْ شَرُّهَا الْخُمَرَا  
 فذاك العِيشُ لَا سِيدًا بَقَقَرَتِهَا وَلَا وَبَرًا<sup>(٣)</sup>

غَادِ الْمُدَامَ وَإِنْ كَانَتْ مُحَرَّمَةً فَلِلْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ غُفْرَانُ  
 صَهْبَاءُ تَبْنِي حَبَابًا كَمَا مَزَجَتْ كَأَنَّهُ لَوْلُو يَتْلُوهُ عِقِيَانُ  
 بَيْلَدَةٌ لَمْ تَحِلَّ كَلْبٌ بِهَا طُنْبًا إِلَى خِبَاءٍ وَلَا عَبَسُ وَذُبْيَانُ  
 لَيْسَتْ لَذْهَلٌ وَلَا شَيْبَانِهَا وَطَنًا لَكُنْهَا لَبْنِي الْأَحْرَارِ أَوْطَانُ  
 أَرْضٌ تَبْنِي بِهَا كَسْرَى دَسَا كِرَهُ فَمَا بِهَا مِنْ بَنَى الرِّعْنَاءِ إِنْسَانُ  
 وَمَا بِهَا مِنْ هَشِيمِ الْعُرْبِ عَرْفَجَةٌ وَلَا بِهَا مِنْ غِذَاءِ الْعُرْبِ خُطْبَانُ  
 لَكِنْ بِهَا جُلْنَارٌ قَدْ تَفَرَّعَهُ آسٌ وَكَلَّلَهُ وَرْدٌ وَسَوْسَانُ  
 فَإِنْ تَنَسَّمْتَ مِنْ أَرْوَاحِهَا نَسْمًا — يَوْمًا — تَنَسَّمُ فِي الْخَيْشُومِ رِيحَانُ  
 يَا لَيْلَةً طَلَعَتْ بِالسَّعْدِ أَنْجُمُهَا فَبَاتَ يَفْتِكُ بِالسَّكْرَانِ سَكْرَانُ  
 بَنَّا نَدِينُ لِإِبْلِيسِ بِطَاعَتِهِ حَتَّى نَعَى اللَّيْلَ بِالنَّاقُوسِ رُهْبَانُ

دِعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ وَتُبْكِي عَهْدَ جِدَّتِهَا الْخُطُوبُ  
 وَخَلَّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضًا تَحُبُّ بِهَا النَّجِيبَةَ وَالنَّجِيبُ

(١) اليربوع : حيوان قارض كالْفَأْر . الوحَر : دويبة سامة .

(٢) الملا : الصحراء ، والمتسع من الأرض .

(٣) اليد : الذئب . الوبَر : دويبة كالسنور .

ولا تأخذُ عن الأعراب لهوًّا      ولا عيشًا ، فعيثهمُ جديب  
 ذرِ الألبانَ بشرها أناسُ      رقيقُ العيشِ عندهمُ غريب  
 بأرضٍ تَبْهتها عُشْرٌ وطلحُ      وأكثُرُ صَيْدِها ضُبْعٌ وذِيب  
 إذا رابَ الحَلِيبُ قُبْلُ عليه      ولا تَخْرَجُ ، فما في ذاك حوب  
 فاطِيبُ منه صافيةٌ شَمولُ      يطوفُ بكأسِها ساقِ أريب  
 فأين البدوُ من إيوانِ كسرى      وأين من الميادين الدُّروب

والقارى يرى فيما استشهدنا به على شعوبية أبى نواس من شعر فى أثر شعر ،  
 أن هذه الشعوبية النواسية تستمد روحها من الخمر ، فهو لا يُدل على العرب بشيء  
 كإدلاله بها . فهو لأهل الوبر من العرب شرابهم اللبن الرائب كلما أرادوا السكر ،  
 وهؤلاء أهل الحضرة من العرب يشربون الفضيخ من الرطب والبسر . وأما الخمر  
 التى لا يطلق على غيرها اسم الخمر إلا مجازاً وهى خمر العنب ، فهى شراب الفرس  
 أتباع زرادشت من قديم . من أجل ذلك نرى شاعرنا حين يقصد فى خمرياته  
 إلى مدحها من غير إطالة ، يعمد إلى هذه الصفة الواحدة الدالة ، فيكنى عنها  
 بالشراب الخسروى ، نسبة إلى الأكاسرة ملوك الفرس الساسانيين قارناً ذكرها  
 بذكر كسرى وبنى الأحرار من أبناء كسرى :

يا أيها العاذلُ ! دَعْ مَلْحاقى      والوصفَ للمَومةِ والقَلاةِ  
 دارِسةً وغيَرِ دَارسات      وانفِ هُومَ النَّفسِ بالذاتِ  
 ولاقيها بأصدقِ النِّيَّاتِ      حتَّى تُلاقى رَبَّ شَاصِيَّاتِ  
 جُلِينٍ من هَيْتٍ ومن عَاناتِ      بناتِ كِسرى خَير ما بناتِ

لئن هَجَرْتِكَ بَعْدَ الوَصلِ «أَرَوَى»      فلم تَهْجُرْكَ صَافِيَةٌ عُقارُ

على أمثالها كانت — لكبرى أنو شروان — تتجرُّ التجار

صفراء تجدها مرازيها جلت عن النظراء والمثل<sup>(١)</sup>

فتكنتني طيزنا با ذ ، وقد كنت تقياً

إذ تركت الماء فيها وشربت الخسروياً

وخمار طرقت بلا دليل سوى ربح القتيقِ الخسروانى  
ولكيلا يبقى عند القارى ظل للشك فيما مهدنا له ودلنا عليه من أن الخمر كانت  
عند شاعرنا المجدد روح هذه الثورة العارمة على التقاليد العربية في الحياة وفي  
الشعر ، نورد — فوق الذى قدمناه — هذه المقطوعة ، وأكبر اليقين عندنا  
أنها — لاندماج أجزائها ووحدة المقصد ووضوح الغرض فيها — قاطعة باليقين  
كل شك :

عاج الشقي على رنهم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البليد  
ينكى على طلل الماضين من أسد لا در درك ، قل لى : من بنو أسد ؟  
ومن تميم ، ومن قيس ، ولقهما ؟ ليس الأعراب عند الله من أحد  
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصفو إلى وتد  
كم بين ناعت خمر فى دماكرها وبين بالك على نوى ومنتصد<sup>(٢)</sup>

وليس خطر هذه الثورة فى أنها استبدلت موضوعاً بموضوع ، فإن الموضوعات  
كلها سواء فى صلاحها للشعر ، سواء أكانت فى صفة الأطلال أم كانت فى نعت  
الخمر . وإنما يكون الفضل لشعر على شعر بالصدق . وأى موضع للصدق عند شاعر

(١) المرازب : جمع مرزبان ، وهو الرئيس عند الفرس . (٢) التوى : الحفير  
حول الحيمة يمنع السيل . والمتصد الخيم من انتصد بالمكان أى أقام .



نتمثله من شعره في هذه الناحية أو تلك من البادية ، واقفاً عند رسم من الأطلال العافية ، يسأله عن الحبيبة الطاعنة ، باكياً أحر البكاء عهد غرامه الخالية . وهذا الشاعر الواقف المسائل الباكي ، لا حبيبة له في البادية ، وليس هو بدوياً من أهل الوبر ، ولكنه حضري لم يبرح الحضرة ، ولا يعرف عن البادية شيئاً إلا ما قرأه للشعراء الجاهليين ، وبينه وبينهم مئات السنين .

فالمسألة هنا لا تقف عند إثارة شاعرنا لمدح الخمر ، وإنما هي تتناول غرضاً من أهم الأغراض في مباحث النقد ، ونعني به مطلب الصدق في الشعر . ولقد أعرب أبو نواس عن هذا المطلب صراحة في قوله :

فَعَلَامَ تَذْهَلُ عَنْ مُشْعَشَعَةٍ وَتَهَيِّمُ فِي طَلَلٍ وَفِي رَسْمٍ  
نَصِيفُ الطَّلَوِ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا أَفْذُو الْعِيَانِ كَأَنْتَ فِي الْعِلْمِ ؟ !  
وَإِذَا نَعَتْ الشَّيْءَ مُتَّبِعاً لَمْ تَخْلُ عَنْ غَلْطٍ وَعَنْ وَهْمٍ

وهذه الثورة قد أجدت — ولا ريب — أعظم الجدوى على الشعر ، بأن جعلته أقرب إلى تحقيق غايته من التعريف بالنفس وتمثيل العصر .

### الحياة الخمر والخمر الحياة

ولقد كان الشعراء في الجاهلية يتغنون بالخمر ، ولكنهم كانوا يتغنون بروح أهل الفروسية المولعين على السواء بالحرب والخمر والنساء ، وقد يدخل مع الخمر الميسر في بعض الأحوال . والأصح من أجل ذلك في نسبة الجاهلية إلى ذلك العصر ألا تكون الجاهلية من الجهل بمعناه المتداول أي ضد العلم ، بل من الجهل بمعنى السفه والاندفاع والسرف . وما برح مساعير الحرب المغاوير وأهل المغامرات على

الإجمال فيما نشهد منهم ونقرأ عنهم في مختلف الأمم وفي سائر الأزمان يحيون حياة لا تكاد تختلف عن هذا المثال . والشعر الجاهلي حافل بهذه الصورة من حياة الفروسية . وحسبنا منها قول امرئ القيس :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذَّةِ      وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ  
وَلَمْ أَسْبِأِ الزَّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ      إِخِيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ  
وقول طرفة بن العبد في معلقته :

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى      — وَجَدَّكَ — لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُودِي  
فَمَنْ سَبَقِيَ الْعَاذِلَاتِ بَشْرَبَةً      كَمِيتٍ مَتَى مَا تُقَلِّ بِالْمَاءِ تَزِيدُ  
وَكُرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا      كَسِيدِ الْغَضَا ذِي السَّوَرَةِ الْمُتَوَرِّدِ  
وَتَقْصِيرِ يَوْمِ الدَّجْنِ، وَالدَّجْنُ مُعْجَبٌ      بِيَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِيَاءِ الْمُعَمَّدِ

وأما شاعرنا ومن على شاكلة من الشعراء المحدثين من أصحاب الخمر والاهو ، فقد عاشوا في عصر ماتت فيه الفروسية أو أوشكت أن تموت ؛ فهم لا يعرفون المغامرة في حرب ، كما أعفاهم ما كان من كثرة الجوارى وتفشى الإباحية الخلقية أن يعرفوا المغامرة في الحب . ولقد رأينا شاعرنا أيام لقيت الحرب بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون كيف زوى وجهه عنها وتجاهل أمرها . وما كان ذلك عن قلة وفاء للأمين وهو نديته ، ولا عن حزازة لما لقيه منه أثناء الحنة ، بل كراهة من شاعرنا الخليع للحروب وانقباضاً عنها واستبشاعاً لها ، فهو لا يحس من ناحيتها ما يحسه أهل الفروسية من جیشان صدورهم وتفزز أعصابهم واهتزاز كل نسيج من كيانه حين تُقرع طبول الجهاد وينفخ في نفيره ، وهو لا يجد ما يجدونه في المغامرة ومواجهة المخاوف والتعرض للمتالف وتجشم الأخطار وركوب الأهوال من لذة مفاجئة متجددة . . . وهذه — في واقع الأمر — لذة لا يعرفها كل الناس . وإنما يعرفها

الذين جُبلت طباعهم على المناخة والمسكافة ، وأُثربوا حب الصراع والتناحر ،  
ولا سبيل إليها ولا محل لطلبها فيمن جُبل من طينة غير طينتهم ، وطبع على قالب  
غير قالبهم :

يا «بِشْرُ» مالى والسيفِ والحربِ      وإنَّ نَجْمِي لِلَّهِمُ والطَّرَبِ  
فلا تَتَّقِ بِي فَإِنِّي رَجُلٌ      أَكْعُ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَالطَّلَبِ<sup>(١)</sup>  
وإن رأيتُ الشُّرَاةَ قد طَلَعُوا      أَلْجَمْتُ مُهْرِي مِنْ جَانِبِ الذَّنَبِ<sup>(٢)</sup>  
ولست أُدرى ما السَّاعِدَانِ ، ولا الثَّر      سُ ، وما بَيْضَةُ مِنَ اللَّبَبِ  
هَمِّي إِذَا مَا حُرُوبُهُمْ غَلَبَتْ      أَيْ الطَّرِيقَيْنِ لِي إِلَى الْمَرْبِ  
لو كان قَصْفٌ وشربٌ صَافِيَةٌ      وَجَدَتْنِي نَمِّمْ فَارِسَ الْعَرَبِ

فصاحبنا إذا ما نودى البدار البدار ، كانت مبادرته في ناحية أخرى ، إلى  
ما خور لهوٍ أو حانة خمار . وقد تشتد حوله رحي القتال ، وتكاد تنزل من هول  
الصدام رواسى الجبال ، فلا تزال الدنيا عنده بنجير ، ما دام لا يعدم في ناحية من  
خرائبها حانوت خمر :

ما في قُعودِكَ عُذْرٌ عَنْ مُعْتَقَةٍ      كَاللَّيْلِ وَالْدُّهَا ، وَالْأُمُّ خَضْرَاءُ  
بَادِرٌ ، فَإِنَّ جِنَانَ الْكَرَّخِ مَوْفَقَةٌ      لَمْ تَلْتَقِفْهَا يَدٌ لِلْحَرْبِ عَسْرَاءُ

وهو لا يجد أبلغ في الرد على من يعيرون موقفه ، من أن ينصب لهم هاتين  
الصورتين ، ليقابل بينهما كل ذى عينين : صورة حياته الرعدة في أحضان اللذة ،  
وصورة حياة أهل الحرب بين برائن الموت :

(١) كع : ضمف وجبن .

(٢) الشُّرَاة : الخوارج .

غُدُوِيْ إِلَى اللَّذَاتِ مُنْهَتِكَ السَّتْرَ      لِنُقْضَى بَنَاتُ السَّرِّ مَنِيَّ إِلَى الْجَهْرِ  
لَأَحْسَنُ مِنْ رَكْضٍ إِلَى حَوْمَةِ الْوَعْيِ      وَأَحْزَمُ عُقْبِيْ مِنْ بُرُوزٍ إِلَى الشَّجَرِ<sup>(١)</sup>  
فَلَا خَيْرَ فِي قَوْمٍ تَدُورُ عَلَيْهِمْ      كُؤُوسُ الْمَنَايَا بِالْمُتَقَفِّ السَّمْرِ  
نَجَاتِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ      ظُبَا لِلشَّرَفِيَّاتِ الْمَزِيْرَةِ لِلْقَبْرِ

وَأَبْسَرُ مِنْ مُبَاكَرَةِ الْأَعَادِي      مَبَاكَرَةُ الْحَبِيبِ لَدَى الشُّرُوقِ  
وَأَشْجَى مِنْ مُعَانَقَةِ لَقَرْنٍ      مُعَانَقَةُ الصَّدِيقَةِ لِلصَّدِيقِ  
وَأَرْوَحُ مِنْ طِرَادِ الْخَلِيلِ رَكْضًا      طِرَادُكَ كُلِّ مَيَّاسٍ لَبِيقِ  
وَأَشْجَى نَعْمَةً مِنْ صَوْتِ طَبْلِ      حَنِينُ الزَّيْرِ مَعَ وَتْرِ نَطُوقِ  
وَأَهْوَنُ خُطَّةً مِنْ رَتَقِ فَتَقٍ      صَبُوحُ الْكَأْسِ مِنْ بَعْدِ الْغَبُوقِ  
وَأَطْيَبُ مِنْ مُنَازَلَةِ لِحَرْبٍ      مُنَازَلَةُ الدُّنَانِ مِنَ الرَّحِيقِ  
وَمَشَى وَصِيفَةٍ تَسْعَى بِكَأْسٍ      مُضْمَخَةِ السَّوَالِفِ بِالْخَلُوقِ  
أَلَذُّ مِنَ التَّجَالُدِ بِالْعَوَالِي      وَمِنْ مَشَى الْفَرِيقِ إِلَى الْفَرِيقِ  
وَرَمَى الْحُورِ بِالتُّفَّاحِ نَحْوِي      سَوَى رَمِي الْعِدَا بِالْمَنْجَنِيقِ  
فَهَذَا الرَّأْيُ لَا رَأْيَ سِوَاهُ      فَشُدَّ يَدَيْكَ بِالرَّأْيِ الْوَثِيقِ

ولعل القارىء يذكر هنا، لا على سبيل المشابهة، بل من جهة التضاد والمناقضة،  
موقف المتنبي — وهو من عرفنا خولة وكال رجولة — في قوله :

أَلَذُّ مِنَ الْمَدَامِ الْخَنْدَرِيسِ      وَأَحْلَى مِنَ مِعَاطَةِ الْكُؤُوسِ  
مِعَاطَةُ الصَّفَانِحِ وَالْعَوَالِي      وَإِقْحَامِي خَمِيسًا فِي خَمِيسٍ<sup>(٢)</sup>

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى شاعرنا وهو لا يزال في مجلس لهوه هائلاً بالبطالة

(١) الشجر : الأمر المختلف فيه .

(٢) الخميس : الجيش



ناعم البال ، لا يعييه خيال يزيفه ومثالٌ يزخرفه . وإنه ليوغل في خلط الجد بالمزاح ، فيذهب في مجونه إلى تقريب المسافة بين هاتين الصورتين ، وينتهى إلى عقد المشابهة وتقرير المطابقة بين الحالين . فهناك قتال وهنا قتال ، ولا خلاف بينهما إلا في صفة العدة والمجال :

سَقِيًّا لِحَرْبٍ يُسَرُّ جَانِبَهَا	فِي جَنَّةٍ قَدْ جَرَتْ سَوَاقِبُهَا
سَهَامُنَا وَرَدُّهَا ، وَنَرَجِسُهَا	سَيُوفُنَا ، وَالْقَنَا قَنَانِهَا
أَحْجَارُنَا نُحْبَةُ بِيَاطِيَةِ	يُدِيرُهَا — مَا يُخْلُ — سَاقِهَا
وَمَنْجَنِقَاتُنَا الْمَعَارِفُ وَالْ	هَيْدَانُ إِذْ سُوِّتْ مَلَاوِيَهَا
قَائِدُنَا قَيْنَةُ مُخَنَّثَةٍ	يِيَّاسِمِينَ غَضِي نُحْمِيَّهَا
وَالطَّعْنُ وَالضَّرْبُ عِنْدَنَا قَبْلُ	ثُمَّ خِصَالُ هُنَاكَ نُخْفِيهَا
فَهَذِهِ حَرْبُنَا وَوَقَعَتُنَا	بُورُكُ فِي حَرْبِنَا وَمُنْشِيهَا

وهذا النفور من الحروب ليس كله إشفاقاً مما يراق في طريقها من الدماء الزكية ، وما ينتثر من الأشلاء الفتية ، وما يكون في ركبها من الضوائق والكروب وما تخلفه وراءها من اليتيم والشكل والخراب . وإنما نفوره أشمل من ذلك وأعم ؛ فإنه النفور من العنف ، والإشفاق من فكرة الألم ، والمجانبة لكل ما فيه مشقة ولو كانت أيسر المشقة . وقد بلغ من ذلك أنك تراه وهو صاحب اللهو ، لا يستحب كل لهو . فتراه على الرغم من طردياته كارهاً للطرد والصيد ، يستوى في ذلك عنده طرد الوحش والظباء وصيد البط والدراج ، لا يُظهر احتفالاً بما يتخذ الهواة من الكلاب المضرة وجوارح البزاة لملاحقة والاقتناص ، كما تراه فاطر الهمة متثاقلاً عن ركوب الخيل ، متعجباً لمن يجد إيناساً وإمتاعاً في الركض وحلبة السبق ولعب الصوالة والبرجاس وجميع ما يجري هذا المجرى ويلحق به :

أشهى من الحلبة والركضِ إلى شَمِّ النرجسِ الغَضِّ  
 ومدُّ كَفِّ نحو تَفَاحَةٍ مجروحةِ الخدينِ بالعضِّ  
 إذا أُجْرَى أمينُ الله ٤ في الحلبة أفراسا  
 أقمنا حلبةَ اللهوِ فأَجْرَيْنَا بها الكاسا  
 وأنشأنا بها من طُ رَفِ الرِّيحانِ أجناسا  
 بميدانِ جَمَلْنَا خِيَلَهُ طاساً وأَكْوَاسا  
 وصَيَّرْنَا على السَّبْقِ مكانَ القَصَبِ الآسا  
 ومُجْرِيَهُنَّ ساقِ يَبْ مَثُ الإبريقِ والكاسا  
 قُلْ لِي يَا أَبَا عِيسَى بِحَقِّ هَل تَرَى باسا ؟  
 شبابٌ خَلَعُوا عن فَدَى كِهمِ عُدْرًا وأَمْرَاسا<sup>(١)</sup>  
 جَرَوْا في اللهوِ واللَّذَا ت حَتَّى سَبَقُوا النَّاسَا

إِعْزِمَ على سَلْوَةٍ إِلَّا عن الكاسِ ودَعَ سواها من اللذات للناسِ  
 فالعِيشُ في مجلسٍ حُفَّتْ جَوَانِبُهُ بالنرجسِ الغَضِّ والنَّسرينِ والآسِ  
 أشهى إلى النَّفْسِ من عَذْوِ الكلابِ على أَرانبِ الصَّيْدِ أو من رَمَى بِرُجاسِ  
 لاسِيَّما إن أدارتهُ مَقْرَظَةً أو مُرْهَفٌ كَقَضِيبِ البانِ مَيَّاسِ  
 إِطْرَاقُهُ مُطِيعٌ ، والوصلُ ممتنعٌ فَأَنْتَ منه على الإطْلاعِ واليَّاسِ  
 وليس يخرج عن هذا النمط مسلك أبي نواس في أمور معاشه . فهو زاهد في  
 السعى والطلب ، مع تجدد حاجته للمال ينفقه على القصف والطرب . وإذا هو  
 اشتد عليه الإغراء بالعطاء فارتحل ، فذلك فعل المضطر المغلوب على أمره ،

(١) العدر : جمع عذار : وهو اللجام . الأمراس : جمع مرة وهي الحبل .

فلا يلبث أن يعود متبرماً متسخطاً يذم السعى والضرب في مناكب الأرض برّاً  
كان ذلك أو بحراً . وعلى هذه الصفة أيضاً نرى أبانواس في مجالات لهوه مترقفاً  
مستضعف البأس ، رقيق الحس ، لا يقوى على الجهد والعنف وشق النفس . وجملة  
القول في صاحبنا أنه كان في حياة العمل مؤثراً للبطالة والكسل ، كما كان في حياة  
اللهو مؤثراً للراحة والدعة :

فِيَارُبْ خَمَارٍ طَرَقَتْ بِسُخْرَةٍ فَنَبَهَتْهُ وَالطَيْرُ فِي كَنَفِ الْوَاكِرِ  
أَقْمَنَا بِهِ نُعْطِي الْبِطَالََةَ حَقَّهَا إِذَا لَمْ يَنْزِلْ آمَالُهَا الرَّجُلُ الْمَثْرَى

فَاشْرَبَ الْخَمْرَ إِذَا بَاكَرَتْهَا مَعَ نَدَامَاكَ بَلَهْوٍ بَغْلَسَ  
وَاتْرَكَ الْبَحْرَ لِمَنْ يَرْكَبُهُ قُبْحُ السَّابِحِ فِيهِ وَتَعَسَ  
وَعِشْرَةُ اللَّقِيَانِ فِي دَعَةٍ مَعَ رَشَاءٍ عَاقِدٍ لَزُنَارِ  
أَلَدٍّ مِنْ مَهْمِهِ أَكْذُ بِهِ وَمِنْ سَرَابٍ أَجُوبُ غَرَارِ

فَسَلِّ هَمَّكَ بِالنَّدَمَانِ فِي دَعَةٍ وَبِالْعُقَارِ ، فَهَذَا أَهْنَأُ الْأَدَبِ

وَيَصُورُ لَنَا أَبُونَوَاسُ هَذِهِ الدَّةَ الَّتِي أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهَا وَاللَّهْجَ بِهَا فِي صُورَةٍ  
مَصْغُورَةٍ سَرِيعَةٍ لِأَسْلُوبِ لَهْوِهِ أُنَى فِيهَا عَلَى تَفْصِيلِ مَا يَحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ جَمِيعاً :

لَا الصَّوْلَجَانُ وَلَا الْمَيْدَانُ يُعْجِبُنِي وَلَا أَحِنَّ إِلَى صَوْتِ الْبَوَاشِيقِ (١)  
لَكِنَّمَا الْعَيْشُ فِي اللَّذَاتِ مُتَّكِئًا وَفِي السَّمَاعِ وَفِي مَسْجِ الْأَبَارِيقِ

ولقد أنى الشاعر في هذا البيت الأخيرة على صورة اللهو الذى يرتضيه ، تذكرنا  
بصورة مجالس اللهو عند الرومان في أواخر أيامهم وعصور انحطاطهم ، متكئين  
على الأرائك بين القيان والجوارى الحسان ، وأكاليل الزهر على هامهم أجمعين ،  
والبهو غائم بالبخور مغمور بأنواع الرياحين ، والجدران متجاوبة بنغم الملامى  
وضحك المتنادمين ، وأمامهم على الخوان صنوف وألوان من كل مالد وطاب ،

(١) الباشق : من أصغر الطيور الجوارح .



من الطعام والشراب ، وهم يأكلون ويشربون إلى حد التضلع والكظة ، ثم لا يلبثون أن يمر بدوا وقد أخذ منهم السكر . ونمك القلم عما كان يجري عندها من أفانين الدعارة والنكر .

ولا نشك في أن الشاعر كان ذا كراً لهذه المجالس حين قال :

ولو أن مالى يَسْتَقِلُّ بِلَدَّتِي      لَأَنْسَيْتُ أَهْلَ الْآهَوِ كِسْرَى وَقَيْصِرَا

وأبو نواس لا يفكر من أمور الحياة في غير اللذة ، فهي كل ما يعلم من خير ، وكل ما يتيقن من حقيقة . واللذة التي يتغنى بها هي — كما رأينا — لذة الحس ، وهي أكثر ما تكون غليظة في ذاتها غير مهذبة ، إلا أن استحضاره لها بعد ذلك وتفننه في إبرازها وعرضها في الشعر يُدخلان عليها مسحة من لطافة النفس . وأبو نواس لا يتوسع في حاجاته من اللذات ولا يعددها ، بل يقتصد غاية الاقتصاد فيها حتى ليردّها إلى الواحد . وهذا الواحد هو الخمر ، الخمر وحدها . ولقد يذكّر إلى جانبها غزلاً بالجارية أو الغلام ، ولكن الخمر هي دائماً الأصل والجوهر ، وأما هذه الشهوة الأخرى فمعرض من أعراضها التابعة لها اللاحقة بها .

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِكَأْسٍ وَشَادِنٍ      تَحَيَّرَ فِي تَفْصِيلِهِ فَطَنُ الْفِكْرِ

فاسقنيها مُدَامَةً فَلَعَمْرِي      مَا حَيَاتِي إِلَّا بِشُرْبِ الْمُدَامِ

نَزَّ صَبُوحَكَ عَنْ مَقَالِ الْعُذْلِ      مَا الْعِيشُ إِلَّا فِي الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

لَا عِيشَ إِلَّا الْمُدَامُ أَشْرَبُهَا      مُفْتَبِحًا تَارَةً وَمُصْطَبِحًا

مَا لَذَّةُ الْعِيشِ إِلَّا شُرْبُ صَافِيَةٍ      فِي بَيْتِ خَمَّارَةٍ أَوْ ظِلِّ بُسْتَانِ

وَمَا الطَّيِّشُ إِلَّا أَنْ تَرَانِي صَاحِبًا      وَمَا الْعِيشُ إِلَّا أَنْ أَلَدَّ فَأَسْكِرَا



ولا بأس أن نذكر في معرض تصوير الشاعر مبلغ تعلقه بالخمير ومنزلتها عنده أبياتاً له في الجون مع بعض الجوارى الماجنات واسمها مكنون . وكانت مكنون تطمعه في وصلها وتطيل عليه من غيبتها ودلالها . فزعم لها ذات يوم أنها إن تكن لم تصله فقد جاد طيفها بالمرار، وأنه قضى منه ما بنفسه من لبانات وأوطار . فلما أن سخرت الجارية منه وكذبت به ، لم تخطر لهذا السكير يمينٌ على صدقه أغلظ وأشد هولا مما أورده هنا في قوله :

أَلَا تَرُورِي فَإِنَّ الطَّيْفَ قَدْ زَارَا      وَقَدْ قَضَيْتُ لُبَانَاتٍ وَأَوْطَارَا  
قالت: «لَقَدْ بَعْدَ الْمَسْرَى» فَقُلْتُ لَهَا      «مَنْ عَالَجَ الشَّوْقَ لَا يَسْتَبْعِدُ الدَّارَا»  
قالت: «كَذَبْتَ عَلَى طَيْفِي» فَقُلْتُ لَهَا:      «إِذَا ، فَعَادَيْتُ يَا «مَكْنُونُ» خَمَارَا  
وَلَا نَقَلْتُ إِلَى حَانُوتِهِ قَدَمًا      وَلَا نَبَذْتُ إِلَيْهِ النَّقْدَ فَاخْتَارَا»

وقد يكون شاعرنا متزيداً يمجن في قصته مع الجارية على جاري عاداته ، غير أن اختراعه لهذه القصة بعينها لا يقدر في صحة الاستدلال بها على ما كان للخمير عنده من منزلة ليس فوقها منزلة . ومهما يكن من الأمر ، فإن شاعرنا الخمير قد تكرر منه القسم بالخمير . وهذه أبيات له غير السابقة آلى فيها باليمين نفسها أن يبقى حليفاً لكأسه حتى يوارى في رسمه . ولا نحسب أحداً يمارى في أن صاحبنا قد عرف ليمينه قدرها ، وأنه برّ بها وأوفاهما حقها :

وَحُرْمَةُ الْخَمْرِ ، وَالْخُمَارِ مِنَ الْخَمِّ      إِذَا مَا تَبَلَّجَ الْفَلَقُ  
لَا أَشْرَبَنَّ الْمُدَامَ مَا سَحَلْتُ      كَفَّائِ كَأْسًا وَكَانَ بِي رَمَقُ

### وصايا السكارى

كذلك كان شأن أبي نواس وشأن كل صاحب شراب في الجاهلية والإسلام لا تكاد تتصور أوهامهم ويقوم في أذهانهم أن تكون حياة بغير خمر .

ونحن نعلم من المأثور عن جاهلية العرب أن الموتور كان يحالف لا يشرب الخمر حتى يدرك ثأره ، وكانت هذه اليمين أبلغ شاهد على تصميمه وأفعلى حافز له على شدة الكلب وتعجيل الطلب .

ومما يدلنا كذلك على مبلغ إيثارهم الشراب على سائر اللذات وإصرارهم على أن يطاؤوا في معاقبتها مراحل العمر حتى يتردّوا في هوة القبر ، قصة الأعشى حين رغب في الإسلام . فإن صنّاجة العرب الشيخ قصد إلى النبي ، فبلغ خبره قريباً فرصده المشركون على طريقه ، فلما ورد عليهم قالوا : « أين أردت يا أبا بصير ؟ » . قال : « أردت صاحبكم هذا لأسلم » . قالوا : « إنه ينهاك عن خلال ويجرمها عليك ، وكلها بك رفقاً ولك موافق » . قال : « وما هن ؟ » . فقال أبو سفيان بن حرب : « الزنا » . فقال الشاعر الشيخ : « لقد تركنى الزنا وما تركته . ثم ماذا ؟ » قال : « القمار » . فقال : « لعلى إن لقيت صاحبكم أن أصيب منه عوضاً من القمار . ثم ماذا ؟ » . فقالوا : « الخمر » . قال : « أوه ! أرجع إلى صُباية قد بقيت لى فى المهراس فأشربها » . وقفل راجعاً وكان هلاكه فى رجعته .

وتظهر لنا أخيراً قوة هذه الغلبة فى أصحاب الشراب من المسلمين ، فهم مع مخافتهم هول العذاب فى الجحيم وطمعهم فيما وعد الله به المتقين ، قد طغى على نفوسهم الهيام بخمر العاجلة حتى أذهلوا عن رحيق الآجلة .

فهؤلاء أجمعون لا يعرفون الحياة بغير خمر ؛ فالحياة عندهم الخمر والخمر الحياة كما رأينا . وهم — كما رأينا — يتلفون فى استبائها المال بغير حساب ، ويُبُلون فى معاقبتها جدّة الشباب ، ويبتذلون فيها وقار المشيب ، ولا يزالون عاكفين عليها ينتهبون الفرص إليها . وإن الناظر فى حالهم منها ليتبين قصدهم إلى الحرص على مبادرتها بمبادرة الدهر ، قبل أن تبدر منه بادرة الغدر ، وأنهم لا يشفقون من

شئ إشفاقهم من انقضاء العمر ولم يأخذوا بعد بالنصيب الأوفى من الخمر . وهذا الشعور بإعجال الموت للحى وتصريده دون الرى هو علة ما كان يجرى عليه الخلصاء من الندمان فى كثير من الأحيان إذ مات بعضهم ، فقد كانوا يجتمعون عند قبره يشربون كماداتهم ، فإذا جاءت نوبته هراقوا الكأس على تربته ، وكأنهم حين ينضمحون بالخرم تراه ، يبلون بذلك غلته ويشفون صداه .

وقد روى عن سليمان النوفلى فى حديث له عن الأعشى أنه قال : [ أتيت اليمامة والياً عليها ، فمررت بمنفوحة وهى منزل الأعشى ، فقلت : « أهذه قرية الأعشى ؟ » . قالوا : « نعم » . فقلت : « أين منزله ؟ » قالوا : « ذاك » وأشاروا إليه . قلت : « فأين قبره ؟ » قالوا : « بفناء بيته » . فعدلت إليه ، فاتتهيت إلى قبره ، فإذا هو رطب . فقلت : « ما لى أراه رطباً ؟ » فقالوا : « إن الفتيان ينادمونه ، فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه القدح ، صبوه عليه ، لقوله : أرجع إلى اليمامة فأشبع من الخمر ] .

ومثل ذلك ما أورده البلاذرى فى فتوح البلدان عن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا فى جيش الحجاج الذى وجهه إلى الديلم ، فكانوا يتنادمون ثلاثتهم ولا يخالطون غيرهم . فإنهم على ذلك إذ مات أحدهم ، فدفنه صاحبه ، وكانا يشربان عند قبره ، فإذا بلغت الكأس هرقاها على قبره ، وبكى . ثم إن الثانى مات فدفنه الباقى إلى جانب صاحبه ، وكان يجلس عند قبريهما فيشرب ثم يصب على القبر الذى يليه ثم على القبر الآخر ، ويبكى . فأنشأ ذات يوم يقول :

خَلِيلِيْ هُبَا طَالَ مَا قَدْ رَقَدْتُمَا      أَجِدَّ كَمَا مَا تَقْضِيَانِ كَرَاكَا  
أَلَمْ نَعْلَمَا أَنِّيْ بِقَزَوَيْنِ مُفْرَدٌ      وَمَا لِيْ فِيْهَا مِنْ خَلِيلٍ سِوَاكَا  
مُقِيماً عَلَى قَبْرِيكَا لَسْتُ بَارِحاً      طَوَالَ اللَّيَالِي أَوْ يُجِيبَ صَدَاكَا



أَصْبُ عَلَى قَبْرَيْكََا مِنْ مُدَامَةٍ      فَلَا تَذُوقَا أَرْضٍ مِنْهَا ثَرَاكََا  
 أَنَادِيكََا كَيْمَا تَجِييَا وَتَنْطَقِيَا      وَلَيْسَ مُجَابَا صَوْتُهُ مَن دَعَاكََا  
 أَمِنْ طَوْلِ نَوْمٍ لَا تُجَيِّبَانِ دَاعِيَا      خَالِي مَا هَذَا الَّذِي قَدْ دَهَاكََا  
 قُضِيَتْ بِأَنِّي لَا مُحَالَةَ هَالِكُ      وَأَنْتِي سَيَعْرُونِي الَّذِي قَدْ عَرَاكََا

وإننا لنجد لبعض السكارى من الشعراء الجاهليين والإسلاميين وصايا في هذا المعنى العجيب ، نورد منها على سبيل المثال هذه الوصية الجاهلية لحاتم الطائي بوصى امرأته :

أَمَاوِي ، إِمَامِي تُفَاسَعِي بِنُطْفَةٍ      مِنْ الْخَمْرِ رَبِّيَا فَانْضَحِيْنَّ بِهَا قَبْرِي

ثم وصية أبي محجن عمرو بن حبيب الثقفي — وقد تقدّم تضمين أبي نواس للبيت الأول منها — وتختلف وصية الشاعر المخضرم عن سابقتها في أنه لا يكتفى بنضح ثراه بالخمر ، كما أنه لا ينتظر الوفاء بذلك والمثابرة عليه من صاحب أو صاحبة ، فنراه لفرط حيطته وشدة غلته يعلن الرغبة في أن يكون دفنه إلى جنب كرمه ، فما يستديم مذاقه لها ، مثل مجاورة عظامه لعروقها :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنْبِ كَرْمِي      تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقَهَا  
 وَلَا تَدْفِنْنِي بِالْفَلَاةِ ، فَإِنِّي      أَخَافُ — إِذَا مِتُّ — أَنْ لَا أَذُوقَهَا

ثم قول الشاعر الإسلامي أبي الهندي غالب بن عبد القدوس ، وقد أدرك العصرين الأموي والعباسي ، وفي وصيته زيادة ظاهرة على زميليه السابقين :

يَا خَلِيلِي اجْعَلَا لِي كَفَنًا      وَرَقَّ الْكَرْمِ ، وَقَبْرِي الْمَعْصَرِ

وأخيراً وصية أبي نواس . ولقد ذهب شاعرنا في ذلك مذهب زملائه من



أصحاب الخمر ، المصرّين عليها الحالمين بها حتى فيما وراء القبر . ولا تخلو وصية شاعرنا كذلك من تجديد . وليس التجديد فيها إضافةً نسبية ، بل هو نقلة كلية تتعدى المذاق إلى السماع ، ومن ثمة جاءت على خلاف ما سبقها من وصايا شعرية ، متميزة بما لوزنها المتقارب من تلك النبرة الموسيقية ، التي تجعل من حركة العاصرين وضجة أرجلهم ما يشبه حركات الرقص الإيقاعية :

خَلِيلِيَّ بِاللّهِ لَا تَحْفَرَا إِلَى الْقَبْرِ إِلَّا بِقُطْرَبُلٍ  
خِلَالَ الْمَعَاصِرِ بَيْنَ الْكَرُومِ وَلَا تُدْنِيَانِي مِنَ السُّنْبُلِ  
لَعَلِّي أَسْمَعُ فِي حُفْرَتِي — إِذَا عَصِرَتْ — ضَجَّةَ الْأَرْجُلِ

## الختام

والآن وقد بلغنا آخر الشوط نقف لنقول كلمة الختام ، وهي في عظمة موقف الإسلام حيال موضوع الخمر الذي نحن بسبيله . والأمر لا يقتضينا تكلف التخريج والاستدلال ، فليس هو مما يحتاج إلى ذلك . بل يكفي فيه التذكير ببعض الحقائق التاريخية المشهورة من غير إطالة ومن غير تعقيب ، والحق مبين عن نفسه ، مستغن عن أن يُستدل عليه بغيره .

فلنذكر بادي بدء ما كانت عليه جاهلية العرب — كما يصورها الشعر الجاهلي — من الفتنة بالخمر إلى حد المفاخرة بإدامتها واستهلاك التالد والطريف في معاقبتها والمنادمة عليها .

ولنذكر بعدها حال الإسلام ، حين ظهرت بين العرب المشركين دعوته بالتوحيد ، فلم تلق عندهم قبولا ، وناهضها ساداتهم ، وعملوا على إبطالها جهدهم خشية انفضاض الناس من حولهم .

ثم لنجمع بين هاتين الحقيقتين لنقول إن في تحريم الخمر التي ألفها القوم هذه الألفة وآثروها هذا الإيثار ، مدعاة — ولا ريب — للزيادة في نفور الكثرة الساحقة من المشركين من الدين الجديد ، كما يُخشى من التحريم فضّ القلة المناصرة من المسلمين عنه وتفتير حماسهم له .

فما الذي كان من الإسلام ؟

كان أن أنزلت — مع هذا جميعه — الآية الكريمة بتحريم الخمر . وكان نزولها في ساعة عصيبة في تاريخ الجهاد ، والحرب بين المسلمين والمشركين سجال ، ولما ينحسم بين الفريقين قتال .

ونحن إذا ذكرنا ذلك ، ثم تأملنا ما كان بعده من اختلاف المسلمين في مدلول الخمر منذ أيام الصحابة اختلافاً لم يقع مثله في أمر من الأمور التي وقع فيها الخطر ، ثم رجعنا إلى ما استحدثه المتصوفة من ادعائهم الوصول إلى الله ، وأن الواصلين ترتفع عنهم التكاليف وتحل المحظورات وفي طليعتها بنت الحان من يد ساق رائع الحسن فتان ، ثم استحضرننا إلى ذلك كثرة ما في كتب الأدب العربي من صفة مجالس الشراب ومواقع الحانات ، وما ورد في ذلك من الأخبار والأشعار قبل أبي نواس وبعد أبي نواس ، وإن تكن إمارة الخمريات قد انعقدت له وانتهت رياستها إليه غير مدافع ولا منازع . . . أقول ، إذا نظرنا في هذا جميعه ، شعرنا بعظمة هذا الدين الذي انفرد دون سائر الأديان ، بأن ضرب التحريم على بنت الحان ، وهذا شأنها عند الناس في عامة الآفاق والأزمان .

ولا أحسبنا — في آخر الأمر — واجدين ما هو أبلغ بياناً عن فتنة الخمر من قول الإمام مالك : « حُرِّمَت الخمر ، ولم يكن للعرب عيشٌ أعجب منها ، وما حُرِّمَ عليهم شيء أشدَّ من الخمر » .

وليكن هذا القول الفصل كلمة الختام ، في تصوير عظمة هذا الموقف من مواقف الإسلام .

## ثبت المراجع

ديوان أبي نواس	لجامه حمزة الأصبهاني
أخبار أبي نواس	لابن منظور
الأغاني	لأبي الفرج الأصفهاني
مروج الذهب	للمسعودي
نهاية الأرب	للتويري
العقد الفريد	لابن عبد ربه
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
وفيات الأعيان	لابن خلكان
معجم الأدباء	لياقوت الحموي
رسائل الجاحظ	
التاج في أخلاق الملوك	للجاحظ
الحيوان	للجاحظ
محاضرات الأدباء	للاغب الأصبهاني
زهر الآداب	للحصري
المستطرف	للأبشيبي
فصول التماثيل	لابن المعتز
حلبة الكميت	للنواجي
ترزين الأسواق	لداود الأنطاكي
تذكرة أولى الألباب	» »
المختص	لابن سيده
صحيح البخاري بشرح الكرماني	
الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم	



الملل والنحل	لشهرستاني
مسالك الأبصار	للعمرى
معجم البلدان	لياقوت الحموى
فتوح البلدان	للبلاذرى
تاريخ الأمم والملوك	للطبرى
الكامل	لابن الأثير
الفخرى	لابن الطقطقى
تاريخ بغداد	للخطيب البغدادى
تاريخ التمدن الإسلامى	لجورجى زيدان
المطالعات	لعباس محمود العقاد
حديث الأربعاء	لطفه حسين
فجر الإسلام وضحاها	لأحمد أمين
حضارة الإسلام	لحميل نخلة المدور
الحضارة الإسلامية	لمتر ترجمة أبى ريده
الديارات النصرانية	لحبيب زيات
مجلة الهلال	العدد الخاص بأبى نواس

وغير ذلك من البحوث العربية والإفريقية محدثة وقديمة .

ولا يشمل ثبت المراجع طائفة من المباحث القيمة التى صدرت بعد نشر هذه الدراسة فى طبعها الأولى .

# الفهـَارِسُّ



## فهرس الأعلام

ويشمل أسماء الرجال والنساء والأئم والتقبائل والعشائر والفرق الدينية

ابن الأشعث «محمد» - الشاعر : ٣٣٥، ٣٣٤  
ابن الأعرابي «محمد بن زياد» - العلامة  
اللفوى : ١٤٩  
ابن بطوطة «محمد بن عبد الله» الطنجي -  
المؤرخ الجغرافي الرحالة : ٩٢  
ابن جامع «إسماعيل» - المغني : ٢٩ ،  
٣٠ ، ٣٥٥  
ابن حوقل «محمد» - المؤرخ الجغرافي الرحالة :  
٧٦  
ابن خرداذبة «عبيد الله بن أحمد» - المؤرخ  
الجغرافي : ٣٨  
ابن الخطيب «أبو بكر أحمد بن علي الخطيب  
البغدادي» : ٢٩٧  
ابن خلكان «أبو العباس أحمد بن محمد» -  
المؤرخ صاحب التراجم : ٢٩٠  
ابن ذريح «قيس لبني» - الشاعر العاشق العذري :  
٣١٢ ، ٣١٤  
ابن رامين «عبد الملك» - صاحب القيان  
بالكوكة : ٣٣٤  
ابن الرومي «علي بن العباس» - الشاعر :  
١٥٨ ، ١٦١  
ابن سريج «أبو يحيى عبد - أو عبيد الله» -  
من أكبر المغنين : ١٨١ ، ٣٢٩ ، ٣٣١  
ابن سيرين «أبو بكر محمد» - العالم في الفقه  
وتعبير الرؤيا : ٢٥٣  
ابن الصلصال «أبو جعفر» الكوفي : ٢٧  
ابن عائشة «أبو جعفر محمد» - الملحن  
الموسيقيار : ٣٢٩

أ

آدم - أبو البشر : ٩٤ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ،  
١٨٦  
آزر - من ملوك السريان : ١٩١  
أبان بن عبد الحميد اللاحق - الشاعر :  
٢٥٣ ، ٣٤٨  
إبراهيم بن المدبر - الشاعر : ٦٩ ، ٧٠ ،  
٣٥٤  
إبراهيم بن محمد المهدي «أبو إسحق» -  
الأمير الموسيقار : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،  
٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢  
إبراهيم عبد القادر المازني - الكاتب الشاعر  
المعاصر : ١٦٢ ، ١٦٣  
إبراهيم الموصلي «أبو إسحق إبراهيم بن ميمون  
التميمي النديم» - الملحن الموسيقار :  
٣٢٣ ، ٣٣٢ ، ٣٥٥ ، ٣٨١ ،  
٣٨٢ ، ٣٨٤  
أبرويز كسرى - عاهل الفرس : ٨٠  
إبليس «أبو مرة» : ٥٢ ، ٥٩ ، ١٨٩ ،  
٢٧٩ ، ٣٤٠ ، ٣٧٧ - ٣٨٧ ، ٤٠٣  
ابن أبي خلسة : ٣٨٥  
ابن أبي عتيق «عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن  
بن أبي بكر الصديق» : ٣٢٩  
ابن أبي الكنات «عمرو» - المغني : ٣٢٦  
ابن أذين - صاحب حانة في قطربل : ٨ ،  
٢٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٠١



أبو حنيفة النعمان «ابن ثابت» - أحد  
الأئمة الأربعة : ١٩٦

أبو ذر الغفاري «جندب بن جنادة»  
الصحابي : ٣٩١

أبو زيد الدلالي المغني : ٢٨١ ، ٣٢٩  
أبو سفيان بن حرب «صخر» من سادات  
قريش والد معاوية رأس الدولة الأموية :  
٤١٥

أبو الشبل البرجمي : ٣٩  
أبو الشيص «أبو جعفر محمد بن رزين عم  
دعبل الخزاعي ، وقيل هو محمد بن عبد الله

ابن رزين ابن عم دعبل : ١٥٣ ، ١٥٤  
أبو طلحة = زيد بن سهل الأنصاري

أبو العباس = الفضل بن الربيع  
أبو العباس بن محمد الأمير العباسي : ٢٠١

أبو العباس = ابن المعتز «عبد الله» :  
أبو عبد الرحمن العطوي الشاعر : ٢٦٢

أبو عبيدة معمر بن المثنى - العالم البصري :  
١٤٩ ، ٢٩٠

أبو الغتاهية «أبو إسحق اسماعيل بن القاسم»  
الشاعر : ٦٧ ، ٣١٦ ، ٣٥٠ ، ٣٨٧

٣٨٨  
أبو عكرمة : ٣٥٣

أبو العلاء الممرى «أحمد بن عبد الله بن سليمان  
ابن محمد التنوخي» - الشاعر الفيلسوف :

١٦١ ، ١٦٤ - ١٦٨  
أبو علي بن الرشيد الأمير العباسي : ٥٧

أبو عمرو سمواأل اليهودي صاحب حانة : ١٧  
أبو عمرو إسحق بن مرار الشيباني = إسحق الشيباني

أبو عمير النخاس بالكرك : ٣٢٤  
أبو عيسى : ٤١١

أبو عيسى بن الرشيد - الأمير العباسي : ٢٢٤  
أبو عيسى بن المتوكل - الأمير العباسي :

٣٢٤ ، ٣٥٣

ابن عمران «موسى عليه السلام» : ١٩ ،  
٣٥ ، ١٨٥

ابن الفارض «شرف الدين أبو حفص عمر  
ابن علي بن مرشد» الشاعر الصوفي : ١٦٩

ابن فضل الله العمري «شهاب الدين أحمد  
ابن يحيى» - المؤرخ الجغرافي : ٥٦

ابن قتيبة «أبو مسلم عبد الله بن مسلم الدينوري» :  
١٤٨ ، ١٥٨

ابن ماء السماء «المنذر الثالث» من ملوك الحيرة : ٧٦  
ابن محرز «مسلم» - صناعية العرب الموسيقار

المغني : ٣٢٩  
ابن المعتز «أبو العباس عبد الله» - الشاعر :

٣٢٩ ، ٣١٣ ، ١٢٠ ، ٥  
ابن الملوح «قيس ليلى» - الشاعر العاشق

العذري : ٣١٢  
ابن منظور «جمال الدين أبو عبد الله محمد

ابن مكرم» - الأديب اللغوي : ٢٦٥ ،  
٢٧٤ ، ٢٩٢

ابن فونجخت : ٣٩٤  
ابن هرمة «إبراهيم بن علي» - الشاعر : ٢٥٣

ابن الهندي - الشاعر : ٢١٢  
أبو بصير «الأعشى ميمون بن قيس» = الأعشى

أبو تمام «حبيب بن أوس الطائي» الشاعر :  
٣١٤

أبو جعفر بن الصلصال الكوفي = ابن الصلصال  
أبو جعفر سائب خاثر = سائب خاثر

أبو جعفر = محمد بن حبيب  
أبو جعفر المنصور «عبد الله بن محمد بن علي

ابن العباس» - الخليفة العباسي : ٣٢٣ ،  
٣٢٧

أبو جهل «عمرو بن هشام» - من سادات  
قريش في الجاهلية : ٣٩١

أبو حاتم = سهل بن محمد السجستاني البصري  
أبو الحسن = علي بن يحيى المنجم

٣٥٢ ، ٣٨١  
 أسد « قبيلة » : ٤٠٥  
 إسكندر المقدوني « ذو القرنين » : ٢٧٧  
 أسماء بنت المهدي - الأميرة العباسية : ٣٠٢ ،  
 ٣٠٣ ، ٣٨٥  
 إسماعيل بن جامع « المغني » = ابن جامع  
 إسماعيل بن صبيح - كاتب الرشيد : ٢٩٢  
 إسماعيل بن عمار الأسدي الشاعر : ١٤٠  
 إسماعيل القراطيسي - الشاعر : ٢٧٤ ، ٣٤٩  
 أشجع السلمي « أبو الوليد بن عمرو »  
 الشاعر : ١٧ ، ١٠٢  
 الأشوريون : ٧٦ ، ٨٧  
 الأصمعي « أبو سعيد عبد الملك بن قريب »  
 العالم الراوية : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٠٩  
 الأعشى « أبو بصير ميمون بن قيس » الشاعر  
 الجاهلي : ١٤٨ ، ١٥٨ ، ٢٢٥ ،  
 ٤١٥ ، ٤١٦  
 الإغريق : ١٩٠ ، ٢٨٢  
 أفلاطون : ٢٨٢  
 إقليدس : عالم الرياضيات اليوناني الإسكندري  
 ٣٢٣  
 الأقيشر الأسدي « أبو معرض المنيرة بن  
 عبد الله » الشاعر الهجاء : ٢٧ ، ٣٣ ،  
 ١٧٠  
 الأكراد : ١٨  
 أمبيلوس Ampelos : ١٢٨  
 أم حصين اليهودية - صاحبة حانة : ١٩ ، ٣٥  
 امرؤ القيس بن حجر الكندي - الشاعر  
 الجاهلي : ١٤٩ ، ١٥٨ ، ٤٠٧  
 الأمين « محمد بن هرون الرشيد بن المهدي بن  
 أبي جعفر المنصور » - الخليفة العباسي :  
 ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ،  
 ٢٥٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٩٧ ،  
 ١٠١ ، ٢١٢ ، ٣٢٧ ، ٣٤٥

أبو قابوس « النعمان بن المنذر » أشهر  
 ملوك الحيرة : ٧٧  
 أبو القشير : ٣٥٧  
 أبو محجن عمرو بن حبيب الثقفي - الفارس  
 الشاعر : ٤١٧  
 أبو مخلد الطائي : ٣٨٨  
 أبو النصر البصري - الشاعر : ٤٩  
 أبو نصر = الخصب بن عبد الحميد العجمي  
 ٣٤٨  
 أبو نصير - الشاعر المغني : ٣٤٨  
 أبو الهذيل الجهمي الشاعر : ١٥٢  
 أبو الهندي « غالب بن عبد القدوس »  
 الشاعر : ١٢٠ ، ٤١٧  
 أبو عينة « بن محمد بن أبي عينة المهلب »  
 الشاعر : ٣٣٢  
 أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم - قاضي  
 القضاة : ١٩٩  
 أحمد بن أبي طاهر : ٩٦  
 أحمد بن صدقة - الطنبوري : ٢٩٧ ، ٢٩٨  
 أحمد بن العباس بن الحكم : ١١٤  
 الأحوص « أبو محمد عبد الله بن محمد »  
 الشاعر الأموي : ٣٢٩  
 الأخطل « أبو مالك غياث بن غوث »  
 الشاعر الأموي : ١٠٢ ، ١٤٨  
 الأرمنيات « الجوارى » : ٢٩٩  
 أرفيوس : ٣٢٤  
 أروى : ٤٠٤  
 الأزدي « قبيلة » : ٣٥٨  
 الإسبرطيون : ٢٨٢  
 إسحق الشيباني « أبو عمرو إسحق بن مرار »  
 اللغوي الأديب : ١٤٨  
 إسحق الموصلي « أبو محمد إسحق بن إبراهيم  
 النديم » الملحن الموسيقار : ٢٩ ، ٤٦ ،  
 ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١

بنو الأحرار - لقب للفرس : ٤٠٠ ،  
 ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤  
 بنو إسرائيل : ١٠١  
 بنو الأصفر - لقب للروم : ١٨  
 بودلير Baudelaire - الشاعر الفرنسي : ٢٥  
 البيزنطيون الروم أبناء الإمبراطورية الرومانية  
 الشرقية : ١٨  
 البيهقي « إبراهيم بن محمد » : ١١٤ « هامش »

## ت

ترتيف Tartuffe « مسرحية » : ٣٩١  
 الترك : ٧٥ ، ١٧٩  
 التركيات « الجوارى » : ٢٩٩  
 تميم - قبيلة : ١٠ ، ٤٠٥  
 تيودورا « الإمبراطورة زوجة يوستنيان عاهل  
 الإمبراطورية البيزنطية : ٧٥

## ث

الثرواني « محمد بن عبد الرحمن » - الشاعر :  
 ٥٨ ، ٣٥٤  
 ثمود « قبيلة » : ١٨٥

## ج

جابر - صاحب حانة بالخيرة : ٢٧ ، ٢٨  
 الجاحظ « أبو عثمان عمرو بن بحر » كبير  
 أئمة الأدب : ١٧ ، ١٥١ ، ١٥٩ ،  
 ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،  
 ٢٧٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،  
 ٣٤٠

٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ،  
 ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤١١

الأنباط : ١٨

أنس بن مالك الأنصاري - الصحابي المحدث :  
 ١٩٤

أنو شروان كسرى - عاهل الفرس : ٧٧ ،  
 ٤٠١ ، ٤٠٥

أوزيريس من آلهة مصر القديمة : ١٩٠  
 أوسكار وايلد - الأديب الأيرلندي : ٢٨٠  
 إلياس بن قبيصة - ملك الخيرة : ٨٠  
 أيوب بن شرحبيل - من ولاية مصر : ٥٤

## ب

البابليون : ٧٦  
 باخوس - إله الخمر عند اليونان الأقدمين :  
 ١٩٠

الباتوقة - بنت الخليفة المهدي : ٣٠٦  
 البجاويات - الجوارى : ٢٩٩  
 بديع : ٢٨

بذل - الجارية المولدة المغنية : ٣٣١

البرامكة : ١٥١ ، ٢٥٧ ، ٣٦٨

البرجمي = أبو الشبل :

برسوم الزامر : ٣٥٥

بشار بن برد - الشاعر : ١٢٢ ، ٣٠٧

بطليموس - العالم اليوناني في الجغرافيا والنجوم :

٣٢٣

بكر بن حماد الباهلي - الشاعر : ٣٤٨

بكر بن خازجة - الكوفي الشاعر : ٦١ ، ٦٨

البلاذري « أحمد بن يحيى » - المؤرخ : ٤١٦

بلقيس : ٢٨٥

بليني Plinius الروماني - مؤلف كتاب

« التاريخ الطبيعي » : ١٨٦

الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي -

الشاعر الغزل : ٣٢٩

الحارث بن عمرو بن حجر - آكل الخوار

الكندي والد هند « الكبرى » : ٧٦

حام « ابن نوح » : ١٨ ، ٢١٣

حبابة « حبابه أم داود » المغنية : ٣٢٩

٣٣٣

الحبشان : ٢١ ، ٢٠٨

الحبشيات « الجوازي » : ٢٩٩

حبشية جارية « عون » : ٣٣٦

الحجاج بن يوسف الثقفي - القائد : ٤١٦

حرب بن عمرو الثقفي « النخاس » : ٣٣٤

الحرق « هند بنت النعمان » : ٧٧

حسن جارية جعفر بن سليمان : ٢٩٢ -

حسن « الجارية المغنية » : ٣٣١

الحسن بن علي الرياحي البصري : ١٤٩

الحسين بن الضحاك التميمي الشاعر الماجن :

٣١ ، ٤١ ، ٦١ ، ١١٤ ، ١٥٥ ،

١٥٦ ، ١٥٧ ، ٣٤٩

الحسين الخياط - الشاعر الماجن : ٣٤٩

الحصري القيرواني « أبو إسحق إبراهيم بن علي »

مؤلف كتاب زهر الآداب : ٢٦٢

الحكم بن عمار الواسطي : ٢٧٣

حكم الوادي بن ميمون - المفتي : ٣٥٧

حماد الراوية « أبو القاسم حماد بن أبي ليل

سابور » : ٣١١

حماد عجرد - الشاعر

الزنديق : ٥

حمد بن حمدون - النديم لأديب : ٣١

حمزة بن الحسن الأصهباني - جامع ديوان

أبي نواس : ١٣١ هامش

حمزة بن أبي سلامة الكوفي : ٥٨

حنون - صاحبة حانة : ٢٣

جالوت - الجبار الذي صرعه داود : ٢٠

جانميد الأمير الطراودي الشاب « في أساطير

اليونان » : ٢٨٢

جانين « ريموند » : ٦٩ هامش

جحظة البرمكي « أبو الحسين أحمد بن جعفر

بن موسى بن يحيى البرمكي » : ٦٢ ، ٦٣ ،

٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ١٤٠ ،

٣٥٤

الجرجاني « أبو الحسن علي بن عبد العزيز »

القاضي الأديب صاحب كتاب الوساطة :

١١٦

جرير « أبو حرزة الخطقي » الشاعر :

٥٢ ، ١٥٨

جعفر البرمكي « أبو الفضل جعفر بن يحيى

البرمكي » - وزير هرون الرشيد : ٢٥٧ ،

٣٤٦ ، ٣٥١

جعفر بن سليمان - الأمير العباسي : ٢٩٢

جعفر الطيال : ٣٥٥

جمال الكوفي « من بني دارم » - من فتيان

أبي نواس : ٢٧٤

الجمحي = أبو الهذيل

جميل بن معمر الشاعر العذري ويكنى أبا

عمرو ويعرف بجميل بثينة : ٣١٤

جميلة السلمية - نابغة الغزل والتلميح والفناء :

٣٢٩ ، ٣٣٠

جنان « جارية آل عبد الوهاب الثقفي » :

١٢٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٣١٢ ، ٣١٣

## ح

حاتم الضائي : ٤١٧

الحارث بن جبلة النسائي - أشهر ملوك غسان :



حنين بن بلوع الحيرى - الشاعر الموسيقى المغنى

٣٣٠ ، ٩٩

حواء : ١٨٥

## خ

خالد بن الوليد - القائد الفاتح العربى :

٨٠ ، ٧٦

الخالدى « أبو بكر الخالدى » - الشاعر :

٩٠ ، ٦٢

الخباز البلدى - الماجن الخليع : ٥٧

الخصيب بن عبد الحميد العجمى « أبو نصر »

أمير الخراج على مصر : ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٣ ،

٣٦٨ ، ٣٩٨

الخضر « صاحب سيدنا موسى » : ١٨٥

خلنجاس « من ملوك السريان » : ١٩١

خليدة المكية - الجارية السوداء المغنية :

٣٢٩ ، ٣٣١

خنث « ذات الخال » - من جوارى هرون

الرشيدي : ٢٩٧

الخوارج « الثراء » : ٢٧ ، ٤٠٨

الخيام « عمر » - الشاعر الفارسى : ١٦٠ ،

١٦١ - ١٦٤ ، ١٦٨

## د

دبيحة - من قيان بيت ابن رامين بالكوفة :

٣٣٤

رحمة - الجارية : ٣٤١

رزين الكاتب - أخو دعبل : ١٥٣ ،

١٥٥ ، ٣٤٩ ، ٣٨٠

رسم بن خداهى . من فتيان أبي نواس : ٢٧١

الرشيدي « هرون بن محمد المهدي بن أبي جعفر

دعبل بن علي بن رزين الخزاعى - الشاعر

الهجاء : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٣٤٩

الدلال « أبو زيد » - المغنى : ٢٨١ ، ٣٢٩

الدميرى « محمد بن موسى » - العالم : ١٨٩

دنانير البرمكية « مولاة يحيى بن خالد البرمكى »

المغنية : ٣٣١ ، ٣٤٥

الدوريون - الجنس الدورى فى يونان القديمة :

٢٨٢

دومة - صاحبة حانة بالحيرة : ٢٧

ديك الجن الحمصى « عبد السلام بن رغبان » -

الشاعر : ٩٦

الدليم : ٣٥٧ ، ٤١٦

ديونيسوس Dionysus : ١٢٨

## ذ

ذات الخال « خنث » - من جوارى الرشيد :

٢٩٧

ذبيان - قبيلة : ٤٠٣

ذهل - قبيلة : ٤٠٣

ذو القرنين « الاسكندر المقدونى » : ١٨٥

## ر

ربيحة - من قيان بيت ابن رامين بالكوفة :

٣٣٤

رحمة - الجارية : ٣٤١

رزين الكاتب - أخو دعبل : ١٥٣ ،

١٥٥ ، ٣٤٩ ، ٣٨٠

رسم بن خداهى . من فتيان أبي نواس : ٢٧١

الرشيدي « هرون بن محمد المهدي بن أبي جعفر

داود - ملك بنى إسرائيل : ٢٠

داود بن رزين الواسطى - الشاعر : ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٣٤٩

ديبس - المغنى : ٣٥٣

در - جارية رومية : ٢٩٦

دريد بن الصمة - الشاعر الجاهلى : ٣٢٥

## س

- سابا النصراني - صاحب حانة : ١٥  
 سابور - عاهل الفرس : ١٨٥ ، ٤٠٢  
 سام « ابن نوح » : ١٨٥  
 سائب خاثر « أبو جعفر » - الفارسي من  
 أئمة الغناء عند العرب : ٣٢٩ ، ٣٥٥  
 السجستاني = سهل أبو حاتم بن محمد  
 سحر - من جوارى هرون الرشيد : ٢٩٧  
 سحيقة - من قيان بيت زريق بالكوفة : ٣٣٥  
 سرجس - صاحب حانة في طبرستان :  
 ٤٢ ، ٢٧  
 السريان : ٧٥ ، ١٩٠ ، ١٩١  
 سعاد « المغنية » - جارية الوليد بن يزيد :  
 ٣٣٠  
 سعد - من قيان ابن رامين بالكوفة : ٣٣٤  
 سعيد بن مسحج - المغني : ٣٢٩  
 سقراط - الفيلسوف اليوناني : ٢٨٢  
 السكيثيون Scythes قبائل في الشمال الشرق من  
 أوربة والشمال من آسية : ٢٨٢  
 سلامة - المغنية : ٣٢٩ ، ٣٣٣  
 سلامة الزرقاء - من قيان ابن رامين بالكوفة :  
 ٣٣٤ ، ٣٣٥  
 سليم بن سلام - المغني : ٣٥١ ، ٣٥٥  
 سليمان الحكيم : ١٦١  
 سليمان بن سحطة - راوية أبي نواس : ٣١٠  
 سليمان بن أبي سهل بن نوبخت : ٤١ ، ١١٤ ،  
 ١٥٠  
 سليمان بن عبد الملك - الخليفة الأموي : ٢٨١  
 سليمان بن نوبخت = سليمان بن أبي سهل  
 ابن نوبخت  
 سليمان النوفل : ٤١٦

- المنصور - الخليفة العباسي : ١٠ ،  
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ،  
 ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٥١ ، ١٩٩ ،  
 ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ،  
 ٣١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،  
 ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ،  
 ٣٥٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٦ ،  
 ٣٩٧  
 الروم : ١٨ ، ٢١ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٥ ،  
 ٧٧ ، ٨٣ ، ١٩٠ ، ٢١٠ ،  
 ١٤٨ ، ٢٤٩  
 الرومان : ٤١٢  
 الروميات « الجوارى » : ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩  
 الرياحي « الحسن بن علي » - الأديب البصري :  
 ١٤٩  
 الرياشي البصري « أبو الفضل العباس  
 ابن الفرج » - اللغوي الراوية : ١٤٩

## ز

- زبيدة « أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن الخليفة  
 المنصور العباسي » - زوجة الرشيد :  
 ٣٠٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧  
 زرادشت - مؤسس ديانة فارس القديمة : ٤٠٤  
 الزرقاء - المغنية : ٣٢٩  
 زريق بن منبج - صاحب القيان بالكوفة :  
 ٣٣٤ ، ٣٣٥  
 الزنجيات « الجوارى » : ٢٩٩  
 زنين - المغني : ٣٥٣  
 زوس - Zeus كبير الأرباب عند الأغريق :  
 ٢٨٢  
 زيد بن سهل الأنصاري « أبو طلحة » -  
 الصحابي : ١٩٤

صبر يشوع « الجاثليق » - متقدم الأساقفة :

٧٧

الصحابة : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧

الصفوية : ١٦٨ ، ١٦٩

الصولي « محمد بن يحيى » : ٣١٤

## ض

ضياء - من جوارى هرون الرشيد : ٢٩٧

## ط

طالوت : ٢٠

الطائفات « الجوارى » : ٢٩٩

الطبرى « أبو جعفر محمد بن جرير » -

المؤرخ والمفسر الشهير : ٣٨ هامش ، ٢٩٦

طرفة بن العبد - الشاعر الجاهلي : ١٥٨ ،

٤٠٧

الطنبوري = أحمد بن صدقة

طوق بن مالك : ١٥١

طويس « أبو عبد المنعم عيسى بن عبد الله » -

المغنى الدفاف : ٢٨١ ، ٣٢٩ : ٣٥٥

## ع

عاد « من التباثل البائدة » : ٦٤ ، ١٨٥

عبادة الماجن : ٥ ، ٦

عبادة - من قيان أبي عمير النخاس بالكرخ :

٣٣٤

العباس - زوج أم أبي نواس : ٢٨٩

العباس بن الأحنف « أبو الفضل » - شاعر

الغزل : ٢٩٧

سمول « أبو عمرو » اليهودي - صاحب حانة : ١٧

السندى « ابن شاهك الحرشي » - من أصحاب

الشرطة ٢٠١

السنديات « الجوارى » : ٢٩٩

سهل بن محمد السجستاني « أبو حاتم » -

العالم الأديب : ١٥٠

سويتون Suetonius « المؤرخ الروماني » :

٢٨٢

## ش

الشابشي « علي بن محمد » - الأديب المؤرخ :

٤٢ ، ٥٦ ، ٧٦

الشارة « الخوارج » : ٢٧ ، ٤٠٨

الشعوبية : ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

شكبير - الشاعر الانجليزى الأكبر : ٢٨٠

شهر يار - عاهد الهند والصين : ٣١٢

شهلاء اليهودية - صاحبة حانة بالخيرة : ٢٧ ،

٣٣

شوشة الفغمى - الشاعر : ١٥٢

شيبان « قبيلة » : ٤٠٣

الشياني = اسحاق أبو عمرو بن مرار

الشياني = مدرك بن علي

شيث « ابن آدم » : ١٨٥

## ص

صاحب الحوت « النبي يونس » : ٢٠

صالح بن الرشيد - الأمير العباسي :

٣٤٥ هامش

عشير بن البراء - صاحب الشاعر بكر  
بن خارجة : ٦٨  
عفرأ - محبوبه الشاعر العذرى عروة بن حزام  
وابنة عمه : ٢٧٣  
عقيد « مولى صالح بن الرشيد » - الشاعر  
المغنى : ٣٤٥ هامش  
على بن أبي طالب - الخليفة : ٥  
على بن الجهم - الشاعر : ٣٢٦  
على بن الخليل - الأديب : ٣٨٠ ، ٣٨١  
على بن العباس « أبو الحسن » - الشاعر  
الكوفى : ١٥٨ ، ٣٥٢  
على بن يحيى « أبو الحسن المنجم » - الأديب  
الشاعر : ٣٥٢  
عليه بنت المهدي - الأميرة العباسية : ٣٢٤ ،  
٣٥٥  
عمر بن أبي ربيعة - الشاعر : ٣٢٩ ، ٣٣٠  
عمر بن الخطاب - الخليفة : ١٩٣ ، ١٩٤  
عمر الخيام الشاعر الفارسي = الخيام  
عمر بن عبد العزيز - الخليفة الأموي :  
٢٠٥ ، ٥  
عمر بن الفارض = « ابن الفارض »  
عمرو بن أبي الكنات المديني - المغنى =  
« ابن أبي الكنات »  
عمرو بن بحر = الجاحظ  
عمرو بن بقللة - وزير النعمان : ٨٠  
عمرو بن حبيب الثقفي « أبو محجن » : ٤١٧  
عمرو بن عامر : ١٨٥  
عمرو بن عبد الملك المنزى الوراق - الشاعر :  
٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣١٨ ، ٣٤٩  
عمرو بن كلثوم - الشاعر : ٢٥٢  
عمرو بن المنذر الثالث من زوجته هند  
« الكبرى » : ٧٦ ، ٧٧  
عمرو بن يوحنا - صاحب الشاعر مدرك  
بن على الشيباني : ٦٨

العباس بن عبيد الله بن جعفر بن أبي جعفر  
المنصور - الأمير العباسي : ٣٦٨ ،  
٣٩٧  
العباس بن الفضل بن الربيع : ٣٦٨ ، ٣٦٩  
عبد الرحمن بن أبي هذاعد - الشاعر : ١٥٦  
عبد الرحمن بن عوف - الصحابي : ١٩٣  
عبد الله بن محمد الأمين - الأمير العباسي :  
٣٢٤  
عبد الله بن محمد البواب - الشاعر : ٣٢٤  
عبد الله بن المعتز = ابن المعتز  
عبد الله بن موسى - الأمير العباسي : ٣٢٤  
عبد الملك بن رامين - صاحب القيان بالكوفة  
= ابن رامين  
عبدون الحراني : ١٥١  
عبدون الراهب - من الملكانية : ٧٦  
عبس « قبيلة » : ٤٠٣  
عبيد بن الأبرص - الشاعر الجاهلي : ١٠٧  
العنابي « كلثوم بن عمرو » - الشاعر :  
١٤٩ ، ١٥١  
عثمان بن عفان الخليفة : ٥  
عدى بن الرقاع - الشاعر : ٢٣٢  
عدى بن زيد العبادي - الشاعر النصراني ،  
ترجمان كسرى ورسوله ، وزوج هند  
بنت النعمان بن المنذر : ٧٧ ، ٧٨ ،  
٧٩ ، ٩٩  
العربيات « الجوازي » : ٢٩٩  
العرجي « عبد الله بن عمر » - الفارس الشاعر :  
٣٢٩  
عروة بن حزام - الشاعر العذري : ٢٧٣ ،  
٣١٧  
عريب المأمونية - الأدبية العازفة المغنية  
جارية عبد الله بن اسماعيل ثم الخليفة الأمين  
ثم المأمون : ٣٤٢  
عزة الميلاء - المغنية في العصر الأموي : ٣٢٩



فرلين Verlaine - الشاعر الفرنسي : ٢٨٠  
الفضل بن الربيع « أبو العباس » - وزير  
الرشد والأمين : ١٣٢ ، ٣٦٨ ، ٣٩٨  
الفضل بن يحيى البرمكي - وزير الرشد :  
٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩  
الفضل بن عبد الصمد الرقاشي البصري -  
الشاعر : ٣٤٩  
الفقعي « شوشة » - الشاعر : ١٥٢  
الفيثيون : ١٩١

## ق

قائيل « ابن آدم » : ١٨٩  
القاسم بن هرون الرشد « المؤمن » - الأمير  
العباسي : ٢٥٦  
قاسم بن زنفرة : ٦  
القبط : ٩٣ ، ٧٥ ، ٩٦  
قبل - جارية : ٢٩٤  
القراطي = اسماعيل القراطي  
قريش : ٤١٥  
قسطنطين : ٦٦  
القعدية - فرقة : ٢٧ ، ٢٨  
قلم الصالحية - المغني قينة صالح بن عبد الوهاب :  
١٣١ هاشم ، ٣٣١  
قيس « قبيلة » : ٤٠٥  
قيس لبني = ابن ذريح  
قيس ليل = ابن الملوح  
قيصر : ١٨ ، ١٨٥ ، ٤١٣

## ك

كثير عزة « عبد الرحمن » - الشاعر : ٣٢٩  
كسرى : ٨ ، ١٨ ، ١٨٥ ، ٢٦٩ ،  
٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤١٣

عمرو الغزال - المغني : ٣٥٥  
العمرى = ابن فضل الله شهاب الدين  
أحمد بن يحيى  
عنان - جارية الناطق : ٢٩٢ ، ٣٤٧ -  
٣٥٠  
عون - صاحب حانة بالحيرة : ٢٧  
عون - صاحب القيان : ٣٣٦  
عيسى بن موسى - الأمير العباسي : ٣٣٤  
عيسى بن أبي جعفر المنصور - الأمير  
العباسي : ٢٥٦

## غ

غالب بن عبد القدوس « أبو الهندي » -  
الشاعر : ٤١٧  
غالب الصفدي « غلبون » - من قتيان  
أبي فواس : ٢٧٥  
الغريض « عبد الملك » - من أشهر العازفين  
المغنين : ٣٢٩  
الغلاميات « الحوارى » : ٣٠٠  
غلبون = غالب الصفدي  
الغمر - أخو الخليفة الوليد بن يزيد : ٩٩  
غسان بن محمد الغدافري « ابن عم الشاعر  
الحسين الخليل » : ١١٤

## ف

فتجرالد - مترجم رباعيات الخيام : ١٦٢ ،  
١٦٣  
الفرزدق « همام بن غالب » - الشاعر : ١٥٨  
الفرس : ١٠ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٨١ ،  
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

- محمد « صلى الله عليه وسلم » : ٤٥ ، ١٩٣ ،  
 ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،  
 ٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢٧١  
 محمد بن الأشعث = ابن الأشعث  
 محمد بن بشر الجحوال - والى الكوفة : ٣٣٥  
 محمد بن حامد - عشيق عريب المغنية : ٣٤٢  
 محمد بن حبيب « أبو جعفر » : ١٥٨  
 محمد بن زبيدة = الأمين  
 محمد بن زهير : ١٢١  
 محمد بن عاصم المصري - الشاعر : ٤٩  
 محمد بن الفضل بن الربيع : ٣٦٨  
 محمد بن كناسة : ١٣١ هاش  
 محمد بن المدائني : ٢٧٢  
 محمد بن المؤمل : ٦٧  
 محمد بن هشام : ٢٩٠  
 مخارق « أبو المهنا » - المغني : ٣٤٥ ، ٣٨٤  
 مدرك بن علي الشيباني : ٦٨  
 المدنيات - الجوارى : ٢٩٩  
 مرعبدا - خار دير حنة الكبير : ٤٨  
 المرجثة - فرقة دينية : ٢٠٠ ، ٣٩٥  
 المرقش - الشاعر : ٢٧٨  
 مروان بن أبي حفصة - الشاعر : ٣٤٨  
 مريم العذراء : ٤٩ ، ٨٧  
 المسدود « الحسن » - المغني : ٣٥٣  
 مسرور - خادم الرشيد : ٣٣٣ ، ٣٤٧  
 المسعودي « أبو الحسن علي بن الحسين » -  
 المؤرخ الرحالة : ١٩١  
 مسلم بن الوليد - الشاعر : ١٥٢ ، ١٥٣ ،  
 ١٥٤  
 المسيح « عيسى بن مريم » عليه السلام : ١٥ ،  
 ١٧ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ ،  
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٧ ،  
 ٩٠ ، ١٠٠ ، ٢٨٩

- كلب « قبيلة » : ٤٠٣  
 كلثوم بن عمرو العتابي « أبو عمرو » -  
 الشاعر = العتابي  
 كيرنس « أسقف الاسكندرية » : ٧٥  
 كيكان بن المعروف النحوي : ٢٩٠

## ل

- لاوى - خار يهودى : ١٠١  
 لبنى : ٩٩  
 ملك بن متوشلح - والدنوح ومخترع العود : ٣٥٦  
 ليس : ١٤٤ ، ٣٦٥  
 لوط : ٢٩٠ ، ٢٩١  
 لوقا - القديس : ٧١

## م

- مار افريم - الأسقف : ٧٧  
 مار يعقوب : ٧٤ هاش  
 ماروت : ٣٢٢  
 المازني = إبراهيم عبد القادر  
 مالك بن أنس - الإمام : ١٩٦ ، ٤٢٠  
 مالك - المغني : ٣٣١  
 المأمون « أبو العباس عبد الله بن هرون الرشيد »  
 - الخليفة العباسي : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،  
 ٣٩٧ ، ٤٠٧  
 المبرد « أبو العباس محمد بن يزيد » - العلامة  
 الأديب : ٣٩٧  
 المتنبي « أبو الطيب أحمد بن محمد بن الحسين  
 الكوفي » - الشاعر : ٤٠٩  
 مقيم الهاشمية - « جارية علي بن هشام »  
 - المغنية : ٣٣٠  
 المحميس : ١٤

موسى النخاس - صاحب القيان : ٣٣٥  
 موليير Molière - المؤلف المسرحى الفرنسى :  
 ٣٩١  
 الميديون : ٢٨٢  
 ميكائيل انجلو Michelangelo - الفنان  
 المثال الإيطالى : ٢٨٠  
 الميلاء = غزاة  
 ميمون بن هرون الكاتب : ١٥٣ ، ١٥٢

## ن

الناطقة الجعدى « أبو ليلي حسان بن قيس » -  
 الشاعر : ٣١٧  
 الناطقى « مولى عنان » : ٣٤٧ ، ٣٤٨  
 النزارية « قبيلة » : ١٠  
 النسطورية « فرقة دينية نصرانية » : ٧٥ ،  
 ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٧  
 نسطوريوس « أسقف القسطنطينية » : ٧٥  
 النصارى : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٦٦ ،  
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ،  
 ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ٢٤٨ ، ٢٧٩  
 نصيب بن رباح « أبو محجن » - الشاعر : ٣٢٩  
 النظر بن أمية الحمصى - الشاعر : ٩٤  
 النظام البصرى « أبو إسحق إبراهيم بن سيار » -  
 من أئمة المعتزلة : ٢٠١ ، ٢٠٠  
 النعمان = أبو حنيفة  
 النعمان بن المنذر بن المنذر « والد هند الحرقه » :  
 ٤٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠  
 النعمان « الأصغر » الثالث « أبو قابوس  
 بن المنذر » - ملك الحيرة : ٧٧  
 النميى المرقى « عبدالله » - الشاعر : ١٢٠  
 النوبيات « الجوارى » : ٢٩٩  
 نوح « عليه السلام » : ١٨٥ ، ١٨٨

مطيع بن إياس الكوفى - الشاعر الماجن :  
 ٣١١ ، ٤٢ ، ٦ ، ٥  
 معاوية بن أبى سفيان - الخليفة الأموى :  
 ٢٧١ ، ٢٧٢  
 معبد بن وهب - نابغة الغناء العربى : ٣٢٩ ،  
 ٣٣١  
 المعتز بالله « محمد بن جعفر المتوكل  
 بن المعتصم » - الخليفة العباسى : ٣٢٥  
 المعتزلة - فرقة دينية : ١٩٥ ، ٢٠١  
 المعتمد « أحمد بن جعفر المتوكل » - الخليفة  
 العباسى : ٣٢٥  
 المعرى = أبو العلاء  
 معشوق - جارية الأميرة أسماء بنت المهدي :  
 ٣٠٢ ، ٣٠٨  
 معمر بن المثنى = أبو عبدة  
 المغول : ٢٨٢  
 مكنون - جارية : ٤١٤  
 المكيات « الجوارى » : ٢٩٩  
 الملكانية فرقة دينية نصرانية : ٧٥ ، ٧٦  
 المنتصر بالله « محمد بن جعفر المتوكل » -  
 الخليفة العباسى : ٣٢٥  
 المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمى  
 « والد النعمان » رابع المناذرة أصحاب الحيرة  
 ٧٨ ، ٧٩  
 المنذر الثالث « ابن ماء السماء » : ٧٦  
 المنصور = أبو جعفر - الخليفة العباسى  
 منصور الخازن فى خدمة يحيى البرمكى : ٢٥٩  
 منصور زلزل - العواد : ٣٥٥  
 المهدي « محمد بن أبى جعفر المنصور » -  
 الخليفة العباسى : ٢٥٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦  
 المؤمن « القاسم بن هرون الرشيد » - الأمير  
 العباسى : ٣٩٧  
 مرسى بن عمران عليه السلام : ١٩ ، ٣٥  
 ١٨٥

٤٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٥ ،  
٣٣٠

## ي

ياري النصراني - صاحب حانة ببغداد : ١٦  
يافث - من ولد آدم : ٢٦٩  
ياقوت الحموي « شهاب الدين أبو عبد الله  
ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي » - العالم  
المؤرخ الجغرافي : ٣٨ ، ٥٥ ، ٥٦  
يحيى « القس » : ٦١  
يحيى بن خالد البرمكي « أبو الفضل » - معلم  
الرشد ووزيره الأكبر : ٣٥٧ ،  
٢٩٧ ، ٣٤٦  
يحيى بن زياد بن عبيد الله الحارثي ،  
« أبو الفضل » - الشاعر الماجن الكوفي :  
٤٢ ، ٣١١  
يزيد حوراء « أبو خالدة » - من كبار المغنين :  
٣٣٢  
يزيد بن معاوية - الخليفة الأموي : ٤٠ ،  
١٠١  
يزيد بن الوليد - الخليفة الأموي : ٣٣٣  
يعقوب البردعاني - الأسقف : ٧٥ هاشم  
يعقوب بن إسحق بن زيد الحضرمي البصري  
« أبو محمد » - العالم المشهور في  
القراءات : ٣٩٠  
اليعقوبية « اليعاقبة » : ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٨  
يوحنا المعمدان : ٧١  
يوسف « عليه السلام » : ٢٨٥  
يوسف - من قدماء أبي نواس : ١٤٨  
يوسف بن الداية - النحاس : ٣٠٣  
يوشع - خمار نصراني : ٦١  
اليونان : ١٠٠ ، ١٢٨ ، ٣١٢

النورمان « الشماليون » : ٢٨٢  
نونوس Nonnus : ١٢٨

## هـ

الهادي « موسى بن محمد المهدي بن أبي جعفر  
المنصور » - الخليفة العباسي : ٣٢٧  
هروت : ٣٢٢  
هرون الرشد = الرشد  
هافلوك إليس Havelock Ellis : ٢٨٠ ،  
٢٨٣  
الهذلي - الشاعر : ٢١٢  
هرمز - عاهل القرس : ٧٨  
هشيمة - صاحبة حانة بدمشق : ٢٨  
هند « الصغرى » الحرة بنت النعمان بن المنذر  
بن المنذر : ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠  
هند « الكبرى » بنت الحارث بن عمرو  
بن حجر آكل المرار الكندي - زوجة  
المنذر الثالث : ٧٦  
الهنديات « الجوازي » : ٢٩٩  
هيلانة - الامبراطورة « أم قسطنطين » : ٦٦  
هيلانة - من جوازي هرون الرشد : ٢٩٧

## و

الوائق بالله « هرون بن محمد المعتصم بن هرون  
الرشد » - الخليفة العباسي : ٣٠ ، ٣١ ،  
٣٢٥ ، ٣٥٠  
والبة بن الحباب الأسدي الكوفي - الشاعر  
الماجن أستاذ أبي نواس : ٥ ، ٦ ، ٣٨١  
والت هويتان Walt Whitman - الشاعر  
الأمريكي : ٢٨٠  
الوليد بن يزيد - الخليفة الأموي : ٢٨ ،



## فهرس الأمكنة

من بلاد وأنهار وجبال وقصور وأديرة وبيوت قيان وحانات ومعاصر

### ب

باب الثمانية : ٨٣

بابل : ٨٢ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٤٠٢

باطرنجى : ١١١ ، ١١٢

البصرة : ٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٦

٣٩٠ ، ٣١٠

بصرى : ٢٠٧

بغداد : ٧ ، ١٢ ، ١٦ ، ٣٣ ، ٣٨

٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٧

٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤

٨٦ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١١١

١١٤ ، ٢٥٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٩٨

٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠

بلد « بلط - شهر أباد » : ٩٠

البليخ = نهر

بنى : ٤٣

بيوت القيان :

بيت حرب بن عمرو الثقفى النخاس فى بغداد

٣٣٤

بيت أبى عمير النخاس بالكرخ : ٣٣٤

بيت عبد الملك بن رامين بالكوفة : ٣٣٤

٣٣٥

### ا

آسيا الصغرى : ٧٥

آشور : ٧٦

الأبله : ٤٠٢

أبوفطرس = نهر

إربل : ٨٧

الأردن : ٩٥ ، ١٠٠

أرمينية : ٨٦

أذا « أورفا » : ٧٥

الإسكندرية : ٧٥

أسيوط « سيوط » : ٩٦

الأكيراح : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٩٠

أمريكا : ٢٨٠

الأنبار : ٨٢ ، ٣٨٦

الأندرين : ٩٨

أنطاكية : ٧٥

الأهواز : ٢٠٣

أورشليم : ٦٦ ، ٢٩٨

أورفا « أذا » : ٧٥

الأولب « جبل » : ٢٨٢

إيران : ٨٦ ، ٢٨٢

إيطاليا : ٢٨٠

إيموان كبرى : ١٥٩ ، ٤٠٤

## ح

- حانة ابن أذين في قطربل : ٨ ، ٢٧ ، ٣٩ ،  
١٠١ ، ٤٠  
حانة أم حصين : ١٩ : ٣٥  
حانة تل عزار بالركة : ٢٩  
حانة جابر بالحيرة : ٢٧ ، ٢٨  
حانة حنون : ٢٣  
حانة دومة بالحيرة : ٢٧  
حانة سابا : ١٥  
حانة سرجس : ٢٧ ، ٤٢  
حانة أبو عمرو سمؤال : ١٦ ، ١٧  
حانة شهلاء بالحيرة : ٢٧ ، ٣٣  
حانة عون بالحيرة : ٢٧ ، ١٢٠  
حانة قصر الوائق بدار الحرم : ٣٠ ، ٣١  
حانة قصر الوائق بالشط : ٣٠ ، ٣١  
حانة هشيمة بدمشق : ٢٨  
حانة يارى ببغداد : ١٦  
حانات الأديرة : انظر « دير » و « عمر »  
الحبشة : ٧٥ ، ١٨٩  
الحجاز : ٢٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٣٢٨  
الحديثة : ٧٥ ، ٨٨  
حمام أعين : ٤٢ ، ٨١  
حمص : ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢  
حوران : ٩٥  
الحير : ٥٠  
الحيرة : ٢٧ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦١ ،  
٦٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،  
٨١ ، ٨٢ ، ١٢٠

- بيت زريق بن منيع بالكوفة : ٣٣٤ ، ٣٣٥  
بيت موسى النخاس : ٣٣٥  
بيت المقدس : ٩٥  
بيسان : ٩٥  
بيعة توما : ٧٨  
بيعة مار سرجس : ٤٩ ، ٧٢

## ت

- تبوك : ٩٣  
تدمر : ٩٣ ، ٩٤  
تكريت : ٢٠ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٧  
تل عراز : ٢٩  
توما « بيعة » : ٧٨

## ث

- ثمانين « قرية » : ٩١  
ثهلان = جبل

## ج

- جبال أرمينية : ٨٦  
جبل ثهلان : ١٤٤  
جبل الجودي : ٩١  
جبل متى : ٨٩  
الجرعة : ٨٠  
الجزيرة : ٤٣ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ١٠٢ ،  
١٠٣  
جزيرة ابن عمر : ٩١  
جلق : انظر دمشق  
جونخا : ٤٠٢

## خ

الخازر = نهر

خراسان : ٧٥ ، ٨٤ ، ٢٧٨

الخلد « قصر » : ٢٧٧

الخوزنق « قصر » : ٨٠

## د

دابق : ٦٩

دار الحرم : ٣٠

الدجلة = نهر

دجيل = نهر

درب القراطيسى : ٢٧٤

دمشق « جلق » : ٢٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٢ ،

٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١

دومة : ٧٢

ديارات الاساقفة : ٨٠

دير أبون : ٩١

دير أبى يوسف : ٩٠

دير الأسكون : ٨١

دير أشموني : ٦٧ ، ٨٣

الدير الأعلى : ٨٨

دير الأكيراج : ٩٠

دير بار بيثا : ٨٨

دير باشهرا : ٨٤

دير باطا : ٨٧

دير باعربا : ٨٨

دير الباعوث : ٨٦

دير برقانا : ٥٧ ، ٨٧

دير بهراذان : ٨٤

دير بونا : ٩٩

دير الثعالب : ٨٣

دير الجاثليق : ٨٤

دير الحريق : ٥٨ ، ٦٦

دير حنة : ٤٨ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ،

٧٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠

دير حنة بالأكيراج : ٣٥٣ ، ٣٥٤

دير الخنافس : ٨٨

دير الخوات : ٨٤

دير دو مالس : ٨٣

دير الرصافة : ١٠٢

دير الروم : ٧٦ ، ٨٣

دير زراة : ٤٢ ، ٨٠

دير الزعفران : ٩١

دير زكى : ٨٦

دير الزندورد : ٦٧ ، ٨٣

دير سابر : ٨٤

دير سرجس : ٨١

دير سمالو : ٨٣

دير سمعان : ٩٨

دير السوس : ٨٤

دير صليبا : ٩٩

دير العاقول : ٨٣

دير عبد المسيح : ٨٠

دير عبدون : ٨٤

دير العذارى « دير المثلث » : ٦٣ ، ٨٤ ،

٩٠

دير علقمة اللحمى : ٨٠

دير الغادر : ٨٤

دير فيق : ١٠٠ ، ١٠١

دير القائم الأقصى : ٦٣ ، ٨٦

دير القصير بمصر : ٤٩

دير قنى : ٨٣

دير قوطا : ٨٤

دير القيارة : ٧٥ ، ٨٨

السدير : ٨٠  
 سمرقند : ٣١١  
 السواد : ٧  
 سوره : ٢٣٤  
 سوريا : ١٩٠  
 السويس : ٢٧٩  
 سوق القادسية : ٥٠  
 سيوط « أسوط » : ٩٦

## ش

الشام : ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،  
 ٨١ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٣  
 الشامية : ٨٣  
 شهر اباذ « بلط - بلد » : ٩٠

## ص

الصالحية : ٤٣ ، ١٠٨ ، ٤٠٢  
 صرصر = نهر  
 الصين : ٣١١

## ط

طابق = نهر  
 الطائف : ١٨٩  
 طبرستان : ٣٥٧  
 طبرية : ١٠٠  
 طروادة : ٢٨٢  
 طيز ناباذ : ٢٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ،  
 ٤٣ ، ٦٠ ، ٨١ ، ٤٠٥

دير الكلب : ٩١  
 دير الحج : ٧٧ ، ٧٩  
 دير ماريان : ٥٧  
 دير الماطرون : ١٠١  
 دير متى : ٨٩  
 دير مديان : ٨٣  
 دير مران : ٩٩  
 دير مرت مريم : ٣٥٤ ، ٨٠ ، ٧٢ ، ٦١  
 دير مر سرجس : ٩٠  
 دير مر جرجس : ٨٤  
 دير مر ماري : ٨٤  
 دير مريخنا : ٧٦ ، ٨٧  
 دير ميخائيل : ٨٩ ، ٩٠  
 دير ميماس : ١٠٢  
 دير النوبهار : ١٠١  
 دير هند الصغرى : ٧٧ ، ٧٩  
 دير هند الكبرى : ٧٦

## ر

راية العقاب : ٩٠  
 راذان : ٨٤  
 الرصافة رصافة هشام : ١٠٢  
 الرقة : ٢٩ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٨٦ ، ١٠٢  
 الرمل : ٩٥  
 الرها : ٧٥ ، ٨٦  
 الرى : ٣٥٧

## س

ساباط : ١٥٩  
 سامرا : ٦١ ، ٦٢ ، ٨٤



## ع

عانات : ٤٠٤

عانة « من أعمال الجزيرة » : ١٠٢ ، ٢٣٤

العراق : ٢٩ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،

٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٣ ،

١٢٥ ، ١٦٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٣١٠

٤٠٢

عسكر المهدي : ٢٧٤

العقبة : ١٠٠

العقر : ١٠٨ ، ٤٠٢

عقر قوف : ٩٣

عكبزا : ٨٤ ، ٢٥٦

العلاء الوصيف « شارع » : ١١٤

عمان : ١٠

عمر اتراعيل : ٨٧

عمر كسكر : ٨١

عمر نصر « حانة » : ٦١

عمر يونان : ٨٢

عيسى = نهر

عين أباغ : ٩٣

## غ

الغدير « نهر الحيرة » : ٨١

غزة : ٩٥

غوطة دمشق : ٩٩

## ف

فادوسا : ٥٩

فارس : ٧٥ ، ١٦٢ ، ١٨٩ ، ٢٤٨ ،

٢٤٩

الفرات = نهر

الفرما : ٩٥

فزارة « أرض بني » : ١٠٦

الفسطاط : ٩٥

فلسطين : ٩٥ ، ١٠٠ ، ٢١٠

## ق

القائم : ٤٦ ، ٤٧ ، ٨٠ ،

القادسية : ٨١

قاسيون : ٩٩

قباب أبي نواس : ٤١

قباب السكورد : ٨٠

قبة السنيق : ٨٠

قبة الفرق : ٤٣

قرطاجنة : ٢٨٢

قرى بني : ٤٣

قرية ثمانين : ٩١

القطنطينية : ٧٢ ، ٧٥

قصر أبي الخصيب : ٨٠

قصر الخلد : ٢٧٣

قطر بل : ٨ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٣ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٢٦ ، ٢٢٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٨ ،

القنص : ٢٥٦

قلاية الترس : ٥٧

ممصرة أبي نواس : ٤١

معلثايا : ٩١

مكة : ٤١ ، ٢٨٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

٣٨٥

المهدى = نهر

متفوحة : ٤١٦

الموصل : ٥٥ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢

## ن

النجف : ٨٠ ، ٨١

نصيبين : ٩١ ، ٩٢

النقيب : ٩٣

نهر أبي فطرس : ٩٥

نهر البليخ : ٨٦ ، ١٠٣

نهر الحيرة « الغدير » : ٨١

نهر الخازر : ٨٨

نهر دجلة : ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٨ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧

٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠١

٤٠٢

نهر دجيل : ٩٣

نهر صرصر : ١٠٨ ، ٤٠٢

نهر طابق : ١٦

نهر عيسى : ٨٣

نهر الفرات : ١٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤

٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ٤٠٢

نهر كرخايا : ٨٣

نهر المهدي : ٨٣

النوبختية : ٣٩

نينوى : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

## ك

الكرخ : ٣٨ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ٩٧ ، ١٢٦

٢٣٨ ، ٢٧٤ ، ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٧٨

٤٠٨

كرخ السوس : ٢٧٩

كرخايا = نهر

كسكر « عمر » : ٨١

كلواذى : ٤٣

الكوفة : ٢٧ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٠

٨١ ، ٢٧٤ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٤١٦

## ل

لبنان : ١٨٢

## م

الماطرون : ٤٠

ماد بهراذان « كورة » : ٨٤

المدائن : ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٥٩

المدخن : ٩٤

المدينة : ٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٨٠ ، ٣٢٨

٣٢٩

المذار : ٤٠٢

المزقة « على شاطئ دجلة » : ٨٤

مصر : ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٧٤ ، ٧٥

٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠

١٠١ ، ١٠٣ ، ١٢٨ ، ٢٤٨ ، ٣٩٨

المطبق « سجن » : ١٠

المطيرة : ٥١ ، ٨٤

معان : ٩٣

وادی عین أباغ : ٩٣  
 واسط : ٨١

ی

ایمانه : ٤١٦  
 اینین : ١٨٩

ه

هضبة ایران : ٨٦  
 الهند : ٣١١  
 هیت : ١٠٢ ، ٤٠٤

و

وادی زمار : ٩٠

## فهرس الأعیاد

عيد الصليب : ٦٦  
 عيد الفصح : ٦٦ ، ٧٢ : ٨٣  
 عيد الفطر « شوال » ١٢٢ - ١٢٤  
 عيد الفهر : ٨٢  
 عيد النيروز « من الأعياد الفارسية » : ٤٠١

عيد الأضحى « النحر » : ٣١٧  
 عيد أحد السعف : ٦٥  
 عيد آشورق : ٦٧  
 عيد باعوث : ٧٢ ، ٦٦  
 عيد رام « من الأعياد الفارسية » : ٤٠١ -  
 عيد السعائين أو الشعائين : ٥٨ ، ٧٢ ،  
 ١٤٠

## فهرس اللوحات الملونة

للفنان : حسين بيكار

صفحة

١	.	.	.	.	.	عصبة المجان فى طريقهم إلى الحان
٣٤	.	.	.	.	.	مجلس الغناء والرقص.
٢٦٦	.	.	.	.	.	الساقى.
٤١٨	.	.	.	.	.	هنا يرقد أبو نواس

## فهرس الخرائط

خريطة الشرق العربى القديم

خريطة بغداد مدينة المنصور المدورة



مدينة المنصور والمدونة



## فهرس الموضوعات

ص	ص
٦٨ من منافع الغزل	٣ شخصية الشاعر
٧٢ صورة جديدة لحياة الرهبانية	٤ عصابة الحجان
٧٤ الكنائس الشرقية	٧ طروق الحانات
٧٦ الأديرة المشهورة في أرض الحيرة	١٤ الخمارون والخمارات
٨٢ في سواد بغداد	٢٦ بعض الحانات المشهورة
٨٦ في الجزيرة	٣٠ الحانات الخاصة
٩٣ الأديرة القبطية في مصر	٣٢ صورة مجملة للحانة
٩٧ الإمام بأديرة الشام	٣٣ بين جدران الحان
١٠٣ الأقانيم الثلاثة	٣٥ مطارح الحوانيت
١٠٤ الربيع والخمر	٤١ في الطريق إلى الحج
١٠٧ الكروم والنخيل	٤٣ مجالس الشرب في الأديرة
١١٠ حرب الأزهار	٤٦ طراق الأديرة المسلمون
١١٣ أمطار ربعية	٤٧ الخمر النصرانية
١١٥ موسيقى طبيعية	٤٩ بين النظر والسمع
١١٦ من مظاهر النزعة إلى الحرية	٥٣ فتنة الفتن
١١٧ على مدار الفصول والأيام	٥٤ صورة مجملة للدير
١٢٠ شهر الصيام	٥٦ في دور الضيافة
١٢٤ دوافع إلى الشراب	٥٧ مشارب القلايات
١٣٣ تأثير الخمر ودرجات السكر	٥٨ حانات الأديرة
١٤٨ شاعر الخمریات	٦٤ في الآحاد والأعياد



ص	ص
٢٣٠ دقائق الصناعة	١٦٠ خمريات وخمريات «النواسى والخيام»
٢٣٥ فن صاحب الدنان فى البزل والكيلان	١٦٤ طرفان متضادان «النواسى والمعرى»
٢٣٧ نماذج من الشعر التعليمى	١٦٨ [ ] الحمر بين الصوفية والحسية
٢٤٤ هيئة مجلس الشراب	١٧٠ أوصاف الحمر
٢٤٦ آلة الشراب	١٧٠ ألوان ونيران
٢٥٠ احتفال الشاربين وأدب الشرب	١٧٨ ثورة فى قدح
٢٥٢ المنادمة والنديم	١٨١ روائح الجنان
٢٥٤ منادمة الرؤساء	١٨٣ شهادة اللسان
٢٥٩ منادمة الإخوان	١٨٤ الفضل للمتأخر
٢٦٤ معاقرة العقار مع الشطار	١٨٦ المحجوبة المخطوبة
٢٦٦ الساقى	١٨٨ أجناس الأشربة
٢٧٠ تعشق الغلمان والغزل بالمذكر	١٩٠ الكرمة المكرمة
٢٩٢ الساقية	١٩٣ الحلال والحرام
٢٩٥ عصر الجوارى	٢٠٢ النبيذ والحمر المطبوخة
٢٩٨ دليل الشارى	٢٠٧ صناعة الحمر
٣٠٠ الغلاميات	٢١٠ المعاصر
٣٠٤ الهوس بالشذوذ	٢١٢ الزقاق والحرار
٣٠٧ أم الحباث	٢١٥ تدبير التخمير
٣١٠ الجوارى والروح الإباحية	٢١٧ أدوار الاختمار
٣١٢ التغزل والحب	٢١٩ درجات العتق
٣١٩ لغة العيون	٢٢١ أسماء المعتقة وخصائصها
٣٢٢ فتنة جديدة : الموسيقى والغناء	٢٢٧ ذخيرة الحمار
٣٢٨ الجوارى المغنيات	٢٢٨ جواهر بلاعرض وروح بلاجسد

ص

٣٣٣ بيوت القيان .

٣٤٤ فن الرقص

٣٤٦ الجوارى الأدبيات

٣٥٠ صنع الأصوات في شعر الحمريات

٣٥٤ آلات الطرب وأنواع الملاحى

٣٥٧ المسرحية النواسية

٣٦٧ فى سبيل الخمر

٣٧٢ بين المدافعة والمهاجمة

٣٧٦ الأكفاء وغير الأكفاء

٣٧٧ إبليس والشاعر

٣٨٧ نوبات الندم

ص

٣٩٣ روح الثورة

٤٠٦ الحياة الخمر والخمر الحياة

٤١٤ وصايا السكارى

٤١٩ الخاتمة

٤٢١ ثبت المراجع

٤٢٥ فهرس الأعلام

٤٣٨ فهرس الأمكنة

٤٤٤ فهرس الأعياد

٤٤٥ فهرس اللوحات الفنية

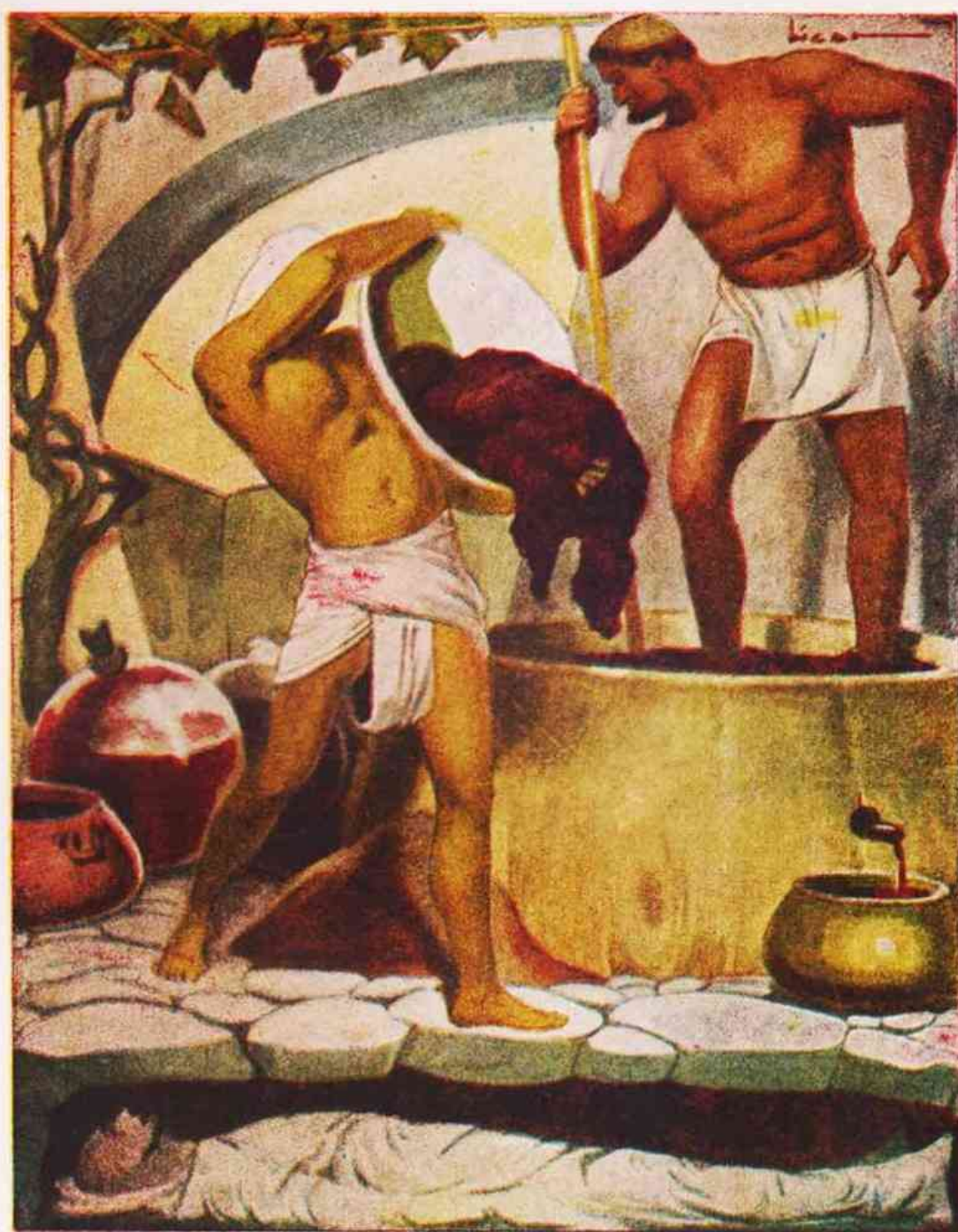
٤٤٥ فهرس الخرائط



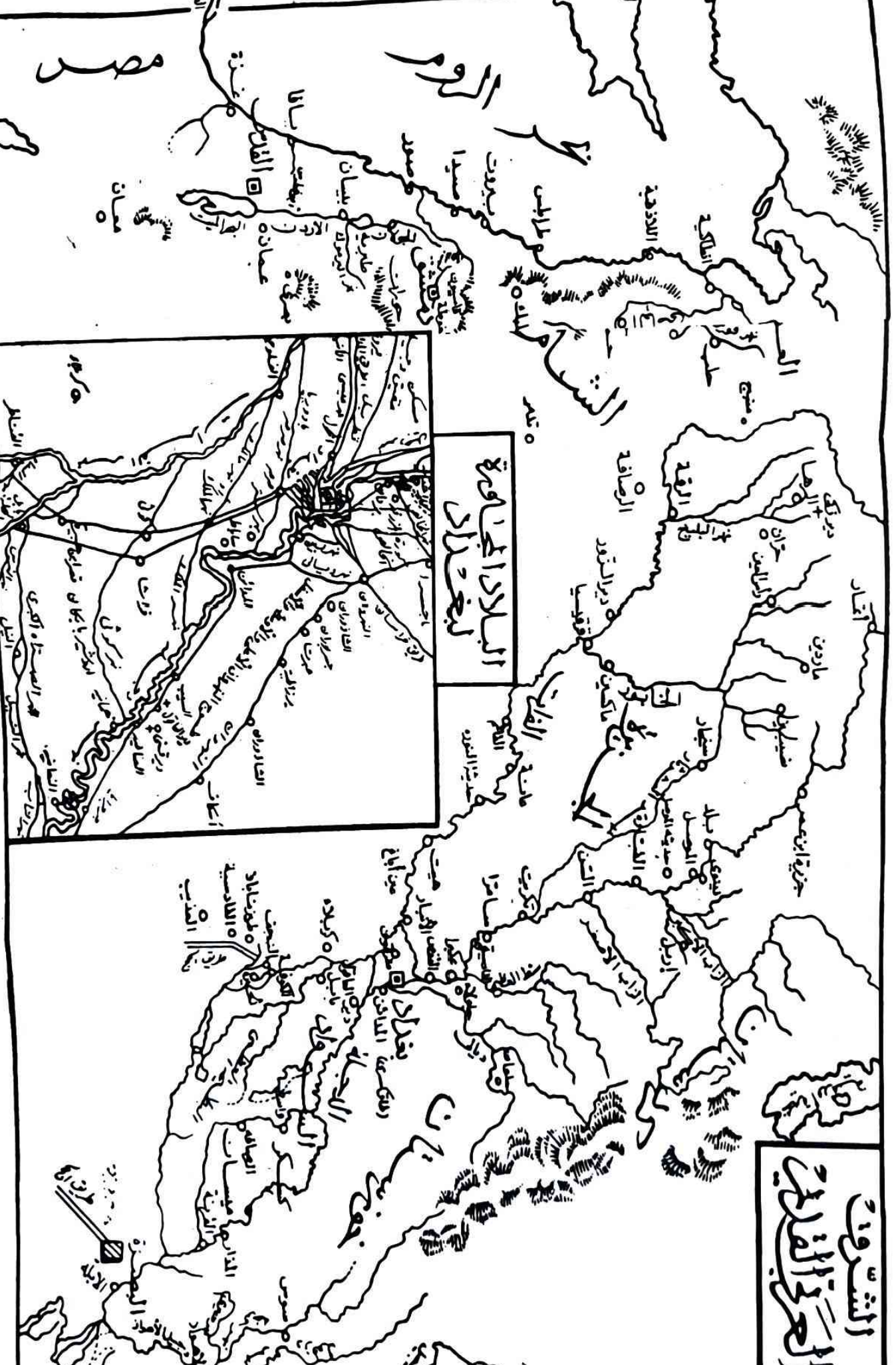








# الشرق العربي القديم





مدينة المنصور والمدونة



عبد الرحمن صدقي

# أحسان إيمان



مطبعة الضيق والنشر

